

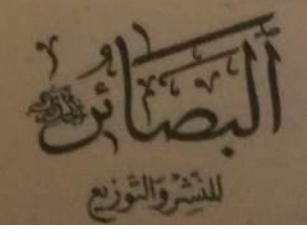
أعمال الأستاذ الدكتور ناصر الدين سعيدوني

دراسات أندلسية

مظاهر التأثير الإيبيري والوجود الأندلسي بالجزائر

الأستاذ الدكتور
ناصر الدين سعيدوني

طبعة ثانية مراجعة ومنقحة



للنشر والتوزيع

الإيداع القانوني: 1610 ـ 2013
الردمك: 988 ـ 9961 ـ 877 ـ 66 ـ 2



للنشر والتوزيع. الجزائر

حي الدوزي 3 رقم 411 باب الزوار ـ الجزائر
هاتف: 20 45 20 021 / 334 860 0554
البريد الإلكتروني: darelbassair@yahoo.fr



هذا الكتاب هدية من وزارة المجاهدين
بمناسبة الذكرى الخمسين لعيد الاستقلال



تقديم

د. معاوية سعيدوني

إنه لشرف عظيم بالنسبة الي أن أقدم للقارئ هذه المجموعة من الكتب القيمة الصادرة عن البصائر الجديدة والتي حرص مؤلفها الأستاذ د. ناصر سعيدوني على نشرها في أحسن صورة، لتكون تتويجا لمسيرة طويلة ومثمرة في البحث والدراسة، ولتكرس مشوارا علميا حافلا، ولتؤكد حضورا فكريا فاعلا، ولترسخ مكانة أكاديمية قوية.

ولقد سمحت له الظروف، خلال السنتين الأخيرتين، بعد توقفه عن مهمة التدريس - وهي مهمة مضنية تستهلك الوقت والجهد ـ بتخصيص جلّ وقته للتأليف والتنقيح والمراجعة؛ لتطل هذه الكتب على القراء في شكل مناسب وأسلوب متقن، وساعدته على ذلك رغبته الجامحة والمتجدّدة في الكتابة والنشر، وقدرته على صياغة الأفكار وصقلها والتي هي نتاج تجربة طويلة في المجال الأكاديمي والثقافي دامت قرابة نصف قرن.

ويؤكد إصدار هذه الكتب ـ التي يُنشر بعضها لأول مرة ويعاد نشر بعضها الآخر مزيدا منقحا ـ الأهمية البالغة التي يوليها الأستاذ الدكتور ناصر الدين سعيدوني للكتابة والتدوين والنشر، فهو من القلّة من المؤرخين والمثقفين والباحثين الجزائريين الذين يكتبون ويصرون على الكتابة، فهو يجد متعة فيها، ويرى أنها المهمة الأولى للمثقف والأستاذ الجامعي، فبدونها يتحول النشاط الأكاديمي إلى تمرين خطابي، وفي بعض الحالات إلى إسهال شفوي لا طائل منه؛ لأنه لا يترك أثرا ولا يخلف شواهد تغني المكتبة العربية عموما والجزائرية

خصوصا. وهي مكتبة تظل فقيرة كمًّا ونوعًا مقارنة بما تنتجه عوالم ثقافية أخرى، حتى إن دولا صغيرة سكانا ومساحة تطرح نخبها إلى الأسواق أضعافا مضاعفة من الكتب مقارنة بما يُنشر في العالم العربي الإسلامي قاطبة. وإن هذه الظاهرة المخيفة المربكة التي نتهاون في قراءة أبعادها، ما هي إلا بعد من أبعاد التخلف الثقافي والحضاري والعلمي الذي نعاني منه أمام الغرب خصوصا والعالم عموما. أوّلاً يعلم أولئك الذين يتغنون بخطب النضال والحقوق المهضومة - والذين يرون أن الكتابة والإنتاج الفكري والعلمي ما هو إلا ترف هم في غنى عنه - أنه في الفترة ما بين 1980 و2000، سُجلت في دولة صغيرة تُسمى إسرائيل 7.652 براءة اختراع مقارنة بـ: 367 براءة اختراع في الدول العربية مجتمعة[*]، إن هذه الأرقام تكفي وحدَها لفهم اختلال ميزان القوى والعجز العربي المزمن عن مواكبة تطورات العصر.

ومما زاد الطين بلّة ترويج وتهليل بعض الدوائر في النخب اليسارية والشعبوية المتحكمة في دواليب الإعلام والإدارة للثقافة الشفوية والفلكلورية، بل وعملها على الحط من قيمة الثقافة المكتوبة الأكاديمية، خاصة العربية منها، بحجة محاربة "النزعة النخبوية"، ورفع شعار ملء البطون قبل العقول، حتى أصبحنا شعوبا لا تكتب ولا تكلف نفسها عناء القراءة المتفحصة ومحاولة الفهم العميق، وترضى بالثقافة السطحية الجاهزة التي تروجها الخطب الجوفاء لدوائر ادعت احتكار الحقيقة وظلت حبيسة الفكر الأحادي منذ ستينات القرن الماضي! وهذا ما يجعل كل من يكتب كتابة هادفة وجادة اليوم وفي الوضع الراهن جديرا بالتقدير والتنويه والتشجيع، لاسيما وهو غالبا ما يواجه التضييق والإلغاء والتجاهل من أبواق الإعلام الرديء، إذا تجرأ على التفكير والنقد والتحليل وعلى الخروج عن القوالب الفكرية الجاهزة؛ إذ يصبح آنذاك مشبوها

(*) Niall Ferguson, Civilization, the West and the Rest, New York, The Penguin Press, 2011, p. 93.

ومتهما بالتشاؤم والانهزامية في أمة مخدرة ترجو فرجا طال انتظاره...

إن الكتب التي يقدمها الأستاذ الدكتور ناصر الدين سعيدوني للقراء، تتميز بالتعدد والتنوُّع في موضوعاتها وآفاقها التاريخية والفكرية، فهي تسمح بتتبع خطى الأستاذ الدكتور في مساره العلمي وتطور اهتماماته والإشكاليات التي طرحها على مر السنين، كما تظهر بوضوح توجهه أكثر فأكثر نحو اكتساب ثقافة موسوعية تتعدى حدود التخصص التاريخي الضيق إلى طرح حضاري شامل. وهذا ما يتبين لنا من تصنيف هذه الكتب حسب الموضوعات التي تتناولها.

فالمجموعة الأولى تتعلق بالتاريخ الاقتصادي والاجتماعي للجزائر في العهد العثماني، وهو المدخل الذي ولج منه الأستاذ الدكتور ناصر الدين سعيدوني إلى عالم البحث التاريخي في فترة السبعينات من القرن الماضي، وهو الأساس الذي شيّد عليه تخصصه الأكاديمي، وهو الموضوع الذي كتب فيه أطروحاته الجامعية. وقد حاول الأستاذ الدكتور تقديم هذه الكتب للقارئ تقديما لا يتوقف عند حدود الاختصاص العلمي الضيق، وإنما بشكل قد يستهوي القارئ المهتم بالتاريخ الجزائري عموما ويجعله يتلمس الشواهد الاقتصادية والاجتماعية لحضور الأمة الجزائرية في التاريخ قبل الاحتلال الفرنسي.

وتضم هذه المجموعة الأولى كتب: "تاريخ الجزائر في العهد العثماني" الذي يركز على الجوانب الاقتصادية والاجتماعية دون إهمال الأبعاد السياسية، و"الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية لولايات المغرب العثمانية" الذي يؤسّس لمقاربة مقارنة بين تاريخ أقطار المغرب العربي في العهد العثماني، و"ريف إقليم مدينة الجزائر (دار السلطان) أواخر العهد العثماني (1791-1830)"، وهو الترجمة العربية لأطروحة جامعية ضخمة كُتبت باللغة الفرنسية للحصول على درجة دكتوراه دولة، و"النظام المالي للجزائر أواخر العهد العثماني (2792 -

1830)"، وهو أطروحة جامعية للحصول على دكتوراه الدور الثالث، ومخطوط "قانون أسواق مدينة الجزائر (1107 – 1117 هـ/ 1695 – 1705 م) لمتولي السوق عبد الله بن محمد الشويهد".

أما المجموعة الثانية من الكتب في هذا التصنيف، فتضم دراسات متخصصة متنوعة، وهي عبارة عن أبحاث علمية دقيقة في موضوعات شتى في التاريخ الجزائري، نشرها المؤلف طيلة مساره الأكاديمي في مجلات علمية، وجمعها في شكل كتب حسب مواضيعها، وهي: "ورقات جزائرية"، وهي دراسات وأبحاث متنوعة وشيقة في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، و"دراسات أندلسية" تتطرق للحضور والتأثير الإيبيري والوجود الأندلسي بالجزائر بما يؤكد وحدة الغرب الإسلامي وتواصل أقطاره قبل ضياع الأندلس وبعده، و"دراسات تاريخية في الملكية والجباية" باعتبارهما مكونين أساسيين في تنظيم المجتمعات وفي تبلور شخصية الأمم، و"الوقف في الجزائر أثناء العهد العثماني (من القرن السابع عشر إلى القرن التاسع عشر)"، وهو مجموعة دراسات أكاديمية وبحوث علمية في موضوع الوقف الذي ازداد اهتمام المؤلف به خلال السنوات الأخيرة باعتباره ظاهرة مجتمعية ودينية لا يمكن فهم طبيعة المجتمع الجزائري خاصة الحضري منه قبل الاحتلال دون الرجوع إليها. وتُلحق بهذا الكتاب "أعمال ندوة الوقف (الجزائر، 2001)" التي أشرف المؤلف على تنظيمها.

وتُظهر عناوين المجموعة الثالثة بوضوح اتساع الأفق التاريخي والمجال البحثي للأستاذ الدكتور ناصر الدين سعيدوني، الذي لم يتقوقع بين جدران التخصص الضيق في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، فهي دراسات ووثائق قيمة في التاريخ الجزائري حرص المؤلف على نشرها، وهي: "عصر الأمير عبد القادر" الذي أسس فيه لمقاربة جديدة لأبعاد شخصية الأمير عبد القادر تتجاوز المقاربة التقليدية القائمة على فكرة الزعيم البطل، إلى تحديد موقع الأمير من

عصره وبيئته، و"القول الأوسط في أخبار بعض من حل بالمغرب الأوسط، للحاج أحمد بن عبد الرحمان الشقراني"، وهو مخطوط يدلنا على أوضاع الغرب الجزائري بالتحديد خلال حقبة مهمة من القرن التاسع عشر، و"الشرق الجزائري (بايليك قسنطينة) أثناء العهد العثماني وبداية الاحتلال الفرنسي من خلال وثائق الأرشيف (مراسلات وتقاييد ومذكرات وتقارير)" الذي يتضمن وثائق تاريخية أولية قيمة تفيد الباحثين في التاريخ الجزائري، و"رحلة العالم الألماني ج. أو. هابنسترايت إلى الجزائر وتونس وطرابلس (2332)" التي تقدم صورة لأوضاع الجزائر من منظور عالم ورحالة بعيد عن البيئة الجزائرية، مما يكسبها طبيعة الوثيقة التاريخية القيمة، وفي نفس الإطار يندرج كتاب "مدينة الجزائر من خلال تقاييد وأوصاف الرحالة والجغرافيين والمؤرخين". ويتضح من هذه العناوين اهتمام المؤلف بالمخطوطات التاريخية وبأدب الرحلات والتقاييد الذي يشكل معينا لا ينضب بالنسبة للمؤرخ الذكي الذي يعرف كيف يستخلص منه المعلومات ويطرح من خلالها الإشكاليات الحقيقية للتاريخ.

وفضلا عن توجهه لتوسيع آفاقه البحثية، نلاحظ أن الأستاذ الدكتور ناصر الدين سعيدوني نحا، خاصة خلال السنوات الأخيرة، منحى فكريا نقديا وأصبح له اهتمام بالقضايا الحضارية التي يغدو التاريخ من دونها جمعا وعرضا عقيما للمعلومات، وهذا ما يتبين من عناوين المجموعة الرابعة من الكتب والتي تضم: "في الهوية والانتماء الحضاري" وهو كتاب يطرح قضايا جوهرية تمس تبلور الشخصية الجزائرية، ويشكل عدم البت فيها والعبث بها قنبلة موقوتة تهدد تماسك المجتمع الجزائري ووجود الدولة الجزائرية مستقبلا، و"الجزائر: منطلقات وآفاق"، وهي مقاربات لواقع الجزائر من خلال قضايا ومفاهيم تاريخية أرادها المؤلف أن تكون مرآة عاكسة ينظر من خلالها المجتمع الجزائري إلى ذاته من دون مزينات ومغالطات، و"في الحراك الثقافي والتفاعل الفكري" الذي يعرض فيه تجربته

وتفاعله مع محيطه الثقافي والفكري وتقديره للرجال والمواقف.

هذا، ولم يحصر المؤلف اهتمامه بالمجال الجزائري والمغاربي، فقد أبدى اهتماما - خصوصًا في الفترة المتأخرة - بتاريخ أقطار المشرق العربي والغرب الأوربي. وهذا ما تؤكدهُ عناوين المجموعة الخامسة في هذا التصنيف، وهي: "دراسات وترجمات في تاريخ المشرق العربي" تتطرق لبعض الإشكاليات الجوهرية في تاريخ المشرق وتؤسس لتاريخ مقارن بين أقطار المشرق والمغرب ولكتابة تاريخ عربي متكامل، و"الاستيطان اليهودي في فلسطين"، وهو ترجمة أطروحة جامعية أنجزت في ثلاثينات القرن الماضي، وتظهر المشروع الصهيوني وأبعاده من منظور المدافعين عنه، و"مسائل في التاريخ الأوربي والمعاصر" التي تسمح للقارئ بفهم الأسس الفكرية التي قامت عليها الهيمنة الأوربية على العالم خلال القرون الأربعة الأخيرة.

ويحاول الأستاذ الدكتور ناصر الدين سعيدوني من خلال هذه الموضوعات التأسيس لمقاربة تاريخية مقارنة تسمح بالنظر إلى التاريخ الجزائري والمغاربي من نافذة أكبر وأفق أوسع من خلال استخلاص الدروس والاستنتاجات من التطور التاريخي لمجالات متاخمة أثرت ولا زالت تؤثر في سيرورة التاريخ الجزائري والمغاربي.

هذا وإلى جانب اهتماماته الفكرية والحضارية التي أغنت مقاربته التاريخية المتخصصة، لم يُغفل المؤلف وهو الأكاديمي والأستاذ الجامعي المتمرس، الجانب المنهجي والمعرفي في مؤلفاته، فالمجموعة السادسة في هذا التصنيف تضم عصارة جهوده في فهم ماهية التاريخ وكيفية التعامل مع النصوص التاريخية وتحليلها ومناهج الكتابة التاريخية المتبعة. وهذا ما تؤكده عناوين الكتب المنشورة في هذا المجال، وهي: "أساسيات منهجية التاريخ" وهو كتاب يفيد الطالب المبتدئ والباحث المتمكن على حد سواء؛ لما فيه من دقة وتفصيل لأبعاد منهجية البحث

التاريخي، و"في الشأن الخلدوني" وهو كتاب خصّ به المؤلف المؤرخ المغاربي الكبير وضمّنه تحليلا منهجيا لمقاربته التاريخية، وحاول المقارنة بينه وبين بعض كبار مؤرخي عصر النهضة في الغرب الأوربي.

ولا تقل أهمية عن كتب المؤلف في المنهجية التاريخية، مدوناته التراثية الموسوعية، علما منه يقينا أن الكتابة التاريخية تنطلق من المعرفة التاريخية التي تختزنها كتب التراث فكان له في هذا المجال: "من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي (تراجم مؤرخين و رحالة و جغرافيين)" الذي يُعرف القارئ بالشخصيات التي نسجت خيوط التاريخ المغاربي بكتاباتها وتقاييدها.

كما تُضاف إلى مجموعات الكتب المنشورة هذه ثلاثة عناوين باللغة الفرنسية، وهي منشورة بالعربية أيضا:

1. L'Algérois rural à la fin de l'époque ottomane (1791-1830).
2. Propriété et fiscalité en Algérie à l'époque ottomane (17-19ème siècles).
3. Le waqf en Algérie à l'époque ottomane (17-19ème siècles). Recueil de recherches sur le waqf .

إن أعمال الأستاذ الدكتور ناصر الدين سعيدوني التي تنشرها مشكورة البصائر الجديدة، تمثل في نظرنا مكتبة تاريخية حقيقية في حد ذاتها، وإن كانت من إنتاج فرد واحد، أنجزها صاحبها بفضل اجتهاده وإيمانه برسالة المؤرخ وحرصه على ترك الأثر الصالح من بعده ومثابرته على النشر رغم العوائق والمثبطات والمحبطات، وجاءت لتثري المكتبة الجزائرية والعربية الواسعة وتنير الدرب لمن أراد أن يتبع هذه الخطى ويساهم في تغيير واقعنا الثقافي.

فالشكر مجددا للبصائر الجديدة على إنجازها هذا، وهنيئا للأستاذ الدكتور ناصر الدين سعيدوني بهذا الفتح الكبير.

تقديم

لا يمكن لأي دارس لتاريخ الإسلام، ولا لأي باحث في التراث المغربي، ولا لأي مهتم بعطاء الجزائر الحضاري وصلاتها مع محيطها العربي والإسلامي وبيئتها المتوسطية أن يقلل من أهمية الصلات البشرية للجزائر مع شبه الجزيرة الإيبيرية (إسبانيا والبرتغال)، كما لا يمكن له أن يتجاوز التفاعل التاريخي للجزائر مع تلك البلاد على تعاقب العصور ومر الدهور وفي مختلف أوجه الحياة وجوانب النشاط الإنساني.

لقد كانت علاقات بلاد المغرب العربي وفي مقدمتها الجزائر بشبه الجزيرة الإيبيرية مسرح تفاعلات ومحور اتصالات بلغت من التواصل والعمق حدا جعلها تتحكم إلى حد كبير في مقدرات ومصائر منطقة الحوض الغربي للمتوسط. وفي هذا المجال يحلو للقارئ الذكي أن يقارن هذه الصلات بواقع العلاقة القائمة بين شبه جزيرة الأناضول (تركيا حاليا) وأقطار المشرق العربي لوجود أوجه تماثل وتشابه مثيرة للانتباه، فكما كان لشبه الجزيرة الإيبيرية تأثير حاسم على مصير بلاد المغرب العربي، فإن شبه جزيرة الأناضول كان لها تأثيرها البالغ في التطور التاريخي لمنطقة الشرق الأدنى، فكلاهما - أي شبه الجزيرة الإيبيرية وشبه جزيرة الأناضول - كان مصدر تحكم في المنطقتين في الفترات السابقة للإسلام، في ظل الحكم الروماني الكاثوليكي والبيزنطي الأرثوذكسي، كما أن كليهما كان مجال توسع إسلامي قبل أن يتحول إلى جبهة تراجع وضغط متزايد على دواخل البلاد الإسلامية، ففي الوقت الذي ألحقت فيه شبه الجزيرة الإيبيرية التي عرفها العرب المسلمون باسم الأندلس بعالم الإسلام، ظلت شبه جزيرة الأناضول مركز مقاومة المد الإسلامي نحو أوربا الشرقية بزعامة بيزنطة، وفي الوقت الذي فقد فيه المسلمون آخر معاقلهم بالأندلس بسقوط غرناطة (1492 م)

أدى التوسع العثماني في الأناضول وأجزاء من البلقان إلى التضييق على بيزنطة (القسطنطينية) وفتحها (1453 م)، وفي الوقت الذي تولت فيه إسبانيا التي توحدت على أنقاض أملاك العرب زعامة المسيحية بالمتوسط الغربي وأوربا وتمكنت من نشر لوائها في العالم الجديد وعلى سواحل إفريقيا وآسيا حتى جزر الفليبين بقيادة شرلكان وابنه فيليب الثاني، في الوقت الذي أصبحت فيه الدولة العثمانية حاملة راية الدفاع عن الإسلام، فتصدت للتوسع الإسباني والبرتغالي بزعامة سليم الأول وابنه سليمان القانوني، وحققت انتصارات مدوية أكسبها شرعية في نظر المسلمين... وفي الوقت الذي أصبحت فيه المجر جبهة برية لجهود شرلكان في مواجهة المد العثماني بوسط أوربا، كانت فيه الجزائر واجهة بحرية عثمانية متقدمة لاحتواء سياسة الاسترجاع المسيحي لبلاد المغرب "الريكونكيستا".

وإذا تجاوزنا هذه المقارنة إلى مجال الذكريات التاريخية، فإن الأندلس كانت ولا تزال في نعن كل عربي وفي إحساس كل مسلم حلما لذيذا انقضى، وعهدا زاهرا مضى، وتجربة ثرية لم نستفق منها الدروس ولم نأخذ منها العبر، بل تحولت بفعل واقعنا المأساوي اليوم إلى عقدة ذنب وشاهد عيان على تفريط الأسلاف وضياع الأحفاد... فهي الحزن على فقد شيء لا يعوض، وهي المعاناة من ثقل تراث لم نعد نقوى على حمله، بل لم نعد حتى قادرين على تحمل مسؤولياته الأدبية وتبعاته الأخلاقية.

لقد هيأت الطبيعة الأندلس لأن تكون حلقة وصل وميدان تفاعل بين عطاء الشرق وإسهام الغرب، فكانت بذلك المحور المعدل لكفتي ميزان القوى الروحية والمادية بين عالمي الإسلام والمسيحية، قبل اختلال ميزان القوى لصالح أوربا نتيجة حدوث الثورة الصناعية في أقطار أوربا الغربية. وبذلك تكرست القطيعة ولم يعد من الممكن أن تظل الأندلس حلقة تواصل.

لقد انقطع حبل التواصل بين عالمي الشرق والغرب بسقوط الأندلس بعد أن كانت لعدة قرون منفذا انتقل عبره الفكر العربي من حواضر الشرق حيث حاصره الفقهاء واستبد به الحكام، إلى مراكز الغرب حيث رحبت به الجامعات وشجعته النخب المتفتحة في المجتمع.

إن هذا الانتقال كان بمثابة مؤشر على انقلاب جذري في ميزان العلاقات الدولية بين الشرق والغرب، فاندفع الغرب مقتحما عالم الغد بعد أن استجمع قوته ونفض الغبار عنه، وانكمش الشرق وتراجع بعد أن استهلك طاقاته وأصبح النعاس يستبد بذاكرته ويشل إرادته، ولم يطل الأمر حتى تنقطع العلاقة بين المغاربة والأسبان، باجتياح جيوش قشتالة والأراغون لما بقي في يد المسلمين من بلاد الأندلس، ومن يومها يخطوا الأوربيون إلى الأمام خطوات عملاقة في مجال الرقي والتقدم، ويتراجع المسلمون إلى الوراء مسافات بعيدة في عالم الفوضى والتقهقر... ويظل سقوط الأندلس رمزا لانتصار أوربا وقوتها ومؤشرا لانهزام المسلمين وضعفهم.

كل هذه الخواطر ملأت علي نفسي واستبدت بتفكيري وشغلت حيزا من اهتمامي، وأنا أجمع وأراجع العديد من المقالات والبحوث التي تناولت فيها بالدراسة قضايا تتصل بالأندلس وتتعلق بما يربط بلاد المغرب الأوسط (الجزائر) بشبه الجزيرة الإيبيرية، فكانت تلك التصورات العاطفية والخواطر التاريخية خير مشجع لي على جمع مادة هذا الكتاب وإكمال بعض الجوانب التي ظلت ناقصة منه؛ ولعلي أكون راضيا عن نفسي لو وجد القراء في هذه الأندلسيات الجزائرية ما يجدد حلقة الوصل مع الفردوس المفقود وما يعتبر عربون وفاء لتراث الأجداد بربوع الأندلس، فيكون بذلك هذا الإسهام المتواضع حبة تضاف إلى عقد ما فتئت حباته تتكاثر في السنوات الأخيرة مع تطور الدراسات الأندلسية والبحوث الموريسكية في جميع الأقطار العربية الإسلامية، وقد كان لمؤسسة التميمي في هذا المجال إسهام مميز ويد فضلى يتوجب ذكرها والإشادة بها في هذا التقديم.

إن الجزائر باعتبارها أرض الواسطة وحيز المغرب الأوسط، كان لها عبر العصور التاريخية من الصلات مع الأندلس ما يؤسس حاليا لعلاقة متميزة مع إسبانيا المعاصرة، فقد ساهمت الجزائر في مجتمع الأندلس ورفدته مع غيرها من أقطار المغرب والمشرق بالعنصر البشري وتفاعلت معه عطاء وإسهاما، كما نكبت بنهايته وتأثرت بفقده، فحق لها أن تكون لها "أندلسياتها" الخاصة المعبرة على متانة تلك الصلات وعمق ذلك الإحساس.

إن حضور طيف الأندلس ظل ماثلا في الذاكرة الجزائرية، خلده المقري في نفح الطيب، وعبرت عنه الأغاني الشعبية بنغماتها الحزينة، وكرسته الشروط الجغرافية، فجبال الجزائر الشمالية المتاخمة للسواحل الوهرانية تكاد تعانق سلاسل جبال الأندلس، والعديد من سكان المدن الساحلية الجزائرية لا يزال يتذكر روايات الأجداد عن الوطن المفقود، كما هو الحال بتنس وشرشال والقليعة والبليدة، بل إن بعض العائلات ذات الأصول الأندلسية ظلت إلى عهد قريب تحتفظ بكل اعتزاز وفخر بمفاتيح البيوت التي ورثتها عن الأسلاف الذين غادروا حواضر وقرى الأندلس على أمل الرجوع إليها. وهذا ما جعل الشيوخ منهم يهزهم الحنين كلما توجهت أنظارهم نحو البحر وفكروا فيما يربطهم بالشاطئ الآخر. فلا تصدر منهم ـ كلما انتهى إلى آذانهم صدى تراجع الأمواج ـ سوى أنات تحز في نفوسهم وزفرات تحبس أنفاسهم. وهذا شيء قد يستغربه الأشقاء العرب، لبعد المسافة وانقطاع الصلات واختلاف الظروف التاريخية، فظل الإسهام الحضاري الأندلسي لدى المشارقة عموما جزءاً من التراث المختزن في الذاكرة، فلا يهتم به سوى دارسو الأدب والتاريخ الأندلسي، ولا يعبر عنه سوى الكتاب أو الشعراء عندما تسمح لهم الظروف بالانتقال إلى مرابع الأندلس والوقوف على آثارها، كما فعل شوقي سابقا ونزار قباني بعده...

إن هذه الدراسات المتعلقة بالأندلس، والتي أقدمها للقارئ باسم "أندلسيات جزائرية" كتبت في مناسبات متعددة وفي أوقات مختلفة، كانت أولاها عرض لأوضاع الجالية الأندلسية بالجزائر أنجزته في أوائل الثمانينيات من القرن العشرين، وقد شجعتني على إعداده للنشر المستعربة والكاتبة الصحفية الإسبانية الدكتورة مانويلا مارتن، وكان لها الفضل في نشره في مجلة أوراق الصادرة بمدريد، فلفت انتباهها فيما كتبته في هذا البحث عمق ارتباطي العاطفي بماضي الأندلس، فحاولت مشكورة أن تحد من اندفاعي بعبارات لطيفة جعلتني في إحساسي بالموروث الأندلسي في موقف العاشق الذي يستحسن معه التلطف في العتاب عن وصل لم يعد ممكنا تحقيقه وعالم لم يعد يعيشه...

بعد هذا المقال جرت الريح بما تشتهي السفن، فسمحت لي الظروف بمواصلة المشوار، فتوالت الدراسات التي قمت بها فيما يخص الأندلس، فقدمت عملا عن أوقاف الأندلسيين بالجزائر من خلال وثائق الأرشيف الجزائري في الندوة الثانية للجنة العلمية

للدراسات الموريسكية بتونس (19 ـ 24 ديسمبر 1983م)، وحضرت بحثا عن الأندلسيين (الموريسكيين) بمقاطعة الجزائر في القرنين السادس عشر والسابع عشر في المؤتمر الدولي حول الذكرى الثلاثمائة والثمانين لطرد المسلمين من الثغر الأعلى (الأندلس) بسان كارل دو لارابيطا، طرطوشة، إسبانيا (5 ـ 9 ديسمبر 1990م). وعملت على إعداد بحث عن مساهمة الأندلسيين في مجتمع مدينة الجزائر بعنوان "صور من الهجرة الأندلسية إلى الجزائر" في ندوة تاريخ العرب في إسبانيا التي رعتها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بتونس (أكتوبر 1991م)، ثم أتبعته ببحث آخر حول "مدرسة بجاية الأندلسية"، شاركت به في ندوة الأندلس قرون من التقلبات والعطاءات التي نظمتها مكتبة الملك عبد العزيز العامة بالرياض (30 أكتوبر ـ 3 نوفمبر 1993م).

وأثناء ذلك واظبت على إنجاز عدة بحوث حول أحداث تاريخية لها صلة بالأندلس، منها ما يتعلق بالتحرش الإسباني على الجزائر (ق. 16 ـ 18 م) وما أسفر عنه من صدام وعلاقات دبلوماسية، كما هو الشأن في مقالات "حصن المرسى الكبير" و"الهجوم الإسباني على الجزائر (1775 م)" والمعاهدتين الإسبانية ـ الجزائرية (1791م) والبرتغالية ـ الجزائرية (1813م)، ومنها ما يتعلق بواقع التراث الأندلسي في ثقافتنا ومكانته في الذاكرة التاريخية الجزائرية، فقد حاولت التعرض له من خلال طرح إشكالية الوطن لدى المقري في مدونة "نفح الطيب" وحضور الأندلس لدى المتجول في ربوع إسبانيا، فكان مقال "من وحي الأندلس" محاولة لاسترجاع الماضي، امتزج فيها الإحساس الأدبي بثقل الذكريات التاريخية، وسمحت فيه لنفسي أن أخرج عن إطار البحث التاريخي ومستلزمات المؤرخ إلى تصور الأديب المتأثر، وتطلع "الزائر المستقرئ للأحداث، ونظرة الرحالة المستحضر للذكريات.

هذا وحرصا على إفادة القارئ وربطه بالتراث العربي الإسلامي بالأندلس واطلاعه على ما يصدر في الجزائر أو يساهم به جزائريون، فقد أدرجنا في آخر هذا الكتاب بيبليوغرافيا أولية بالدراسات الأندلسية ـ الموريسكية ـ الإيبيرية المتعلقة بالجزائر، بالإضافة إلى جدول تاريخي بأهم الأحداث المتعلقة بالوجود العربي الإسلامي بشبه الجزيرة الإيبيرية.

إن هذه "الأندلسيات الجزائرية"، التي نسعد بتقديمها للقارئ، لهي تعبير صادق عن ارتباطنا بالتراث، وموقف ملتزم من الماضي، ولعل هذا ما جعل مادة هذه الدراسات الأندلسية، بقدر ما تلتزم بمواصفات البحث التاريخي، فهي تحاول إخراج الحقيقة التاريخية من طي نسيان الماضي والتعامل معها من واقع الحياة ومتطلبات العصر، فتكون رباط تواصل حضاري مع إرث الأجداد، يجدد فينا روح الأندلس وعطائها. فعسى أن يجد القارئ الكريم في هذا الكتاب ما يغذي النفس ويوقظ الذاكرة ويدفع إلى قراءة التراث الأندلسي قراءة مستوحاة من واقع ثقافتنا وتطلعاتنا للمستقبل.

أ.د. ناصر الدين سعيدوني

الجالية الأندلسية بالجزائر

"مساهمتها العمرانية ونشاطها الاقتصادي ووضعها الاجتماعي"(*)

ظلت الدراسات التاريخية المتعلقة بالهجرة الأندلسية والآثار المترتبة عنها تكاد تقتصر على تونس والمغرب الأقصى، في حين لم تحظ الجزائر بأية دراسة جادة أو بحث أصيل يبرز مدى مساهمة الجالية الأندلسية في مختلف أوجه الحياة سواء منها الاقتصادية أو الاجتماعية أو الثقافية وحتى السياسية رغم أن الظروف التاريخية التي عرفتها الجزائر ابتداءً من أواخر القرن الخامس عشر شجعت أعداداً ضخمة من مهاجري الأندلس إلى التوجه إليها، في حين لم تساعد أوضاع تونس أواخر العهد الحفصي وما صاحبها من تدخلات إسبانية ما بين سنتي 1534 و1574 على استقطاب جمهور المهاجرين إلا بعد استقرار الحكم التركي بها في عهد الداي عثمان، كما أن المغرب الأقصى رغم علاقاته التاريخية وصلاته البشرية وقربه الجغرافي من الأندلس فإنه لم يعرف هجرة جماعية تماثل ما حدث بالجزائر نظراً لطبيعة السياسة السعدية وموقف بعض السلاطين السعديين المتميز بمعاداة الوجود العثماني في غرب المتوسط واعتبار الإسبان في بعض الأحيان عامل توازن في منافستهم للأتراك ومحاولتهم احتواء قراصنة سلا.

كل هذا شجعني على تناول أوضاع الهجرة الأندلسية وآثارها العمرانية والاقتصادية والاجتماعية على البلاد الجزائرية، مرجئاً التعرف على الأوقاف الأندلسية بالجزائر وما يتصل بها من نشاط اجتماعي وثقافي إلى مقال آخر.

(*) دراسة نشرت بمجلة أوراق، مدريد، عدد 4 / 1981، ص 111 - 134. وفي كتاب دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر (العهد العثماني)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1984 ص ص 127 - 147.

أ. الهجرة الأندلسية إلى الجزائر:

علاقة الأندلس بالجزائر علاقة قديمة توثقت أواصرها منذ محاولة الخلافة الأموية بقرطبة استمالة العشائر الزيانية بالمغرب الأوسط للوقوف في وجه المخططات الفاطمية، ثم أصبحت هذه العلاقة أكثر تلازماً بعد أن تمكن المرابطون ثم الموحدون من ضم أقاليم الأندلس الإسلامية إلى ممتلكاتهم بأقطار المغرب العربي ومنها الجزائر، ومما زاد هذه الصلات عمقاً وترابطاً استقرار كثير من الأندلسيين على طول السواحل الجزائرية ابتداء من منتصف القرن الثالث الهجري، وهذا ما ساعد على تجديد عمران كثير من المدن الساحلية مثل وهران التي أسسها محمد بن أبي عون ومحمد بن عبدون الأندلسيين بمساعدة العشائر المحلية القريبة منها كنفزة وصفن من أزداجة[1]، وتنس التي شيدها جماعة من الأندلسيين اشتهر منهم الكركرني وأبو عائشة والصقر وصهيب عام 262هـ (775 ـ 876م) وأصبحت بعد ذلك موطناً للأندلسيين من أهالي البيرة وتدمير[2]. ومن المدن الأخرى التي نهضت من خرائبها واستعادت نشاطها على يد الأندلسيين مرسى الدجاج[3] وبني جنلبداس القريبة من تنس[4]، كما يرجع الفضل للأندلسيين في إعمار مدينة المسيلة التي تقع داخل البلاد في أوائل القرن الرابع الهجري[5]، وأرزيو على الساحل التي احتفظت هي الأخرى بعمرانها بفضل التجار الأندلسيين الذين كانوا يتولون تصدير ملح سباخها إلى إقليم الأندلس[6].

وتأتي في طليعة المدن الجزائرية تأثراً بالأندلسيين مدينتا بجاية وتلمسان، فبجاية بعد أن اتخذها ملوك الحماديين عاصمة لهم، أصبحت محط رحال الأندلسيين الذين أصبحوا يشكلون نسبة كبيرة من سكانها، ثم بعد أن ألحقت بالدولة الحفصية واعتبرت عاصمة إقليمية وبابا لأفريقية الحفصية على الأندلس[7] قصدها مسلمو الأندلس عندما تزايد ضغط النصارى عليهم، وكان في طليعتهم جمع غفير من الفقهاء ورجال العلم الذين استقبلهم الحكام الحفصيون بكل حفاوة وإكرام، حتى إن الأمير فارس بن عبد العزيز الحفصي حرص على تخصيص المؤونة اللازمة لهم والمدد الكافي تشجيعاً لهم على الوقوف في وجه النصارى[8]. وهذا ما يؤكد لنا أن النهضة العلمية والازدهار:

الاقتصادي التي عاشته بجاية الحمادية والحفصية لم يكن حصيلاً لولا تقدم عدد معتبر من العلماء والتجار والصناع الأندلسيين.

أما تلمسان فإنها أصبحت هي الأخرى مقصد المهاجرين الأندلسيين إثر انقسام دولة الموحدين وتكالب دولة بني الأحمر بغرناطة، وانتهاج الملوك الزيانيين سياسة حسن الجوار إزاء حكام الأندلس ليتصدوا للأطماع الحقيقية والغارات المرينية، ولهذا شجع السلطان النصري أبا عبد الله محمد الخامس ملك غرناطة على إرسال وفد إلى تلمسان سنة 763هـ ـ 1361م يطلب العون والمدد من السلطان الزياني أبي حمو موسى الثاني، وكان على رأس هذا الوفد الكاتب إبراهيم بن الحاج النميري الذي نجح في مهمته، وتحصل من السلطان الزياني على خمسين ألف قدح من الزرع وثلاثة آلاف قطعة من الذهب لكراء السفن وشحنها إلى الأندلس[9]، وقد أشار إلى ذلك لسان الدين بن الخطيب بقوله:

وقالوا الجزيرة قد صوحت

فقلت غمام الندى تستقر

إذا وكف موسى بها

غماماً يعود الجناب الخضر

وفي نطاق هذه الصلات الودية فضل السلطان النصري أبو عبد الله الزغل وحاشيته اختيار تلمسان مقراً لدار هجرتهم عام 797هـ ـ 1491م عندما أوشكت غرناطة على السقوط في أيدي الإسبان وقد بقي نسل هذا الملك يعرف لدى عامة التلمسانيين بني سلطان الأندلس[10].

وأعقب هذه العلاقات والهجرات المحدودة، بداية النزوح الأندلسي الجماعي إلى أقطار المغرب العربي وعلى رأسها الجزائر، إثر سقوط حواضر الأندلس الكبرى في أيدي النصارى الواحدة تلو الأخرى، وكان أكثرها وقعاً وأشدها أثراً سقوط مدينة إشبيلية في يد الإسبان عام 722هـ ـ 1371م[11] الذي كان بداية للهجرة الجماعية التي أصبح لا مناص منها بعد فشل ثورة جبال البشارات: (Las Alpujarras) (1499 ـ 1502) وتخيير المشاركين فيها من أهالي غرناطة ونواحيها بين التنصير والنفي[12]،

وتفضيل الغالبية منهم الهجرة إلى أقاليم المغرب العربي ومنها الجزائر.

هذا وقد بلغت الهجرة الجماعية لمسلمي أسبانيا أوجها مع قرارات الطرد الجماعية التي أصدرها الملك الإسباني فيليب الثالث عام (1016هـ ـ 1609م)، قصد تصفية الوجود الإسلامي بإسبانيا، وقبل صدور هذه القرارات المجحفة، تركزت جهود البحارة الأتراك وعلى رأسهم الأخوان بربروسة خير الدين وعروج على تسهيل هجرة الأندلسيين والإسراع بنقل المضطهدين منهم إلى السواحل الجزائرية، بحيث تمكنوا في الفترة الممتدة بين سنتي 1528 و1584م من شن ثلاثة وثلاثين غارة بحرية ناجحة على السواحل الإسبانية أنقلوا أثناءها كثيراً من الأندلسيين، وقد أشار كاتب "غزوات عروج وخير الدين" إلى بعض العمليات البحرية التي كان يقوم بها الأخوان بربروسة لإنقاذ الأندلسيين، منها أن سفن خير الدين بعد أن تمكنت من الاستيلاء على مستغانم من يد الزيانيين توجهت إلى سواحل الأندلس، واستطاعت أن تنقل عدداً كبيراً من مسلمي الأندلس إلى الجزائر، كما نقتبس من كتاب الغزوات أيضاً رواية أخرى تتعلق بالمساعدة في إنقاذ ثوار جبال البشارات (1502) وردت بهذا النص أنه جهز لهم (خير الدين) ستة وثلاثين جفناً فنزل أهل الجبل من الأندلس (أي الثائرون المحاصرون بالساحل) فرفعوا نساءهم وأبناءهم وما قدروا عليه من أموالهم وأثاثهم، فأتوا بها إلى الأجفان وسقوها بذلك وركب عدد كبير منهم ورجعوا بالأندلس خوفاً عليهم من غائلة النصارى، فلما وصلت الأجفان إلى الجزائر وخلفوا ما حملوه من الأندلس بها ورجعوا إلى ذلك الجبل لحمل بقية المسلمين فتكرر ذلك منهم سبع مرات، وكان جملة ما حملوه من أهل الأندلس على ما قيل سبعين ألفاً، وبقيت عادة أجفان الجزائر أنهم في كل سفرة يسافرونها برسم الغنيمة يأتون إلى سواحل الأندلس برسم نقل جماعة المسلمين بها»[13].

وفي نطاق هذه الجهود التي كان يقوم بها البحارة الجزائريون من أتراك وأهالي من أجل انقاذ إخوانهم الأندلسيين ونقلهم إلى الجزائر، نشير إلى أنه في سنة 1569 أرسل خير الدين مجموعة من السفن بقيادة صالح رايس لنجدة مسلمي بلنسية المضطهدين، فأسفرت هذه العملية الحربية الجريئة عن نقل 5600 مسلم أندلسي كانوا ينتظرون النجدة من سفن الرياس الأتراك عند مصب نهر أفيلا: (Ovila)، وقد تمكنت تلك السفن من العودة بهم إلى الجزائر رغم اعتراض البحرية الإسبانية لهم واشتباكها معهم في معركة

بحرية ضارية بمياه الجزائر الشرقية "الباليار»[14].

كل هذه الأعمال التي اشتهر بها البحارة الجزائريون وعلى رأسهم خير الدين بربروسة دفعت بقايا المسلمين بغرناطة إلى الاستنجاد بالدولة العثمانية في رسالة بعثوها إلى السلطان سليمان القانوني عام 948هـ ـ 1541م أثنوا فيها على جهود خير الدين وأشادوا بمآثره بهذه العبارات: "فقد كان بجوارنا ... المجاهد في سبيل الله خير الدين وناصر الدين وسيف الله على الكافرين علم بأحوالنا ... فاستغثنا به فأغاثنا وكان سبباً في خلاص كثير من المسلمين من أيدي الكفرة المتمردين ونقلهم إلى أرض الإسلام وتحت أيالة طاعة مولانا السلطان ولعمارة مدينة برشك وشرشال ونواحي تلمسان»[15].

وبعد استقرار الحكم التركي بالجزائر وتزايد نشاط القراصنة في مياه المتوسط واتخاذ الصراع العثماني الإسباني أبعاداً عالمية، استمر تيار الهجرة الأندلسية قوياً نحو الجزائر التي استقبلت عام 1567 عدداً ضخماً من المهاجرين، وهذا ما دفع حكام الجزائر وعلى رأسهم الباي لارباي علج علي (1568 ـ 1571) إلى التفكير في إمكانية تقديم المدد لمجاهدي الأندلس، ولقد اجتمع لهذا الغرض جمع من أهالي الجزائر في أحد المساجد وتمكنوا من اختيار المتطوعين للاشتراك في ثورة جبال البشارات التي اندلعت عام 1969 وتمكن المتطوعون من النزول بشواطئ شرق الأندلس بنواحي المرية ومربلة ما بين سنتي 1568 ـ 1969، وقد بلغ عدد المتطوعين من الأتراك والأهالي عدة مئات مزودين بكميات من الذخائر منها 400 بندقية وإن ذهبت بعض الروايات إلى حد القول بأن عددهم ناهز 4000 رجل، لكن القوات الإسبانية المتفوقة في العدة والعدد أجبرتهم على عقد الصلح مع الملك دون خوان: (Don Juan) في 20 ماي 1570، وبذلك سمح للثائرين الذين كان عددهم عند استلامهم يناهز 30 ألف بقيادة الباكي أن يغادروا الأندلس، ووضعت تحت تصرفهم السفن التركية لحملهم إلى الجزائر في 15 جوان 1570، وفي نفس السنة أيضاً نزح الأندلسيُّون إلى الجزائر بدون انقطاع، بفضل نشاط البحارة الجزائريين أمثال حسن فينتريانو الذي تمكن سنة 1584 من نقل أكثر من ألفي أندلسي من نواحي آليكانت كانوا ينتظرون نجدته، وفي السنة التالية (1585) استطاعت سفن أخرى نقل سكان مدينة كالونيا، كما تميزت سنة 1591 بوصول أعداد

كثيرة من الأندلسيين إلى الجزائر ، وبعدها بسنوات تمكن مراد رايس من نقل كثير من الأندلسيين إلى الجزائر إثر غارة شنها على لورقة غرب قرطاجة[16].

وما أن حل عام 1609 حتى أصبح عدد الأندلسيين بمدينة الجزائر وحدها يناهز 25 ألفاً ، وأضحت الهجرة الأندلسية ظاهرة عامة تأثرت بها أغلب الجهات الساحلية ، وذلك بسبب قرارات الطرد الجماعية التي أصدرها الملك فيليب الثالث فيما بين سنتي 1609 و1414 ، وكان في طليعتها قرار نفي مسلمي قشتالة الصادر في 15 سبتمبر 1609 والذي أرغم 14 ألفاً من الأندلسيين على الهجرة ، وكذلك مرسوم نفي مسلمي نواحي بلنسية في 22 سبتمبر من العام نفسه والذي أدى إلى طرد 28 ألفاً من ميناء دانية و15 ألفاً من ميناء بلنسية نقل الأولون على نفقة الحكومة الإسبانية نحو وهران ، بينما اضطر الآخرون إلى الاعتماد على أنفسهم في استئجار السفن التي حملتهم إلى السواحل الجزائرية ، كما تسببت ثورة جبال سيرا : (Siarra) التي قام بها بقايا المسلمين في نزوح جماعات أخرى من الأندلسيين إلى الجزائر ، وقد تفاوض معهم في هذا الشأن نائب الملك سيمون زابانا : (Simòn Zapata) وبعث أخاه رهينة إلى الجزائر ليكون محل ثقة لدى الثائرين ، وبالفعل نزل حوالي خمسة عشر ثائراً من معاقلهم في 23 فيفري 1612 وانضموا إلى جماعات أخرى ونقل الجميع من مرسى بلنسية إلى ميناء الجزائر[17].

أما المهاجرون الذين لم يتمكنوا من الإبحار رأساً إلى السواحل الجزائرية من مسلمي استرامادور والأرغون والمانشا : (La mancha, Estramadure, Aragon) ، فإنهم اضطروا إلى مغادرة مواطنهم نحو فرنسا حيث انتقلت غالبيتهم من مرسيليا إلى ليفورن ومنها إلى الجزائر ، وهذا بعد مضايقات وعراقيل تعرضوا لها بفرنسا بسبب حادث اغتيال الملك الفرنسي هنري الرابع وموقف أسبانيا من قضايا البلاط الفرنسي ، وقد انضم إلى المهاجرين عن طريق فرنسا وإيطاليا كثير من أندلسي النواحي الجنوبية من أسبانيا الذين حرصوا على اصطحاب أبنائهم الصغار معهم إلى الجزائر ، نظراً لأن القانون الإسباني كان يحظر عليهم أخذ أبنائهم معهم إلى البلاد الإسلامية رأساً عن طريق البحر[18] ، والجدير بالذكر أن الهجرة الجماعية التي حدثت عام 1609 كان لها صدى واسع في أقطار المغرب ومنها الجزائر ، وقد علق عليها الكتاب ، وأشار إليها المؤرخون

ومنهم المقري صاحب نفح الطيب الذي ذكرها بهذه العبارات : " إلى أن كان إخراج النصارى إياهم بهذا العصر القريب أعوام تسعة عشر وألف فخرجت ألوف بفاس وألوف أخرى بتلمسان ووهران[19] ... " والشريف الأندلسي محمد بن عبد الرفيع الذي ذكر في كتابه الأنوار النبوية أنه " وجد في دفاتر السلطان الكافر أبعده الله تعالى أن جملة من أخرج من أهل الأندلس كافة نيف وستمائة ألف كبيراً وصغيراً سنة 1610[20] ، وهذا التقدير لا نرى فيه مبالغة إذا عرفنا أن مؤرخ ديوان التحقيق الإسباني لورنتي يقدر عدد النازحين من أهل الأندلس بنحو مليون نسمة[21] وأن رسالة كان قد بعث بها سكان غرناطة إلى السلطان العثماني عام 1541 تذكر أن أهالي غرناطة وإقليمها الذين لم يتمكنوا من الهجرة إلى ديار الإسلام يناهز 364000 نسمة[22] ومما يميز هذا النزوح الجماعي الأخير أنه شمل جميع المناطق الساحلية الجزائرية ، وكانت جهات وهران ومستغانم وتلمسان في طليعة الأقاليم التي استقطبت النازحين الذين وفد أول فوج منهم من إلدا نوفيلدا : (Elda Novelda) ، وتوجهوا إلى تلمسان بعد أن تفاوض في أمر نقلهم من وهران إلى تلمسان الحاكم الإسباني لوهران الدوق داغيون : (le Duc d'Aguillon) (30) ثم تلاهم فوج آخر ضم مهاجري النواحي الجنوبية من كاستلون : (Castellón) وكولين : (Collines) الواقعة إلى الغرب من بلنسية ، الذين نقلوا رأساً إلى المراكز الإسبانية بوهران والمرسى الكبير أو النواحي القريبة منها كأرزيو ومستغانم ورأس فالكون على متن أربعين سفينة تجارية كانت في حراسة الأسطول الإسباني المتوجه إلى وهران والمرسى الكبير وهكذا بواسطة ثلاث رحلات تم نقل 116022 مسلماً من أقاليم الأندلس الشرقية عن طريق مراسي الدا وقووا ونوفيلدة وكاستلون وكولين ما بين شهري أكتوبر ونوفمبر من عام 1016هـ 1609م ، وكان نصيب مدينة وهران من هؤلاء المهاجرين إثنين وعشرين ألفاً نزلوا بها يوم 17 أكتوبر وضاقت بهم شوارعها مما توجب على الكثير منهم مغادرتها لعدم توفر الإمكانيات لديهم داخل المدينة ، فاتجه فريق منهم متكون من خمسة آلاف إلى ستة آلاف شخص نحو تلمسان ، وأربعة آلاف آخرين نحو مستغانم ، فتعرض لهم الأعراب في الطريق ونهبوهم لعدم توفر الحراسة الكافية[23] ، وقد ذكر ذلك المقري بهذه العبارة البليغة : " فتسلط عليهم الأعراب ومن لا يخشى الله

تعالى في الطرقات ونهبوا أموالهم وانتهى بهم الأمر إلى قتلهم " ويقر بطونهم مما يظنون إبلاع الجوهر وغيره ببلاد تلمسان وفاس[24]، وهذا ما أثار استنكار وغضب رجال الدين وشيوخ القبائل الذين دعوا إلى معاقبة هؤلاء الأعراب ونصرة الأندلسيين، وكان في طليعتهم الشيخ محمد أقدار التوجيني الذي استنهض الشيخ أحميدة العبد وحثه على أن يغزو بعشائر سويد على قبيلة هبرة لاعتدائها على الأندلسيين بنواحي أرزيو، وحسب أبي راس الناصري في كتابه عجائب الأسفار: "فإن حميدة المذكور أتاه بجنود عظيمة يوم الجمعة ووافق ذلك ختمه صحيح البخاري، ثم ساروا ولقيتهم جموع هبرة، فانهزمت وركبت سويد أكتافهم فقتلتهم كيف شاؤوا"[25].

ومما يلاحظ أن الأندلسيين كانوا يتعرضون إلى مخاطر جمة في طريقهم إلى الجزائر، ففضلاً عن الأضرار التي لحقت بهم من جراء غارات الأعراب وانتشار الأوبئة، نجدهم يتلقون أبشع أنواع العسف والظلم على أيدي ربابنة السفن الإسبانية، وقد ينتهي بهم الأمر إلى الغرق في البحر كما حدث لمهاجرين كانوا على متن سفينتين كانتا متجهتين من قرطاجنة إلى وهران إذ غرقتا في وسط البحر في شهر ديسمبر من عام 1609[26]، ولعل هذه الظروف الصعبة التي عرفها المهاجرون الأندلسيون نحو الجزائر هي التي دفعت البعض منهم إلى العودة مرة أخرى إلى أسبانيا وإعلان تبعيتهم لملك إسبانيا والتظاهر باعتناقهم المسيحية مثل الجماعة التي عاد بها القبطان باري: (Capitaine Barret) من وهران إلى إسبانيا على ظهر سفينته، وهذا ما أوحى إلى بعض الكتاب إلى القول بأن أكثر من ثلثي المهاجرين إلى وهران فضلوا العودة إلى اسبانيا نظراً للمضايقات التي تعرضوا لها[27] وهذا فيه كثير من المبالغة والتحيز.

ب. الأثر العمراني للهجرة الأندلسية للجزائر:

كان للهجرة الأندلسية إلى الجزائر انعكاس إيجابي على الحالة العمرانية التي شهدت بفضل استقرار العنصر الأندلسي نمواً ملحوظاً وتطوراً لم تعرفه الجزائر منذ العهد الحمادي، إذ نلاحظ أن هناك نهضة عمرانية بدأت ترتسم ملامحها ابتداءً من مطلع القرن الخامس عشر تتمثل بالخصوص في إنشاء مراكز حضرية جديدة وإعادة بناء المدن

والقرى التي أصابها الاضمحلال منذ مدة طويلة كمدينة برشك التي بعثت من أنقاضها على أيدي الأندلسيين الذين أصبحوا يشكلون الغالبية الساحقة من سكانها[28]، وشرشال التي ازدهرت بعد أن استقر بها مهاجرو غرناطة وامتلكوا أغلب منازلها بحيث أصبح عدد المنازل التي تعود للأندلسيين يقدر باثنى عشر ألفاً[29]، وكذلك مدينة تنس ودلس وجيجل التي عرفت نشاطاً اقتصادياً ونهضة عمرانية بعد استقرار الأندلسيين بها، ومما يلاحظ أن أعداداً من الأندلسيين قصدوا مدينة جيجل بعد أن حال نائب ابن القاضي منافس خير الدين بربروسة دون نزولهم بمدينة الجزائر، وقد استقروا بجيجل في كنف خير الدين بربروسة الذي قدم لهم يد المساعدة والعون[30].

أما المدائن التي أنشئت من طرف الأندلسيين فنذكر منها مدينة القليعة، ومدينة البليدة التي أسست على يد سيدي أحمد الكبير عام 942هـ ـ 1535م بمحاذاة مدينة خزرونة القديمة، بعد أن أقطع خير الدين بربروسة أراضيها للأندلسيين الذين بادروا ببناء حمام ومخبز ومسجد لا زال يعرف بها حتى اليوم بجامع الترك[31]، ولعل أهم مدينة استقطبت أنظار المهاجرين الأندلسيين هي مدينة الجزائر قاعدة الحكم التركي التي أصبح عدد الأندلسيين بها في مطلع القرن السادس عشر الميلادي يناهز 25 ألف نسمة، وكان الأندلسيون بها يتميزون حسب أقاليمهم الأصلية، فمنهم أهالي غرناطة وأهالي أقاليم الأندلس الجنوبية الذين عرفوا بالأندلسيين: (Mudéjares)، ومنهم سكان الثغور من مواطني كاطالونيا وأراغون وفلانسيا: (Levant) الذين أطلق عليهم جماعة التغريين الذين حل أغلبهم بالجزائر إثر قرارات الطرد لعام 1609[32]، واستقروا ظاهر المدينة ولا زال الحي الذي أقاموا به خارج الباب الجديد يعرف حتى اليوم بتاغران: (Tagarins) نسبة إليهم[33].
ومن المدن الرئيسية الأخرى التي تأثرت بالهجرة الأندلسية مدينة عنابة التي استوطنها عدد كبير من الأندلسيين وانتشروا خارجها، وكذلك أرزيو ومستغانم وتلمسان حيث تجمعوا بها في أحياء خاصة بهم، وعندما ضاقت بهم تلك المدن أنشأوا بجوارها القرى والمستوطنات التي لا زال البعض منها يحمل أسماء أندلسية مثل قرية الأندلس غرب مدينة وهران. وصاحب هذا النمو العمراني قيام الأندلسيين بإنشاء المرافق العامة، بإقامة العيون وإنشاء السواقي وجلب المياه إلى المدن وتنظيم الري، وكان حظ مدينة الجزائر من هذه الأعمال

الخيرية وافراً ، حيث تم اكتشاف العيون الغزيرة بضواحي الجزائر وجلب مياهها وتوزيعها على العيون داخل المدينة ، فعلى سبيل المثال نذكر أن عين الحامة جلبت مياهها من طرف المهندس الأندلسي اسطى موسى الذي تمكن بفضل مهارته من إيصال مائها إلى مدينة الجزائر على بعد 4.8 كلم وبغزارة مياه تقدر بتسع لترات في الثانية وذلك في عهد الباشا مصطفى كوسة (1610 ـ 1613)[34] ، مما يسمح لنا بالقول بأن البلاد الجزائرية عرفت مع قدوم الأندلسيين نهضة عمرانية ونمواً سكانياً بحيث تضاعف سكان المدن والفحوص المحيطة بها مثل جهات دلس وتنس وشرشال وبرشك والقليعة والبليدة ومستغانم وتلمسان وأرزيو ، حتى اعتبرت سهول متيجة بحق مناطق استيطان وتعمير أندلسي ، حتى إن المقري خصها بالذكر عندما تعرض للآثار العمرانية للهجرة الأندلسية بقوله : "وعمروا قراها الحالية وبلادها (أي نواحي تونس) وكذلك بمتيجة الجزائرية"[35] . ومما أسبغ طابعاً خاصاً على الهجرة الأندلسية إلى الجهات الساحلية من الجزائر أنها حدثت في وقت كانت فيه البلاد الجزائرية تعاني فيه انهياراً ديموغرافياً وانكماشاً بشرياً نتج عن انتشار الأوبئة وتكرر المجاعات واضطراب الأمن منذ أواخر القرن الرابع عشر وأوائل القرن الخامس عشر الميلادي .

جـ. مشاركة الأندلسيين في الدفاع عن الجزائر وتحصينها:

وقد واكب هذه النهضة العمرانية مشاركة مهاجري الأندلس في إقرار الحكم التركي وتدعيم القوة الدفاعية للجزائر في وجه الأطماع الإسبانية : والانتفاضات الداخلية ، ففي هذا المجال نسجل أن عروج بربروسة تمكن من تشتيت قوة حاكم تنس وأعوانه في معركة جرت بسهول الشلف ، وذلك بفضل مساعدة 500 فارس أندلسي من أهل غرناطة وأراغون وبلنسية للقوة التركية المشكلة من ألف جندي من المشاة ، كما استعان الحكام الأتراك في حكم المدن التي أخضعوها لأول مرة بحاميات أندلسية ، تلك الحاميات التي أوكل أمر الحراسة لها في أغلب المدن مثل مدينة المدية التي نصب بها الأتراك حامية من الفرسان الأندلسيين مع بعض المشاة من الأتراك بعد أن هزموا متوليها حماد بن عبيد عام 1517م[36] .

هذا وقد شيد الأندلسيون أغلب حصون وقلاع المدن التي استقروا بها كقلعة شرشال وبعض حصون مدينة الجزائر التي نذكر منها الحصن المقام على إحدى الجزر المقابلة

للمدينة والذي شيده جماعة من الأندلسيين أواخر القرن 15 م واستخدموه مناراً لإرشاد السفن للمراقبة والاستكشاف قبل أن يقيم مكانه القائد الإسباني بدرو نفارو (Pedro Navarro) حصن البنيون (Penon) المعروف ببرج الفنار ، وينسب للأندلسيين أيضاً إقامة حصن خارج باب الوادي من طرف جماعة من الثغريين للدفاع عن المدينة[37] ، وكذلك تشييد بطارية تعرف بطبونة الأندلسيين بأعلى المدينة وكانت مجهزة بأربعة عشر مدفعاً ولها 17 كوة منها 9 تواجه المرسى و2 تقابل الناحية الجنوبية و4 تشرف على مدخل الميناء و2 تتحكمان في مدخل المدينة المعروف بباب الجزيرة[38] .

د. النشاط الاقتصادي للجالية الأندلسية بالجزائر:

نتج عن استقرار العنصر الأندلسي النشط بالبلاد الجزائرية نشاط اقتصادي غير معهود برز في مختلف المجالات الاقتصادية من زراعة وصناعة وتجارة وخدمات ، ففي المجال الزراعي : تمكن المهاجرون الأندلسيون من استصلاح مساحات شاسعة من الأراضي بنواحي متيجة ومرتفعات الساحل وجهات شرشال وبنواحي وهران وتلمسان وعنابة ، فأصبحت سهول متيجة ومرتفعات الساحل القريبة من مدينة الجزائر بفضل مهارة فلاحي فلانسيا والأراغون ذوي التقاليد العريقة في ممارسة الفلاحة ، تشتهر بزراعة الأشجار المثمرة كحب الملوك (الكرز) والإجاص والتفاح وخاصة البرتقال والعنب[39] ، وتركزت زراعة الزيتون الكثيفة بنواحي عنابة حيث تم غرس 30000 عود زيتون من طرف شيخ الأندلسيين مصطفى قردناش الذي كان قد التجأ إلى عنابة بعد تعرضه لمضايقات حاكم تونس علي باي ، وقد استخدم مردود استغلال الأرض في فداء الأسرى المسلمين الذين وقعوا في أيدي النصارى[40] ، أما الفحوص الواقعة بالقرب من المدن الرئيسية كالبليدة والجزائر والقليعة فإنها اختصت بإنتاج الخضار والفواكه التي حسن الأندلسيون أنواعها وطوروا زراعتها ، وأحسن مثال على ذلك زراعة التين بنواحي برشك التي اشتهرت بالجودة ووفرة المحاصيل بعد اعتناء الأندلسيين بها منذ أواخر القرن الخامس عشر[41] .

هذا ويعود الفضل إلى الأندلسيين في إدخال زراعة محاصيل لم تكن تجد العناية والإهتمام لدى الأهالي مثل زراعة شجرة التوت الأبيض والأسود بنواحي القليعة وشرشال

والأرز والقطن بجهات مستغانم ومليانة والعناب بإقليم عنابة .

ومما تجدر ملاحظته أن أحسن مثال للنشاط الزراعي للجالية الأندلسية بالجزائر نجده بفحص مدينة البليدة الذي اقتطعه خير الدين لجماعة من الأندلسيين تحت رعاية الشيخ سيدي أحمد الكبير الذي استقر بالقرب من خزرونة بجوار وادي الرمان الذي أصبح يعرف باسم وادي سيدي محمد الكبير(42) . وأجرى المياه في القناة وتمكن من سقي مساحات كبيرة خصصها لزراعة الخضار والفواكه ، وبذلك أصبحت البليدة ومنطقتها تتميز طيلة العهد العثماني بإنتاجها الوفير وبجنانها الفيحاء التي كانت ملاذاً للجنود الأتراك المتقاعدين .

أما فيما يخص النشاط الصناعي فإن الأندلسيين تمكنوا منذ استقرارهم بالجزائر من إقامة المشاغل وإنشاء الورشات لمزاولة مختلف المهن والصناعات كالحدادة والنجارة والخياطة ومعالجة الخزف والجلد والحرير ، وقد اشتهرت مصانع الحرير الأندلسية بمدن الجزائر والقليعة وبرشك بجودة إنتاجها الذي كان يغطي حاجة المدن الرئيسية ويصدر جزء منه إلى الأقطار المجاورة كتونس(43) .

ومن الصناعات المستحدثة التي ارتبطت بالوجود الأندلسي بالجزائر نسيج القطيفة "المخمل" التي اختص فيها مهاجرو غرناطة ، وصناعة الشبيكة : (La dentelle) التي توارثتها المهاجرات الأندلسيات عن أمهاتهن سواء من حيث الآلات المستعملة في نسجها وطرزها أو الطريقة المتبعة في تشكيلها ، أما الصناعات التي كانت موجودة قبل حلول الأندلسيين ونهضت بفضل اعتنائهم بها فمنها الشاشية (الطربوش) التي أصبح لها سوق خاص بها بمدينة الجزائر عرف بسوق الشواشي واشتهرت بصنعها عائلة القلانسي "بوناتيرو" بحي باب الواد بالجزائر العاصمة(44) ، وكذلك صناعة نسيج الزرابي بالنواحي الغربية من الجزائر التي غلب عليها الطراز الأندلسي ابتداءً من القرن الرابع عشر الذي عرف انتقال طريقة صناعتها من المرية المركز الرئيسي لصناعة النسيج بمملكة بني نصر إلى هنين وتلمسان ومن ثم انتشرت بالجهات الغربية من الجزائر كقلعة بني راشد(45) . كما يعود الفضل للأندلسيين في تحسين صناعة الأسلحة وتحضير البارود وتطوير صناعة السفن بمنائي الجزائر وشرشال(46) .

أمّا فيما يخص النشاط التجاري والخدمات الإدارية للجالية الأندلسية بالجزائر فإننا نلاحظ أنه لم يكن أقل شأناً وأهمية عن بقية النشاطات الاقتصادية الأخرى فالأندلسيون منذ حلولهم بالأرض الجزائرية اشتهروا بتحصيل الضرائب وجمع موارد الخزينة وتقديم الخدمات الضرورية للإدارة التركية وتسهيل تعاملها مع بقية السكان ، ولم يقتصر نشاط الأندلسيين على هذا الجانب من الأعمال الإدارية بل تركز بشكل خاص في المبادلات التجارية التي أصبحت من احتكارهم نظراً لاستعدادهم ومهارتهم وتكاتفهم وامتلاكهم رؤوس الأموال التي نقلوها معهم من مواطنهم الأصلية بالأندلس وعملوا على نموها بعد ذلك بممارسة القرصنة والنخاسة ومبادلة الأسرى والاشتراك في نشاط القرصنة ، التي اشتهر فيها بعض الرياس الأندلسيين أمثال بلانكيو : (Blanquillo) وأحمد أبو علية الأشبوني ومراد الكبير جواد يانو من أهالي ثويدار ريال(47) .

وهكذا استطاعت الجالية الأندلسية بالجزائر تنمية ثرواتها بفضل ممارسة التجارة والاشتغال بالزراعة الكثيفة والمهن الصناعية ذات المردود المرتفع ، الأمر الذي مكنهم من امتلاك المنازل وشراء الضيعات والأراضي الزراعية(48) ، ولعل أحسن دليل على مدى غنى الطائفة الأندلسية بالجزائر نستنتجه من تلك الضرائب التي كانوا يتعهدون بها للدولة الجزائرية ، والتي نذكر منها على سبيل المثال ضريبة أندلسي غرناطة القاطنين بشرشال التي بلغت أثناء القرن السادس عشر 300 دوكة : (Ducats) سنوياً(49) وضريبة جالية مستغانم الأندلسية التي قدرت عام 1570 بـ 800 زياني ذهب و600 كيلة كبيرة من القمح والشعير و2000 رطل زبدة و70 بغلاً مهيئاً للخدمة و3 من عتاق الخيل للركوب(50) .

ومما يلاحظ أيضاً في نطاق النشاط التجاري والخدمات الإدارية أن الأندلسيين ساعدوا إلى حد كبير على شيوع النقود الإسبانية بين الأهالي ، وجعلها العملة المطلوبة في التعامل ما بين حكام الجزائر وباقي الدول الأوربية عند تسديد المشتريات ودفع الأتاوات وذلك نظراً للكميات الكبيرة من النقود الإسبانية التي حملها الأندلسيون إلى الجزائر والمبادلات التي كانوا يستخدمون فيها العملة الإسبانية دون غيرها(51) .

هـ. الوضع الاجتماعي للجالية الأندلسية بالجزائر:

تميزت الجالية الأندلسية بالجزائر بكونها أصبحت تشكل عنصراً بشرياً له تأثيره في مختلف مجالات الحياة، وأهميته التي لم تخف عن الحكام وباقي السكان، ومع أن الجالية الأندلسية كانت متجانسة مع بقية أفراد المجتمع الجزائري من حيث المعتقد واللغة والانتماء إلا أنها كانت تتميز عن غيرها من طوائف المجتمع بخصائص ومميزات نلخصها في النقاط التالية:

1. ظل أفراد الطائفة الأندلسية بالجزائر يعتبرون أنفسهم في دار هجرة مؤقتة يترقبون الفرص ويتحينون الظروف للعودة إلى مواطنهم الأصلية بالأندلس واسترجاع ما فقدوه من ملك الآباء وتراث الأجداد، حتى إن أرباب العائلات الكبيرة منهم ظلوا محتفظين بمفاتيح منازلهم بالأندلس بكل وفاء وإجلال، ولم يخامرهم أي شك في أنه سيأتي يوم يستطيعون فيه العودة إلى منازلهم القديمة وتعميرها من جديد[52]. ويفسر هذا الإحساس اعتزازهم بأصولهم التي رأوا فيها نوعاً من النبل والشرف، مما جعلهم لا يميلون إلى الاختلاط مع غيرهم من السكان، وهذا ما جعلهم يحجمون عن التزاوج خارج جماعتهم، فالمرأة الأندلسية نادراً ما تتزوج من غير أندلسي إلا إذا اضطرتها الحاجة والفقر إلى ذلك، وبقي هذا الشعور يخامرهم حتى إن أحد الحضر وهو سيدي بوضربة لم يتردد في التصريح لأحد الفرنسيين إثر الاحتلال بأنه ينتمي إلى أصول أندلسية لكونه حفيد أحد الدايات الذين ولدوا من أمهات أندلسيات.

2. كان أعضاء الجالية الأندلسية أكثر ثقافة وتطوراً ونشاطاً من باقي السكان الآخرين بفعل البيئة التي كانوا يعيشونها بالأندلس والظروف التي اضطرتهم إلى مغادرة مواطنهم والتحدي الذي عرفوه في محنتهم وتشردهم، ولعل هذه الظروف هي التي جعلتهم يتميزون بحماسهم الديني الجارف وعدائهم المستحكم للنصارى لا سيما جماعة الثغريين منهم، وفرضهم مقادير باهضة لفداء الأسرى النصارى، وهذا ما أثار غضب كثير من رجال الدين الإسبان أمثال كردنال طليطلة الذي ذهب إلى القول إلى أن «الموريسكيين المتنصرين هم مسلمون حقيقيون كإخوانهم بالجزائر»[53].

3. أصبح أفراد الجالية الأندلسية بالجزائر يشكلون برجوازية المدن الساحلية التي لم تكن موجودة قبل حلولهم بالبلاد، بعد أن ركزوا كل نشاطهم على احتكار بعض الصناعات والمهن وممارسة التجارة، وكان همهم الرئيسي في ذلك ليس السعي لاكتساب النفوذ السياسي والوصول إلى المناصب العليا بالدولة وإنما الرغبة في تنمية ثرواتهم واستغلال أملاكهم واستثمار مزارعهم وبذلك أصبح الأندلسيون يؤلفون طبقة ميسورة الحال مع بقية إخوانهم من سكان الحواضر بالنسبة إلى بقية سكان البلاد الجزائرية، مع الملاحظة أن جماعة الأندلسيين كانت تضم العديد من الجماعات المهنية والحرفية المتفاوتة الغنى المختلفة الاهتمامات، فمنهم الأغنياء المترفون، ومنهم الفلاحون المجدون، ومنهم الصناع المهرة والتجارة النشيطون والبحارة المغامرون، ومنهم أيضاً الفقهاء والعلماء الأفاضل.

4. اتصف أفراد الجالية الأندلسية بالجزائر برقة الذوق في المأكل والملبس والمتاع، بحيث أصبحوا يتميزون بأسلوب معيشتهم الراقي وطريقة تعاملهم المتحضرة ونوعية الفن ونمط العمارة التي توارثوها عن أسلافهم بالأندلس، فبالنسبة إلى الحياة الفنية نلاحظ أن الأندلسيين بالجزائر كانوا مولعين بنظم الموشحات والمدائح، ففي تلمسان اشتهر أبو عبد الله محمد بن أحمد بن مسايب الأندلسي (ت 1868 م) بنظم الموشحات وتلحينها، وقد نسب إليه نظم حوالي 3034 قطعة شعرية "مألوف" أغلبها في موضوع المدائح النبوية[54]، وفي مدينة الجزائر عرف محمد الشاهد الأندلسي (ت 1207 ـ 1793) العالم والأديب بترديد موشحات بن سهيل وأبي زهرة ولسان الدين بن الخطيب، وفي مجال العمارة أدخل الأندلسيون استعمال القرميد بدل السطوح التي كانت شائعة قبل حلولهم بالجزائر الغربية، وهذا ما ميز المدن التي استقروا بها أو أنشؤوها مثل مليانة وتنس التي أصبحت تختلف في طابع البناء عن باقي المدن القريبة منها كمازونة[55]، كما أن الأندلسيين عرفوا باستعمال الزخارف والمجصصات والتفنن بتشكيلها وتخريمها، كما هو عليه الحال بالعديد من مساجد الجزائر، ولعل أحسن صورة لرقي هذا الفن على يد الأندلسيين نجده ماثلاً للعيان بمساجد مدينة تلمسان مثل الجامع الكبير (530هـ 1136م) وجامع سيدي بلحسن (696هـ 1296م) وجامع العباد (739هـ 1338م) التي لا زالت محاريبها تشهد على تفوق المهندسين الأندلسيين الذين

شيدوها في فن الزخارف والنقوش والكتابة .

5 . تميزت الطائفة الأندلسية بلهجتها العربية التي كانت شائعة بغرناطة وحواضر الأندلس الأخرى ، وقد تأثر بها جماعة الحضر بالمدن الكبرى كتلمسان والجزائر وبجاية نظراً لرقة مخارج حروفها وسهولة التلفظ بها ، ولغناها بالمفردات والعبارات الدقيقة التي تعكس غنى الحياة المادية الفنية للأندلسيين ، ولعل أهم ما يميز هذه اللهجة هو قلبها القاف ألفاً وهذا عكس لهجة سكان الأرياف والبوادي التي كان يتلفظ فيها من مخرجها الصحيح أو بتحويلها إلى قاف معقودة حسب التلفظ البدوي الشائع ، هذا وقد ساعد الأندلسيون بلهجتهم الخاصة على انتشار واستعمال العربية في المناطق التي ظلت حتى قدومهم تستعمل اللهجة البربرية مثل نواحي شرشال ودلس وتنس وأرزيو وبجاية ، كما أن الأندلسيين من جهة أخرى عملوا في نطاق الحواضر على شيوع استعمال مفردات إسبانية وذلك في مجال لغة الفرانكة : (La Langua franca) التي يغلب عليها الطابع الإسباني وذلك في مجال الأعمال التجارية والعلاقات الخارجية ، في حين ظلت بعض العائلات الأندلسية المحافظة تتداول اللغة الإسبانية لفترة طويلة[56] .

6 . صاحب الهجرة الأندلسية إلى الجزائر قدوم جماعات كبيرة من اليهود الذين استقروا بالحواضر الكبرى وأصبحوا يشكلون جماعة متميزة تمارس التجارة وتشتغل بالمهن اليدوية ذات المردود المرتفع ، وكان من أهم الجماعات اليهودية ذات الأصل الأندلسي تلك التي استوطنت الجزائر العاصمة وتلمسان ، ومما يجدر ذكره أن الجماعة اليهودية بتلمسان اصبحت تشكل طبقة اجتماعية ذات تأثير واضح على الحياة الاقتصادية والاجتماعية بفضل نشاط الربي أفرايم أنكو : (Ephraèm Anuaoa) الذي هاجر من الأندلس واستقر بتلمسان حيث توفي عام 1442م[57] ، وقد تتلمذ وتخرج عليه بتلمسان العديد من الأطباء اليهود الذين ظلوا يتوارثون معارفه وعلومه الطبية .

ومما يلاحظ أن التقارب بين اليهود والسفرديم (مسلمي الأندلس) ظل قائماً مدة طويلة يستمد قوته من الأصول المشتركة والظروف المتشابهة التي عرفوها بالجزائر وعاشوها بالأندلس ، والدليل على هذا التقارب أن التجار الأندلسيين كثيراً ما كانوا

يلتجئون إلى التعامل مع التجار اليهود من ليفورن ذوي الأصول الإسبانية لتسهيل عمليات التبادل التجاري مع أوربا وتصريف غنائم القرصنة .

7 . وفي الأخير لم يلبث العنصر الأندلسي بالجزائر أن فقد تفوقه وتضاءل نشاطه فاندمج أغلب أفراده في بقية السكان ، ولم يعد ينتسب إلى الأصول الأندلسية مع نهاية القرن الثامن عشر الميلادي إلا أفراد قلائل وهذا ما لاحظه الرحالة الأروبيون أمثال أبي راينال عام 1888[58] ، ولهذا لا نستغرب أن عدد أفراد الجالية الأندلسية المسجلين رسمياً في سجل أوقاف الأندلس عشية الاحتلال الفرنسي للجزائر 1830 لم يكن يتجاوز السبعين رجلاً[59] .

أما أسباب هذا الذوبان أو الاندماج الذي عرفته الجالية الأندلسية بالجزائر فهي متعددة ومنها :

أ . استمرار الخطر الخارجي المتمثل في تحرشات الإسبان على السواحل الجزائرية مدة طويلة مما حال دون تبلور مطالب الجالية الأندلسية وطموحات العنصر الأندلسي بحيث فظلت الغالبية الساحقة منهم الانضمام والاندماج في بقية السكان والعمل في نطاق الحكم التركي على صد الخطر الإسباني الداهم الذي بدأت ترتسم أخطاره بنواحي وهران وجهات بجاية التي خضعت للإسبان مدة 45 سنة (1510 ـ 1555) مما اضطر الأندلسيين القاطنين بها إلى الالتجاء إلى داخل البلاد والعيش مع باقي السكان وتأسيس معاهد العلم وإنشاء الزوايا بجهات القبائل التي ظلت مراكز إشعاع ثقافي وديني طيلة العهد التركي .

ب . استبداد بعض الحكام الأتراك وإهمالهم لأساليب تنمية الثروات ورعاية السكان واعتمادهم في تعاملهم أسلوباً يتصف بالضغط والاستبداد ، وهذا ما حال دون إعطاء النشاط والمبادرة التي كان يتميز بها الأندلسيون حقها من الرعاية والاعتناء مما عمل أخيراً على خمود همة هؤلاء الأندلسيين وانكماش نشاطهم الاقتصادي وتأثيرهم الاجتماعي ، فرغم محاولة كثير من الأندلسيين اكتساب ود الحكام الأتراك والتقرب إلى الطائفة التركية والوقوف بجانبهم ، إلا أن الحكم التركي بالجزائر ظل ينظر إلى الجماعة الأندلسية على أنها لا تختلف في شيء عن باقي مجموعات السكان الأخرى .

جـ . كما أن الاستقبال الحسن الذي حظي به المهاجرون الأندلسيون بالجزائر كان

عاملاً قوياً لاندماجهم في المجموعات المحلية ، وهذا ما حدث في كثير من الجهات ، ومنذ عهد مبكر ، إذ تذكر الروايات أن سيدي أحمد الكبير شيخ الأندلسيين (ت 1540 ـ : 947) الذي استقر بوادي الرمان وأسس البليدة وفضل الزواج بامرأة من عشيرة أولاد سلطان سكان المنطقة[60] ، مما سهل عملية اندماج الأندلسيين هناك بباقي السكان المحليين .

د. كما يعزى تناقص العنصر الأندلسي واضمحلال شأنه مع نهاية القرن الثامن عشر إلى غارات الأعراب بالجهات الغربية والوسطى من الجزائر وإلى تكاثر الأوبئة وتعدد المجاعات وحلول القحط وانعدام الأقوات وقلة الأمن وغارات الأساطيل الأوربية على المدن الساحلية ؛ لأن هذه الأوضاع السيئة التي عرفتها الجزائر أواخر العهد التركي عملت على انكماش الحواضر حيث تتركز الجالية الأندلسية ، بالإضافة إلى شيوع البداوة التي عملت على طمس مساهمة الجالية الأندلسية في مختلف أوجه الحياة الاقتصادية والاجتماعية .

الهوامش:

ـ البكري ، (أبو عبدالله) ، كتاب المغرب في ذكر بلاد أفريقيا والمغرب ، وهو جزء من كتاب المسالك والممالك ، طبعة باريس ، أدريان ميزونوف 1565 ، ص 70 ، هذا وقد ذكر لومبار في كتابه الإسلام في مجده الأول أن تاريخ تأسيس وهران يعود إلى سنة 902 ـ 903هـ وقد أحرقت من طرف جماعة من البربر عام 910 م ، ثم أعيد بناؤها عام 911 م ، ثم دمرها بنو يفرن عام 545 م ، وبعد ذلك ببضع سنوات أعيد بناؤها ؛ راجع لومبار ، الإسلام في مجده الأول ، ترجمة إسماعيل العربي ، الجزائر 1979 ، ص 101 ـ 102 .

ـ البكري ، المصدر نفسه ، ص 61 .

ـ المصدر نفسه ، ص 65 .

ـ وكذلك ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، طبعة ليبزغ1869 ، الجزء الرابع ، ص 497 .

ـ البكري ، المصدر نفسه ، ص 69 .

ـ ابن الخطيب ، لسان الدين ، أعلام الأعلام ، نشر وتحقيق أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتاني ، الدار البيضاء ، دار الكتاب 1944 ، ص 66 .

- De la primaudaie. (F.E.) Le Commerce et la navigation de l'Algérie avant la conquête française. in. Revue algérienne et coloniale, année 1866, p. 735.

Brunschwig, (R.) , La Berberie Orientale sous les hafsides, Paris 1940: _: 1947, T. II , p. 376.

ـ ابن أبي دينار القيرواني ، المؤنس في أخبار أفريقيا وتونس ، تحقيق محمد شمام ، تونس ، المكتبة العتيقة ، ط3 ، تونس 1967 ، ص 153 .

ـ ابن خلدون (يحيى) ، بغية الرواد في أخبار بني عبد الواد ، الجزء الثاني ، ص 114 .

ـ الناصري السلاوي (أبو العباس أحمد) ، كتاب الاستقصا لأخبار دولة المغرب الأقصى ، الدار البيضاء ، دار الكتاب 1555 ، الجزء 6 ، ص 11 (نقلاً عن المقري في نفح الطيب) .

ـ ذهب عبد الرحمن الجيلالي في كتابه تاريخ الجزائر العام (الجزء الثاني ، الجزائر 1555 ص 188) إلى أن بداية الهجرة الأندلسية إلى الجزائر تعود إلى عام 856هـ ـ : 1452 بفعل الهجمات الإسبانية .

: Penella (J), Le transfert des moriscos espagnols en Afrique du Nord, in. Etudes sur les moriscos andalous en Tunisie, pub. par M. De Epalza et R. Petit, Tunis 1973, p. 97.

ـ مجهول ، كتاب غزوات عروج وخير الدين ، تصحيح وتعليق نور الدين عبد القادر ، الجزائر ، المطبعة الثعالبية 1934 ، ص ص 48 و82 .

ـ عنان ، (محمد عبد الله) ، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين ، القاهرة ، الطبعة الثالثة 1966 ، ص 386 ، ومما يلاحظ أن هايدو المعاصر للأحداث ذكر أن عدد المهاجرين الأندلسيين يناهز المائتين ، راجع :

Haëdo. Histoire des Rois d'Alger , Alger 1881, p. 38.

ـ التميمي (عبد الجليل) ، رسالة من مسلمي غرناطة إلى السلطان سليمان القانوني سنة 0540 م ، المجلة التاريخية المغربية ، عدد 3 ، 1975 ، ص 45 ـ 66 .

: Braudel (F.), La méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II, Colin Paris 1966, T. I, pp. 364 _ 366 et 367.

ـ عنان ، المصدر نفسه ، ص 388 .

Haëdo. Op.cit., p. 38.

ـ سي يوسف (محمد) ، علج علي

Devoulx, (A) Notice sur les corporations religieuses d'Alger, Alger , 1912, p. 72.

La Peyre (H.), Géographie de l'Espange morisque , S.E.V. P.E.N. Paris 1959, p. 67, d'aprés les archives générales de Simancas. Estado Leg. 245 tf. 19.

ـ عنان ، المصدر نفسه ، ص ص 396 ـ 398 ، ذكر يقال أن مغادرة مسلمي قشتالة لم تبدأ إلا بعد طرد مسلمي الأراغون وبلنسية ، راجع :

La peyre op.cit., pp. 208 _ 209 d'aprés la lettre du dignitaire Trujillo, expédiée d'Alger au 25 juillet 1611.

Penella, op.cit ., p. 84.

ـ المقري ، (أحمد بن محمد التلمساني) ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، ذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب ، تحقيق محمد محي الدين عبد المجيد ، دار الكتاب العربي ، بدون تاريخ : بيروت ، الجزء السادس ، ص 280 .

ـ مخطوط الأنوار النبوية في آباء خير البرية ، خزانة الرباط ، رقم 1238 ، نقلاً عن عنان ، المصدر نفسه ، ص 407 .

- عنان، عبد الله، موقف القسطنطينية من باقي العالم الإسلامي، مجلة الأصالة، عدد 27 ـ 1975، ص 110،
في حين قدر دوفو: عدد المطرودين لسنة 1609 وحدها بما يناهز المليون نسمة من مختلف الأعمار
والفئات، راجع: Devoulx, op.cit ., p. 207.
- التميمي، المصدر نفسه، ص 45.

: Le peyre, op. cit ., pp. 56, 62, 207.

- وحسب الأرشيفات الإسبانية، فإن هناك 500 أندلسي أرسلوا للعمل في السفن و5500 آخرين هلكوا أثناء السفر، و2000 هربوا، مما يجعل العدد الإجمالي للأندلسيين الذين تعرضوا للطرد في هذه السنة فقط وبإقليم شرق الأندلس بالتحديد يقدر بـ 124022 نسمة.
- المقري، المصدر نفسه، الجزء السادس، ص 280.
- أبو راس الناصري، عجائب الأسفار، مخطوط، ص 206، نقلاً عن مقدمة كتاب الثغر الجماني، بقلم الشيخ المهدي البوعبدلي، ص 27. مع العلم أن الشيخ محمد القنارة التوجيني توفي عام 1065 هـ وقبره معروف بأرض مينا قرب مدينة البطحاء التي كانت تقع مكان محطة القطار بالمطمر القريبة من غيليزان بالغرب الجزائري.

La peyre, op.cit., p. 60 d'aprés. A.G.S. Estado. Leg. 216.
Penella, op.cit., p. 45.
Mantran (R.) La description des côtes de l'Algérie dans le kitabi Barriye de Piri Reis, in Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée, n° 15 _ 16: _ 1973 p. 162.
Léon L'Africain. Description de l'Afrique , pub. Epaulard, T.II.

- حاجي خليفة المعروف بكاتب جلبي، تحفة الكبار في أسفار البحار، نسخة مخطوطة بالتركية، (مخطوطة)، محفوظة بالوثائق الشرقية بالمكتبة الوطنية بباريس تحت رقم 120 قسم الوثائق التركية، ص 21.
- نور الدين عبد القادر، صفحات في تاريخ مدينة الجزائر، قسنطينة، 1965 ص 62.

Monlaü (J). Les Etats Barbaresques, Que Sais _ je ? N ° 109, P.U.F., Paris, p. 108.
Dan (P.), Histoire de Barbarie et de ses corsaives , Paris, 1637 , p. 82.
Emerit (M.), Un mémoire sur Alger, Pétis de la croix, en 1665, in Annales Orientales, T. XI, année 1953, p.9.

- ذهب بعض الكتاب الفرنسيين إلى القول بأن كلمة تاقاران: Tagarin هي تحريف للفظة تراقونة: Tarragone، والواقع أنها مشتقة من كلمة تقريون جمع تقري نسبة إلى سكان أقاليم الحدود الشمالية.

Daloni, Un problème de l'alimentation en eau potable de la ville d'Alger, in Bulletin de la Société de Géographie d'Alger, 1928, p. 7.

- للتعرف على العيون والحنايا والسواقي التي ساهم في إقامتها الأندلسيون، راجع: سعيدوني (ناصر الدين)، من المظاهر الأثرية المندثرة بفحص مدينة الجزائر، الشبكة المائية في العهد العثماني، ضمن الكتاب التكريمي للأستاذ حاطوم "بحوث ودراسات في التاريخ العربي"، دمشق، ص ص. 157 ـ 173، ثم في مجلة الدراسات التاريخية لمعهد التاريخ بجامعة الجزائر، عدد 1555/9، ص ص. 61 ـ 81 ؛ نشر

كذلك في كتاب "ورقات جزائرية" (قسم التاريخ الاقتصادي والاجتماعي).
- المقري، المصدر نفسه، الجزء السادس 280.

Haëdo, op.cit., p. 26.
Federmann et Aucapitaine, notice sur l'histoire et l'administration du Beylik du Tetteri, in Revue Africaine , année 9: _ 1865, p. 23.
Sander Rang et Ferdenand Denis, p. 363.
Lespès. (R.). Alger,. Alcan, Alger 1930, p. 110.
Devoulx (A.), La batterie des Andalous, in Revue Africaine année 16 _ 1872, p. 340 _ 342.
Penella, op.cit p, 83.
Rocqueville. Le S. De. p. 8.
Laugier de Tassy. Histoire d'Alger et de bombardement de cette ville en 1816, Paris 1830 p. 69.

- الكعاك (عثمان)، عنابة، قبل وبعد الإسلام، مجلة الأصالة عدد 34 ـ 35. 1976، نقلاً عن الاستبانيا، ونفس المعلومات ذكرها ميكال دي إيبالزا في مقالة: حول ثلاثة أحداث غير معروفة من العلاقات التاريخية بين عنابة وإسبانيا، مجلة الأصالة، عدد 34 ـ 35، 1976، ص ص 117 ـ 118.

Léon l'Africain. op. cit., T. II. p. 345.

نور الدين عبد القادر، المصدر نفسه، ص 62.

: Haëdo , Topographie et Histoire général de l'Algérie , tra. monnerau et Berbrugger, in Revue Africaine n° 14 _ 1870 p. 495.
Dapper D.O. Description de l'Afrique , Amsterdam 1686, p. 175.
Dapper. op.cit ., p. 117.
Ricard (P.), Dentelles algériennes et marocaines, collection Hespréris N° IV, 1928, p. 19.

- الكعاك، المصدر نفسه، ص 540.

Golvin (L.), Les Arts populaires en Algérie, Alger, 1953. T. II p. 580.
Léon L'Africain. op.cit ., T. II , p. 345.

- عنان، المصدر نفسه، ص 388.
- هناك عدة عقود تسجل شراء الأندلسيين للأراضي الواقعة في الفحوص القريبة من المدن منها: عقد ما نشره ابن شنب، راجع:

Bencheneb , notes et documents un acte de vente dressé à Alger en 1648, in Revue Africaine, année 1945, p. 287 _ 290.

- وكذلك نور الدين عبد القادر، صفحات ص 225.

: Léon l'Africain. op.cit ., T. II , p. 345.
De La Primaudie , op.cit ., p. 731.

ـ سعيدوني ، ناصر الدين ، النظام المالي للجزائر في الفترة العثمانية 1800 ـ 1830 ، الجزائر 1979 ص 155 ـ 196.

Devoulx, Notice..., op.cit., p. 71.

Bache (E.P.) Origine et constitution de la propriété , in. Revue Algérienne et coloniale. 1860 T. III , p. 695.

Braudel, op.cit., T. II. p. 192, d'aprés A.G. Simancas.

Bencheneb (M.), Itinéraire de Tlemcen à la Mecque, par Ben Messaib, in Revue Africaine. 1900 pp 261 ـ 280 .

Gautier (E. . F.), Le Passé de l'Afrique du Nord, Paris 1952, p. 247.

Emerit (M.), Voyage de la Condamine à Alger, 1731, in Revue Africaine, 1954 , p. 375.

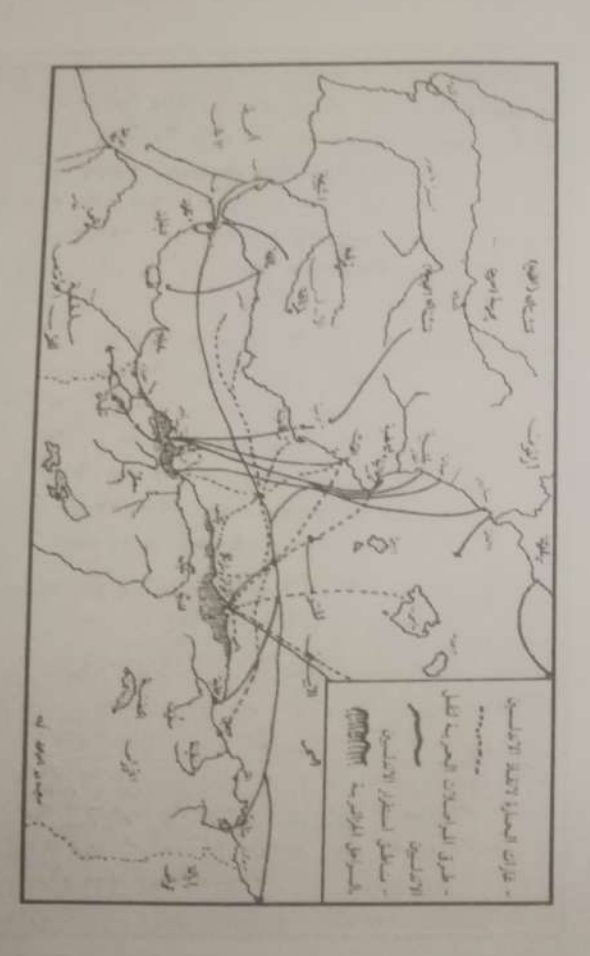
Darmon, Origine et Constutuation de la Communauté juive à Tlemcen , in Revue Africaine 1870 , p. 377.

Raynal (L'Abbé), Histoire philosophique et politique des établissements et du commerce des Européens dans les deux Indes, Amsterdam 1770, T. II p. 139.

Devoulx (A.), Les édifices religieux de l'ancien Alger, Alger, Bastide, 1870, Ch. LVII, pp. 174 ـ 176.

Emerit (M.), L'état intellectuel et moral de l'Algérie en 1830, in Revue d'histoire moderne et contemporaine, t 1/ 1954, p. 22.

ـ نور الدين عبد القادر ، المصدر نفسه ، ص 266 .



خريطة الهجرة الأندلسية للجزائر





تهجير الأندلسيين (الموريسكيين) من ميناء دانية

تهجير الأندلسيين (الموريسكيين) من ميناء فيناروس الفاكس قرب كارلوس دولاز رابطة

الأندلسيون (الموركسيون) بمقاطعة الجزائر "دار السلطان" أثناء القرنين السادس عشر والسابع عشر(*)

عرف الوجود الأندلسي بالجزائر ثلاث مراحل متميزة، الأولى استغرقت الفترة الإسلامية المتقدمة، من القرن الثاني الهجري، (الثامن الميلادي) إلى الخامس الهجري. (الحادي عشر الميلادي)، ارتبط فيها استقرار العناصر الأندلسية بالنشاط التجاري خاصة، وكان نتيجة الصلات الوثيقة بين الأندلس الإسلامية وبلاد المغرب الأوسط، والتي ميزت سياسة الدولة الأموية ثم ملوك الطوائف بالدول الإقليمية التي ظهرت بالجزائر، قبل أن تأخذ طابع التحدي من جراء التنافس بين خلفاء قرطبة الأمويين وحكام المغرب الفاطميين، وقد ساهم الأندلسيون في هذه المرحلة في إنشاء أو تجديد عمران العديد من المراكز الساحلية بالمغرب الأوسط وخاصة أثناء القرنين التاسع والعاشر للميلاد مثل وهران وتنس وبرشك وهنين وغيرها.

أما المرحلة الثانية للوجود الأندلسي بالجزائر فقد بدأت في منتصف القرن الخامس الهجري، (الحادي عشر الميلادي)، مع حكم المرابطين للمغرب والأندلس واستغرقت فترة الموحدين والدول الإقليمية التي ورثتهم وإستمرت حتى انتهاء الحكم الإسلامي بالأندلس بسقوط غرناطة (797هـ/ 1892م) بيد الإسبان، وقد تزايد نزوح الأندلسيين في هذه المرحلة مع سقوط الحواضر الإسلامية الكبرى بالأندلس مثل قرطبة (1236) وبلنسية (1238) ومرسية (1243) وجيان (1248) وإشبيلية (1248) فتوجه

(*) قدم هذا البحث في ندوة الدراسات الموريسكية بسان كارل دولارابطة طرقونة (إسبانيا) 4 ـ 9 ديسمبر 1990 ونشر في مجلة: حوليات جامعة الجزائر، عدد 7/ 1993، ص ص 107 ـ 129.

أغلب النازحين إلى مدن بجاية وتلمسان وعنابة ووهران وهنين وتنس وغيرها ، وقد أصبحت كل من بجاية وتلمسان بفعل هذا النزوح الذي كان في مقدمته رجال العلم ، وأهل الصلاح وذوو الثروة والجاه ، مراكز إشعاع علمي ونشاط اقتصادي متميز ، فلم تنافسهما في ذلك سوى مدينة تونس عاصمة الحفصيين ومدينة فاس قاعدة المرينيين .

بعد ذلك تأتي المرحلة الثالثة للنزوح الأندلسي إلى الجزائر التي تبتدئ مع نهاية القرن التاسع الهجري . الخامس عشر الميلادي ، وتستمر إلى مستهل القرن الحادي عشر الهجري ، أواخر القرن السابع عشر الميلادي ، وقد اتخذت الهجرة الأندلسية في هذه المرحلة طابع نزوح جماعي مع قرارات التنصير القصري والطرد الإجباري (1609 ـ 1414م) التي أصدرها فيليب الثاني الإسباني بهدف القضاء نهائياً على العنصر الإسلامي بإسبانيا ، فغادرت أعداد ضخمة من المزارعين والصناع والتجار من بقايا المسلمين مواطنها الأصلية بإسبانيا ، وتوزعت على سواحل بلاد المغرب العربي ، وكان لمقاطعة الجزائر المركزية المعروفة بدار السلطان والممتدة من دلس إلى تنس ومن البحر إلى البليدة ، نصيب وافر من هذه الهجرة لتعاطف الحكام العثمانيين بالجزائر مع المهجرين ، وذلك لقلة سكان المنطقة مع توفرها على إمكانيات اقتصادية مساعدة على الاستقرار وخدمة الأرض ، وهذا ما جعل الحياة الاقتصادية والاجتماعية بهذه المقاطعة المركزية (مقاطعة الجزائر ودار السلطان) من البلاد الجزائرية ترتبط أساساً بتواجد العنصر الأندلسي الذي تعرفه المصادر الغربية بالموركسي هذا العنصر البشري المتميز الذي سوف نعرفه في هذا البحث بالأندلسي الموركسي لترابط الاسمين مع بعضهما ، فرغم نقص المعلومات عنه فإننا سوف نحاول في حدود المعلومات المتوفرة لنا أن نتعرف على هويته ومدى مساهمته في مختلف مجالات الحياة وخاصة وسطه البشري ونشاطه الاقتصادي والاجتماعي والثقافي .

هذا وقد ارتبط التواجد الأندلسي الموركسي بمنطقة الجزائر بالصراع البحري العثماني الإسباني مع مستهل القرن السادس عشر ، فقد رأى الأندلسيون الموركسيون في السلاطين العثمانيين منقذين لهم في محنتهم فتوجهوا إليهم بالرسائل والوفود منذ عهد بايزيد الثاني (1512) وحتى أثناء حكم سليمان القانوني (1541) ، وقد أصبحت هجرة

الموركسيين إلى الجزائر ظاهرة عامة مع استقرار الحكم العثماني بها ، وقد ساهم في ذلك الأخوان بربروسة عروج وخير الدين وخلفاؤهم من الباي لاربايات والبشوات في تعزيز الوجود الأندلسي الموركسي بمدينة الجزائر وإقليمها ، فقد نقل خير الدين بربروسة أثناء غاراته العديدة على سواحل إسبانيا أعداداً كبيرة من مسلمي الأندلس إلى الشواطئ الجزائرية قدرها صاحب كتاب الغزوات بحوالي السبعين ألف نسمة ، وقد استمرت الهجرة الموريسكية بعد ذلك كثيفة بفعل التطورات التي عرفتها إسبانيا آنذاك مثل الضغوط التي تعرض لها المسلمون سنة 1523 ودفعت أعداداً كثيرة منهم إلى الانتقال إلى الجزائر ، وكذلك ثورة جبال البشارات 1569 ـ 1570 التي أدت إلى نزوح أغلب الثائرين البالغ عددهم ثلاثين ألفاً بقيادة الباكي إلى الجزائر على ظهر سفن تركية وضعت تحت تصرفهم في صيف عام 1570 بعد أن فشلت ثورتهم أثر توصلهم إلى عقد اتفاق مع دون خوان في 20 ماي 1570 ، وفي نفس السنة أيضاً نزل بالجزائر غالبية سكان بالميرا من المسلمين ، وبعد سنوات قليلة من ذلك (1584) تمكن حسن فينيريانو من نقل ألف موركسي من منطقة أليكانت : (Alicante) وفي السنة التالية (1584) وصلت جموع من سكان كاطالونيا إلى الجزائر على ظهر سفن جزائرية ، وهكذا فلم تحل سنة 1991 إلا وكانت مدينة الجزائر والمراكز العمرانية القريبة منها مثل البليدة والقليعة وشرشال تعج بالأندلسيين الموركسيين الذين ما فتئوا يتزايدون بفعل توافد أعداد أخرى نقل بعض الجماعات منها الرايس مراد في إحدى غاراته المفاجئة من سواحل لورقة غرب قرطاجنة .

هذا وقد عرفت السنوات الأولى من القرن السادس عشر تضخم أعداد الأندلسيين : الموركسيين بالمدن والأرياف نتيجة قرارات الطرد الجماعي (1609 ـ 1614) التي وصفها المؤرخ فردناند برودال : (F.Braudel) بالعملية الجراحية : "L'opération chirurgicale" لكونها قد اجتثت العناصر الإسلامية من مواطنها بإسبانيا ، وألقت بها إلى سواحل بلاد المغرب ومنها مقاطعة الجزائر التي استقطبت عدداً كبيراً من مهجري قشتالة وبلنسية وغرناطة ، قسم منها كان من جماعات الثائرين بجبال البشارات : (Sierra) التي التحقت بالجزائر عن طريق ميناء بلنسية في فيفري 1619 إثر توصلهم مع

نائب الملك سيمون زباطا: (Simon Zapata) إلى عقد صلح سمح لهم بمغادرة مواطنهم وقد تبعتهم جماعات أخرى من مسلمي استرامادورا: (Estramadure) والأرغون: (Aragon) والمنشا: (La.mancha) وصل العديد منها إلى الجزائر عن طريق ليفورن بإيطاليا بعد مرورها بمرسيليا وهلاك العديد من أفرادها في هذا الطريق الطويل والشاق.

وبفعل هذا التوافد الأندلسي الموريسكي المكثف أمكن للمناطق الساحلية من المغرب الأوسط التغلب على الانهيار الديمغرافي الذي تمثل في قلة السكان وإقفار الريف واضمحلال المدن، وأصبحت مقاطعة الجزائر (دار السلطان) موطن استقرار رئيسي للعناصر الأندلسية الموريسكية التي استقرت بالمدن وفحوصها وانتشرت بالأرياف القريبة منها فعرفوا عند عامة الناس بأهل الأندلس وإن اختلفت تسمياتهم المحلية باختلاف مواطنهم التي هاجروا منها، فهم غرناطيون: (Grenadins) بشرشال وإقليمها وثغريون (Tagarins) بالجزائر وفحوصها ومدجنون: (Mûdéjars) بالبليدة والقليعة والنواحي القريبة منهما، هذا مع العلم بأن الجماعات الأندلسية الموريسكية قد تلاحمت مع بعضها في مواطنها الجديدة وأصبح من الصعب تمييز طائفة منها عن الأخرى فالكل يعرف بالأندلسيين وإن حاول بعض الكتاب الأوربيين تسميتهم بالمدجنين مرة وبالموريسكيين تارة والغرناطيين والبلنسيين والثغريين تارة أخرى، هذا ويمكن التعرف على الوسط البشري للأندلسيين من خلال رصد تواجدهم في مدن مقاطعة الجزائر وهي مدينة الجزائر ومدن البليدة والقليعة وشرشال ودلس، فمدينة الجزائر تحولت بفعل الهجرات المتتالية للأندلسيين إلى بيئة يغلب عليها الطابع الأندلسي، وقد ساعد على ذلك قلة سكانها منذ تأسيسها على يد بلكين بن زيري (339 ـ 950م)، وبقاؤها بعيدة عن أي حكم مركزي منذ الثلث الأخير من القرن الرابع عشر، وتحولها أثناء ذلك إلى مركز جهاد بحري قبل أن تصبح قاعدة للبلاد الجزائرية مع استقرار الأخوين عروج وخير الدين بها (1516) وقد تأكدت مكانة الجزائر واتسع عمرانها مع استمرار هجرات الأندلسيين الموريسكيين في فترة لاحقة خاصة في سنوات 1567، 1584، 1607 و1609، وقد تدعم هذا التأثير الأندلسي الموريسكي بمدينة الجزائر بإنشاء أحد الأندلسيين في

أواخر القرن الخامس عشر، حصناً للدفاع عن المدينة فوق إحدى الجزر قبالة الجزائر قبل أن يحتله الإسبان، وكذلك زاد نفوذ الأندلسيين بالجزائر بإنشاء حصن خارج باب الوادي من طرف جماعة من الثغريين وبناء تحصينات أخرى بأعالي المدينة عرفت بطبانة الأندلس من قبل مهاجرين موريسكيين آخرين.

هذا وقد ساعدت الجماعات الأندلسية المهاجرة من مايورقة والأرغون وقطالونيا وغرناطة على نمو سكان مدينة الجزائر أثناء القرن السادس عشر، فأصبحت تضم حسب الأب هايدو: (F.D.de Haëdo) ما لا يقل عن ألف منزل تقطنه ألفا أسرة أندلسية، ومع النمو المطرد لمدينة الجزائر ارتفع عدد المهاجرين الأندلسيين بها إلى 2000 عائلة أي: ما يقدر بحوالي 25000 نسمة، وهذا ما جعل الأندلسيين يشكلون نسبة كبيرة من سكان مدينة الجزائر قد تصل إلى ربع مجموع السكان الآخرين المؤلفين من الحضر والكراغلة والأعلاج والبرانية والدخلاء.

وغير بعيد عن مدينة الجزائر عند سفح الأطلس المتيجي توجد مدينة البليدة في مكان غير بعيد عن موقف خزرونة القديمة بجوار واد الرمان، ويعود إعمارها إلى العناصر الأندلسية الموريسكية التي اقطعها خير الدين بربروسة عام 942 / 1535م أراضي بتلك الجهة فاستقرت بها تحت زعامة أحد الأندلسيين من ذوي الصلاح والتقوى وهو سيدي أحمد الكبير الذي أشرف على بناء مسجد وفرن وحمام بالمدينة، وقد ارتبط بالمصاهرة مع قبيلة أولاد سلطان المقيمة بالقرب منها، فأصبحت البليدة مقراً مفضلاً للعديد من الأسر الأندلسية الموريسكية المهاجرة في مطلع القرن السابع عشر، وهذا ما جعل أغلب سكانها من الأندلسيين والموريسكيين، وحتى بعد التحاق جماعات أخرى بها أغلبها من الأتراك والكراغلة وبعض قبائل متيجة والأطلس البليدي، ظل الأندلسيون يشكلون نسبة كبيرة من سكانها، فهم لا يقلون عن نصف السكان وذلك قبل أن تتعرض البليدة للتدمير بفعل زلزال عام 1825 الذي حولها إلى مدينة صغيرة منكمشة داخل أسوارها.

وإلى الشمال الغربي من البليدة تنتصب مدينة القليعة على مرتفعات الساحل بالقرب من وادي الزعفران، وهي المدينة الأندلسية الموريسكية الخاصة التي ظلت تحافظ

على الطابع الموريسكي الأندلسي الأصيل منذ أن أنشأتها جماعة من المدجنين (Mudéjares) من مقاطعة قشتالة ونواحي غرناطة على عهد حسن باشا بن خير الدين سنة 957/1550م، وقد أمكن لهذه الجماعات الأندلسية المدجنة أن تفرض تفوقها وتحافظ على تماسكها بفعل اعتزازها بأصولها وولائها لأحد العلماء من أهل الأندلس وهو سيدي علي بن مبارك الذي حظي بتقدير واحترام قبائل متيجة، وقد توسع عمران القليعة بعد أن توافدت إليها جماعات الثغريين من إقليم بلنسية خاصة حتى أصبحت تضم ما لا يقل عن خمسة آلاف منزل وزاد عدد سكانها عن الثلاثين ألف مع مستهل القرن السابع عشر. أما بأطراف إقليم الجزائر (دار السلطان) على ساحل البحر فهناك مركزان رئيسيان للأندلسيين هما دلس شرقاً وشرشال غرباً، فدلس عرفت توسعاً ملحوظاً منذ أن اتخذها خير الدين بربروسة قاعدة لإقليم الشرق (1517)، فقصدها الأندلسيون وأصبحت تضم حوالي ألفي أسرة تنتشر حول القصر الذي كان يقيم به حاكمها والذي أصبح مقراً للحامية المكلفة بحراسة ميناء دلس، ثم توسع عمرانها بعد ذلك بتوافد أعداد أخرى من الأندلسيين الموريسكيين مع نهاية القرن السادس عشر، فأصبحت أسوارها تضم ما لا يقل عن ألف منزل وهذا ما تؤكده المعلومات التي أوردها كل من غراماي (Grammaye) ونيكولا دي نيكولا: (N. de Nicolas) (1551)، هذا في وقت كانت فيه شرشال تبعث من أنقاضها بفعل هجرة مكثفة من الأندلسيين المهجرين إذ قصدها ما لا يقل عن اثني عشر ألف أندلسي مدجن من غرناطة ومعهم جماعات من بلنسية والأراغون بعد عام من سقوط غرناطة (1492)، ورغم تعرضهم لهجوم قراصنة مايورقة (1505) إلا أنهم استطاعوا إعادة بناء مدينة شرشال، فأنشأوا بها مسجدها الكبير (981هـ/ 1573م) وأقاموا حولها أسواراً وتحصينات منيعة أهمها البرج الذي أقامه في عهد عروج القائد محمود بن فارس التركي سنة 924هـ/ 1518م بعد القضاء على محاولة استقلال قارة حسن بشرشال عام 1516، وهذا ما ساعد سكان شرشال الأندلسيين على التصدي فيما بعد لهجوم مفاجئ شنه أسطول إسباني يتألف من عشرين سفينة على ظهرها 15000 رجل بقيادة أندري دوريا: (A. Doria)، وبعد أن تمكن هذا الأسطول المهاجم بفعل عامل المباغتة من اجتياح

المدينة ونهبها لم يستطع الصمود أمام المقاومة التي أبداها الأندلسيون داخل المدينة، فتشتت جموع المهاجمين الإسبان وتمكن القضاء عليهم فقتل منهم عدد كبير وأسر منهم ما لا يقل عن 600 ولم يتمكن من النجاة منهم والالتحاق بالسفن سوى حوالي 3000 حسب ما ذهبت إليه أغلب الروايات.

وانطلاقاً من هذا الوسط الحضري بمدن الجزائر والبليدة والقليعة وشرشال ودلس، أصبحت مختلف أوجه الحياة بمقاطعة الجزائر (دار السلطان) تكتسي طابعاً أندلسياً صرفاً يمكن تلمس جوانبه المختلفة من خلال التعرف على ما قام به الأندلسيون الموريسكيون في ميادين الزراعة والصناعة والثقافة والفن وغيرها، وهذا ما نحاول التعرض له في النقاط التالية:

أ. دور الأندلسيين الموريسكيين في مجال الزراعة والري:

يتمثل أساساً فيما عرفوه من أنواع المزروعات وما استحدثوه من طرق الري وما أدخلوه من تقنيات زراعية، فقد استصلحوا الأراضي واعتنوا بزراعة الأشجار المثمرة فأصبحت أرياف مقاطعة الجزائر تماثل ما كان موجوداً بالأندلس قبل تهجيرهم منها، ففحوص مدن الجزائر والبليدة والقليعة وشرشال أشبه ما تكون بنواحي غرناطة وبلنسية حتى إن أغلب الرحالة أشادوا بطريقة استغلالها وجودة منتجاتها وأعجبوا بمناظرها التي تثير الخيال وتبعث الراحة في النفس، فهي حسب تعبير فكتور برنار: (V. Bernard) تبعث الإحساس العميق بروعة الطبيعة وهدوء الريف لكل من يطلب الراحة والهدوء والتي عبر عنها بقوله:

"Un aspect le plus champêtre et le plus paisible qu'une âme tranquille puisse désirer"

لقد تميزت فحوص مدينة الجزائر التي يشكل الأندلسيون نسبة كبيرة من سكانها بسعة مساحاتها التي كانت تمتد على مسافة عشرة فراسخ تنتشر عبرها المنازل الريفية التي تتوسط الحقول والبساتين: (Métaires et Jardins) فهي من الكثرة ما جعل الأب دان: (Le P. Dan) يقدر عددها بألف (1000) منزل ريفي في النصف الأول من القرن

السادس عشر (1636م) بينما وبايصونال: (Payssonnel) يرفع هذا العدد إلى الضعف، في الربع الأول من القرن الثامن عشر (1725م) وهذه المنازل الريفية التي كان ينتقل إليها سكان مدينة الجزائر في فصل الصيف تعرف في لغة الفرنكا: (Langua franca) الشائعة بالماصري: (Macerie) أما الزراعات التي اشتهر بها الأندلسيون الموريسكيون فهي الخضار على اختلاف أنواعها والأشجار المثمرة بتعدد أصنافها، ولعل أهم أنواع الأشجار المثمرة التي نجح الأندلسيون في تطوير إنتاجها وتحسين أنواعها عن طريق التقليم والتطعيم بعد أن كانت تعاني الإهمال فهي: البرتقال والمشمش والتفاح والرمان والأجاص والكرز (حب الملوك) واللوز والجوز والزيتون والتين والكروم بالإضافة إلى أنواع البطيخ. أما الأنواع التي أدخلوها إلى مقاطعة الجزائر ومن الراجح أنها لم تكن معروفة أو شائعة قبل مجيئهم فهي اللارنج والتوت والليمون ومختلف أنواع الخضار كالفلفل والبطاطس والطماطم والباذنجان الذي استمد تسميته من مقاطعة أندلسية هي بتانجال: (Bitanjel) والزعفران والسبانخ (Epinards) والقرنون: (Artichou) والكراث (Poireau) والجلبان: (Petits pois) والملفوف: (Chou) والكرنب (Chou fleur) - والقرمز (Kermès) الذي كان يستعمل في صباغة المنسوجات بالبليدة ودلس، بالإضافة إلى العديد من أنواع الزهور التي كانت تزرع بغرض تقطيرها مثل الورود، هذا وقد نجح الأندلسيون إلى حد بعيد في توسيع زراعة الليمون والبرتقال واللارنج بنواحي البليدة والتوت بإقليم القليعة وشرشال حيث كانت تربى دودة الحرير، واعتنوا بزراعة العنب بنواحي الجزائر بعد أن انحطت نوعيته وكادت تختفي زراعته، فاستخرجوا منه أنواعاً جيدة من الخمر كانت توجه إلى الحانات الموجودة بمدينة الجزائر والتي يشتغل بها الأسرى المسيحيون، كما استخرجوا منه الخل الذي كان يقبل عليه البحارة والجند العاملون في فرق المحلة والنوبة.

هذا وقد ساعد الأندلسيين الموريسكيين على تطوير الزراعة معرفتهم بطرق الري الملائمة والتي كانت تقوم على تنظيم محكم ودقيق للمصادر المتوفرة بمقاطعة الجزائر، فقد أقاموا لهذا الغرض في المناطق التي استقروا بها الأحواض والصهاريج ومدوا السواقي والقنوات وبنوا الحنايا والقناطر وأنشؤوا النوريات "الناعورات" ففي الجهات القريبة من

الجزائر، أصبحت كل من سهول الحامة ومنخفضات وادي كنيس وبئر خادم وبئر مراد رايس وبني مسوس ووادي المغاسل تنتشر فيها النوريات والأحواض والسواقي التي أقيمت على الآبار التي حفرت بها، هذا في الوقت الذي نجح فيه الصناع الأندلسيون في استغلال مياه العيون الواقعة بالمرتفعات فاستعملوا جزءاً منها في ري البساتين، بينما وجهوا الجزء الآخر لسد حاجات سكان مدينة الجزائر، فقد أشرف الصانع الأندلسي المعروف بواسطة موسى على جلب مياه عيون الحامة التي يزيد منسوبها عن تسع لترات في الثانية إلى مدينة الجزائر، في عهد قوصة مصطفى باشا (1610 - 1613) عبر قناة طولها 4500م، وقد استعمل في بنائها الأقواس ذات الطابقين المترادفين لتجنب منخفض وادي ميزاب بناحية عين الربط، ونفس الأعمال قام بها عمال أندلسيون موريسكيون بمساعدة من السكان الآخرين في فترة سابقة عندما تمكنوا من جلب مياه العيون الواقعة على نصف مرحلة إلى الجنوب من الجزائر في عهد أحمد عراب سنة 1573 لتزويد برج مولاي حسن (حصن الامبراطور) بالمياه وسد حاجة الأحياء العلوية من مدينة الجزائر المجاورة للباب الجديد من المياه الضرورية، وعندما زادت حاجة السكان إلى الماء مع نمو مدينة: الجزائر، اضطروا كذلك إلى جلب المياه الغزيرة لعيون زبوجة عبر قناة طولها أكثر من 8000 م جزء منها مغطى والآخر فوق الأرض أقيمت له الأقواس لتجنب وادي حيدرة وهضبة الأبيار.

وفي فحص البليدة تمكن الأندلسيون الموريسكيون من تحويل مياه وادي الرمان الذي أصبح يعرف بوادي سيدي أحمد الكبير الأندلسي الذي ينبع من منحدرات جبل الشريعة إلى قناة طولها 1500 م ذات منسوب مائي مرتفع يصل إلى 20000 لتر يومياً وجهوا جزءاً منه إلى عدة سواقي لري البساتين، واحتفظوا بالجزء الرئيسي لاستغلاله في الصناعات وتوجيهه لسد حاجات مدينة البليدة من المياه، ولم يكتفوا بذلك إذ حاولوا استغلال المياه المنحدرة من جبل الشريعة عبر أودية الخميس وبني عزة وجبورو بني شبلة والمبدوع وتامرة وبني مفتاح التي وجهت خصيصاً لري بساتين البرتقال التي توسعت وأصبحت أشبه شيء حسب وصف بعض الرحالة بغابة كثيفة تحيط بالمدينة من جميع جهاتها.

اشتهرت أسواق الغزل والشواشي والنجارين والفخارين والعطارين والصباغين والجبارين والحدادين والرصايصية والنحاسين والبشامقجية والمقفالجية والصاغة والمقايسية والشقماقجية (أو باعة السلاح) وغيرها .

أما أهم أنواع الصناعات التي تميز بها الأندلسي الموركسي بمقاطعة الجزائر فهي :

1 . صناعة الأقمشة : (Textile) من المواد الأولية المتوفرة من كتان وصوف وحرير وقطن وقد برعوا في نسج أنواع رفيعة من الأقمشة وأصناف جيدة من الزرابي ، وقد اشتهرت خاصة برشك بنسج نوع جيد من الكتان ، وشرشال والقليعة بأنواع رفيعة من الحرير وأصناف جيدة من المخمل "القطيفة" : (Velours) ، ومع تدهور تربية دودة الحرير بفحوص هاتين المدينتين انحصرت صناعة الحرير في مدينة الجزائر فاشتهرت بها عائلات موركسية ظلت تحافظ عليها مثل أسرة بوناطيرو ، وبالإضافة إلى ذلك فقد اختص الأندلسيون الموركسيون بمدينة الجزائر بصناعة الشاشية : (La chachia) من نوع جيد من الصوف المعالج . وهذا ما جعل شاشية الجزائر الأندلسية تلقى رواجاً كبيراً في أسواق الشرق وخاصة تونس واستنبول قبل أن تتراجع صناعتها وتتفوق عليها الشاشية التونسية الأندلسية خاصة ، هذا ولعل هذا النجاح في صناعة الشاشية وفي نسج الأقمشة الذي حققه الأندلسيون الموركسيون بمدينة الجزائر هو الذي جعل هايدو يقدر في تقاييده عدد صناع النسيج بالجزائر في القرن السادس عشر بما لا يقل عن 3000 صانع .

هذا وترتبط صناعة النسيج الأندلسية والموركسية بالجزائر بمهنة الصباغة التي اشتهرت بها كل من البليدة ودلس خاصة لتوفر نبات القرمز بجهاتها ولوجود عيون غزيرة ومجاري مائية دائمة بها ، وقد استطاعت البليدة بفضل نشاط صناعتها وتوفرها على أحواض الصباغة ، أن تحتكر هذا النشاط الصناعي بعد أن اضمحلت دلس وتناقص سكانها ، فأصبحت جماعة الصباغين الموركسيين : (Teinturie) بالبليدة تتولى صباغة الأقمشة والأصواف المستعملة في صناعة الشاشية بمدينة الجزائر .

2 . صناعة التطريز وتوشيح الثياب الحريرية بخيوط الذهب والفضة : (Brocart d'or et d'Argent) . واختص بها الأندلسيون دون غيرهم ، ولم ينافسهم فيها سوى اليهود

وفي القليعة أيضاً عمل الأندلسيون الموركسيون على استغلال مياه الآبار وبعض العيون لري البساتين وتزويد المدينة بالمياه ، كما أمكن لهم استغلال مياه وادي مازافران (ماء الزعفران) القريبة في ري البساتين الممتدة على ضفافه حتى معبر عنق الجمل ، أما في شرشال فقد تمكن الأندلسيون من جلب المياه من منبعين غزيرين يقعان في المرتفعات الشمالية الشرقية واستطاعوا جر مياه هاذين المنبعين إلى المدينة وفحوصها في قنوات مصنوعة من الفخار والطين المعالج بعد أن تعذر عليهم استغلال مياه الآبار الواقعة بالقرب من الساحل لتغلب الملوحة عليها .

هذا ولم تقتصر هذه الأعمال الفنية للأندلسيين الموركسيين على زراعة الأرض واستغلال مصادر المياه في فحوص المدن التي استقروا بها ، بل اتسع مجال نشاطهم في الزراعة والري إلى سهول متيجة ومرتفعات الساحل وسفوح الأطلس المتيجي حيث ساهموا مع بقية السكان الآخرين في استغلال مصادر الماء وزراعة الأراضي وبناء المنازل الريفية التي ذهب فانتور دي بارادي : (Venture de Paradis) في فترة متأخرة (1789) إلى القول في شيء من المبالغة أن عددها قد يصل إلى ستة عشر ألف بستان ومزرعة : (Jardins et Métaires) .

ب. دور الأندلسيين الموركسيين في مجال الصنائع والمهن:

ففي مجال الصناعة أدخل الأندلسيون الموركسيون بمقاطعة الجزائر (دار السلطان) عدة صناعات جديدة وعملوا على تطوير ما كان موجوداً منها وهذا ما جعل مدن الجزائر والبليدة والقليعة وشرشال تتميز بنشاط حرفي حقيقي موجه لتغطية الاستهلاك المحلي وللتبادل مع الأقطار الإسلامية الأخرى .

وقد كان أغلب الإنتاج الصناعي للأندلسيين الموركسيين يتم في ورشات بسيطة خصصت لها الطوابق الأرضية من المنازل وجعلت لها أبواب على الأزقة لتسهيل التعامل وصرف السلع الجاهزة ، وقد تجمعت كل صناعة منها في مكان مخصص له بحيث عرف كل زقاق أو ساحة أو حومة بالصناعات الموجودة به ، وقد شاركتهم في ذلك بعض الطوائف الأخرى من السكان من الحضر واليهود . ففي مدينة الجزائر مثلاً

الأندلسيون الذين قدموا معهم وبعض العائلات الحضرية التي احتكت بهم وقد عرفت بتوشيح الثياب عدة عائلات أندلسية موركسية ظلت تتوارثها جيلاً بعد جيل ، وهذا ما عمل على بقاء صناعة " الشبيكة " : (Dentelle) بمدينة الجزائر تمارس حسب الطرق التي كانت تتبع في صناعتها في بلنسية وغرناطة والمرية ، هذا ويضاف إلى فن التطريز والشبيكة هناك صناعة الأحزمة الحريرية التي تفننت الأندلسيات في تزيينها بأشكال ملونة وكذلك المعلقات : (Maâlaka) الجميلة : (Tapisserie) التي تزين بها الجدران ، والبنيقات الرقيعة التي تستعمل في تغيطة الرأس وغيرها من أنواع المطرزات .

3 . صناعة الصابون : (Saveniers) والمستحضرات العطرية : (Parfumerie) التي ارتبطت بالصناع الأندلسيين الموركسيين الذين استحضروا أنواعاً عديدة من العقاقير : (Drogues) واستخلصوا المياه المقطرة من الورود وزهور اللارنج والبرتقال مثل ماء الورد المستعمل في الأطعمة ومحلول العطر لغرض الزينة .

4 . صناعة المجوهرات والحلي : (Orfévrerie) عرف بها الأندلسيون الموركسيون وجماعة اليهود ، وقلدهم في ذلك بعض الحضر ، وتميزت خاصة بصنع الخواتم الفضية والذهبية المرصعة والأسورة (Bracelets) والخلاخل والأقراط التي كانت على شكل أهلة منها نوع يعرف بالمشيرفة : (Méchirfa) لقي إقبالاً كبيراً للطافة شكله وإتقان صناعته .

5 . صناعة الأسلحة وتحضير البارود ، نجح الصناع الأندلسيون الموركسيون في صنع نوع محلي من البنادق وأتقنوا تقنيات تحضير البارود ، وقد وجدت هذه الصناعة التي كانت تتميز عما كان معروفاً محلياً ببلاد القبائل إقبالاً كبيراً من طرف سكان متيجة والأطلس البليدي . هذا وقد أوجد الصناع الموركسيون في فترة متقدمة فرناً لصهر النحاس بمدينة الجزائر عرف "بدار النحاس" وجه إنتاجه لصناعة الأدوات النحاسية المختلفة للاستعمال المنزلي : (Dinanderie) ثم تحولت تحت الحاجة إلى مشغل لصنع نوع من المدافع لتعزيز الدفاعات عن مدينة الجزائر في القرن السابع عشر .

6 . صناعة الحدادة ومعالجة المعادن : مهر فيها صناع شرشال الموركسيون الذين تمكنوا من معالجة خامات الحديد الموجود في تلك الجهات وطوروا منها نوعاً جديداً

من الفولاذ كان يستعمل خاصة في صناعة البنادق وقد تصنع منه الأبواب والنوافذ والشرفات لشدة مقاومته ومتانته .

7 . صناعة ومعالجة الخشب والنجارة : (L'ébénisterie) تفنن فيها أندلسيو مدينة الجزائر خاصة ، فاستخدموا النقوش المطعمة بالعاج فيما صنعوه من خزائن وصناديق وموائد مختلفة وأسرة وأبواب وغيرها . وهذا ما جعل صناعتهم تختلف من حيث الشكل عن باقي الصناعات .

8 . صناعة الجلد : (Tannage) طورها الأندلسيون الموركسيون فأصبحت أكثر إتقاناً ودقة مما كانت عليه ، وقد ساعد على ذلك وجود أحواض خاصة خارج مدن الجزائر والبليدة تعالج فيها الجلود قبل توجيهها إلى مشاغل الإسكافيين .

9 . صناعة الخزف والأدوات الفخارية : (Céramique et Poterie) اشتهر بها خاصة أندلسيو شرشال الذين كانوا يصنعون أنواعاً مختلفة من الجرار : (Vases) والأدوات المنزلية الفخارية التي كانت تختلف عما كان موجوداً بالبلاد وذلك بصلابة فخارها وتنوع نقوشها وكثرة رسومها . أما أندلسيو البليدة والجزائر فقد عرفوا هم الآخرون بصناعة نوع جيد من الخزف المزجج بالطلاء : (Céramique de l'email) في شكل بلاطات صغيرة مربعة مكسوة بالطلاء : (Emaillée) تعرف بالزليج : (Zelidj) ويستعمل عادة في تغطية المنازل وكساء الجدران وتزيين العيون العامة ومداخل البنايات .

وبالإضافة إلى هذه الصنائع فإن الأندلسيين بمقاطعة الجزائر كان لهم دور مهم في نشاطات أخرى فقد شاركوا الصناع المحليين في بناء السفن بترسانة الجزائر وشرشال ، وفي معالجة الألياف : (Vannerie et Sparteries) لصنع "السلال" والأفرشة والأكياس والحبال وفي تصبير الأسماك وطحن الحبوب بواسطة المطاحن المائية التي أقيمت خارج المدن على مجاري المياه ومن أهمها ما كان موجوداً خارج الجزائر وبفحوص مدينة البليدة ، فقد أمكن لبعض الصناع الموركسيين بهذه المدينة أن يقيموا عدة مطاحن على ساقية وادي سيدي محمد الكبير تقدر طاقتها اليومية حسب تقديرات الفرنسيين عند احتلالهم للمدينة مما لا يقل عن ألف كيس من الدقيق .

جـ. دور الأندلسيين الموركسيين في الحياة الاجتماعية لمقاطعة الجزائر:

بغض النظر عن التصنيف المتعارف عليه عند الكتاب الغربيين من مدجنين: (Mudéjars) خضعوا لحكم النصارى بإسبانيا ولم يرغموا على التنصير ولم يتعرضوا لطمس هويتهم الإسلامية أو موركسيين: (Moriscos) تعرضوا إلى عمليات الإدماج والتمسيح القصري قبل طردهم خارج إسبانيا باعتبارهم هراطقة أو مسيحيين رديئين: (Mauvais chrétiens)، فإن الأندلسيين الموركسيين الذين استقروا بمقاطعة الجزائر "دار السلطان" كانت غالبيتهم تتألف من الفلاحين والتجار وأصحاب المهن والصناع. وهذا ما يسمح لنا بتصنيفهم اجتماعياً حسب الواقع الذي كانوا يعيشونه في موطنهم الجديد بمقاطعة الجزائر في القرنين السادس عشر والسابع عشر، والذي جعل منهم ثلاث فئات متميزة حسب نشاطها الاقتصادي ومكانتها الاجتماعية، وفي فئة الحضر: (Citadins) المقيمين بالمدن من تجار وأصحاب مهن وحرف، وموظفين، وجنود وعلماء، وفقهاء، وفئة البحارين: (Maraichers) المقيمين بفحوص مدن الجزائر والبليدة والقليعة وشرشال يشتغلون في البساتين والحدائق ويهتمون خاصة بزراعة الخضار والأشجار المثمرة، وفئة الفلاحين: (Agriculteurs) المنتشرين عبر سهل متيجة ومرتفعات الساحل وسفوح الأطلس. على أن تلاحم العناصر الأندلسية الموركسية فيما بينها رغم اختلاف مهنها وتباين مكانتها الاجتماعية حال دون دراستها اجتماعياً، مع العلم أن الإشارات الواردة في مختلف المصادر مع نهاية القرن السادس عشر تكاد تخلو من التأكيد على تمايز فئات العنصر الأندلسي الموركسي داخل المدن وخارجها، وهذا ما يجعلنا ننظر إلى الأندلسيين الموركسيين على أنهم مجموعة واحدة يغلب عليها الطابع الحضري وإن اختلف أفرادها وتعددت نشاطاتهم، فالكل معتد بأصوله الأندلسية متحفظ في علاقاته وتعامله مع باقي السكان، بل إن بعض الأندلسيين الموركسيين حسبما ورد في بعض الوثائق كان يعتبر نفسه في دار هجرة مؤقتة، وقد ظل هذا الشعور يراود أحفادهم لعدة أجيال، ولعل هذا ما جعل سكان القليعة ولا سيما البليدة ينظرون إلى سكان متيجة على أنهم غرباء عنهم، وقد عبروا عن ذلك باتخاذهم موقفاً متحفظاً منهم قد يفهم منه نوع من الترفع عن باقي السكان الآخرين.

ولعل أهم ما يميز الأندلسيين عن باقي السكان بمقاطعة الجزائر هي وضعيتهم الميسورة ومكانتهم المتميزة فأغلبهم يعتبر من الطبقة الغنية من المجتمع لاحتكارهم للصناعات والمهن المربحة وسيطرتهم على مقاليد التجارة وتوليهم استخلاص الضرائب وعتق الأسرى وممارستهم الجهاد البحري فلم تزاحمهم في ذلك إلا بعض العائلات الحضرية وجماعة اليهود، وقد ساعدهم على الاحتفاظ بهذه المكانة الخاصة تأييدهم للدولة ومصاهرتهم للحكام الأتراك وبعض موظفي الديوان الكبار، فقد تزوج العديد من الباشوات والرياس والضباط من أندلسيات موركسيات نذكر منهم عائشة بنت الحاج بشير باشا التي تزوجت القائد داود، ولعل هذا الوضع هو الذي جعل الأندلسيين الموركسيين يشكلون طائفة يمكن أن نطلق عليها تجاوزاً طبقة برجوازية في مجتمع مدن الجزائر والبليدة والقليعة وشرشال، وقد ساعدت هذه الوضعية الميسورة لجماعة الموركسيين الأندلسيين من أن يساهموا في مداخيل الخزينة مثل جماعة الموركسيين بشرشال التي كانت تتعهد لحاكم الجزائر سنوياً بجباية لا تقل عن 60000 دوقة، بعد أن أصبح جل أفرادها يمتلكون العديد من العقارات داخل المدن وخارجها. وهذا ما تؤكده لنا الوثائق الخاصة ببعض أثرياء الأندلسيين والذين نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر بعض الأشخاص بمدينة الجزائر اعتماداً على وثائق الأرشيف الجزائري وهزم ابن علي الأندلسي وحسن بن سعيد الأندلسي وأحمد بن سعيد الأندلسي وحطاب بن محمد الأندلسي ومحمد بن حفص عمر الأندلسي ومحمد بن أحمد الأندلسي وعلي بن حسن الأندلسي وأبو عبد الله محمد الأندلسي وغيرهم.

ومما يلاحظ أن العنصر الأندلسي الموركسي ارتبط في نشاطه التجاري ومعاملاته الاجتماعية بجماعات اليهود السافرديم، فقد هاجرت جماعات من اليهود بصحبة الأندلسيين إلى مقاطعة الجزائر بعد أن تعرضوا للاضطهاد على غرار المسلمين، فتكاثر عددهم بحيث بلغ في مدينة الجزائر وحدها في القرن السادس عشر حوالي 8000 نسمة أندمج أغلبهم في المجتمع واتخذ من اللسان العربي لغة له ونشط في مختلف المهن والصنائع ذات المردود المادي المرتفع مثل تجارة الجملة والصرافة وصناعة الحلي؛ بحيث لم يعد يميزهم عن غيرهم من الأندلسيين الموركسيين سوى شعائر معتقدهم اليهودي والتزامهم بارتداء لباس

ذي لون داكن وامتناعهم عن ركوب الخيل وحمل السلاح نظراً لكونهم من أهل الذمة.

وقد ساعد على اندماج جماعات اليهود الأندلسيين بمقاطعة الجزائر وجود رجال دين بينهم نجحوا في خلق علاقات طيبة بينهم وبين باقي السكان المسلمين مثل الربي إسحاق بن شيشات برفات المعروف بريباس : Isaac Ben sheshet " : ـ : Barfat dit "Ribbach" (ت 1408) والربي سيمون بن شماك دوران المدعو راشباش : "Simon ben Zémah Duran dit Rashbach" : (ت 1442) ويوسف طويبة (ت 1625) وقابيسون : "Gabisson" (ت 1698) وغيرهم.

هذا ويبرز التأثير الاجتماعي للعنصر الأندلسي الموريسكي بمقاطعة الجزائر فيما يتصل خاصة بالتقاليد، فقد حافظ الأندلسيون الموريسكيون على تقاليدهم الخاصة سواء في المعاملات أو في الأفراح وطرق الطهي ونوعية اللباس والأكل، كما حافظوا على مظاهر مميزة للاحتفال بالأعياد والمواسم الدينية مثل المولد الشريف وليلة القدر وعاشوراء وعيد الأضحى "العيد الكبير" وعيد الفطر "العيد الصغير"، فقد كانوا يحرصون على ترديد الأناشيد والقصائد والمدائح الدينية في هذه المواسم الدينية، كما كانوا مولعين بالغناء وعزف الموسيقى في الأفراح عند الولادة والختان والخطبة والزفاف، فقد كانت الأجواق الأندلسية تعزف الموشحات والأغاني التي كان يتخللها دق الطبول وضرب النوبة وعزف الزرنة على نغمة "دلي دلي" التي ظلت معروفة حتى اليوم في الوسط الجزائري، وأثناء ذلك كانت تقدم مختلف أنواع الأطعمة والحلويات التي امتزجت فيها التقاليد الأندلسية بالأذواق التركية والعربية والأوربية التي أتى بها الأتراك وحافظ عليها الحضر وأدخلها الأسرى المسيحيون، وهذا ما جعل تقاليد الأطعمة خاصة تتميز بذوق أندلسي تركي ظلت تحافظ عليه العائلات الحضرية الجزائرية من أندلسيين ويهود حتى حلول الفرنسيين بالجزائر الذين عملوا على طمس تلك التقاليد المتوارثة ومحو آثارها.

أما من حيث اللباس، فقد نجح الأندلسيون الموريسكيون في فرض أذواقهم على غالبية سكان مدن الجزائر والبليدة والقليعة وشرشال حيث كان جهاز المرأة يتألف من عدة ملابس نذكر منها القمجة : (Chemisette) والطوق : (Cols) والفستان :

(Cotillon) ومحرمة : (Foulard) والمشير والفريملة والجابادولي والصارمة والقفطان والصدرية والمحيرمة (Mouchoir de main) والقرياطة : (Ctavatt) والبنيقة (Bonnet) والملاية : (Grand ـ toile) والبليغة والريحية وغيرها.

وقد تميزت القندورة من بين هذه الملابس وأصبحت لها شهرة وكانت تلبس عادة فوق الغليلة، وتتميز القندورة بأنها ذات أكمام واسعة مطروزة بالشبكة الفضية والذهبية على شكل صفين متوازيين تلتصق بها الأقفال الذهبية تشد على الجسم بأحزمة حريرية مطرزة ومرصعة بقطع الذهب الخالص بحيث تزيد المرأة جملاً وبهاءً.

أما ما يخص جانب اللغة فإن الأندلسيين نشروا في الوسط الحضري بالجزائر لهجة "أهل الأندلس" التي كانت شائعة بغرناطة وهي تتميز بمفرداتها اللطيفة وعبارتها الرقيقة والتي غالباً ما ينطق القاف فيها ألفاً، فهي عكس لهجة باقي السكان الآخرين الذين يغلب عليهم الطابع البدوي، على أن انكماش العنصر الأندلسي الموريسكي بعد ذلك، جعل هذه اللهجة يغلب عليها نطق أهالي الريف على المدن مع الاحتلال الفرنسي، ولم تعد آثارها باقية سوى في نطق أهالي شرشال حتى القرن الماضي.

وقد استطاع الأندلسيون منذ أواخر القرن الخامس عشر نشر اللسان العربي الدارج في المناطق الجبلية القريبة من شرشال والبليدة خاصة حيث أصبحت غالبية السكان تستعملها بجانب اللهجة البربرية المحلية العربية الدارجة في مناطق الشنوة وبني مناصر وبني صالح وغيرها، هذا في الوقت الذي عمل فيه الموريسكيون في مدينة الجزائر خاصة على شيوع لغة الفرنكا : (Langua franca) التي تغلب عليها الكلمات الإسبانية، وذلك لكون العديد من العائلات الموريسكية في القرن السادس عشر كانت تميل إلى استعمال القشتالية (اللغة الإسبانية) وقد ظلت كذلك لفترة طويلة، مما جعل التعابير الإسبانية شائعة لدى العديد من الأسر الموريسكية، وهذا ما أكده بعض الرحالة والقناصل ورجال الدين الأوربيين الذين تعرفوا على الجزائر أثناء القرن الثامن عشر مثل لوجي دي تاسي (Laugier de Tassy) 1725، والطبيب شاو : (D Shaw) 1732، وكوندامين : (Condamine) 1731، وفاليار : (Vallière)1781 وغيرهم.

د. دور الأندلسيين الموريسكيين في الحياة الثقافية والفنية بمقاطعة الجزائر:

لم يقتصر تأثير العنصر الموريسكي الأندلسي على النشاط الاقتصادي والعلاقات الاجتماعية بمقاطعة الجزائر فقط إذ كان له دور مهم في ميدان التعليم ومجال الفن ونمط العمارة.

فمن حيث الدعوة الدينية نلاحظ أن توافد الأندلسيين الموريسكيين إلى البلاد الجزائرية وخاصة إقليم الجزائر "دار السلطان" عمل على تعميق الإحساس بالانتماء الحضاري العربي الإسلامي لدى السكان والذي ساعد على توطيد ودعم مكانة الفقهاء في المدن وزيادة نفوذ المرابطين بالأرياف، وذلك منذ فترة متقدمة تعود أساساً إلى مبادرات علماء وصلحاء أهل الأندلس بالمغرب الأوسط كان في طليعتهم الولي الغوث الشيخ شعيب بن الحسين الإشبيلي الأندلسي المعروف بأبي مدين المتوفي بتلمسان (594هـ/1197م).

هذا ورغم أن الهجرة الأندلسية الموريسكية المتأخرة في القرن السادس عشر والتاسع عشر لم تكن غالبية أفرادها يمتلكون معارف ثقافية تضاهي مستوى الهجرات السابقة من حواضر الأندلس الكبرى مثل قرطبة وإشبيلية وغيرها. إلا أنها ضمت بين أفرادها بعض الصلحاء والفقهاء الذين استطاعوا بإخلاصهم وتفانيهم وتعاونهم مع الفقهاء والمرابطين من أهل البلاد مثل سيدي أحمد بن يوسف دفين مليانة سنة 951/ 1524 أن يجندوا السكان إلى الدعوة إلى الجهاد لطرد النصارى من السواحل، وهذا ما سمح لهم بأن يكونوا عوناً للأخوين عروج وخير الدين في توحيد البلاد الجزائرية وربطها بالدولة العثمانية، وسنداً للحكام العثمانيين من بعدهم بالجزائر.

ويعود هذا الموقف الأندلسي الموريسكي المؤيد للعثمانيين والمعادي لخطط الإسبان بالمغرب الأوسط إلى شعورهم بالظلم وتأثرهم بضياع وطنهم الأصلي إسبانيا وطردهم منه وتشريدهم وتتبعهم بسواحل بلاد المغرب لكونهم مسلمين، وهذا ما زاد في حقدهم وكراهيتهم للإسبان، وقد لاحظ ذلك العديد من الكتاب الأوروبيين في القرن السادس عشر الذين اعتبروا العناصر الموريسكية بالجزائر أشد وأقسى أعداء للمسيحيين وقد أورد لـ كارداياك في كتابه الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون بأن هؤلاء الكتاب كانوا مقتنعين بأن

الأندلسيين الموريسكيين لا يمكن أن يشفى غليلهم من الإسبانيين، وليس من السهل إشباع عطشهم لإراقة الدم المسيحي، بل ذهب الأمر بأحدهم وهو هايدو عندما نقل روايات الأسرى المسيحيين بالجزائر إلى القول بأن: "كل الأماكن والمنازل والشوارع والحقول والبساتين بالجزائر حيث يوجد الأندلسيون هي في الواقع المسكن الطبيعي للشيطان إذ لا تسمع فيها إلا الضرب والتعذيب والآلام المتكررة والعديدة .. لقتل المسيحيين...".

هذا ولم يقتصر دور صلحاء وعلماء الأندلسيين على إثارة الحماس ودعوة الناس إلى الجهاد وتوحيدهم للتصدي للنصارى، بل تعداه إلى الأعمال الخيرية والخدمات التعليمية فقد تفانوا في رعاية شؤون السكان وعملوا على إنشاء الزوايا ومعاهد العلم، وهذا ما زاد من تقدير السكان لهم وأكسبهم أتباعاً من مختلف فئات السكان فأصبح بذلك الولي الأندلسي سيدي فرج محل تقدير، وتحول ضريحه بعد موته إلى مزار، ونال سيدي يعقوب الشريف الزبوج القرطبي حظوة كبيرة لدى العامة عندما استقر بسفوح الأطلس البليدي بعد هجرته من الأندلس وانتقاله من مراكش إلى الحج، فتحول ضريحه إلى مكان للزيارة والتبرك بعد أن وافته المنية بمقره بحوش الشفة حوالي سنة 927هـ/1521م. وكذلك سيدي أحمد الكبير الأندلسي الذي استقر بمواطن قبيلة أولاد سلطان وتزوج منهم فتنازلوا له عن نصف أراضيهم إكراماً له فأنشأ عليها مدينة البليدة وأقر بها المهاجرين الأندلسيين الوافدين على الجزائر، وقد ظل طيلة حياته مؤيداً للأتراك ومناصراً لخير الدين بربروسة، وبعد وفاته سنة 944هـ / 1540م. ظلت ذكراه عالقة بأذهان العامة، وأصبح عقبه محل إكبار وإجلال من قبل سكان البليدة ونواحيها، ويماثله في ذلك سيدي علي بن مبارك الأندلسي الذي التف حوله المدجنون الأندلسيون بالقليعة وأصبحت له الكلمة المسموعة في مناطق متيجة الغربية أثناء حياته وبعد موته (سنة 1040هـ/ 1631م) وقد ذهب العامة في تعلقهم به إلى أنهم كانوا ينسبون إليه كرامات من وحي خيالهم، مثل اعتقادهم بأن سيدي علي مبارك كان يتحول إلى أسد عندما يكون غير راض عن تصرفات أحد أتباعه، هذا وقد ظلت سلالة هذا الولي الأندلسي تحظى بالتقدير لدى السكان، ولاحظ الفرنسيون ذلك عندما احتلوا القليعة، فقد التف سكان منطقة متيجة والأطلس البليدي حول أحد أحفاد سيدي علي بن مبارك وهو الحاج محي الدين آغا الذي ألقى القائد الفرنسي القبض عليه، مما اضطر السلطات الفرنسية فيما بعد إلى اطلاق سراحه (1832) حسبما تؤكده العديد

من مراسلات سكان القليعة مع الحاكم الفرنسي في هذا الشأن.

وتبرز خاصة مساهمة ذوي الصلاح والعلم بين الجماعة الأندلسية الموريسكية في مقاطعة الجزائر فيما أسسوه من زوايا وما أنشؤوه من معاهد العلم ذات المستوى العالي، والتي كانت مقصد الطلاب من مختلف الجهات لتتلقى العلوم اللغوية والدينية التقليدية وبعض المعارف العصرية كالحساب والفلك والمنطق والطبيعة والتاريخ وغيرها حسبما يفهم من العديد من إجازات إنهاء الدروس بهذه المعاهد.

ومن أشهر هذه الزوايا والمعاهد الأندلسية بمقاطعة الجزائر:

1) زاوية أهل الأندلس الملحقة بالمسجد الذي أقامه بعض صلحاء الأندلس بحي مسيد العدالية بمدينة الجزائر، وقد ظلت هذه الزوايا منذ إنشائها سنة 1639 مقصد العديد من الطلبة ولم تتوقف عن مهمتها التعليمية إلى أن تعرضت للإهمال، فتهدم قسم منها في السنوات الأولى للاحتلال الفرنسي للجزائر (1843)، وقد اشتهر من رجالاتها الذين كانوا يشرفون على مختلف الخدمات الاجتماعية والثقافية بها حسب وثائق المحاكم الجزائرية كل من محمد بن محمد الآبلي ومحمد العنجدون ومحمد السميع وابن علي الأندلسي ومحمد بن بكير ومحمد بن علي الأندلسي وعلي بن علي الأندلسي والحاج أحمد بن قاسم ويوسف بن سلمان وابن الحاج أحمد بن جعفر وغيرهم كثيرون. فقد عمل هؤلاء الفقهاء والوكلاء والنظار الأندلسيون على رعاية الأوقاف العديدة للأندلسيين وتنمية مداخيلها داخل وخارج مدينة الجزائر حتى بلغت حسب سجلات الأرشيف الجزائري (دفاتر البايليك) في أواخر القرن التاسع عشر (1224 - 1809) ما لا يقل عن 142 وقفاً منها 75 كانت تتقاسمها مؤسسة الأندلسيين مع مؤسسة الحرمين ومع عامة الناس.

2) زاوية سيدي أحمد الكبير الأندلسي بالبليدة التي تخرجت منها أفواج عديدة من طلبة العلم أغلبهم من نواحي متيجة وجهات الأطلس البليدي وخاصة من بني صالح وبني خليل.

3) زاوية سيدي علي بن مبارك بالقليعة التي ظلت منذ تأسيسها على يد الولي الذي تنتسب إليه في أوائل القرن السابع عشر تقدم التعليم وتوفر الايواء للطلبة خاصة،

وهذا ما أكسبها مكانة خاصة بين السكان في تلك الجهات، وجعلها ملجأ للهاربين من بطش الحكام.

هذا بالإضافة إلى الزوايا الأخرى التي عمل بها الأندلسيون والتي كانت تعلم القرآن ومبادئ اللغة والفقه بأوطان بني جعاد وبني خليل وسماته وفرومة، كما ساهم الأندلسيون أيضاً في نشاط الزوايا الكبرى ببلاد القبائل مثل زاوية الشيخ محمد التواتي ببجاية وزاوية سيدي عبد الرحمن بن سعيد اليلولي (ت 1105هـ - 1694م) حيث كانت مقصد الفقهاء الأندلسيين وملجأ الصالحين منهم.

أما في ميدان الأدب ومجال الموسيقى والغناء. فقد طبع الأندلسيون الموريسكيون الحياة الفنية بمقاطعة الجزائر "دار السلطان" بطابع خاص مميز، فقد شاع نظم الموشحات وتلحين الأغاني التي حافظت على بنائها اللغوي وطريقة إنشادها حسب تقاليدها الأندلسية والتي تعود بدايتها كما هو معروف إلى النصف الأول من القرن الرابع الهجري على يد ابن عبد ربه في عهد عبد الرحمن الناصر وقبل أن تكتمل نماذجها في فترة لاحقة على يد أقطاب الموشحات مثل بن زهر ولسان الدين ابن الخطيب وبن زمرك وغيرهم.

لقد اعترى الموشحات الأندلسية بموطنها الجديد بمقاطعة الجزائر ضعف البناء اللغوي وتراجع في المستوى الشعري فغلبت على مقاطعها الدارجة أو العامية ودخلتها تعبيرات لغة الفرنكا ذات الأصول الإسبانية، إلا أنها مع ذلك ظلت وفية لتقاليد الموريسكيين، معبرة بصدق عن أحاسيسهم وشعورهم وحنينهم إلى وطنهم الأصلي حتى إنها أصبحت بتوارثها وانتقالها جيلاً عن جيل أقرب إلى تلاوة التراتيل أكثر منها إلى تلحين وإنشاد القصائد، فهي مع غموض لغتها إلا أنها ظلت تحترم في أغلبها البناء التقليدي الذي كان يتألف خاصة من أغصان فتستهل بمطالع قد تصبح أقفالاً إذا ترددت في الغناء، وقد يشتمل الدور فيها على ثلاثة أو خمسة أجزاء بين عدة أقفال قبل أن تنتهي بخرجة تعزف بألحان خفيفة وبطريقة مميزة، وهي ببنائها هذا قد تتعرض لمواضيع الغزل وقد تتناول وصف الطبيعة بالإضافة إلى المولوديات والإخوانيات، وهي بذلك تعكس بحق النموذج الأندلسي المغربي المتوارث والذي حافظت عليه الأجواق المحلية بالجزائر والبليدة وشرشال حتى الآن.

غلب على الموشحات قصائد المدح "المولوديات" والتي مالت إلى السجع والمحسنات البديعية واختصت بذكر صفات ومآثر الرسول ﷺ، وقد اشتهر في ذلك أبو العباس أحمد بن عمار الجزائري الأندلسي الأصل مفتي المالكية (1766م) وصاحب "نواة الحصر في قلائد العصر" و"نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب"، الذي عرف بقصائده اللطيفة في الإخوانيات والمولوديات والتي نورد منها على سبيل المثال مطلع قصيدة نظمها في مولد النبي ﷺ (سنة 1166هـ/ 1753م) مطلعها:

يـــا نـــسيما بـــات مـــن زهـــر الربـــا
تقتـــــــــــــــــي الركبـــــــــــــــان
احملــــــن منــــي ســــلاما طيبـــــــا
لأهـــــــــــــــــل البـــــــــــــان

ويماثله في ذلك عمر بن محمد بن سيدي علي الأندلسي قاضي الحنفية (1163هـ/1749م) الذي كانت له مساهمة متميزة في المدح، وهذا ما جعل تلميذه ابن عمار يشير إليه في إحدى قصائده بقوله:

قـــد كـــان بـــاب الـــنظم قبلـــك مغلقـــاً
ففتحتـــــــه يـــــــا فـــــــاتح الأبـــــــواب

ونفس المدائح "المولوديات" اشتهر بها العالم الفقيه الأندلسي محمد بن الشاهد المتوفي سنة (1207هـ/1793م) والذي عرف بترديده لموشحات ابن سهل وبن زهر ولسان الدين بن الخطيب، هذه الموشحات التي كانت تنشد على الآلات الموسيقية في المواسم الدينية وفي الحفلات والسهرات المنزلية حيث كانت تجتمع الأسر الأندلسية على ضوء الشموع للتسلي والترويح عن النفس بالإنصات إلى انشاد المدائح وترديد القصائد الدينية والأغاني التقليدية المتوارثة، هذا ولقد مهر سكان دلس وشرشال وبعض الأسر من الجزائر والبليدة والقليعة بالعزف على مختلف الآلات الموسيقية الوترية منها كالعود (الكويترا) والرباب والقانون والكامنجا، أو الصوتية كالقصبة والزرنة والغايطة، أو الإيقاعية كالطبل والصنوج والدف والطبيلة والطار والدربوكة وغيرها التي حسن بعض أنواعها الصناع الأندلسيون مثل القصبة

والبندير، وجلبوا بعضها من مواطنهم الأصلية بالأندلس مثل الكامنجا والكويترا خاصة.

ويرتبط بهذه الحياة الفنية التي ميزت حياة الأندلسيين الموريسكيين، نمط وأسلوب العمارة التي أدخلوه إلى مقاطعة الجزائر، فقد أصبحت أماكن تجمعهم بمدن وفحوص الجزائر والبليدة وشرشال والقليعة ودلس تتميز بطابعها العمراني الخاص، الذي أكسبها منظراً لطيفاً وهندسة مميزة، فالمنازل في أغلبها تتألف من طابق أرضي يعتمد على أعمدة خشبية ومقام بالآجر والطين المعالج، وقد تستعمل فيه الحجارة كما هو الحال في منازل دلس وشرشال، وتفتح بيوته المستطيلة التي تنعدم فيها التهوية الخارجية على فناء صغير تحف به الأقواس لا يخلو وسطه من عين ماء أو بئر خاص وبعض أشجار البرتقال والليمون والكرمة، هذا وفي بعض الأحيان يضاف للطابق الأرضي طابق آخر علوي كما هو الشأن بمدينة الجزائر والجزء المرتفع من مدينة البليدة القريب من الجبل وهو في الغالب مكان للراحة، وقد توجد في بعض المنازل نوافذ تطل على الأزقة، وهي غالباً ما تكون صغيرة محمية بالشبابيك التي تخفي الزخارف والمخصصات والتخاريم والنقوش التي تغطي الجدران والسقوف وقد تغطى كذلك أرضية الغرف بالزليج ذي الأشكال الهندسية اللطيفة في بعض المنازل.

أما المنظر الخارجي للمنازل فهو يتميز خاصة بطلائه الأبيض الناصع بمادة الجير التي اشتهرت بها مدينة الجزائر التي عرفت "بلد الجير" هذا ويستخدم القرميد الأجوف: (Tuiles crues) الأحمر أو المائل إلى الزرقة في تغطية المنازل كما هو الحال في مدن البليدة وشرشال والقليعة ودلس، إذ لم تستعمل السطوح التي كانت تميز الطابع العمراني التقليدي المحلي بشكل واسع من طرف الأندلسيين الموريسكيين إلا في بعض منازل الجزائر لملاءمتها للوضع الجغرافي ذي المنحدرات التي يسمح لها أن تطل على البحر مباشرة.

هـ- انكماش دور الأندلسيين الموريسكيين واختفاء تأثيرهم في مقاطعة الجزائر:

على أن هذه المساهمة البارزة في مختلف أوجه الحياة للعنصر الأندلسي الموريسكي بمقاطعة الجزائر طيلة القرن السادس عشر والسابع عشر ما لبث أن ضعف

تأثيرها وانحصرت مجالات نشاطها مع مستهل القرن الثامن عشر ، قبل أن يختفي ويتلاشى أثرها باندماج العنصر الأندلسي الموركسي في بقية السكان مع مطلع القرن التاسع عشر ، فالكتابات التي اهتمت بالوضع الداخلي للجزائر في القرن الثامن عشر والربع الأول من القرن التاسع عشر تذكر تلاشي الجماعة الأندلسية الموركسية في جميع مقاطعة الجزائر مثل مذكرات القنصل فاليار : (Consul vallière) التي سجلها عام 1881 ، وتقاييد المستشرق فانتور دي بارادي : (Venture de Paradis) التي تعود إلى سنوات 1788 ـ 1890 ، وتقارير الضابط بوتان : (Boutin) في سنة 1808 ، فهذه المصادر لم تعد تذكر الأندلسيين على أنهم عنصر متميز في المدن ، فهم كغيرهم من سكان المدن البلدية يحملون اسم المور : (Maures) هذا في الوقت الذي أصبح فيه الاهتمام منصباً على جماعة الأتراك والكراغلة والبرانية . كما أن دفاتر البايليك بالأرشيف الجزائري يستنتج مما تضمنته من معلومات على اضمحلال الجماعة الأندلسية الموركسية في مجتمع مقاطعة الجزائر ، فلم تعد تشير إلا إلى سبعين فرداً من الأندلسيين المنتفعين بأوقاف مؤسسة الأندلس .

ومما يلاحظ أن انكماش العنصر الأندلسي الموركسي ارتبط بالظروف الداخلية والضغوط الخارجية ، ولعل من أهم العوامل التي حدت من حيوية الأندلسيين وأضعفت تأثيرهم ودفعتهم إلى الاندماج في بعض الطوائف هو استبداد بعض الحكام وقادة الجيش وعملهم على جعل الإدارة في خدمة التنظيم العسكري (المتمثل في فرق الوجاق) والتي حدت من إمكانية التطور الاقتصادي وأعاقت العلاقات الاجتماعية القائمة على تشجيع العمل المنتج والمبادرة الفردية للجماعة الأندلسية ، يضاف إلى ذلك انغلاق الطائفة التركية على نفسها ورفضها مشاركة الأندلسيين لها في امتيازاتها ، ومنافسة جماعة الكراغلة والبلدية للعائلات ذات الأصول الأندلسية وضغط القبائل الجبلية والجماعات الريفية على الوسط الحضري بالمدن حيث يتركز العنصر الأندلسي الموركسي ، فالمضايقات التي تعرض لها الأندلسيون الموركسيون منذ حلولهم بمقاطعة الجزائر ، وحتى قبل التحاق الجزائر بالدولة العثمانية أثرت سلباً في موقف الأندلسيين ، وهذا مايستنتج من بعض الأحداث ، منها على سبيل المثال أن جماعات من الموركسيين

المستقرة حديثاً بمدينة الجزائر حملت مسؤولية الجفاف الذي حل بالجزائر ومنطقتها سنة 1512 ، وتذهب بعض الروايات إلى حد القول بأن متولي الشرطة بمدينة الجزائر قد أعطى لجماعة الأندلسيين مهلة ثلاثة أيام لمغادرة المدينة ولم يتردد في قتل بعض المرضى والفقراء منهم الذين لم يستطيعوا الخروج من المدينة في المدة المحددة لذلك ، ولعل مثل هذه التصرفات هي التي دفعت بعض الجماعات من الأندلسيين إلى التطلع نحو الملوك السعديين بالمغرب ، فحسب المعلومات التي أوردها بيدرو هرنانديز (PédroHernandez) أن جماعة من أهالي بلنسية وأراغون بالجزائر ذهب بهم العداء للحكام الأتراك إلى طلب الانضواء تحت حكم الشيخ المهدي السعدي وقد طلبوا منه أن يرسل لهم ابنه مؤكدين له أنهم على استعداد لتأييده ضد الأتراك ، وعلى كل فإن مثل هذه المواقف ظلت محصورة في بعض الأشخاص ؛ لأن غالبية الأندلسيين الموركسيين كانت تعتبر نفسها حليفاً طبيعياً لحكام الجزائر ، لاسيما وأن جل هؤلاء الحكام كانوا طيلة القرن السادس والسابع عشر يفضلون التعامل مع الأندلسيين الموركسيين ويتقربون بهم ويخصونهم بالامتيازات قبل أن يضعف تأثير العنصر الأندلسي .

يضاف إلى هذه الأوضاع التي حدت من تطور الجماعة الأندلسية بالجزائر تفوق الأساطيل الأوروبية على القوة البحرية الجزائرية الذي لم يسمح بأي اتصال مباشر مع إسبانيا خارج العلاقات الدبلوماسية والتجارية الضيقة ، قد يحافظ على صلة الأندلسيين الموركسيين بمواطنهم الأولى ، وقد صاحب ذلك انكماش عمران المدن وانحصار فحوصها وفقر الريف من سكانه من جراء ظهور الأوبئة وبسبب انعدام العناية الصحية وانخفاض مستوى المعيشة الذي زاد من حدته تناقص الإنتاج وتكرر المجاعات بمقاطعة الجزائر ، ونتج عن ذلك تقلص سكان مدينة الجزائر إلى أقل من الثلث ، فلم يعد عددهم يتجاوز حسب أكثر الاحتمالات تواراداً الخمسين ألفاً ، وقد كانوا في أواخر القرن السادس عشر يقدرون بحوالي المائة والعشرين ألف نسمة . أما البليدة فقد عرفت هي الأخرى نفس الظاهرة ، فتناقص سكانها واندمجت العديد من العائلات الأندلسية في بقية الطوائف ولم تعد تضم سوى 800 مسكن في مطلع القرن الثامن عشر قبل أن تتعرض للتدمير بفعل زلزال عام 1825 الذي أنقص سكانها فلم يعد يتجاوزون عدة آلاف ، ونفس الظاهرة عرفتها

مدينة القليعة التي فقدت هي الأخرى أكثرية سكانها، فلم يعد مجموع الأندلسيين بها مع من انضم إليهم من الأتراك والكراغلة متقاعدين أو مبعدين عن مدينة الجزائر يتجاوزون على الأرجح 3500 نسمة في أواخر القرن الثامن عشر، هلك أكثر من نصفهم في زلزال 1825، وهذا ما جعل سكانها عشية الاحتلال الفرنسي (1830) لا يتجاوزون حسب أغلبية الروايات 1800 نسمة. أما شرشال فهي الأخرى قد انكمش عمرانها وتضررت تجارتها واضمحلت صناعة الأقمشة بها ولم يعد سكانها الأندلسيون ومن انضم إليهم من الأهالي يهتمون بتربية دودة الحرير، فقد فضلوا استغلال الفحوص الملاصقة لأسوارها والانزواء داخل منازلها التي لم تعد تضم مع مطلع القرن التاسع عشر 3000 أو 4000 نسمة على الأرجح بعد أن تضرروا من مهاجمة القبائل الجبلية القريبة وأصبحوا يعانون من استبداد حكام الجزائر، وغير بعيد عن شرشال خلت برشك الأندلسية من سكانها وتحولت إلى أنقاض فلم يجد الطبيب الإنكليزي شاو : (D Shaw) الذي تعرف على سكانها سنة 1725 أي منزل قائم بها. وقد كانت في القرن السادس عشر تضم العديد من السكان داخل أسوارها التي يزيد طولها عن ميل ونصف وفي الطريق الشرقي لمقاطعة الجزائر عرفت دلس الأندلسية اضمحلالاً مبكراً بفعل انتقال العديد من سكانها إلى الجزائر تحت ضغط قبائل جرجرة وتهديدات الأساطيل الأوروبية، فوصفها التامغروتي في رحلته عند مروره بها (سنة 1591) بأنها " مخربة تماماً ويسكنها سكان قليلون فقراء "، وقد ظلت كذلك فلم يتجاوز سكانها في مطلع القرن التاسع عشر 600 نسمة، يعيشون على صيد الأسماك والاشتغال بتجارة الحبوب والزيت مع مدينة الجزائر.

وبفعل هذا الانكماش البشري والاضمحلال الاقتصادي طويت صفحة زاخرة كتبها العنصر الأندلسي الموريسكي بمقاطعة الجزائر بما قام به من نشاط اقتصادي وإسهام فني وثقافي وتأثير اجتماعي طيلة القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين، وكان إضافة أصيلة في إغناء التراث التاريخي للشعب الجزائري الذي تميز بتقبله للمساهمات الإيجابية وبمقدرته على تمثلها والانتفاع بها شأن الأمم الحية والشعوب الأصيلة.

المراجع المعتمدة

أ. المراجع العربية:

1. الأرشيف الوطني الجزائر، سجلات البايليك ودفاتر بيت المال ووثائق المحاكم الشرعية.
2. ابن عمار، أحمد، نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب مطبعة فونتانة، الجزائر، 1902.
3. التامقروتي، أبو الحسن علي، النفحة المسكية في السفارة التركية، نشر هنري دوكاستري، باريس، 1929.
4. رزوق، محمد، الأندلسيون وهجرتهم إلى المغرب خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر، الدار البيضاء، 1989.
5. سعد الله، أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى الرابع عشر الهجري (16 ـ 20م) الجزء الأول، الجزائر 1981.
6. سعيدوني، ناصر الدين، الجالية الأندلسية بالجزائر، مساهمتها العمرانية ونشاطها الاقتصادي ووضعها الاجتماعي، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر " العهد العثماني " الجزء الأول، الجزائر 1984 ص ص 127 ـ 147.
7. سعيدوني، ناصر الدين أوقاف الأندلسيين بالجزائر من خلال الأرشيف الجزائري، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر، الفترة الحديثة والمعاصرة، الجزء الثاني، الجزائر، 1988، ص ص 43 ـ 63.
8. الشويحات، عبد الله بن الحاج يوسف، قانون أسواق الجزائر، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية تحت رقم 670.
9. عنان، محمد عبد الله، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين ط3، القاهرة 1966.
10. عبد القادر، نور الدين، صفحات في تاريخ مدينة الجزائر من أقدم عصورها إلى انتهاء العهد التركي، نشريات كلية الآداب الجزائرية، قسنطينة 1565.
11. كارداياك، لوي، الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون، المجابهة الجدلية (1492 ـ 1640) ترجمة عبد الجليل التميمي، منشورات المجلة التاريخية المغربية، تونس 1983.
12. مجهول، كتاب غزوات عروج وخير الدين، تصحيح وتعليق نور الدين عبد القادر، الجزائر 1934.

ب. المراجع الأجنبية:

- Anonyme, Blida par un de ses enfants, Légendes, Histoire, Blida 1876.
- Arvieux (Le chevalier L.d), Mémoire 1646. 1690, T.V, Paris, 1735.
- Ayoun (R) & Cohen (B), Les juifs d'Algerie, deux mille ans d'histoire: judaïque, Paris, 1855.
- Barbier (J) Itinéraire historique et descriptif de l'Algérie, Paris, 1855.
- Baudens (D), Relation d'une expédition de Médéa, pub. par V.Domontés, Paris, 1920.
- Bencheneb (S), Un contrat de mariage algérois au début de XVIIIè siècle, in Annales de l'Institut d'Etudes Orientales d'Alger T.TXIII, 1955, pp. 98. 117. 124.
- Berbrugger (A), Le Fort de cherchel, in Revue africaine, T. 9: . 1865.
- Bernard (V), Description d'Alger et de ses environs, Alger, 1867.
- Bernard (V), Indicateur général de l'Algérie, Alger, 1867.
- Berque (Au), Art musulman en Algérie in VI cahiers du centenaire de L'Algérie, 1930, pp.: 113 . 119.
- Berque (J), L'Algérie terre d'art et d'histoire, Alger, 1936.
- Berthezène (Le Baron), Dix . huit mois à Alger, Montpellier, 1934.
- Brahimi (D.), Quelques jugements sur les maures andalous dans les Régences turques au XVIIIè siècle, in Revue d'histoire et civilisation du Maghreb, N° 9/1970, pp. 39 . 51.
- Braudel (F), La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Phigippe II, 8ème éd., Paris, 1980, T. II.
- Cantineau (J), Les parlers arabes du département d'Alger, in 3ème Congrès de la fédération des sociétés savantes de l'Afrique du Nord, T. II, 1938, pp. 703 . 711.
- Clauzel (Le général), Observations du général Clauzel sur quelques actes de son gouvernement, Paris, 1831.
- Clauzolles (P), Algérie pittoresque, Histoire de L'Algérie, Toulouse 1843.
- Dan (Le P.), Histoire de Barbarie et de ses corsaires, des Royaumes et des villes d'Alger, de Tunis, de salé et de Tripoli, Paris, 1637.
- Dapper (D'O), Description de l'Afrique, Amesterdam, 1686.
- Davity (P), Description générale de l'Afrique, Paris, 1660.
- Delphin (A), Notes sur la poésie et la musique arabes dans le monde maghrébin, Paris, 1886.

- Devoulx (A), La batterie des andalous, in Revue africaine, T. 16/1872, pp. 340 . 342.
- Devoulx (A), Les édifices religieux de l'ancien Alger, Alger.
- Devoulx (A), Notes historiques sur les mosquées et autres édifices religieux d'Alger, Alger, 1912.
- Description géographique et histoire des royaumes et provinces qui composent l'Empire des Chérifs, Paris, 1733, T. II.
- Desfontaines, Fragments d'un voyage dans les Régences d'Alger et de Tunis (1785 . 1786), Paris, 1958.
- Doc (F), Cherchel et la commune mixte de Gouraya, Blida, 1895.
- Emerit (M), Description de l'Algérie en 1787 par l'officier russe Kokotsov, in Revue d'histoire maghrébine, Tunis, N° 4, 1975.
- Emerit (M), Voyage de la Condamine à Alger (1731), in Revue africaine, T. 98 . 1954, pp. 353: . 381.
- Eudel (P), L'orfèvrerie algérienne et tunisienne, Alger, 1902.
- Federmann et Aucapitaine, Notice sur l'Historie de l'adminsitratrion de Beylik de Tetteri, in Revue africaine, T. 9 . 10, 1965.
- Franc (J), La colonisation de la Mitidja, Paris, 1928.
- Gaillard (M), Sur Alger, observations physiques, Paris, 1837.
- Gapart (Le père D.), Histoire véritable de ce qui s'est passé en Turquie, Paris, 1623.
- Golvin (L), Les arts populaires en Algérie "tapis algeriens", Alger, 1953.
- Haëdo (le Bénédictin Fray Diego de), Topographie et histoire générale d'Alger, trad de l'espagnol Par D. Monnereau et A. Berbrugger, in Revue africaine, 1870 . 1871.
- Hamdan ben Othman Khodja, Le miroir, 2 éd., Paris, 1985.
- Jean . Léon l'Africain, Description de l'Afrique, pub. par A. Epaulard, 2 vols. Paris, 1956.
- Jugmann (R), Coutumes, moeurs et usage des algériens, Strasbourg . Colmar, 1837.
- Latham (J.D.), Les Andalous en Afrique du Nord, in Encyclopédie de l'Islam, nouvelle édition, 1966.
- La peyre (H.), Géographie de l'Espagne morisque, Paris, 1959.
- Laugier de Tassy, Histoire du Royaume d'Alger, description de ce royaume, Amsterdam, 1725.

- Lespès (R.), Alger etude de géographie et histoire urbaines, Alger 1930.
- Mantran (R.), La description des côtes de l'Algérie dans le kitab i Bahriye de Piri Reis, in Revue de l'Occident Muslamn et de la Méditerranée, N° 15 - 16 / 1973.
- Marmol Carvajal, Description générale de l'Afrique, traduit de l'espagnol par Perrot d'Ablancourt, 3 vols., Paris, 1687.
- Massignon (L), Elèments arabes et foyers d'arabisation, in Revue du monde musulman, vol. LVII, 1924, pp.: 3 157.
- Massignon (L), Enquête sur les corporations musulmanes d'astisans et de commerçants au Maroc, Paris, 1925.
- Monlaü (J), Les: Etats barbaresques, " Que Sais - je ? ", Paris, 1964.
- Pananti, Relation d'un séjour à Alger contenant des observations sur l'état actuel de cette Régence, traduit de l'anglais par Blanquière, Paris, 1820.
- Péllissier de Reyanud, Annales algériennes, 3 vols., Alger, 1835 1839.
- Penella (J), Le transfert des moriscos espagnols en Afrique du Nord, in Etudes sur les moriscos andalous en Tunisie, préparées par M. Epalza et R. Petit, Madrid, 1973.
- Perrot (A.M), Alger, esquisse topographique du Royaume et de la ville d' Alger, Paris, 1830.
- Piesse (L), Itinéraire de l'Algérie, Paris, 1885.
- Petiet (Au), Jounal de la troisième division de l'armée d' Afrique, 2eme éd., Paris, 1835.
- Pétis de la croix, Alger en 1695, mémoire publié par M. Emerit, in Annales de l'Institut d'Etudes Orientales d'Alger, T. XI, 1935.
- Peyronnet (R.), Le problème Nord - Africain, 2 vols., Paris, 1924.
- Peyssonnel (J.A.), Voyage dans les Régences de Tunis et d'Alger, Paris, 1987.
- Planhol (X. de), La formation de la population musulmane à Blida, in Revue de Géographie de Lyon, 1961, pp. 219 - 230.
- Primaudie (Elie de la), Le commerce et la navigation de l'Algerie avant la conquête française, Paris, 1861.
- Raynal (L'Abbé de), Histoire des établissements des europeéns dans l'Afrique septentrionale, Paris, 1826.
- Reclus (O.E), Nouvelle Geographie Universelle, l'Afrique septentrions T. XI, Paris, 1886.
- Ricard (P), Dentelles algériennes et marocaines, collection Hésperis, N° IV, Paris, 1928.

- Ricard (P), Pour comprendre l'art musulann dans l'Afrique du Nord et en Espagne, Paris, 1924.
- Roqueville (Le sieur de), Relation des moeurs et du gouvernement des turcs, Paris, 1675.
- Rozet (CA) Voyage dans la Régence d'Alger, 3 vols., Paris, 1833.
- Sanson (N. d'Abbeville), L'Afrique en plusieurs cartes nouvelles et exactes, (69 vols.), Paris, 1655.
- Shaw (Dr), Voyage dans la Régence d'Alger, trad. de l'anglais par Mac Carthy, 2 vols., Paris, 1830.
- Sieur de la croix, Relation universelle d'Afrique ancienne et maderne, Lyon, s.d.
- Tableau de la situation des établissements français en Algérie, Paris, années, 1830 - 1837 et 1850 - 1851.
- Trumelet (Le colonel C.), Blida, 2 vols., Alger, 1887.
- Trumelet (Le colonel C.), Les saints de l'Islam, "Les saints du Tell", Paris, 1881.
- Vallière (C.Ph), L'Algérie en 1781, mémoire publié par Chaillou, Toulon, s.d.
- Venture de Paradis, Tunis et Alger au XVIIè siècle, pub. par J. Cuoq, Paris, Sindbad, 1983.

أوقاف الأندلسيين بالجزائر

من خلال وثائق الأرشيف الجزائري(*)

إن أهمية الأوقاف في الجزائر تكمن في تأثيرها المباشر على مختلف أوجه الحياة في الجزائر ، فبفضل مردودها أمكن الإنفاق على القائمين بشؤون العبادة والتعليم من أئمة ومدرسين وطلبة ، كما أصبح من الميسور سد حاجة الفقراء والمعوزين من عوائد الأوقاف ، هذا مع العلم بأن الأنظمة الخاصة بالأوقاف والأحكام المتعلقة بها ساعدت كثيراً على الحد من مظالم الحكام وتعسفهم وعملت في نفس الوقت على تماسك الأسرة الجزائرية بحفظ ثرواتها وإيجاد طرق ملائمة لاستغلال مصادر رزقها عملاً بأحكام الشريعة الإسلامية الخاصة بالوقف الأهلي " الذري أو العائلي "[1].

ونظراً للأهمية التي أصبحت عليها الأوقاف في العهد العثماني بالجزائر ، ولا سيما منذ أواخر القرن الثامن عشر ، فإن الحكام والقائمين على الأملاك المحبسة عملوا على تنظيم شؤون الأوقاف ، فأنشأوا إدارة محلية ، يتولى المفتي الأكبر أو شيخ الإسلام الإشراف عليها ، وينظر في أمورها مجلس يضم الأعيان ورجال العلم والفقهاء يعرف بالمجلس العلمي ، ويشرف على سير مصالحها النظار ، ويسهر على رعايتها الوكلاء والشواش ؛ وبهذه التنظيمات استكمل جهاز الأوقاف تشريعاته وأصبح عبارة عن هيئة شبه مستقلة تتوزع على عدة مؤسسات دينية وخيرية وتعليمية ، أهمها مؤسسة أوقاف

(*) بحث قدم في الندوة الثانية للجنة العالمية للدراسات الموريسكية ، المنعقدة بتونس : 19 ـ 24 سبتمبر 1983 . ونشر في كتاب دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر ، الجزء الثاني ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1988 ، ص ص 43 ـ 61 .

الحرمين الشريفين - مكة المكرمة والمدينة المنورة - ومؤسسة أوقاف الجامع الأعظم، ومؤسسة سبل الخيرات، بالإضافة إلى باقي المؤسسات الأخرى التي تتولى رعاية أوقاف الأولياء والأشراف وأهل الأندلس والجند والعيون والحصون والثكنات "القشلات" إلخ.

وسوف نقتصر في بحثنا هذا على أوقاف الأندلسيين بالجزائر العاصمة ونواحيها وما يتصل بها من وثائق الأرشيف الوطني الجزائري، وذلك قصد المساهمة في التعريف بالجالية الأندلسية وحصر مصادر تاريخها والتعرف على مضمون هذه المصادر.

وقبل التطرق إلى ذلك، يجدر بنا أن نلاحظ أن أوقاف الأندلسيين بالجزائر ظهرت مع تزايد الهجرة الأندلسية إلى السواحل الجزائرية إثر سقوط حواضر الأندلس وإصدار قرارات الطرد الجماعي لعام 1016هـ /1609م، وقد استقرت نتيجة لذلك منذ أواخر القرن الخامس عشر وحتى أوائل القرن السابع عشر - أعداد ضخمة من النازحين الأندلسيين بمدن الجزائر والبليدة والقليعة وشرشال والمدية ومليانة ودلس وتنس وبرشك وجيجل وعنابة وأرزيو ومستغانم وتلمسان، وانتشر قسم كبير منهم حول هذه المدن وفي سهول متيجة ووهران [2].

أما الدافع إلى تخصيص أوقاف لفائدة أفراد الجالية الأندلسية دون غيرهم من المجموعات السكانية، فيعود إلى الظروف التي واجهتها الجماعات الأندلسية عند توطنها البلاد الجزائرية، كما يرجع إلى الأوضاع التي عاشتها الإيالة الجزائرية طيلة العهد العثماني، فقد عرف الأندلسيون في مواطنهم الجديدة بالأرض الجزائرية صعوبات جمة وأخطاراً عديدة ناتجة عن تهديد الإسبان للمدن الساحلية وتصرفات الحكام وعداء البدو بالجهات الداخلية، بالإضافة إلى اختلاف البيئة وأسلوب العيش ومستوى الحضارة، وهذا ما دفع بغالبية الأندلسيين إلى التكتل والبقاء لفترة طويلة منعزلين عن بقية الطوائف، ومما عزز هذا الشعور بالعزلة والانطواء تشوقهم إلى مواطنهم الأولى بالأندلس واعتزازهم بأصولهم التي رأوا فيها نوعاً من النبل والشرف، وتفوقهم في المعارف والمهارات على غيرهم من السكان.

ويضاف إلى هذا أن العائلات الأندلسية العريقة التي اكتسبت في مواطنها الجديدة

بالأرض الجزائرية النفوذ بفعل تعاملها مع الحكام الأتراك، وتحصلت على ثروات ضخمة بممارسة التجارة والصناعة وشراء الأراضي، وتولي العديد من أفرادها المناصب الإدارية والعلمية والدينية، سارعت هي الأخرى إلى تخصيص الأوقاف للإنفاق على المحتاجين من أبناء جلدتها، وذلك حتى تبقي على نفوذها في أوساط الأندلسيين وتظهر نفسها للحكام على أنها الحليف الطبيعي لهم في صراعهم مع الأسبان وفي سعيهم لفرض سلطتهم على البلاد، وقد بقي بعض هذه العائلات محافظاً على مكانته ومعتزاً بأصوله حتى السنوات الأولى للاحتلال الفرنسي.

أما من حيث الوثائق المتعلقة بنشاط الجالية الأندلسية، والموجودة بالأرشيف الجزائري، فإنها تعود إلى أواخر القرن الخامس عشر الميلادي، ومن أقدم هذه الوثائق نص يخص شراء دكان - أو حانوت كما هو شائع محلياً - من طرف أحد الأندلسيين يعرف بالطويل ويدعى بمحمد الحداد، مؤرخ في أوائل شهر ربيع الثاني من عام 976هـ /1568م[3] ؛ بعد ذلك تتعدد العقود الخاصة بأوقاف الأندلس، وقد أشار إلى بعضها دوفو (A. Devoulx) عندما تعرض لأوقاف الأندلس، ورتبها حسب السنوات التي تعود إليها، فأرجع عقدان منها إلى عام 980هـ /1573 م. أما باقي العقود فهي تتوزع على السنوات التالية : 981هـ /1574م، 1012هـ / 1604م، 1013هـ / 1605م، 1014هـ / 1606م[4].

ويفهم من هذه النصوص أن أوقاف فقراء الأندلس أصبحت توفر دخلاً قاراً ومردوداً سنوياً محترماً استوجب إنشاء إدارة خاصة تتولى استخلاصه واستغلاله وتوزيع فائضه على المحتاجين من أهل الأندلس. وبالفعل نظمت أوقاف الأندلس في فترة متأخرة عن عام 1018هـ /1609م[5]. وأصبح لها وكيل يقوم بشؤونها يعرف بوكيل الأندلس[6]، وكان من أهم الأعمال التي بادرت هذه المؤسسة بإنجازها بناء مدرسة ومسجد خاص بالأندلسيين عرفا فيما بعد بزاوية أهل الأندلس، وقد ورد في العقد الذي يسجل إنشاء هذه المدرسة وهذا المسجد والمؤرخ في أوائل شهر محرم من عام 1033هـ / نوفمبر 1623م، أن جماعة من الأندلسيين وهم محمد بن محمد الأبلي وإبراهيم بن محمد بوساحل والمعلم موسى قائد العيون ومحمد المدعو شلامة ومحمد العنجدون ويوسف المدعو عدود ومحمد السميح بن أحمد وعلي بن عمر تاجر الصابون ومحمد

بن محمد العادل ويحيى الخياط، قد اشتروا منزلاً في حي مسيد العدالية بمدينة الجزائر، وبعد أن هدموه بنوا مكانه مدرسة ومسجداً خاصاً بأهل الأندلس، وجعلوا الشريف الأبلي وكيلاً عليه حسبما تنص عليه وثيقة الحبس المتعلقة بذلك والمؤرخة سنة 1033 هـ /1623م[7].

وقد كان إنشاء المدرسة والمسجد من طرف هؤلاء الأندلسيين حافزاً على تخصيص المزيد من الأوقاف لينفق من مردودها على القائمين بأمور هاتين المؤسستين الخيريتين، فتكاثرت بعد فترة قصيرة أوقاف الأندلسيين، وكان في طليعتها عقد حبس مؤرخ في أوائل رجب من عام 1034هـ / 1624م - 1625م، يتضمن وصية الناسك أبي عبد الله الحاج محمد حبيب بن محمد الأندلسي، بأن ينفق قسم من تركاته في شراء وقف يخصص لفقراء الأندلس[8].

وحتى نتمكن من التعرف على مجمل هذه العقود، نتعرض فيما يلي إلى مصادر هذه الوثائق وما تحتويه من معلومات. فوثائق الأرشيف الجزائري التي تتعلق في أساسها بقضايا الحبس الخاص بأهل الأندلس تتوزع على مجموعتين رئيسيتين، الأولى تعرف بسجلات أو دفاتر البايليك، والثانية يمكن تسميتها بمجموعة الوثائق الشرعية، وهي المجموعة التي تم إرجاعها منذ عدة سنوات إلى مصلحة الأرشيف الجزائري من فرنسا، وهي عبارة عن أوراق ولفافات تحتوي على تسجيل عقود وتركات وعمليات بيع وشراء وإثبات نسب وفصل منازعات وإصدار فتاوي.

وقد حاولت أثناء قيامي بالبحث عن مصادر الحياة الاقتصادية بالجزائر أثناء العهد العثماني - في إطار تحضير رسالة جامعية - استخراج ما يهم الجالية الأندلسية منها لطرافته وأهميته في آن واحد.

ومما تجدر الإشارة إليه والتنويه به في هذا الصدد، مجهودات الأستاذ د. عبد الجليل التميمي في التعريف بهذه الوثائق، وقد نشر كما هو معروف فهرساً مفصلاً للدفاتر العربية التركية[9] التي تخص سجلات بيت المال والبايليك وغيرها، وكذلك دراسته حول أوقاف الجامع الأعظم اعتماداً على إحدى وثائق الأرشيف الجزائري التي

بين فيها مدى إمكانية استغلال مثل هذه الوثائق في استخلاص المعلومات التاريخية، وهذا ما جعلني وأنا أحاول إحصاء الوثائق التي تخص الأندلسيين في الأرشيف الجزائري، أن أذكر ذلك لاتصاله بمثل هذه الموضوع الذي يتعلق بوثائق الأرشيف الجزائري. هذا وبالنسبة لسجلات البايليك، نجد أن ما يهم الأندلسيين يتوزع على العلب والسجلات التالية، التي أثبتها مع ذكر أرقامها سواء الأرقام القديمة " بين قوسين " أو الأرقام المعمول بها حالياً بالأرشيف الجزائري:

- علبة 20 سجل (109) 194 : ذكر أوقاف الأندلس من ديار ومخازن وبيوت وطوابق " علوي " وحوانيت وأجنة، سواء منها الخاص بالأندلسيين أو المشترك بينهم وبين الحرمين: لسنوات 1175 ـ 1176 ـ 1177 ـ 1178هـ / 1761 ـ 1764م.
- علبة 20، سجل (111) 196 : مردود أوقاف الأندلس بالجزائر لعام 1146هـ /1733م.
- علبة 26، سجل (188) 279، ص 152 ـ 153 : ذكر أوقاف الأندلس بالتفصيل، منها ما هو خاص بأهل الأندلس، ومنها ما هو مشترك بينهم وبين الحرمين لسنتي 1147 ـ 1148هـ / 1734 ـ 1735م.
- علبة 28، سجل (216) 311 : ذكر بعض أوقاف الأندلس وردت ضمن مجمل أوقاف الحرمين، بدون تاريخ.
- علبة 30، سجل (262) 358 : تسجيل البيوت الموقوفة " العلوي " والتي يشترك فيها أهل الأندلس والحرمان الشريفان مع تحديد دخلها.
- علبة 34، سجل (346) 444 : جرد عام لمداخيل الأوقاف الخاصة بالأندلس والمشتركة بينهم وبين الحرمين لسنتي 1224 ـ 1225هـ / 1809 ـ 1810م وكذلك البحاير والأجنة الخاصة بالأندلس لعام 1222هـ / 1807 ـ 1808م.
- علبة 34 سجل (347) 445 : تحديد مردود أوقاف الأندلس لسنوات 1836 ـ 1838م، وذكر مدخول كل الشهور بالتفصيل مع طرح المصاريف المختلفة ابتداءً من شهر ديسمبر 1836م وإلى غاية شهر جانفي 1840م.

- علبة 35 سجل (348) 447 : بيان محاسبة خاص بأوقاف الأندلس بالجزائر مع تحديد المصاريف المترتبة عن هذه الأوقاف من يناير 1841 إلى ديسمبر 1841م .

أما ما يخص وثائق المحاكم الشرعية التي لم تعرف حتى الآن أي مسح شامل ودقيق، رغم محاولة مصلحة الأرشيف الجزائري مؤخراً وضع فهرس عام لها، فقد أمكنني أثناء عملي في جمع المادة التاريخية للحياة الاقتصادية للجزائر العثمانية من تصفح وثائق 111 علبة من مجموع 152 [10]، وقد أجريت جرداً أولياً لكل الوثائق التي تتصل بنشاط الجالية الأندلسية سواء خارج المدن أو داخلها، وسوف أثبت بعض هذه الوثائق فيما يلي، مع ذكر رقم العلبة ورقم الوثيقة المزدوج الذي يجمع بين الترتيب الفرنسي القديم والتسجيل الجزائري الحالي، بعدها أشير إلى تاريخ الوثيقة ومضمونها، عسى أن يكون ذلك حافزاً للباحثين الشباب على استغلال هذه الوثائق والانتفاع بما تزخر به من معلومات، وفيما يلي أهم هذه الوثائق مرتبة حسب أرقام العلب التي تحتويها :

- علبة 3، وثيقة 3 ـ 1 : أواسط ذي القعدة عام 1076هـ/1665م، شراء جنة بالوشايحية من طرف أندلسي .
- علبة 16 مكرر، وثيقة 1 ـ 218ف : جمادي الثانية عام 1073هـ/ 1662م، شراء حنوتين بالجزائر العاصمة من طرف أندلسي، وتحبيسهما على فقراء الأندلس .
- علبة 18/1، وثيقة 77 ـ 108 ف : أوائل رمضان 1137هـ/1724م، تحبيس جنة بفحص حيدرة، من طرف أندلسي، مرجع الحبس بعد العقب الحرمين الشريفين .
- علبة 32، وثيقة 32 ـ 111ف : أوائل ربيع الثاني 976هـ/1568م، شراء حانوت من طرف أندلسي بالجزائر العاصمة .
- علبة وثيقة 34 وثيقة 125 ـ 111ف، أواسط محرم 1126هـ/ 1714م : تحبيس قطعة أرض "رقعة" بناحية المدية من طرف الأندلسيين، مرجع الحبس بعد العقب الحرمين .
- علبة 34، وثيقة 2 ـ 1 ف، سنة 1092هـ/1681م : وصية امرأة أندلسية بثلث ثروتها بعد موتها لفائدة فقراء الأندلس بالجزائر .

- علبة 34، وثيقة 163 ـ 34 ف، ذو الحجة عام 1152هـ /1739م، تحبيس أحد الأندلسيين لداره بمليانة مع جنينة ملاصقة لها، وبستان (بحيرة) بفحص حروشة بناحية مليانة .
- علبة 41 مكرر، وثيقة 19 ـ 97 ف : أوائل محرم سنة 1151هـ /1738م، شراء أحد الأندلسيين حانوتاً بحي الملاحين داخل مدينة الجزائر .
- علبة1/47، وثيقة 7 ـ 9 ف : أواسط ربيع الأول سنة 1055هـ /1645م، شراء جماعة من الأندلسيين لدرا بمدينة الجزائر وتحبيسها مناصفة بين الأندلس والحرمين .
- علبة 1/47، وثيقة 51 ـ 4 ف : ربيع الأول 1221هـ /1806م، تحبيس أحد الأندلسيين لجنة " بستان " براس السد خارج باب الوادي، فحص الجزائر العاصمة .
- علبة 76 ـ 77، وثيقة 77 ـ 19 ف : أواسط جمادى الثانية من عام 1192هـ /1778م، دفع أرض بالعناء " كراء أرض " خارج البليدة من طرف وكيل الحرمين وهو من أصل أندلسي .
- علبة 87، وثيقة 2 ـ : أواسط رمضان من عام 1072هـ /1661م، شراء أحد الأندلسيين لجنة بفحص بوسكور خارج الجزائر العاصمة .
- علبة 96 ـ 97، وثيقة 17 ـ 1 ف : أوائل رجب من عام 1034هـ / 1624م، وصية شراء من تركة أحد الأندلسيين يخصص مردوده لفائدة فقراء الأندلس .
- علبة 102 ـ 103، وثيقة 65 ـ 9 ف : أواخر ذي القعدة من عام 1065هـ / 1654م، شراء قطعة أرض بفحص مجبر القديم خارج الباب الجديد بأعالي الجزائر، من طرف أحد الأندلسيين .
- علبة 105 ـ 106، وثيقة 86 ـ 135 : أواسط ذي الحجة من عام 1180هـ /1766م، تحبيس دار بمازونة من طرف أحد الأندلسيين، المرجع بعد العقب الحرمين .
- علبة 106، وثيقة 20 ـ 5 : أواسط محرم عام 1095هـ / 1683م، شراء جنينة بفحص أبي معزة خارج باب الوادي بالجزائر، من طرف أحد الأندلسيين .

- عقبة 106، وثيقة 3 ـ 9: أوائل رمضان من عام 1052هـ / 1642م، شراء جنة بفحص السد خارج باب الوادي بالجزائر من طرف أندلسي.

ومن خلال هذه الوثائق يمكن إجراء إحصاء أولي لأوقاف الأندلس يسمح لنا بتحديد نوعيتها وتقدير دخلها السنوي والتعرف على المصاريف المترتبة عليها، والأغراض التي كانت تنفق فيها، سواء منها الخاص بالأندلس أو المشترك بين الأندلسيين وبين عامة الناس أو بينهم وبين الحرمين الشريفين.

فالأوقاف الخاصة بأهل الأندلس بمدينة الجزائر وضواحيها كانت تضم في سنتي 1224 ـ 1225هـ / 1809 ـ 1810م، حسبما ورد في سجلات البايليك: 35 حانوتاً و18 داراً أو غرفة و7 علوي "أو طابق علوي به غرف" و7 جنان أو بساتين [11] بالإضافة إلى 29 حانوتا بالاشتراك مع مؤسسة الحرمين الشريفين و6 مع عامة الناس. وبالرجوع إلى تقاييد أخرى وردت في دفاتر البايليك، نتعرف على بعض هذه الأوقاف، فمن حيث الحوانيت التي تعرفنا بها هذه الدفاتر نذكر: حانوت القرون بباب عزون وحانوت الحاج امعمر بباب عزون وكذلك حانوت بلقايد بالخضارين وحانوت مقفولجي بالكبابطية وحانوت بن المعلم بسيدي على الخياط[12]، أما الأجنة "جنات" فنذكر منها اعتماداً على تسجيلات عام 1222هـ /1807م[13]، ما يلي:

- جنة بن الصفار ببير الخادم بيد أحمد الشراد وأحمد الفليسي، ودخلها السنوي 45 ريالاً.
- جنة بفحص الحراش بيد أحمد بن الترجمان، عناؤها أو دخلها السنوي 30 ريالاً.
- جنة بفحص المريجة بيد الراشدية، مردودها السنوي 61 ريالاً.
- جنة برأس السد خارج باب الوادي، بيد سيدي العربي بن الربيع بن حمودة، دخلها يقدر بـ 60 ريالاً.
- نصف جنة بالحامة بيد مصطفى التركي صهر الخزندار سابقاً، عناؤها 8 ريالات.
- جنة بالسد خارج باب الوادي بيد علي الشرابلي، عناؤها غير محدد.

- ماء حبسه حسين باشا ببير الخادم بدل جنته، عناؤه أو كراؤه 6.5 ريالات.

وقد أضاف إلى هذه الأجنة لابين (Lapène) قطعة أرض تستغل في الزراعة وقدر مردودها السنوي بـ 46 و20 ف[14]، ومن الراجح أن هذه الأرض الزراعية التي أدرجت ضمن أوقاف الأندلس مؤخراً، ضمت إلى قائمة الأوقاف الخيرية بعد أن كانت في جملة الأوقاف الأهلية التي ينتفع بها أصحابها ولا تعود للمؤسسة الخيرية إلا بعد انقراض العقب كما هو معمول به في المذهب الحنفي.

أما الصنف الثاني من أوقاف الأندلس وهي الأوقاف التي يشترك فيها فقراء الأندلس مع الحرمين الشريفين أو مع عامة الناس، فهو يتميز بكثرة عدده وتنوع أصنافه إذ يشتمل على العديد من الدكاكين والبيوت والجنان (البساتين) والأحواش والمخازن وغيرها، وقد جاء في دفاتر البايليك التي تعود إلى عام 1224 ـ 1225هـ / 1809 ـ 1810م. أن هذا الصنف كان يضم 35 حانوتاً منها 29 مشتركة مع الحرمين الشريفين، و6 مع عامة الناس، و26 داراً منها 20 مشتركة مع الحرمين، و6 مع عامة الناس، و14 علوي؛ 9 منها مشترك مع الحرمين و5 مع عامة الناس[15]، هذا وقد بلغ مردود هذه الأوقاف المشتركة بين الحرمين والأندلس عام 1146هـ /1733م ما قيمته 844 ريالاً كانت حصة الحرمين منها 294 ريالاً وتطلبت النفقات والمصاريف 538 ريالاً واحتفظ بالباقي في صندوق الأندلس[16].

وحتى نأخذ فكرة على شيوع الوقف المشترك نذكر على سبيل المثال عقدين ينصان على اشتراك فقراء الأندلس وفقراء الحرمين في عائد بعض الأوقاف، أولهما ينص على أن الولية آمنة بنت الحاج مصطفى الأندلسي قد أوصت بجزء من مخلفاتها مناصفة بين الأندلس والحرمين بتاريخ 1092هـ /1681م[17]. والآخر يثبت أن أحمد القنداقجي بن علي حبس رقعة زراعية قرب عين السمار وشطراً من أرض بفحص أجنان خارج باب الوادي سنة 1076هـ / 1665م لينفق ريعها بعد انقراض العقب بالتساوي بين الأندلس والحرمين[18].

وللتعرف بالتفصيل على الأوقاف المشتركة، ندرج القائمة التالية التي تتضمن الأوقاف التي كان يتقاسمها الحرمان مع أهل الأندلس، اعتماداً على سجلات البايليك،

مع ذكر مقدار دخلها السنوي بالريالات ومتولى خدمتها أو استغلالها في الفترة الممتدة من عام 1175 ـ 1181هـ / 1761 ـ 1767م[19]:

أ) الحوانيت "الدكاكين":

1ـ حانوت بفندق الزيت بيد وكيل الأندلس ، دخلها 20 ريالاً .

2ـ حانوت بفندق العزارة بيد اللمي شالوم خروب ، دخلها 6 ريالات .

3ـ حانوت بسوق اللوح تعرف بتاحضريت ، بيد محمد مصطفى أوجاق 235 دخلها 12 ريالاً .

4ـ خمسة أسداس حانوت بسوق القبائل صاحب قعدتها مصطفى بن القايد يوسف ، دخلها 24 ريالاً .

5ـ ثلاثة أرباع حانوت قرب صراف القهوة بيد حسين بن خليل أوجاق 103 وسيدي محمد بن الدكتي دخلها 9 ريالات .

6ـ ثلاثة أرباع حانوت قرب صراف القهوة ، بيد أولاد بن بابا ، دخلها 18 ريالاً .

7ـ ثلاثة أرباع حانوت قرب صراف القهوة ، بيد ابن الحلاطجي ، دخلها 6 .12 ريالاً .

8ـ نصف حانوت بشارع باب عزون بيد عبد الرحمن شاوش بدار الإمارة ، دخلها 12 ريال .

9ـ نصف حانوت بالصباغين بيد سيدي إبراهيم بن الحاج حميدة ، دخلها 10 ريالات .

10ـ نصف حانوت بزنقة سيدي محمد الشريف ، صاحب قعدتها أحمد عبد الله موصلي شاوش ، ثم تولاها يوسف قاز قاز فكاه ، يتولى استخلاص عناءها وكيل الأندلس ، دخلها 6 .4 ريالات .

11ـ نصف حانوت بديوان الكرموس "دار الكرموس" بيد الحاج أحمد الجيجلي ، دخلها 10.3 ريالات .

12ـ نصف حانوت بسوق السمن قرب الجامع الأعظم بيد الطبجي حسن ، دخلها

7. 4 ريالات .

13ـ نصف حانوت بالمقايسية بيد أحمد بن النجار ، دخلها 24 ريالاً .

14ـ نصف حانوت بسويقة عمّور صاحب قعدتها القسنطيني وهي بيد محمد أحمد "أوجاق 303" دخلها 9 ريالات .

15ـ نصف حانوت بباب الوادي بيد الخدوي الشرشالي ، لم يذكر دخلها .

16ـ نصف حانوت بين فندق الزيت وفندق على بتجني ، لم يذكر دخلها .

ب) المخازن والحمامات:

1ـ حمام القرون .

2ـ نصف مخزن مستخرج من علوي مقابل لحمام القرون بيد أحمد الفكاه ، دخله 10 ريالات .

3ـ ثلث مخزن بسوق الحمام بيد أحمد بن العطار ، دخله 6 ريالات .

ج) العلوي "أو البيوت" الواقعة بالطوابق العليا لمنازل القصبة المؤلفة من عدة طوابق:

1ـ علوي إبراهيم .

2ـ علوي القليعي اللمي .

3ـ علوي بالمقياسية .

4ـ نصف علوي في حمام القايد موسى بيد عبد القادر محمد أوجاق 379 ، ثم بيد حسين مصطفى أوجاق 410 ، دخله 23 ريالاً .

5ـ نصف علوي قرب دار علي داي بيد علي شاوش العسكر كان ، دخله 50 ريالاً .

6ـ نصف علوي بباب الوادي بيد محمد حسن بزلوزن عبد الله " أوزون " اوجاق 26 ، دخله 13 ثم 75 ريالاً .

7 ـ نصف علوي بزنقة العبادي قرب القهوة الكبيرة بيد إبراهيم خليل أوجاق 287 ، دخله 32 ريالاً .

8 ـ نصف علوي بزنقة العزارة بيد مصطفى عبد الله أوجاق 332 ، دخله 6 .10 ريالات .

9 ـ نصف علوي مقابل لحمام القرون داخل سكة هناك بيد اللمي يعقوب ، دخله 4 .25 ريالاً .

10 ـ نصف علوي بسقيفة دار بنت جورادوا بيد أحمد بن محمد صباغ ، دخله 5 .10 ريالات .

11 ـ ثلث علوي البسكرية قرب القهوة ، تهدم .

12 ـ ثلث علوي باب البحر بيد بكير بن بوشلاغم الحجار ، دخله 16 ريالاً .

د) الديار والغرف " البيوت ":

1 ـ دار سي على الطالب .

2 ـ دار يبالة .

3 ـ دار سكة المعظم .

4 ـ دار حارة الجنان بيد عمر محمد أوجاق 142 ، وشريكه والي أحمد أوجاق 91 ، دخلها 30 ريالاً .

5 ـ ثلاثة أرباع دار عين الوادي قرب دار سركاجي بيد محمد بن الحاج يوسف سكاكجي ، يعطي منها كل سنة 6 ريالات ، دخلها 90 ريالاً .

6 ـ ثلثا دار المدافعي قرب الدار الحمراء بيد الحاج حميدة صايجي ببيت المال ، دخل الثلثان 95 ريالاً .

7 ـ خمسة أثمان من دار بزنقة الصباغ تعرف بالدار الحمراء ، منها ثمن لفقراء الأندلس ، يعمرها الحاج قاسم الصباولجي ، دخلها 3 .40 ريالاً .

8 ـ نصف دار قريش .

9 ـ نصف دار الحاج يوسف النجار بسويقة عمور بيد محمد بن بحرية عزري ، بدار الإمارة ، دخلها 26 ديناراً .

10 ـ نصف دار قرب عين الشاه حسين بيد السيد علي الدراريعي قرب جامع هناك ، دخلها 30 ريالاً .

11 ـ نصف دار بن ذكروك بيد سي العربي كاتب بيت المال بن محمد ، تولي نصفها إبراهيم حسين سراج وصهره عمار أو عبد الرحمن أوجاق 57 سنة 1175هـ ، دخلها 40 ريالاً .

12 ـ نصف دار بسباط العظم يعمرها موسى على أوجاق 7 ، تولاها إسماعيل أحمد اوجاق 419 وهي بيد اسماعيل شاوش ، دخلها 50 ريالاً .

13 ـ نصف دار بمسيد إقدالية بيد إبراهيم أحمد أوجاق 185 ، دخلها 48 ريالاً .

14 ـ نصف دار الحنفي قرب سيدي هلال بيد أمين السباولجي ، ثم بيد إبراهيم سوام آغا ، دخلها 70 ريالاً .

15 ـ نصف دار كوشة اسكندر للحاج قاسم عبيد ، يعمرها على بن الزموري ، بيد الحاج قاسم عثمان أوجاق 13 ، دخلها 35 ريالاً .

16 ـ نصف دار الحاجة آمنة بنت جورادوي بسباط بوبالة بيد أحمد عمار قصاب أوغلي أوجاق 365 ، دخلها 58 ريالاً .

17 ـ نصف دار الحاج محمد العطار بن إبراهيم داخل سكة الخندق لي أبركاو وعلي بيد ابن سي عبد القادر يراملي وهو سليمان إبراهيم أوجاق 78 ، دخلها 2 .35 ريالاً .

18 ـ ثلاثة أعشار نصف دار أسفل سوق السمن لفاطمة بنت أحمد بلوكباشي بيد بيخور اللمي ، دخلها 31 ريالاً .

19 ـ ثلث دار الغبري بسوق الجمعة بيد أولاد الغبري ، دخله 2 .33 ريالاً .

20 ـ سدس دار قرب العين الحمراء ، لم يحدد دخله .

21- بيت علوي "حرار" أعلا كوشة الجيجلية بالمقايسية بيد إبراهيم بن الحاج دخله 10 ريالاً.

22- غرفة أعلا البيت السابق بيد بكير بن بوشلاغم الحجار.

ومن خلال ذكر الأوقاف الخاصة بالأندلس أو المشتركة بينهم وبين الحرمين وعامة الناس، يتضح لنا أن أوقاف الأندلس تأتي في المرتبة الرابعة من حيث الأهمية وعدد الأوقاف ومقدار دخلها، فتتفوق عليها أوقاف الحرمين الشريفين التي تستحوذ على ثلاثة أرباع الأوقاف كلها[20]، وتضم حسب جدول دوفو (A.Devoulx) : 1558 ملكية مردودها السنوي يقدر بـ 43222.70 ف[21]، بعدها تأتي أوقاف الجامع الأعظم في درجة ثانية إذ تحظى بـ 565 وقفاً حسب إحدى الوثائق المنشورة[22]، وفي مرتبة ثالثة تدرج أوقاف سبل الخيرات التي ينفق منها على المساجد الحنفية والتي تشرف على 331 وقفاً مدخولها السنوي لا يقل عن 180.000 ف في السنوات الأولى للاحتلال[23]، بعد ذلك تأتي أوقاف الأندلس لتحتل المرتبة الرابعة، فقد كانت تتصرف في السنوات الأولى للاحتلال في 40 ملكية و61 عناء كراء[24] توفر دخلاً سنوياً لا يقل عن 5000 فرنك[25].

وتكاد تماثل أوقاف الأندلس من حيث الأهمية أوقاف بعض الأولياء والمرابطين، وفي طليعتهم سيدي عبد الرحمن الثعالبي، وإن كانت تتفوق من حيث المردود وعدد الأملاك المحبسة على مؤسسات الأشراف والجند والثكنات والعيون والحصون وغيرها من الأغراض الخيرية.

وفي سياق المقارنة بين مؤسسات الأوقاف هذه، نذكر، أن مصاريف أوقاف الأندلس لم تتجاوز خلال الفترة الممتدة من 1836 إلى 1841م : 18734.20 ف[26]، وهذا ما يؤكد لنا تفوق أوقاف الحرمين وسبل الخيرات وكذلك الجامع الأعظم على أوقاف الحرمين الشريفين من حيث عدد الأوقاف والمصاريف المترتبة عليها.

هذا وقد تلاشت أوقاف الأندلس وحلت المؤسسة المشرفة عليها في السنوات الأولى للاحتلال بعد أن لم يعد ينتفع بها سوى 71 فرداً، وبعد أن تهدمت زاوية أهل الأندلس عام 1841م وزال أثرها (1843م)[27]. وقد وضع قرار أول اكتوبر 1844 - الذي أخضع الأوقاف للمعاملات التجارية ونزع عنها صفة المناعة[28] - حداً نهائياً

لأوقاف الأندلس، التي دخلت منذ ذلك الوقت حيز الذكريات التاريخية، كغيرها من الأوقاف الأخرى.

بعد هذا يصبح من الضروري - في ختام هذا البحث إدراج بعض الاستنتاجات والملاحظات التي تبرز أهمية الأوقاف وتعطي فكرة على مدى إمكانية الانتفاع بالوثائق المتعلقة بها. وذلك من خلال النقاط التالية:

1) لم يقتصر الأندلسيون في تخصيصهم الأوقاف على فقرائهم، ولم يكتفوا بمشاركة الحرمين فيما كانوا يحبسونه، بل عمد الكثير منهم إلى وقف أملاكهم على الحرمين الشريفين، وذلك للمكانة التي كانت تحظى بها الأماكن المقدسة بالحجاز لدى عامة الناس، وقد سجلت ذلك عدة وثائق منها:

تحبيس علي طوليض الأندلسي لدار وجنينة بمليانة وبحيرة بفحص حروشة قرب مليانة على الحرمين فقط في شهر ذي الحجة من عام 1152هـ /1739م[29]، وتحبيس حسن خوجة صهر الحاج علي بن الحاج موسى الأندلسي فسحة لصناعة الفخار ودارين بالمدية على الحرمين[30]، وكذلك تحبيس جماعة من الأندلسيين المشتغلين بالصناعة والقاطنين بالبليدة لبطان "محل أو مشغل" لعمل الشاشية على الحرمين[31]، وكذلك تحبيس عبد الرحمن بن أحمد المعروف ببليش الأندلسي فندقاً وحانوتاً مستخرجة من الفندق على فقراء الحرمين دون سواهم[32]، هذا ونجد بعض الوثائق تنص على تخصيص أندلسيين أوقافاً على الجامع الأعظم، مثل الوقف الذي خصصه الحاج محمد الأندلسي لفائدة الجامع الأعظم عام 1183هـ / 1769م، وهو عبارة عن دار قرب حانوت الجنان[33].

2) تعرفنا وثائق الوقف على أسماء العديد من رجال العلم وموظفي السلك الديني من الأندلسيين. فبالرجوع إلى هذه الوثائق يمكن وضع قوائم وفهارس بأسماء الوكلاء والنظار والأعيان والفقهاء من الجالية الأندلسية[34]، وعلى سبيل المثال لا الحصر نذكر اعتماداً على بعض الوثائق أسماء بعض هؤلاء الأعلام مثل: الحاج علي الخياط (1073 هـ)، عمر بن أحمد بن ضربة (1221 هـ)، السيد عبد الرحمن (1141 - 1146 هـ)، محمد بن محمد الآبلي، محمد العنجدون، محمد أسميح بن أحمد، بن علي الأندلسي

وكيل الولي الصالح سيدي عمر التنسي دفين الجزائر، أحمد بن الحاج مصطفى الأندلسي وكيل الحرمين الشريفين بالجزائر سنة 1192هـ /1778م، والحاج عبد القادر بن الحاج علي العنزي ناظر أوقاف الأندلس بالجزائر سنة 1092هـ / 1681م، محمد بن بكير الأندلسي، علي بن علي الأندلسي، الحاج أحمد بن قاسم الناظر، الناسك الحاج يوسف بن سليمان، الناسك بن الحاج أحمد بن جعفر، محمد بن قاسم، وغيرهم كثيرون من العارفين بالمسائل الفقهية.

3) تطلعنا وثائق الوقف على نوعية النشاط الاقتصادي للجالية الأندلسية، وتعطي لنا فكرة على الأعمال التجارية والمهن والصنائع التي كانت تتطلب المهارة والإتقان، وهذا ما يمكن استنتاجه من الألقاب الحرفية التي كانت تضاف إلى أسماء الإعلام أو استخراجه من أسماء الصنائع والمهن الواردة عرضاً في الوثائق، ونذكر على سبيل المثال الحوكي بن محمد الأندلسي، والحداد محمد الأندلسي، وصانع الشواشي الحاج علي بن حسن الأندلسي والعطار أحمد بن أحمد الأندلسي، وصانع الصابون علي بن عمر الأندلسي والخياط يحيى ومعلم العيون موسى، وأصحاب البطان المعد لصناعة الشاشية بالبليدة وهم الحاج علي بن أحمد الفهري الأندلسي وشركاءه[35].

كما تعطي لنا وثائق الوقف صورة صادقة عن الحياة الاقتصادية بمدينة الجزائر، لما ورد فيها من أسماء الأسواق والصناعات وغيرها، مثل سوق اللوح وسوق القبائل وسوق السمن وسوق الحوت وسوق الجمعة، وفندق الزيت وفندق العزارة وشارع الصباغين والمقايسية وسباط بوبالة وحمام القرون وكوشة الجيجلية والقهوة الكبيرة[36].

4) ويمكن كذلك للباحث التعرف بواسطة وثائق وقف الأندلس على ثروات الأندلسيين ومستوى المعيشة الذي كانوا عليه، وذلك بحصر الأموال التي أنفقوها في شراء الأراضي وامتلاك البيوت والمحال التجارية أو التي كانوا يدفعونها مقابل استغلالهم لبعض الأوقاف، ففي هذا السياق نشير اعتمادا على وثائق الوقف[37]، إلى أن ابن علي الأندلسي وكيل جامع سيدي عمر اشترى أرضاً زراعية ب ـ 80 ديناراً ذهباً، وحسن بن سعيد الأندلسي امتلك جنة ببوسكور خارج الجزائر ب ـ 324 ديناراً ذهباً، والحاج أحمد

بن سعيد الأندلسي تحصل على جنة بالسد خارج باب الوادي مقابل 3000 دينار ذهبي وحطاب الحوكي بن محمد الأندلسي تملك جنة بالوشايحية خارج الجزائر ب ـ 425 ريالاً من الفضة، والحاج أبو عبد الله محمد بن أبي حفص عمر الأندلسي اشترى هو الآخر جنينة بأبي معزة خارج باب الوادي ب ـ 70 ريالاً من الفضة محمد بن أحمد الأندلسي تحصل على حانوت بالملاحين داخل الجزائر بثمن 225 ريالاً من الفضة، والحاج علي صانع الشواشي بن حسن الأندلسي تملك حانوتين بالخضارين والفاكهيين قرب باب عزون بثمن 2800 ديناراً، وجماعة من فضلاء الأندلس تشتري داراً داخل الجزائر قصد تحبيسها بقيمة 6100 دينار ذهبي، وتخصيص 2000 دينار ذهبي من تركة أحد الأندلسيين يعرف بأبي عبد الله الحاج محمد الأندلسي لشراء وقف لفائدة فقراء الحرمين الشريفين، وغير ذلك من الصفقات وعمليات البيع الشراء.

ويمثل هذه المعلومات التي توفرها وثائق الوقف ـ التي نعتبرها بحق المصدر الأساسي والمادة الخام لكل مؤرخ أو باحث في مجال العلوم الاجتماعية ـ يمكننا التعرف على الأوضاع الاجتماعية والنشاط الاقتصادي والحياة الثقافية والدينية، كما يمكن لنا تجاوز المصادر التقليدية المتداولة والسهلة المنال وعدم الاقتصار فقط على الكتب المنشورة والدراسات الجاهزة التي طالما ألفنا اجترارها وإعادة صياغتها والخروج منها بمادة هزيلة ونظرة سطحية لا تتماشى والواقع التاريخي في حد ذاته.

الهوامش:

(1) للإلمام بأحكام الوقف الفقهية، راجع باب الوقف في كتب الفقه المالكي والحنفي، ولأخذ فكرة عن أوضاع الوقف في الجزائر أثناء العهد العثماني، انظر دراساتنا في الموضوع، منها:

- ناصر الدين سعيدوني، الوقف ومكانته في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية بالجزائر (أواخر العهد العثماني وأوائل الاحتلال الفرنسي)، ضمن كتاب "دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر (العهد العثماني)، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984، ص ص. 149 ـ 169.
- ناصر الدين سعيدوني، وضعية الأوقاف العقارية بفحص مدينة الجزائر أواخر العهد العثماني، ضمن

كتاب "دراسات في الملكية العقارية"، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1986.

(2) أبو العباس أحمد المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار صادر، 1988، ج. 4، ص. 528.

للتعرف على أوضاع الجالية الأندلسية بالجزائر، راجع: ناصر الدين سعيدوني، الجالية الأندلسية بالجزائر، مساهمتها العمرانية ونشاطها الاقتصادي ووضعها الاجتماعي، مجلة أوراق، مدريد، عدد 4/1981، ص ص. 111 ـ 134.

(3) الأرشيف الوطني الجزائري (أ.و.ج.)، وثائق المحاكم، علبة 32، وثيقة 32 ـ 111 ف.

(4) A. Devoulx, Notice sur les corporations religieuses d'Alger accompagnée de documents authentiques et inédits, Alger, Jourdan, 1912.

(5) Idem, p. 37.

(6) ناصر الدين سعيدوني، موظفو مؤسسة الأوقاف بالجزائر في أواخر العهد العثماني من خلال وثائق الأرشيف الجزائري، المجلة التاريخية المغربية، تونس، السنة 17، العدد 57 ـ 58، جويلية 1990، ص ص. 178 ـ 180 و188.

(7) A. Devoulx, Les édifices religieux de l'ancien Alger, Alger, Typo. Bastide, 1870, pp. 174 _ 175.

(8) أ.و.ج.، وثائق المحاكم، علبة 96 ـ 97، وثيقة 17 ـ 1 ف بتاريخ 1034 هجرية.

(9) عبد الجليل التميمي، موجز الدفاتر العربية التركية بالجزائر، منشورات المعهد الأعلى للتوثيق، تونس، الشركة التونسية للفنون المطبعية، 1983.

(10) وذلك في إطار تحضير أطروحة دكتوراه حول الحياة الريفية بإقليم مدينة الجزائر أواخر العهد العثماني، تحت إشراف الأستاذ روبير مونتران، وقد نشرت الرسالة مؤخرا منقحة بدار الغرب الإسلامي بيروت، انظر:

- N. Saïdouni, L'Algérois rural à la fin de l'époque ottomane (179I _ 1830), Beyrouth, Dar al _ Gharb al _ Islami, 2000.

- أما الفهرس المطبوع على الآلة الكاتبة حول وثائق المحاكم بالأرشيف الجزائري، فقد أشرف على إنجازه الموثق شهاب الدين يلس، وكان لنا شرف كتابة تقديم له.

(11) أ.و.ج.، دفاتر البايليك، علبة 34، سجل 444 (346)، ص. 136.

(12) المصدر نفسه، ص ص. 136 ـ 137.

(13) المصدر نفسه، ص. 138.

(14) E. Lapène, Tableau historique de l'Algérie depuis l'occupation romaine jusqu'à la conquête par les Français en 1830, Metz, S. Lamort, 1845, Pièces justificatives, n° 56, p. 177.

(15) أ.و.ج.، دفاتر البايليك، علبة 34، سجل 444 (346)، سنوات 1224 ـ 1225 هجرية.

(16) أ.و.ج.، دفاتر البايليك، علبة 20، سجل 196 (111).

(17) أ.و.ج.، وثائق المحاكم، علبة 34، وثيقة 2 ـ 1 ف.

(18) أ.و.ج.، دفاتر البايليك، علبة 28، سجل 311 (216).

(19) أ.و.ج.، دفاتر البايليك، علبة 20، سجل 194 (109)، علبة 26، سجل 188 (279)، سنوات 1175 ـ 1188 هجرية، علبة 30، سجل 358 (262).

(20) اعتمادا على جل المصادر التي تعرضت لأوضاع الوقف بمدينة الجزائر وفحصها، راجع:

- N. Saïdouni, Les biens waqfs aux environs d'Alger à la fin de l'époque ottomane, in Actes de la Table ronde d'Istanbul (13 _ 14 novembre 1992), sur le waqf dans le monde musulman contemporain (XIX è _ XX è siècles), Istanbul, 1994, p. 103.

(21) A. Devoulx, Les édifices..., op.cit., pp. 14 _ 15.

(22) عبد الجليل التميمي، وثيقة الأملاك المحبسة باسم الجامع الأعظم بمدينة الجزائر، منشورات المجلة التاريخية المغربية، تونس، مطبعة الاتحاد العام التونسي للشغل، 9831، ص. 56.

(23) Archives nationales d'Outre _ mer, Aix _ en _ Provence, F. 80/1632, Rapport de Bernardet (Contrôleur des Finances), 1er septembre 1837.

(24) Idem.

(25) M. Emerit, L'état intellectuel et moral de l'Algérie en 1830, in Revue des travaux de l'Académie des sciences morales et politiques, 2è semestre, 1954, p. 2.

(26) ناصر الدين سعيدوني، الوقف ومكانته في الحياة الاقتصادية والاجتماعية...، المصدر نفسه، ص. 161.

(27) Notes historiques sur les mosquées et autres édifices religieux d'Alger, in Revue africaine, 1859 _ 1860, pp. 43 _ 74.

يقع مكان زاوية الأندلس بحي القصبة، زنقة الزبدة، رقم 21.

(28) ناصر الدين سعيدوني، الوقف ومكانته في الحياة الاقتصادية والاجتماعية....، المصدر نفسه، ص ص. 165 ـ 168.

(29) أ.و.ج.، وثائق المحاكم، علبة 34، وثيقة 163 ـ 34 ف.

(30) أ.و.ج.، دفاتر البايليك، علبة 28، سجل 311 (216).

- أ.و.ج.، وثائق المحاكم، علبة 34، وثيقة 125 ـ 111.

(31) أ.و.ج.، دفاتر البايليك، علبة 28، سجل 311 (216).

(32) أ.و.ج.، دفاتر البايليك، علبة 28، سجل 311 (216)، ص. 138.

(33) عبد الجليل التميمي، وثيقة الأملاك المحبسة باسم الجامع الأعظم....، المصدر نفسه، ص. 38.

(34) أ.و.ج.، دفاتر البايليك، علبة 20، سجل 96 (111).

- أ.و.ج.، وثائق المحاكم، علبة 2/16، وثيقة 1 ـ 127 ف.
- علبة 1/47، وثيقة 7 ـ 9 ف، أواسط ربيع الأول 1055 هجرية.
- علبة 1/47، وثيقة 51 ـ 4 ف.
- علبة 76 ـ 77، وثيقة 16 ف، أواسط جمادى الثانية 1192 هجرية.
- علبة 102 ـ 103، وثيقة 65 ـ 9 ف.
- علبة 106، وثيقة 3 ـ 9 ف.

(35) أ.و.ج.، دفاتر البايليك، علبة 28، سجل 311 (216).

(36) Archives nationales d'Outre - mer, Aix - en - Provence, 1M64 - 70, Fonds de Beylik.

(37) أ.و.ج.، وثائق المحاكم، علبة 3، وثيقة 1، أواسط ذي القعدة 1076 هجرية.

- علبة 2/16، وثيقة 1 ـ 128 ف، جمادى الثانية 1073.
- علبة 2/41، وثيقة 19 ـ 97 ف، أوائل محرم 1101.
- علبة 1/47، وثيقة 7 ـ 9 ف، أواسط ربيع الأول 1055.
- علبة 87، وثيقة 2، أواسط رمضان 1072.
- علبة 96 ـ 67، وثيقة 11، أواخر رجب 1034.
- علبة 102 ـ 103، وثيقة 65 ـ 9 ف، أواخر ذي القعدة 1065.
- علبة 106، وثيقة 3 ـ 9، أوائل رمضان 1052.
- علبة 106، وثيقة 20 ـ 5، أواسط محرم 1095.

قائمة بأوقاف الأندلسيين بمدينة الجزائر وفحصها سنة 1841

ملحق (1)

تعريف بزاوية الأندلسيين

شكل مسلمو إسبانيا (الأندلسيون) الذين طردهم أعداؤهم (النصارى)، عند استقرارهم بالمناطق الساحلية من إفريقيا الشمالية، مجموعة سكانية متميزة عن السكان الذين استقبلوهم واستقروا بينهم. وكانت هذه المجموعة التي اتخذت طابع مستعمرة بشرية تتميز عن غيرها من المجموعات السكانية بعاداتها المتوارثة وتقاليدها الخاصة، وقد كان يربط بين أفراد هذه الجالية الأندلسية الانتساب إلى أصول واحدة وحاجتهم إلى التعاون فيما بينهم في موطنهم الجديد الذي وإن كان من أرض الإسلام إلا أنهم ظلوا يعتبرونه أرض هجرة، وهذا ما دفعهم إلى تكوين مؤسسات خيرية لفائدة الفقراء والمعوزين منهم. ففي سنة 1033 هـ /1623م، اشترك أفراد الجالية الأندلسية لبناء مسجد وزاوية تكون خاصة بهم دون غيرهم، وهذا ما يبينه عقد بين بشراء وتحبيس، موسوم بختم قاضي الجزائر الحنفي، وهذه الترجمة الحرفية لهذا العقد:

"الحمد لله، بعد أن أصبحت الجماعة المؤلفة من السادة المحترمين والأفاضل والطيبين وهم: محمد بن محمد الأبلي، إبراهيم بن محمد أبو ساحل، المعلم موسى، معلم العيون أحمد الملقب كلاصة، محمد العنجدون، يوسف المدعو الدوند، محمد السميح بن أحمد، علي بن عمر، محمد بن محمد العادل تاجر الصابون، يحي الخياط، وكلهم أندلسيون، مالكة لكل المنزل الواقع بحومة مسيد الدالية داخل مدينة الجزائر حفظها الله تعالى، والمذكور في العقد أعلاه، بفعل عملية شراء مقابل ثمن تم دفعه.

أعلن أعضاء الجماعة المذكورة أعلاه أنهم دفعوا القسط الأكبر من الثمن من أموالهم الخاصة، وأن ما تبقى قد تم دفعه من طرف أحبابهم من جماعة الأندلسيين،

وبأنهم اشتروا المنزل المذكور بنية هدمه وبناء مدرسة مكانه لتدريس العلوم وتعليم القرآن وإقامة مسجد تؤدى الصلوات به.

وبعدما قاموا بهدم المنزل المذكور وبنوا مكانه مدرسة كما سبقت الإشارة إلى ذلك. وتبعا لذلك فإن أعضاء المجموعة المذكورة يعلنون الآن جعل المنزل الذي حول إلى مدرسة حبسا لفائدة أهل الأندلس مع كل ملحقاتها وتوابعها ومكملاتها، الداخلية والخارجية، القديمة والجديدة. وهذا الحبس مستمر وكامل وأبدي وشرعي، لا يمكن بيعه ولا التنازل عنه ولا توريثه ولا استبداله. كل هذه الإجراءات سيتم حفظها ولا يمكن إدخال أي تغيير على أسسها. ولا يمكن المساس به أو تحويله حتى يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين. وكل من تسول له نفسه المساس بهذا الحبس أو تبديله سيسأله الله ويحاسبه على فعلته وينتقم منه. والذين سيلحقون الضرر به سيلقون جزاءهم.

والمؤسسون لهذا الحبس يعرفون أهمية عملهم، وقد قاموا به حبا في الله تعالى وأملا في الحصول منه على أجر عظيم. وقد وكل المؤسسون السيد المحترم الآبلي، المذكور أعلاه، للقيام على شؤون الحبس باسم ولفائدة المستفيدين المذكورين، ويقوم بمراقبة مصالح الحبس وينجز الأعمال الضرورية المتعلقة به ويتلقى ما تتطلبه المدرسة المذكورة أعلاه من طعام وأشياء أخرى ويقبض المداخيل وينفقها في ما يراه مناسبا. وقد قبل هذه المهمة من مؤسسي الحبس وأخذ حيازة الحبس المذكور لفائدة ما ذكر ... إلخ. بتاريخ أواخر شهر الله محرم، أول شهور عام 1033 لهجرة الرسول محمد عليه الصلاة والسلام (الموافق ل ـ 14 ـ 23 نوفمبر 1623م)*.

هذا وقد تمت المحافظة على هذا الإنجاز الجماعي للأندلسيين لمدة قرنين دون تغيير. وكان يسير ميزانيته المعتبرة نسبيا وكيل وضع تحت تصرفه شاوش، وكل من الوكيل والشاوش من أحفاد الأندلسيين (الموريسكيين)، وظل هذا الحبس يقدم مساعداته باستمرار للفقراء من أهل الأندلس الذين يتم إثبات أصولهم بصفة شرعية إلى أن هجرت هذه الزاوية، التي تقع بنهج الزبدة، رقم 21، بسبب قدم بنيانها سنة 1843م، ثم وضع اليد عليها بعد ذلك بوقت قصير، مقابل تكفل الإدارة الفرنسية بتقديم

مساعدات لبعض الأسر ذات الأصول الأندلسية.

المصدر:

ألبير دوفو، المنشآت الدينية بمدينة الجزائر القديمة، الفصل رقم 57، ص ص 174 ـ 176.

Devoulx, Les édifices religieux de l'ancien Alger, Alger, Typo. Bastide, 1870, Ch. LVII, pp. 174 - 176.

ملحق (2): عرض حالة الأملاك

التابعة لمؤسسة الأندلس (مهاجرو الأندلس) بالجزائر

نوعية الأملاك	حبوس		العناء (استغلال مقابل كراء)		تحويل الأملاك إلى مساكن عسكرية	أملاك مهدمة	قيمة المردود الاجمالية	ملاحظات
	العدد	قيمة المردود	العدد	قيمة المردود				
1. أملاك داخل المدينة :								-
منازل عامة	12/ 134	827. 56	9	296. 98	6/5 4	1	1124.54	-
منازل فردية	3	50. 02	-	-	2	-	50. 02	-
غرف	3	18. 60	-	-	3	1	18. 60	-
حوانيت	35	334. 80	-	-	20	-	334. 80	-
2. أملاك في الريف								-
بساتين	-	-	5	93	-	-	93	-
قطع زراعية	-	-	1	20. 46	-	-	20.46	-
المجموع	12/1 75	1230.98	15	410.44	6/5 29	2	1641.42	-

وثيقة طبق الأصل ، المقتصد المدني لإيالة الجزائر ، جانتي دي بوسي .

المصدر: م. ب. جانتي دي بوسي، عن استقرار الفرنسيين بإيالة الجزائر والوسائل الكفيلة بازدهارها، القسم الثاني، الجزائر، مطبعة الحكومة، أفريل 1834، الجدول رقم 68.

M.P. Genty de Bussy, De l'établissement des Français dans la Régence d'Alger et les moyens d'en assurer la prospérité, 2è partie, Alger, Imp. du Gouvernement, 1831, Tab. 68.

مدرسة بجاية الأندلسية(*)

لقد كان للأندلسيين تأثير بالغ في الحياة الثقافية بالمغرب العربي طيلة الفترة الإسلامية الأولى (ق 2 ـ 10هـ / 8 ـ 16م)، وحتى أثناء العصور الحديثة (ق 10 ـ 13 هـ / 16 ـ 19م) وقد تكونت بفعل هجرة الأندلسيين إلى عواصم المغرب مراكز علمية كان للعنصر الأندلسي فيها دور الريادة وعامل الإبداع، فكان النشاط الثقافي والإشعاع العلمي لحواضر المغرب مثل القيروان وتونس وفاس ومراكش وبجاية وتلسمان والجزائر استمراراً للإسهام الفكري والإنتاج العلمي الأندلسي، الذي تعرض للمحاصرة والاجتثاث بفعل حركة الاسترداد المسيحي "الريكونكيستا" (Reconquista) من موطنه الأصلي بشبه الجزيرة الإيبيرية.

وكانت في طليعة المراكز والمدارس الفكرية الأندلسية بالمغرب العربي مدرسة بجاية التي لعبت دوراً مهماً في الحياة الثقافية المغربية في القرنين السادس والسابع للهجرة (الثاني عشر والثالث عشر للميلاد)، لكنها لم تحظ مع أهميتها باهتمام أغلب الباحثين في مجال التراث الأندلسي، وهذا ما دفعنا إلى تناولها في هذا العرض أملاً في التعريف بإسهامها الحضاري الفني وعطائها العلمي المتميز.

لقد عمل على تأكيد مكانة بجاية العلمية وساعد على جعلها مركز إشعاع علمي أندلسي بالمغرب الأوسط عوامل عدة منها:

1) موقع بجاية المتميز من حيث الحصانة الطبيعية، فهي تقع على منحدر جبل قوراية (600م) الذي يرد عنها المهاجمين، ويسمح لها بالتحكم في السهل القريب منها حيث يصب نهر الصومام ومنطلق الطرق البرية المؤدية إلى الداخل عبر وادي الصومام

(*) بحث قدم بعنوان التجربة الأندلسية بالجزائر: مدرسة بجاية الأندلسية ومكانتها في الحياة الثقافية بالمغرب الأوسط في ندوة الأندلس قرون من التقلبات والعطاءات، التي نظمتها مكتبة الملك عبد العزيز العامة بالرياض 30 أكتوبر ـ 3 نوفمبر 1993.

وجبال القبائل، فهي حسب قول العبدري: " موضوعة في أسفل سهل جبل وعر، مقطوعة بنهر وبحر، مشرفة عليهما إشراف الطليعة متحصنة بهما منيعة، فلا مطمع فيها لمحارب ولا متسع فيها لطاعن أو ضارب"[1]. فضلاً على أن الموقع المتوسط لبجاية على الساحل الجزائري جعلها مقابلة للسواحل الأوروبية ونقطة اتصال مباشرة مع سواحل الأندلس، فقد ارتبطت طيلة العصور الإسلامية بمرافئ شرق الأندلس مثل طرطوشة وبلنسية ودانية وقرطاجنة والمرية. وأصبحت مع ازدياد الضغط المسيحي على الأندلس بعد انقسام الموحدين، المحطة الأولى لعلماء الأندلس في هجرتهم نحو المغرب الأوسط أو انتقالهم إلى تونس أو توجههم لأقطار المشرق.

هذا ومما زاد من أهمية موقع بجاية كون إقليمها مماثلاً لأقاليم الأندلس الشرقية والجنوبية من حيث خصب التربة واعتدال المناخ وكثافة الغطاء النباتي مما رغب العديد من الأندلسيين في الهجرة إليها والاستقرار بها بعد تعرضهم لاجتياح النصارى لبلادهم إثر هزيمة الموحدين في معركة العقاب Las Navas de Toloza (609هـ / 1212م) وسقوط الحواضر الإسلامية الكبرى بالأندلس في أيدي النصارى (قرطبة 633هـ/ 1236م) وبلنسية (634هـ /1238م) وإشبيلية (646هـ /1248م).

2) كون بجاية قاعدة المغرب الأوسط، وذلك منذ أن أصبحت عاصمة لدولة الحماديين، بعد أن اختطها الناصر بن علناس الحمادي مكان خرائب الداي القديمة (Saldae) عام 453هـ / 1063م، وانتقل إليها خلفه المنصور الحمادي مع دواوين الدولة الحمادية من قلعة بني حماد عام 461هـ /1068م)، فبنيت بها عدة قصور منها قصر اللؤلؤ وقصر النجم وقصر أميمون، واستقر بها رجال الدولة والعلماء وقصدها التجار وطلبة العلم على عهده وعهد خلفائه من ملوك بني حماد وهم باديس والعزيز ويحيى، فتوسع عمران بجاية حتى بلغ الجهات العليا المحاذية لجبل قوراية وأصبح عدد منازلها يقدر بأربعة وعشرين ألف منزل تتوزع على واحد وعشرين حياً ينتشر بها اثنان وسبعون مسجداً، في مقدمتها الجامع الأعظم ومسجد القصبة الأميري، وبها عدد كبير من أماكن الدراسة والحمامات والخانات والأسواق، تحيط بها الأسوار العالية، وتتصل بخارجها عن طريق عدة أبواب (أمسيون والمرسى واللوز والبنود)، والى الأسفل من بجاية

توجد المرسى وترسانة السفن، وبالقرب منها الأرباض والفحوص التي اشتهر منها منتزهات أرباض المليح وباب البحر والمقدسي والقصبة[2]. وبالقرب منها نهر الصومام تحف به حدائق البديع والرفيع، وقد وصفه ابن سعيد المغربي (ت 685 هـ / 1286م) بقوله: إنه "في نهاية من الحسن، على شاطئيه البساتين والمنتزهات ويتفرج فيه أصحاب المراكب"[3]، كل هذه المواصفات الطبيعية والمنشآت العمرانية جعلت بجاية " الناصرية " مثار إعجاب الأدباء، فقد أشاد بها الشاعر ابن حمديس الصقلي (ت 927 هـ / 1133م) بقوله[4]:

واعمـــر بقصـــر الملـــك ناديـــك الـــذي
أضـــحى بجـــدك بيتـــه معمـــوراً
لـــو أن بـــالإيوان قويـــل حـــسنه
مـــا كـــان شـــيئاً عـــنده مـــذكوراً

وتغنى بمحاسنها الحسن بن الفقون القسنطيني (توفي أوائل القرن السابع الهجري)[5]، الذي اتخذها مقراً له بقوله:

دع العـــــراق وبغـــــداد وشـــامها
فالناصـــرية مـــا إن مثلـــها بلـــد
بـــر وبحـــر ومـــوج العيـــون بـــه
مـــارح بـــان عنهـــا الهـــم والنكـــد
حيـــث الهـــوى والهـــواء الطلـــق مجتمـــع
حيـــث الغنـــى والمنـــى والعيشـــة الرغـــد
يـــا طالبـــاً وصـــفها إن كنـــت ذا نصـــف
قـــل جنـــة الخلـــد فيهـــا الأهـــل والولـــد

3) محافظة بجاية على مكانتها على عهد الدولة الموحدية (546 ـ 628هـ / 1152 ـ 1230م) وتحت سلطة الحفصيين، فقد كانت قاعدة الموحدين ببلاد المغرب الأوسط

(الجزائر) والعاصمة الثانية للحفصيين (628 ـ 943هـ/ 1230 ـ 1536م) ، فهي تأتي في درجة ثانية بعد مدينة تونس وتتفوق عليها من حيث إمكانياتها الاقتصادية وحصانتها الطبيعية وارتباطها مباشرة بالأندلس ، وهذا ما جعل مؤسس الدولة الحفصية أبو زكريا يحيى الأول (625 ـ 647 هـ/ 1228 ـ 1249م) يولي بجاية عناية كبيرة ، فتوسع عمرانها وانتشر العلم بها حتى أصبحت تنافس حاضرة تونس لا سيما على عهد السلاطين الحفصيين الأوائل ، وهم محمد المستنصر بالله (647 ـ 675 هـ/ 1249 ـ 1277م) ويحيى الواثق بالله (675 ـ 678هـ/ 1277 ـ 1279م) وأبو إسحاق إبراهيم (678 ـ 683هـ/ 1279 ـ 1284م) وعمر المستنصر (683 ـ 694هـ/ 1284 ـ 1295م) ، فأصبحت بجاية تحكم من طرف ولي العهد المرشح لتولي العرش الحفصي .

اعتمد ولاة الحفصيين ببجاية على العنصر الأندلسي ، فحدّوا من نفوذ الأسر العريقة التي كانت لها سابقة مع الموحدين أو صلة بالقبائل الجبلية بنواحي بجاية ، وقد ساعد على ذلك مناصرة الولاة الحفصيين للعنصر الأندلسي .

هذا وتعود صلة الأندلسيين بالحفصيين إلى ما قبل ظهور الدولة الحفصية ، فقد كان لأبي زكريا بن عبد الواحد بن أبي حفص ، مؤسس الدولة صلة وثيقة بالأندلسيين منذ أن كان حاكماً لإشبيلية ومتولياً على غرب الأندلس من قبل الموحدين ، وقد أدى ذلك إلى ازدياد النفوذ الأندلسي وانكماش جماعة الموحدين عن مراكز الدولة الحساسة لفائدة الأندلسيين بالبلاط الحفصي بتونس وبجاية بعد أن أبعد مقدم مشيخة الموحدين محمد بن أبي محمد الهنتاتي من مهام تسيير شؤون الدولة وتولى مكانه محمد بن أبي الحسن زعيم جناح الأندلسيين ، وقد أشار إلى ذلك ابن خلدون بقوله : "إن أبا زكريا قد اصطنع منهم (أي : الأندلسيين) رجالاً ورتب جنداً كثروا الموحدين وزاحموهم في مراكزهم في الدولة ... »[6].

وتأكد ذلك في عهد المستنصر وأصبح تقليداً لدى خلفائه من السلاطين الحفصيين (ق السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي) ، مما زاد في نفوذ الأندلسيين ودعم مكانتهم فأصبحوا رجال البلاط وعمال الدواوين ، فاستبدوا بخطة الحجابة (الوزارة)

واحتكروا المناصب الدينية والتعليمية العليا ، وكان الوظيف الإداري في أغلب الأحيان من نصيبهم .

ففي عهد الواثق بالله ، بعث أبو الحسن بن الحسن الأندلسي متولي أمور الدولة الحفصية بتونس أخاه أبا العلى لشغل منصب الحجابة ببجاية ، وأثناء حكم أبي إسحاق تولى الحجابة لابنه أبا فارس الذي كان أميراً على بجاية محمد بن محمد بن أبي بكر الإشبيلي (جد المؤرخ عبد الرحمن بن خلدون) ، وأثناء حكم أبي فارس بن إسحاق عمل ولدا العالم الأندلسي أبي بكر بن سعيد بن سيد الناصر اليعمري ، وهما أحمد وأبو الحسن على استيلاء أبي زكريا بن أبي إسحاق على بجاية (684 ـ 1385م) وإقامة إمارة مستقلة بها ، مما سمح لأبي الحسن أن يتولى أمور بجاية وأن يستبد بها نيابة عن أميره أبي زكريا ، فكان حسب قول ابن خلدون : "أعظم ما كان رئاسة وأقرب من صاحبه مكاناً وسراً»[7] وعندما توفي (690هـ /1291م) تولى ابنه محمد بن أبي الحسن بن سيد الناس حجابة بجاية وهو الذي ذكره ابن بطوطة (735هـ / 1325م) في رحلته : تحفة النظار في غريب الأمصار ، عندما مرّ ببجاية وآخذه على ظلمه عندما صادر تركة التاجر التونسي محمد بن الحجر التي كان قد أوصى بها لورثته بتونس ، واعتبر أن ذلك : " هو أول ما شاهدته من ظلم عمال الموحدين وولاتهم ... »[8].

وظل هذا الوضع سائداً فلم تخرج أمور بجاية من أيدي الأندلسيين ، إذ استبد بها أحد أفراد أسرة محمد بن عمر السلمي الشاطبي ، وهو عبد الرحمن يعقوب بن أبي بكر السلمي الشاطبي (715 ـ 719هـ / 1315 ـ 1319م) وتولى أمورها على عهد أبي عبد الله الحفصي يحيى بن خلدون صاحب كتاب بغية الرواد في تاريخ الملوك من بني عبد الواد (765هـ /1364م) ، ثم أخاه عبد الرحمن بن خلدون مؤلف كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ... (766هـ /1365م) قبل أن يضطر هذان المؤرخان إلى مغادرة بجاية والالتجاء إلى بني مزني ببسكرة عندما استولى أبو العباس الحفصي أمير قسنطينة على بجاية بمعونة وتأييد من الجماعة الأندلسية بها (767هـ / 1366م)[9].

على أن هذه المكانة التي احتلها الأندلسيون في السلك الإداري والوظيف الديني

والمهام التربوية وشؤون الإمارة ببجاية، لم تكن ميسرة لولا الكفاءة التي برهنوا عليها والمستوى العلمي الذين كانوا عليه والإخلاص الذي عرفوا به والتضامن الاجتماعي الذي كان يقرب بينهم ويحفظ مصالحهم والإحساس بالأصل المشترك والنسب الواحد في دار هجرتهم، ولعل هذا ما جعلهم يشكلون طبقة متميزة في المجتمع البجائي في القرنين السادس والسابع للهجرة (الثاني عشر والثالث عشر للميلاد) عرفت بجماعة الأندلس وكان لها حظوة لدى الحكام وتأثير عميق على سلوك عامة الناس، وهذا ما أشار إليه الغبريني بقوله: " كان الناس (ببجاية) على اجتهاد، وكان الأمراء لأهل العلم على ما يليق ويراد "[10] وقد كان لتأثير جماعة الأندلسيين من القوة والفعالية بحيث اكتسبت بجاية طابعاً أندلسياً حتى عدت من حواضر الأندلس ولم يماثلها في ذلك ببلاد المغرب الأوسط سوى تلمسان التي استقطبت هي الأخرى أعداداً كبيرة من الأندلسيين، وقد برز الأثر الأندلسي واضحاً بمجتمع بجاية في عادات السكان وطريقة حياتهم وأسلوب معيشتهم ولغة تخاطبهم، فانحصرت اللهجة المحلية (القبائلية) لتترك مكانها للعربية الأندلسية الرقيقة المخارج واللطيفة العبارات والغنية بالمفردات، ولعل من أوضح مظاهر التطبع الأندلسي أثناء العهد الحفصي هو دماثة خلق سكانها ولطف معشرهم ورقة شعورهم وميلهم الفطري لتذوق الموسيقى، وهذا ما دفع محمد طالبي في دراسته عن الهجرة الأندلسية إلى أفريقية على عهد الحفصيين إلى القول: " بأنه لا يشك في ان استيطان الأندلسيين الكثيف ببجاية هو الذي جعل منها مدينة تشبه إشبيلية في شغفها بالموسيقى وانصرافها إلى الطرب. [11] " ..ولعل هذا الأثر الأندلسي هو الذي أثار انتباه الحسن الوزان "ليون الأفريقي" (921هـ / 1515م) وجعله يصف البجائيين بأنهم " ناس ظرفاء يصرفون أوقاتهم في الطرب، فكل واحد منهم يتعاطى الموسيقى ويقيم الأفراح وخاصة الأعيان منهم الذين لم يشهروا الحرب على أحد قط ... "[12].

ومما يلاحظ أن جماعة الأندلسيين التي طبعت الوسط البجائي بثقافتها وذوقها يعود عامل تماسكها وقوة تأثيرها إلى بعض الشخصيات العلمية المرموقة التي كان لها تفوق علمي ومكانة أدبية وكلمة مسموعة لدى الحكام والتي عرفت بمشيخة الأندلس، والتي كانت الرئاسة فيها لأقدر العلماء وأكثرهم نفوذاً وثروة وجاهاً مثل: أبي عبد الله الجنان

(ت 650هـ) وأبي بكر بن محرز البلنسي (ت 655هـ) وأبي الحسن علي الأنصاري المعروف بابن السراج الإشبيلي (ت 657هـ) وأبي بكر بن سيد الناس اليعمري الإشبيلي (ت 659 هـ) وأبي عبد الله محمد الكتاني الشاطبي (ت 699هـ)، فقد كانت دور هؤلاء الأعلام الأندلسيين مكاناً يجتمع فيه علماء الأندلس للمذاكرة والمناقشة والمناظرة والمطارحة في المسائل العلمية والقضايا الأدبية واللغوية، وتبادل الرأي والمشورة فيما يهم جماعتهم، من هؤلاء العلماء نذكر على سبيل المثال: أبا الحسن بن أبي نصر، وأبا عثمان بن حكم، وأبا عثمان بن زاهر، وأبا محمد بن برطلة، وأبا الحسين بن فتوح، وابن قطرال، وأبا القاسم الولي وغيرهم[13].

سمح هذا الوضع الاجتماعي للجالية الأندلسية ببجاية لجماعة علماء الأندلس أن تقدم إسهاماً فعلياً، وأن تكون لها مشاركة إيجابية في تطوير الثقافة العربية الإسلامية ببلاد المغرب، مما ساعد على تأصل التراث الأندلسي، وأبقى الطرق والأساليب العلمية الأندلسية حية، ومكن من المحافظة على المكتبة العربية الأندلسية بما احتوته من تصانيف في مختلف العلوم التقليدية والعقلية سواء ما يتصل منها بأمور الفقه أو فنون الأدب والمعارف الرياضية والطبية، ولعل أهم إسهام للمدرسة الأندلسية البجائية في تطوير الثقافة العربية الإسلامية ببجاية خاصة والمغرب الأوسط عامة يتمثل في تجديد طريقة الدراسة وتطويره أساليب تلقي المعلومات، فتجاوزا الطريقة المغربية التقليدية المعتمدة أساساً على تحفيظ القرآن ورواية الحديث والاطلاع على مبادئ علوم الشرع واللغة، والتي ذكرها ابن خلدون في معرض حديثه عن المغاربة بأنهم: "مذهبهم في الولدان الاقتصار على تعليم القرآن"[14] إلى أساليب متطورة لا تقتصر فقط على الحفظ وإنما تولي أهمية خاصة للبحث والتفكير وإلقاء الأسئلة والمحاورة والمذاكرة بهدف إفهام الطالب وترسيخ المعلومات في ذهنه، ومما يؤكد الأخذ بهذه الطريقة التي تميل إلى التحليل والاستنتاج ما كان يقوم به بعض أعلام بجاية الأندلسيين، فقد ذكر أن أبا محمد عبد الحق الإشبيلي وأبا عبد الله محمد بن عمر القرشي وأبا علي المسيلي الأندلسي كانو يتناظرون في مباحث العلم والفقه بإحدى الحوانيت بطرف حومة المقدسي ببجاية، ويواظبون على ذلك حتى عرف ذلك الحانوت بمدينة العلم[15].

ومن العلماء الأندلسيين الذين جددوا طريقة التدريس ببجاية أحمد بن إبراهيم الأبلي (ت 757هـ / 1356م)، فرغم قصر المدة التي جلس فيها للتدريس ببجاية فإن الأبلي انتقد غياب الدافع الشخصي للدراسة والمبالغة في الحفظ والاعتماد المطلق على النصوص التي عرف بها المغاربة، وهذا ما جعله يتحفظ على أساليب علماء عصره الذين كانوا يعتبرون الطالب وعاء على الأستاذ أن يملأه بالمعلومات الغزيرة في شتى العلوم، ويذهب إلى القول، نقلاً عن أحمد بابا التمبكتي عن المقري: "وإنما أفسد العلم كثرة التواليف وإنما أذهبه بنيان المدارس"[16].

ومع هذا التجديد في طرق التدريس للعلوم العقلية خاصة فإن أساليب إسناد الأحاديث ظلت محافظة على منهجها القديم، فكان يتبع في عرض الرواية وتصحيح السند وتخريج الحديث ومناقشة الآراء المتعلقة بالأحاديث المتصلة بالمسائل الفقهية الأسلوب التقليدي، فيقوم عادة أحد الطلبة بقراءة متن أحد الكتب ويتولى الأستاذ شرحه فقرة فقرة حسب غزارة علمه وسعة اطلاعه، والطلبة يقيدون ما يسترعي انتباههم في شرح الأستاذ وأجوبته على أسئلة الطلبة، وهذا ما جعل سند المغاربة وفي مقدمتهم أهل بجاية "متصلاً بمشيخة الأندلس الذين اجتازوا نحو أفريقيا عند تغلب النصارى على شرق الأندلس ..."[17] ومن الأمثلة الحية على دراسة الحديث من قبل علماء الأندلس ببجاية ما أورده الغبريني في عنوان الدراية حول منهج تدريس الحديث التي كان يتبعه المحدث أبو بكر محمد بن سيد الناس اليعمري الأشبيلي في جامع بجاية مع طلبته: "فكان إذا قرأ الحديث يسنده إلى أن ينتهي إلى النبي (ثم إذا انتهى الإسناد رجع إلى ذكر رجاله فيبدأ من الصحابي، فيذكر اسمه ونسبه وصفته وتاريخ ولادته ووفاته وحكايته إن عرفت له ثم يتلوه بالتابعي كذلك، ولا يزال يتبعهم واحداً فواحداً إلى أن ينتهي إلى شيخه فيقول: أما فلان شيخنا ويذكر ما ذكر فيمن تقدم ويزيد على ذلك بأنه لقيه وقرأ عليه كذا وسمع منه كذا، وبعد الفراغ من ذلك يذكر لغة الحديث وعربيته ويتعرض لما فيه من الفقه والخلاف العالي والدقائق ورقائقه والمستفادات منه كل ذلك بفصاحة لسان ووجوه بيان ..."[18].

ولم يقتصر تأثير علماء الأندلس على طرق وأساليب التدريس بل تعداها إلى طرق الكتابة ورسم الخط وتأليف الكتب، فمن حيث طرق وأساليب الكتابة أصبح النموذج

الأندلسي مثالاً يحتذى به في اختيار الألفاظ واعتماد السجع والأخذ بالمحسنات البديعية. فكانت كتابات ابن الأبار وابن المطرف نموذجاً لمعاصريهم من علماء بجاية، وغدت مؤلفات الفتح بن خاقان ولسان الدين بن الخطيب مرجعاً للمتأخرين منهم، وغدا الخط الأندلسي مثالاً يحتذى بحيث أهمل الرسم المغربي القديم الذي عرف بخط القيروان وكان له فيما مضى انتشار بطبنة وقلعة بني حماد وبجاية، فقد أقبل على الخط الأندلسي الطلبة واعتمده النساخون لوضوحه وسهولة الكتابة به بحيث أهمل الخط المغربي في عهد الموحدين، ونسي تماماً عند حكم الحفصيين لبجاية، وهذا ما أشار إليه ابن خلدون بقوله: "فغلب خطهم (أي: الخط الأندلسي) على الخط الإفريقي وعفى عنه، ونسي خط القيروان والمهدية بنسيان عوائدها وصنائعهما وصارت خطوط أهل إفريقية كلها على الرسم الأندلسي ... فصار خط أهل إفريقية من أحسن خطوط أهل الأندلس ..."[19].

أما البرامج الدراسية (من متون وشروح وتعليقات) فقد اكتست هي الأخرى طابعاً أندلسياً سواء في طريقة تأليفها أو الأساليب المتبعة في تدريسها، فمع المحافظة على أمهات الكتب التقليدية والاستمرار في تدريسها مثل مجامع الحديث وفي مقدمتها كتاب الموطأ ومصنفات الفقه مثل مدونة الإمام سحنون ورسالة أبي زيد القيرواني وكتب الأدب والطب والحساب، فإن التآليف الأندلسية سواء ما نقل من الأندلس أو ألف بالمغرب الأوسط عامة وبجاية خاصة أصبحت محل اهتمام كبير، فاعتمدها الأساتذة، وأقبل عليها الطلبة، وأصبح لها مكان خاص في مضمون البرامج الدراسية في مختلف مساجد ومدارس بجاية الحفصية، فاشتهر منها كتاب القراءات لأبي عثمان بن سعيد بن زاهر، ولامية الشاطبي، وتفسير ابن عطية، ومختصر ابن الحاجب في الأصول (الأصلي والفرعي)، ومما يلاحظ على مختصرات ابن الحاجب أنه كان محل اعتناء كبير من طرف طلبة بجاية، فأقبلوا على دراسته ونشره ببلاد المغرب بعد أن عرفهم به العالم البجائي، ناصر الدين المشذالي الذي أخذ العلم بالأندلس على تلاميذ ابن الحاجب[20].

هذا وحتى يمكن تلمس الأثر الثقافي لجمهور علماء الأندلس ببجاية وإعطاء فكرة عن طبيعة مساهمتهم في مجال المعرفة والفكر، فإننا نحاول حصر أهم الشخصيات العلمية الأندلسية حسب فروع المعرفة التي اشتهرت بها في الوسط البجائي، مع العلم بأن أغلب

العلماء الأندلسيين كانوا موسوعي الثقافة، متنوعي الاختصاصات، فالعالم بالمنطق له معرفة بمسائل الفقه، والمتضلع في الفنون الأدبية له مشاركة في التاريخ، والعارف بالرياضيات ومسائل الطب له اطلاع على العلوم الشرعية، وهذا ما يجعل تصنيفهم في قوائم حسب الاختصاص يعتمد أساساً على ما عرفوا به من مساهمات أو اشتهروا به من تآليف حسب فروع المعارف الإسلامية التقليدية وهي المدارك العقلية النظرية من تصوف وعلم الكلام ومنطق وفلسفة، والفنون الأدبية اللغوية من أدب ونحو وشعر وتاريخ، والعلوم الشرعية والمسائل الفقهية من أصول وحديث وتفسير وقراءات بالإضافة إلى العلوم الرياضة والطبيعية من حساب وفلك وهيئة وطب. فقد تمكنا اعتماداً على كتب التراجم العديدة مثل كتب الغبريني والمقري والحفناوي وابن فرحون وابن مريم وابن قنفذ وأحمد بابا التمبكتي[21]، من التعرف على أكثر من خمسين عالماً أندلسياً استقر نهائياً ببجاية واتخذها موطناً أو أقام بها مدة قبل أن يتحول إلى تونس أو ينتقل إلى المشرق حسبما هو موضح فيما يلي من التراجم حسب أصناف الثقافة الإسلامية:

أ) العلوم العقلية ـ علم الكلام والمنطق والفلسفة:

1. أبو بكر محمد بن الحسين بن أحمد الأنصاري الميورقي (ت. 520هـ/1126م) من علماء المذهب الظاهري، له نزعة تحليلية للعلوم والمعارف الفقهية والمسائل الدينية، عرف بتصوفه وزهده، نزل ببجاية ودرس بها (537هـ) ثم تحول إلى المشرق.

2. أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي المرسي الإشبيلي دفين مغيلة قرب فاس (ت. 543هـ /1148م) من العلماء المتصوفين العارفين بالطرق والمذاهب والنحل، انتقد مجتمعه وأخذ معاصريه بعزوفهم عن المعارف الصحيحة، له تآليف عديدة منها أحكام القرآن والعواصم من القواصم وشرح المريدين وغيرها، أقام ببجاية مدة أثناء سفره من سبته إلى تونس (497هـ)، تعرف على علماء بجاية واتصل به بعضهم مثل أبي عبد الله الكلاعي.

3. أبو علي الحسن بن علي بن محمد المسيلي الأندلسي (ت. 580هـ / 1184م)

جمع العلم والعمل والزهد، عرف بنزعته الغزالية، فدعي بأبي حامد الصغير، أقام ببجاية، وقد اشتهر بسعة معارفه وبتواضعه، ومما يؤثر عليه أنه قال عندما أقر له الناس بالتفرد بالعلم "أدركت ببجاية تسعين مفتياً ما منهم من يعرف الحسن بن علي المسيلي من يكون" من تآليفه النبراس في الرد على من أنكر العباس والتذكير فيها تشتمل عليه السور والآيات من المبادئ والغايات، سلك فيه مسلك أبي حامد الغزالي في إحياء علوم الدين. قال عنه الغبريني بأنه "أجل فائدة من الأحياء".

4. أبو بكر محمد بن عبد الحق بن عبد الرحمن الأزدي الأشبيلي المعروف بابن الخراط (ت. 582هـ / 1186م) من المحدثين الرواة والفقهاء المتفوقين، أقام ببجاية إحدى وثلاثين سنة مواظباً على التدريس والتأليف، فتخرج عليه العديد من العلماء، من تآليفه: الأحكام الكبرى والصغرى والعاقبة والتذكير والرقائق والأنيس وكتاب الصلاة والتهجد وغيرها....

5. أبو عبد الله محمد بن عمر القريشي (أواخر القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي) كان عالماً في المسائل النظرية، اهتم بالنظر في المعقولات والتعاليم حتى اتهم بالزندقة عند من لا يعرف حقيقته حسب قول الغبريني، كانت له مناقشات ومناظرات مع أبي علي المسيلي وعبد الحق الإشبيلي.

6. أبو مدين شعيب بن الحسني الأنصاري الإشبيلي (ت. 594هـ / 1198م)، يعتبر شيخ الشيوخ وإمام الزهاد، قرأ عن محمد الصنهاجي القلعي كتاب المقصود الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى للغزالي، درس كتب التصوف مثل [illegible] القشيري، ونشر التصوف بالمغرب، نزل بجاية واستقر بها مدة تناهز [illegible] عشرة سنة وأخذ عنه وتأثر به العديد من العلماء. أورد عنه محمد مخلوف في شجرة النور الزكية بأنه "أخذ عنه أكثر من ألف شيخ" استقدمه الخليفة الموحدي يعقوب المنصور، فتوفي في الطريق إلى مراكش ودفن بالعباد بالقرب من تلمسان.

7. أبو الحسن علي بن أحمد الحرالي الأندلسي (ت. 637هـ / 1239م)، عالم عارف بالمسائل الفلسفية، نزل بجاية ثم غادرها إلى المشرق حيث توفي بحماه من

أرض الشام ، من تآليفه المقولات الأولى .

8 . أبو عبد الله محمد بن علي الطائي المرسي المعروف بمحيي الدين بن عربي (ت . 640هـ / 1242م) ، نزل بجاية ودرس بها والتقى بها بأبي مدين شعيب (590هـ) وأخذ عنه واعتبره من مشايخه ، تحول إلى تونس ومنها إلى المشرق ، من تآليفه الفتوحات المكية وعنقاء المغرب ، ومحاضرات الأبرار ، ومواقع النجوم ومطالع أهلة الأسرى وغيرها .

9 . أبو الفضل قاسم بن محمد القريشي القرطبي (ت . 662هـ / 1262م) ، عرف بعلمه واشتهر بزهده وصلاحه ، أخذ عنه وتأثر به بعض علماء بجاية .

10 . أبو الحسن علي النميري الشتري الأندلسي (ت . 668هـ / 1269م) ، عرف بمعارفه الفقهية وآرائه الصوفية ونزعته الفلسفية ، أقام ببجاية مدة وتعرف فيها على ابن سبعين ، ودرس بها ثم غادرها إلى المشرق حيث توفي بدمياط من أرض مصر .

11 . أبو محمد بن الحسن بن إبراهيم بن سبعين المرسي دفين مكة المكرمة (ت . 669هـ / 1270م) ، كان عالماً بالقياس والمنطق ، ترك عدة رسائل ، مر على بجاية في طريقه إلى تونس ، وأخذ بها عليه علماء أجلة منهم الشتري الذي لازمه واعتبر نفسه من تلاميذه ، قال عنه المقري " إنه مشارك في معقول العلوم ومنقولها " .

12 . أبو الحسن عبد الله بن أحمد الأزدي الروندي الأندلسي (ت . 691هـ /1292م) ، هو ابن أخ الأديب النحوي أبي علي عمر شارح كتاب الجُمَلِ ، عرف بعلمه وتصوفه ، قدم بجاية واستوطنها ودرس بها وأخذ عنه بها بعض علمائها مثل الغبريني ، توفي عن سن متأخرة .

13 . أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الآبلي الأندلسي (ت . 757هـ / 1356م) ، من أسرة أندلسية ، نشأ بتلمسان ، وتعلم بها ، تفوق في الرياضيات والعلوم العقلية ، وبرز في المنطق ، خدم أبا حمو الأول ، والتحق بمجلس بلاط أبي الحسن المريني ، وانتقل إلى تونس ومر ببجاية وعلم بها شهراً واتصل بأبي عنان المريني ودرس بفاس حيث توفي ،

يعتبر مدرسة لرجال العلم مثل يحيى وعبد الرحمن ابن خلدون وابن مرزوق الجد وسعيد العقباني وابن الصباغ المكناسي وأبو عبد الشريف التلمساني وغيرهم .

ب. العلوم الشرعية (الفقه والأصول والحديث والتفسير والقراءات):

1 . أبو العباس أحمد بن زاهر بن رصيص الداني (ت .532هـ / 1137م) ، من علماء الحديث ، قدم من الأندلس ومر بقلعة بني حماد ثم استقر ببجاية ، وله تصنيف على الموطأ .

2 . أحمد بن عبد الملك الأنصاري الظاهري (ت . 549هـ / 1154م) ، من علماء الحديث ، مر على بجاية ودرس بها ، له كتاب المنتقى الذي جمع فيه ما تفرق من أمهات المسندات ونوازل الشرع .

3 . أبو جعفر أحمد بن عبد الحق الخزرجي القرطبي (ت . 582هـ / 1186م) كان عالماً بالحديث والرواية له تآليف عدة منها آفاق الشموس وأعلاق النفوس وقامع الصلبان ومرتع رياض أهل الإيمان .

4 . أبو محمد قاسم بن فيرة الرعيني الشاطبي الأندلسي (ت . 590هـ / 1194م) ، كان عالماً بمسائل الفقه إماماً في القراءات له قصيدة في طرق القراءات .

5 . أحمد بن عبد الرحمن بن مضاء اللخمي الأندلسي (ت . 593هـ / 1196م) ، من أشهر علماء الحديث ، ذكره ابن الأبار بقوله : " كان أديباً له حظ في الكتابة والشعر ، شارك في فنون شتى " قدم إلى بجاية وتولى بها القضاء ثم غادرها إلى إشبيلية ، له عدة تآليف منها كتاب "المشرق" .

6 . أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن سليمان التجيبي المرسي (ت . 610هـ / 1213م) ، نزل بجاية وأخذ عنه بعض علمائها (576هـ) وسمعوا منه كتاب تلقين الوليد ، غادر بجاية ليستقر نهائياً بتلمسان .

7 . محمد بن جعفر بن أحمد المخزومي الأندلسي (ت . 632هـ/ 1235م) ، عارف بالفقه والرواية ، أخذ عن الشيخ عبد الحي الإشبيلي وأجازه ، اشتهر باتزان عقله ، استقدمه الخليفة عبد المؤمن بن علي الموحدي من بجاية وقربه إليه وجعله كاتم أسراره .

8 . أبو جعفر الحسن بن محمد بن الحسن الأنصاري الأندلسي المعروف بابن الرهبيل (أواخر القرن 6 هـ/ نهاية القرن 12م) عالم بالحديث وأمور الفقه ، قدم بجاية ثم غادرها إلى المشرق وعمل بالأسكندرية ثم عاد إلى بجاية (572هـ) ودرس بها .

9 . محمد بن أحمد بن عبد الله الأنصاري الأندلسي (ت . 621هـ / 1224م) ، عالم في مسائل الفقه وأمور الشرع ، نزل ببجاية ودرس بها .

10 . علي بن أحمد بن عبد الله البلنسي (ت . 634هـ / 1236م) ، مكث مدة ببجاية وهو في طريقه إلى المشرق (578هـ / 1182م) .

11 . أبو عثمان سعيد بن علي بن زاهر الأنصاري البلنسي (ت . 654هـ/ 1256م) ، عالم بالرواية ، إمام في القراءات ، قدم بجاية وأقرأ بها وأخذ عنه الكثير من علمائها ، ظل مواظباً على التدريس بجامعها حتى توفي .

12 . أبو الحسن علي بن أحمد الأنصاري الأشبيلي المعروف بابن السراج (ت . 657هـ/ 1259م) عالم بالرواية والسند وتخريج الحديث ، اشتهر بالزهد ، استوطن بجاية وأخذ عنه طلبتها ، وظل مواظباً على التدريس حتى توفي بها عن عمر يناهز المائة سنة .

13 . أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن أشكورنة الأزدي المرسي المعروف بابن برطلة (ت . 661هـ / 1263م) ، من علماء الحديث عرف بزهده واشتهر بخطبه البليغة ، تخلى عن الخطابة بمرسية ونزل بجاية وتولى الإمامة والخطابة بجامعها ، تحول عنها إلى مدينة الجزائر وتولى القضاء بها قبل أن ينتقل إلى تونس .

14 . أبو العباس أحمد بن محمد الصدفي الشاطبي (ت . 674هـ / 1275م) ، عالم بالرواية والقراءات قدم بجاية وأقرأ بجامعها واستقر بها حتى توفي ، له تآليف في رسم الخط وفي بيان مذهب ورش .

15 . أبو زكريا يحيى اللقنتي الأندلسي (أواخر القرن السابع الهجري ، نهاية القرن الثالث عشر الميلادي) ، فقيه حافظ محدث ، عارف بالأسانيد ، نزل بجاية واستوطنها وأقرأ بها وأسمع بالجامع الأعظم .

16 . أبو عثمان سعيد بن حكم بن عمر بن حكم بن عبد الغني القريشي الأندلسي

(ت . 680هـ / 1281م) ، من علماء اللغة والعارفين بفنون الأدب ، قدم بجاية وبقي بها فترة وأخذ عنه بها العديد من طلبة العلم قبل أن ينتقل إلى تونس ومنها إلى ثغر ميورقة بالجزائر الشرقية (الباليار) حيث توفي .

17 . أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن الخزرجي الشاطبي الأندلسي (ت . 691هـ/ 1292م) ، عالم في اللغة وأصول الفقه ، أقام مدة ببجاية ثم غادرها إلى المشرق وعاد إليها وتولى القضاء بها قبل أن يرتحل عنها نهائياً إلى تونس .

18 . أبو العباس أحمد بن محمد بن الحسن الغماز الأنصاري البلنسي (ت . 693هـ/ 1294) ، عالم بفنون اللغة ومسائل الفقه ، أقام ببجاية وولي القضاء بها (662هـ) وكلف بإمامة الصلوات الخمس وتولى أمر البلد فحفظ الأمن بها في غياب جيش الأمير الحفصي ، عرف ببعد همته وحسن تصرفه ، أخذ عنه علماء أجلة مثل أبي الربيع سليمان ، وابن سالم الكلاعي والغبريني ، استقدمه المستنصر الحفصي إلى تونس وقربه إليه وأوفده في سفارة إلى المغرب .

19 . أبو عبد الله محمد بن صالح الكناني الشاطبي (ت . 699هـ / 1299م) ، من علماء الحديث والرواية ، غادر مسقط رأسه شاطبة والتجأ إلى بجاية (645هـ) ، درس بها وخطب بجامعها ، ولم تفته فيها جمعة لمدة ثلاثين سنة ، تعرف عليه العبدري عند مروره ببجاية وقرأ عليه الموطأ والشمائل للترمذي ورياض المتعلمين ، واعتبره آخر من بقي من علماء بجاية من حيث المحافظة على تصحيح الرواية .

20 . أبو عبد الله محمد بن علي المرسي (ت . 728هـ / 1328م) فقيه راوية عارف باللغة والأسانيد ، أقام مدة ببجاية واشتهر فيها بخطبه البليغة وتخريجه للأحاديث .

21 . أبو الحسن علي الشهير بالزيات (لا يعرف تاريخ وفاته) قدم بجاية من الأندلس وأقرأ بها كتب المذاهب ثم رحل إلى تونس .

22 . أبو العباس أحمد بن محمد القريشي الغرناطي (لا يعرف تاريخ وفاته) ، فقيه مفسر وراوية محدث ، من العارفين بما ألف في مختلف فنون العلم ، له تصنيف

على القرآن، اعتمد فيه طريقة جديدة في العرض والتحليل، استقر ببجاية ودرس بالجامع الأعظم وعمل على تسجيل ما ألف على عهده، وقد كاتب في ذلك إلى بلاد المشرق للاطلاع على ذلك، وسأل علماء بجاية عما صنفوه قبل أن يتحول إلى تونس.

جـ. الفنون الأدبية والعلوم الإنسانية:

1. الأمير عز الدولة الواثق أبو محمد عبد الله بن المعتصم بن صالح الأندلسي (نهاية القرن الخامس الهجري وأواخر القرن الحادي عشر الميلادي)، وفد مع أسرته إلى بجاية (حوالي 488هـ / 1095م) بعد أن استولى على إمارته بالأندلس يوسف بن تاشفين، اشتهر ببجاية بأدبه وحبه للفنون، ونال حظوة لدى أمير بجاية الحمادي المنصور الذي أقطعه مدينة دلس وضواحيها تقديراً لمكانته فانتقل إليها من بجاية وجعلها مركزاً ثقافياً أندلسياً.

2. أبو الصلت أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت الإشبيلي الأندلسي (ت. 529هـ / 1134م)، مؤرخ وأديب وشاعر، عارف بالفلسفة والرياضيات والموسيقى، مكث مدة ببجاية واتصل به علماؤها.

3. أبو العباس بن عبد الجليل التدميري الأندلسي (ت. 555هـ / 1160م) أديب وشاعر، استقر ببجاية وتولى الكتابة بها لمحمد بن علي بن حمدون الوزير، وتوفي بها، له كتاب "نظم القرطين وضم أشعار السقطين"، و"كامل الثمالى في نوادر القالي".

4. محمد بن أحمد بن طاهر الأنصاري الإشبيلي المعروف بابن الخدب (ت. 580هـ / 1884م)، عالم في النحو، عارف باللغة، استوطن فاساً ثم رحل إلى المشرق وأقرأ كتاب سيبويه بجامع البصرة ثم عاد إلى المغرب واستوطن بجاية وعلم بها فقصده الطلبة من كل صقع وظل مواظباً على التدريس بها حتى توفي.

5. أبو طاهر عمارة بن يحيى بن عمارة الشريف الحسني الأندلسي (ت. حوالي 585هـ / 1189م)، عالم في اللغة والفقه، اشتهر بملكته الشعرية، قال عنه الغبريني: "له علم وأدب وفضل ونبل، متقدم في علم العربية والأدب، وله تآليف في علم الفرائض

منظوم وتواشيحه في نهاية الحسن وبها يضرب المثل"، استقر ببجاية، تأثرت به ابنته عائشة التي اشتهرت بجمالها ورقة شعرها وحسن خطها، وعند احتلال ابن غانية الميورقي بجاية (580هـ) اضطر أبو طاهر عمارة إلى مبايعته فولاه القضاء وخطة الإمامة والخطابة، وقد تسبب له ذلك في مضايقة الموحدين عند استرجاعهم لبجاية، وسجن لمدحه للميورقي فطلب الشفاعة من العامل الموحدي ببجاية بقصيدة منها:

ونـار بأكبـادي أكابـد حرهـا
وقلبٌ سليم قُلّبَ في لظى جمر

فلم أنس توديع البنين مصفداً
وأصغرهم يجري وأدمعه تجري

أبا زيد إني بالحسين وسيلتي
وجدي شفيع الناس في موقف الحشر

6. أبو الخطاب عمر بن الحسن بن علي الكلبي الأندلسي (ت. 633 هـ /1235م) عالم في النحو عارف بالتاريخ، يعتبر من كبار اللغويين، استوطن بجاية وعلم بها قبل أن يتحول إلى المشرق.

7. أبو الربيع سليمان الأندلسي المعروف بكثير (لا يعرف تاريخ وفاته) درس بالأندلس ومراكش حيث اتصل بأبي موسى الخزولي، له معرفة بالحديث ورجاله وسبق في اللغة والأدب، ذكره الغبريني بقوله: "وأما الأدب فشأوه فيه لا يدرك، سبق فيه أهل الزمان..." قدم بجاية ودرس بها، وأخذ عنه طلبتها، اشتهر بتعففه وعلو همته.

8. أبو محمد عبد الله بن نعيم الحضرمي القرطبي (ت. 636هـ / 1239م)، نشأ بتونس من أسرة أندلسية، كان عارفاً بالرواية مطلعاً على علم الأدب، متفوقاً في اللغة، قدم بجاية ودرس بها وأقرأ فيها مقامات الحريري، أخذ عنه بها أبو عبد الله التميمي والغبريني، وتولى أمور بجاية عند حدوث الفوضى بها واعتقل مع حاكمها ابن عمران ثم أطلق سراحه، تحول إلى قسنطينة وتوفي بها.

9 . أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري المرسي المعروف بابن الجنان (ت . 650هـ/ 1252م)، من أعلام الأدب والبلاغة والعارفين بالحديث والرواية ، قدم إلى بجاية بعد سقوط بلنسية ودرس بها قبل أن ينتقل إلى تونس ، ومن مستحسن شعره في حنينه إلى وطنه الأندلس قوله :

يـا حـادي الركـب قـف بنـا يـا حـادي
وارحـم صـبابة ذي نـأي وإبعـاد

فهـل لـديك عـن الأحبـاب مـن خـبر
وهـل نزلـت بـذاك الربـع والنـادي

هـم علـتي ودوائـي كيـف لـي بهـم
أنـا العليـل ولكـن أيـن عـوادي

تلـك الحيـاة وهـم أرواحنـا فـإذا
مـا فارقونـا فـلا نفـع بأجسـاد

10 . أبو بكر محمد بن أحمد بن عبد الرحمن بن سليمان البلنسي المعروف بابن محرز (ت . 655هـ / 1257م)، متفوق في اللغة والأدب عارف بكتب التاريخ والفقه، وفد بجاية (640هـ) واشتغل فيها بالرواية والتدريس ، عرف بسعة معارفه وطيب أخلاقه التف حوله العلماء وقدموه لتولي رئاسة مشيخة علماء الأندلس ببجاية .

11 . أبو المطرف أحمد بن عبد الله بن محمد بن عميرة المخزومي (ت . 656هـ/ 1258م)، الفقيه القاضي والأديب البليغ والشاعر المبدع ، ذكره الغبريني بأن : " له أدب هو فيه فريد دهره وسابق عصره " من جزيرة شقر استوطن بلنسية وولي القضاء في أريولة وشاطبة ، واتصل بالخليفة الموحدي وأسند له قضاء سلا ومكناسة ثم تحول إلى إفريقية ، استوطن بجاية مدة طويلة وأقرأ بها ودرس ، ثم استقدمه المستنصر الحفصي وولاه قضاء قسنطينة والأربس وقابس ثم ألحقه بحاشيته بتونس ، له رسائل طريفة وأشعار جيدة وتصنيف في كاينة " قضية " ما يورقة ، له رد على الإمام فخر الدين الرازي في كتابه المعالم في أصول الفقه ، وله رد آخر على كتاب التبيان في علم الكلام

للشماخي عنونه بالتنبيهات على مافي البيان من التمويهات ، وغيرها .

12 . أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي البلنسي المعروف بابن الأبار (ت . 658هـ/ 1260م) ، أديب لغوي وشاعر ومؤرخ ، تردد على بجاية بعد قيامه بسفارة من قبل أمير بلنسية أبو زيان جميل بن مردنيش ، وأقام بها مدة وأقرأ بها ودرس وصنف قبل أن ينتقل إلى تونس ويتولى خطة الإنشاء والعلامة لأبي زكريا الحفصي ويصبح من خاصته ، ظل على صلة وثيقة بالمستنصر الذي أمر بقتله بسعاية من مناقبه ، ذكره ابن قنفذ القسنطيني بقوله : " الفقيه المحصل والمحدث الكامل ، وعرفه الغبريني بأنه : " ممن لا ينكر فضله ولا يجهل نبله له تآليف حسنة ونزعات في علم الأدب بارعة مستحسنة" ، له تآليف عدة منها التكملة لصلة ابن بشكوال التي وضعه استجابة لأبي الربيع بن سالم الأندلسي ، والمعجم في أصحاب القاضي العالم أبي علي الصدفي ، اشتهر ابن الأبار بمرثيته للأندلس التي استغاث فيها بأبي زكريا الحفصي لنجدة بلده بلنسية والتي مطلعها :

أدرك بخيلـك خيـل الله أندلسـا
إن السـبيل إلى منجاتهـا درسـا

وهـب لهـا مـن عزيـز النصـر مـا التمسـت
فلـم يـزل منـك عـز النصـر ملتمسـا

13 . أبو بكر محمد بن أحمد بن سيد الناس اليعمري الأشبيلي (ت . 659هـ / 1261م) ، إمام في اللغة عارفٌ بالعلوم الشرعية ، استقر مدة ببجاية وخطب بها وأقرأ بجامعها ، وتولى مشيخة الأندلس ثم تحول إلى تونس بطلب من الـ[illegible] الحفصي المستنصر حيث توفي .

14 . أبو الحسن علي الحضرمي الإشبيلي المعروف بابن عصفور (ت . 669هـ / 1270م) ، من أشهر النحويين ، استوطن بجاية ودرس بها ، وتولى تعليم الأمير يحيى الحفصي ، ثم انتقل إلى تونس وأصبح من خاصة السلطان الحفصي المستنصر قبل أن يأمر بقتله ، من تآليفه المقرب وشروحه ، وشروحات الجمل والإيضاح .

15 . أبو العباس أو أبو جعفر أحمد بن يوسف الفهري اللبلي الأندلسي (ت . 691هـ/ 1292م)، أخذ بالأندلس على ابن الشلوبين، ونبغ في علوم العربية، قدم بجاية وسكنها وأقرأ بها مدة ثم ارتحل إلى المشرق ثم عاد إلى تونس واستوطنها، وتفرغ للتدريس بها، له تآليف عديدة منها وشي الحلل، وشروح على الجمل للزجاجي والأعلام بحدود وقواعد علم الكلام، والعقيدة في علم الكلام، والأذكار وغيرها .

16 . أبو زكريا يحيى بن أبي بكر بن خلدون الحضرمي الأندلسي (ت . 780هـ / 1378م)، من أسرة أندلسية نشأ بتونس وتعلم بها وتفوق في الأدب والتاريخ والتحق بمجلس أبي الحسن المريني، وظل في خدمة الدولة المرينية على عهد أبي عنان، تولى منصب الحجابة ببجاية لأبي عبد الله الحفصي (765هـ) وعلم بها والتحق بأبي حمو الثاني الزياني، وتولى الكتابة له، وانضم إلى أبي عبد العزيز المريني عند استيلائه على تلمسان ورافقه إلى فاس ثم عاد إلى تلمسان حيث تولى الكتابة لأبي حمو الثاني قبل أن يقتل بأمر من ولي العهد الزياني الأمير تاشفين . عرف بكتابه في تاريخ بني زيان " بغية الرواد في تاريخ الملوك من بني عبد الواد ".

17 . أبو زيد عبد الرحمن بن أبي بكر بن خلدون الحضرمي الأندلسي (ت. 808هـ/ 1405م) شقيق يحيى صاحب بغية الرواد، نشأ بتونس في أسرة أندلسية، وتعلم بها وطاف في ربوع المغرب، وتتلمذ على الآبلي والتحق ببلاطات المرينيين والزيانيين وبني الأحمر، قدم بجاية ودرس بها (754 ـ 755هـ) ثم عاد إليها بطلب من الأمير الحفصي أبي عبد الله فقدم من ألمرية وتولى الحجابة بها سنتي 766 ـ 767هـ وذكر ذلك في التعريف بنفسه بقوله : " استقللت بحمل ملكه واستفرغت جهدي في سياسة أموره وتدبير سلطانه وقدمني للخطابة لجامع القصبة وأنا مع ذلك عاكف بعد انصرافي في تدبير الملك غدوة إلى تدريس العلم أثناء النهار"، وقد عرف ابن خلدون بموسوعته التاريخية المعروفة بكتاب العبر والتي ضمن مقدمتها قواعد علم الاجتماع ومناهج فن التاريخ، فعد عميد مؤرخي بلاد المغرب العربي .

18 . أبو الحسن موسى بن علي بن عتيق بن أحمد الأنصاري القرطبي (ت . 598هـ

ـ 1201م) عالم بالطب، عارف بالتاريخ والفقه، استقر مدة ببجاية وتعرف على علمائها .

د) المعارف الرياضية والطبيعية (الحساب والجبر والفلك والطب والطبيعة):

1 . أبو العباس أحمد بن خالد المالقي (ت . 660 هـ / 1262م)، من العارفين بالطب المطلعين على العلوم الطبيعية، قدم بجاية وجلس للإفتاء بها، وأخذ عنه بعض علمائها وبها توفي .

2 . أبو القاسم محمد بن أحمد الأموي المرسي المعروف بابن اندارس (ت . 674هـ / 1275م)، عالم في الطب، اشتهر ببراعته في تشخيص المرض، استقر ببجاية، وتولى تطبيب الولاة، ودرس بها قانون الجزولي وأرجوزة ابن سيناء، وأتم بها أرجوزته في الأدوية قبل أن يستقدمه إلى تونس السلطان الحفصي المستنصر حيث توفي .

3 . أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن الخزرجي الشاطبي (ت . 691هـ/ 1292م)، له معرفة بمسائل الفقه واطلاع على العلوم الطبيعية، وتفوق في الطب حتى اعتبر من أشهر الأطباء على عهده، تولى قضاء بجاية ثم تحول عنها إلى تونس .

بفضل هؤلاء العلماء الأندلسيين أصبحت بجاية مركز إشعاع علمي فقد توجه إليها للدراسة وتلقي العلم أعلام من مختلف بلاد المغرب، مثل أبي إسحاق إبراهيم بن يخلف التنسي (ت 680 هـ / 1281م)، وأبي العباس أحمد بن يحيى الغماري (ت 682هـ / 1283م) وأبي محمد عبد العزيز بن مخلوف التلمساني (ت 686هـ/ 1287م)، وأبي عبد الله محمد المغربي التلمساني (ت 759هـ ـ 1258م)، وأبي عبد الله محمد بن أحمد بن مرزوق الخطيب التلمساني (ت 781هـ / 1279م)، وأبي سعيد بن تاتارت الدكالي، وعبد الرحمن بن عمر اليزناسي، وأبي محمد عبد الله بن محمد الأغماتي وغيرهم . كما استقطبت بجاية نخبة من علماء حواضر المغرب للتدريس بها مثل عبد الكريم النهشلي المسيلي (ت 405هـ / 1014م)، وأبي إسحاق التجيبي (ت 672هـ / 1273م) الذي شغل منصب القضاء بها، وأبي عثمان سعيد بن محمد بن محمد العقباني التلمساني الذي تولى قضاء بجاية أيام أبي عنان المريني (ت 811هـ/ 1408م) وغيرهم .

كما تخرج من مدارسها جيل من العلماء البجائيين بعضهم من أصل أندلسي كان لهم الفضل في المحافظة على استمرار الحضارة العربية الإسلامية ببلاد المغرب نذكر منهم :

- الأصولي أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الفهري البجائي المنشأ الأندلسي الأصل (ت 612هـ / 1216م)، أصله من بلد مرزقان من أعمال إشبيلية بالأندلس، يعد من العارفين باللغة وعلم الكلام، رحل إلى المشرق وأخذ العلم بمصر، ثم توجه إلى مراكش وتولى القضاء بها (568هـ)، ثم تحول إلى مرسية وتولى القضاء بها، وكانت له مودة مع الفيلسوف ابن رشد القرطبي، تعرض لغضب المنصور الموحدي (593هـ) عندما امتحن ابن رشيد، وكان موقفه المساند سبباً في التخفيف من مأساة هذا الفيلسوف، ونفي معه قبل أن يعفو عنه ويحسن إليه الخليفة الناصر الموحدي. شغل منصب القضاء ببجاية لثلاث مرات صرف في آخرها (608هـ)، فتفرغ للتدريس والتأليف، له تقاييد على المستصفى لأبي حامد الغزالي، وتقاييد في الشرفاء العمرانيين، وافته المنية ببجاية بعد أن فقد بصره.

- الولي الصالح والفقيه العالم أبو زكريا يحيى بن يحيى الزواوي البجائي (ت 611هـ / 1214م).

- العالم المتصوف أبو محمد عبد الحق بن ربيع الأنصاري البجائي المنشأ والإشبيلي الأصل (ت 675 هـ / 1276م).

- الراوية الموثق والأصولي أبو عبد الله عبد العزيز الخشني الضرير البجائي (ت 640 هـ / 1242م).

- الأديب الكاتب والفقيه العالم، أبو الفضل محمد بن ظاهر القيسي المعروف بابن محشرة البجائي النشأة والأندلسي الأصل (598هـ / 1202م) تولى الكتابة ليوسف بن عبد المؤمن الموحدي وابنه يعقوب المنصور، اشتهر ببلاغته ورقة أسلوبه.

- المحدث والفقيه علي بن أبي نصر بن عبد الله البجائي (ت 652هـ / 1254م).

- النحوي ابن معطي الزواوي (ت 628هـ / 1231م) صاحب الألفية في النحو

ومؤلف الفصول والعقود والقوانين وحاشية على أصول ابن السراج وشروح لكتاب الجمل للزجاجي وغيرها.

- الفقيه الراوية أبو الحسن علي بن الراوية البجائي (ت 652 هـ / 1254م).

- الفقيه أبو محمد عبد الحق بن ربيع البجائي (ت 675هـ / 1276م).

- الفقيه المحدث أبو محمد بن كحيل البجائي (685هـ /1286م)، روى عنه ابن غريون وغيره.

القاضي المحدث أبو العباس أحمد الغبريني (ت 704هـ / 1304م)، صاحب كتاب عنوان الدراية الذي ترجم فيه لمائة وسبعة من العلماء الأعلام ببجاية.

- العالم الفقيه أبو علي ناصر الدين مسعود بن أحمد بن منصور بن عبد الحق المشدالي البجائي (ت 731هـ / 1331م)، من أشهر علماء عصره، أخذ عنه علماء كثيرون بالمشرق والمغرب، ارتبط به أبو موسى عمران المشدالي ولازمه.

- الفقيه الراوية أبو عبد الله محمد بن غريون البجائي (ت731هـ - 1331م) تولى الخطابة بجامع القصبة، وصفه الغبريني بقوله : "المتمتع بالرواية السالك مسلك الدراية".

- المحدث الفقيه والمفسر أبو عبد الله محمد ابن يحيى الباهلي البجائي (ت 744هـ /1343م).

- المفتي أبو علي الزواوي البجائي (ت 770هـ / 1368م).

- الفقيه القاضي أبو موسى عيسى بن أبركان البجائي (753هـ / 1352م).

- لفقيه المفتي ابو زيد عبد الرحمن بن أحمد الوغليسي البجائي (ت 786هـ / 1384م).

- الفقيه أبو عزيز محمد بن علي البجائي (ت 747هـ - 1346م).

- الفقيه أبو موسى عمران بن موسى المشدالي البجائي (ت 745هـ/ 1344م)، استقر بتلمسان وأخذ عنه بها علماء كثيرون.

الأصولي أبو علي بن حسن البجائي (ت 754هـ / 1353م) ، له شرح على المعالم .

بهذه المساهمة الأندلسية تبوأت بجاية مكانة مرموقة في مجال الثقافة العربية الإسلامية ، فظلت لفترة تزيد عن ثلاثة قرون (السادس والسابع والثامن للهجرة / الثاني عشر والثالث عشر والرابع عشر للميلاد) إحدى منارات المعرفة ومراكز العلم ببلاد المغرب ، فعن طريقها وبواسطتها تم انتقال التراث العلمي الأندلسي المتأخر نحو تونس والمشرق ومن خلالها استقبلت بلاد القبائل خاصة والمغرب الأوسط عامة جموع علماء الأندلس الذين انتشروا في البوادي وتوزعوا في المدن الداخلية ، يؤسسون المعاهد والزوايا ويحافظون على المعارف الإسلامية وتقاليد السلف الصالح يشد أزرهم ويعاضدهم السكان وفي مقدمتهم الفقهاء وشيوخ القبائل .

لكن دور بجاية الأندلسية بدأ ينحسر فلم يعد للحضور الأندلسي أثر على تطوير الثقافة بها مع نهاية القرن الثامن الهجري (الرابع عشر للميلاد) بفعل حركة التراجع العامة التي عرفتها بلاد المغرب مع نهاية العهد الحفصي والزياني والتي تميزت بتناقص السكان وجمود الاقتصاد واضطراب الأحوال الاجتماعية والسياسية ، وهذا ما لاحظه الحسن الوزان الذي زار بجاية (921هـ / 1515م) وذكر أن منازلها التي كانت تقدر ب ـ 24.000 ، أصبح عددها لا يتجاوز 8.000 منزل[22] ، وأشار إليه الغبريني عند مروره بجاية بقوله : "وهذا البلد بقية قواعد الإسلام ومحل جلة من العلماء والأعلام ... غير أنه اعتراه من الغير ما شمل في هذا الأوان البدو والحضر . وقد غاض بحر العلم الذي كان به حتى عاد وشالاً وعفى رسمه حتى عاد طالاً وبه أحاد من طلبة العلم قد اقتصروا على الصحف والدفاتر وسلكوا في ترك تصحيح الرواية طريقاً لم يرضها أعلام الأكابر"[23] .

رغم هذه الأوضاع الصعبة التي أصبحت تعيشها بجاية في القرن العاشر الهجري ، الخامس عشر الميلادي إلا أن المساهمة الأندلسية لم يمح أثرها ولم يزل تأثيرها نهائيا في الوسط البجائي ، فقد كانت دافعاً لظهور حركة تيقظ وتحفز لمواجهة الخطر الإسباني الذي أصبح يهدد الوجود الإسلامي ببلاد المغرب بعد ضياع الأندلس ومواصلة سياسة الاسترداد المسيحي بأفريقية بمباركة من البابوية وتشجيع الكنيسة ، وقد برزت هذه

الحركة في انطلاق عملية الجهاد البحري من بجاية بفعل حيوية العنصر الأندلسي وتعاونه مع السكان ، فتحولت بجاية إلى قاعدة لشن هجمات بحرية على السواحل الأوروبية حسبما يؤكد ذلك ابن خلدون (حوالي 761هـ / 1360م) بقوله : "وشرع في ذلك (أي : الغزو) أهل بجاية منذ ثلاثين سنة ، فيجتمع النفير والطائفة من غزاة البحر ويصنعون الأسطول ... ثم يركبونه إلى سواحل الفرنجة وجزائرهم على حين غفلة ... ويعودون بالغنائم والسبي والأسرى"[24] وقد انجر عن هذا النشاط البحري ازدياد الضغط الإسباني على سواحل المغرب الأوسط ، وأدى في فترة لاحقة إلى احتلال بجاية وتدميرها من طرف أسطول إسباني بقيادة بيار دو نافارو (916هـ /1510م) .

كان احتلال بجاية من طرف الإسبان بداية لتطورات حاسمة في تاريخ البلاد الجزائرية ، فقد استنجد سكانها بالأخوين : عروج وخير الدين (918هـ /1512م) ، لإنقاذها من يد النصارى ، فتحول الصراع إلى مواجهة عالمية بين الخلافة العثمانية والإمبراطورية الإسبانية ، أسفرت عن توحيد البلاد الجزائرية وظهور حكم مركزي بها في إطار الدولة العثمانية وطرد الإسبان من السواحل واسترجاع بجاية سنة (962هـ /1555م) التي هاجر منها سكانها وأصبحت عبارة عن حطام بفعل التدمير الذي تعرضت له تحت حكم الإسبان لمدة خمسة وأربعين سنة ، وقد وصف ذلك التمغروتي في رحلته " التحفة المكية في السفارة التركية " (999هـ /1591م) بقوله : "بجاية كانت دار علم وعمل ومستقر العلماء الصالحين ، وهي الآن خراب هدمها النصارى ... ولم يبق بها إلا ديار قلائل على طرف البحر ، وقلعة صغيرة ينزل بها متولي تلك الناحية من الترك يمنع المرسى من العدو"[25] .

هذا ورغم اعتناء حكام الجزائر العثمانية ببجاية وإقرارهم بها حامية من الجند لحراستها (962هـ ـ 1248هـ /1555 ـ 1832م) إلاّ أنها لم تسترجع سالف عزها وقديم مجدها ، فظلت قليلة السكان ناقصة العمران حسب قول وأوصاف بعض الرحالة الذين تعرفوا عليها في هذه الفترة مثل شاو وبايصونال[26] ، ولم يبق بها بعد أن احتلها الجيش الفرنسي بقيادة تريزال عام 1249هـ /1833 من السكان سوى ألفي نسمة[27] .

ومع اضمحلال عمران بجاية واختفاء دورها العلمي وتلاشي عنصرها الأندلسي مع الاحتلال الإسباني لها في مستهل القرن العاشر الهجري (القرن السادس عشر الميلادي) ، فإن الشجرة الأندلسية المباركة التي احتضنتها البيئة البجائية وعملت على تنميتها ، ظلت عروقها حية وطاقتها كامنة في ريف بلاد القبائل ، الذي هاجر إليه أغلب علماء بجاية الأندلسيين هروباً من الإسبان ، فقد نجح هؤلاء العلماء في تأسيس الزوايا والمعاهد العلمية بوادي الصومام وجرجرة وبني يعلى وتامقرة وفي مقدمتها زوايا سيدي عبد الرحمن اليلولي وسيدي علي بن الشريف وسيدي أحمد بن إدريس وسيدي منصور والشيخ أعراب وأولاد مصباح وغيرها ، فقد خرجت هذه المعاهد والزوايا أجيالاً من الفقهاء القادرين على تحفيظ القرآن ورواية الحديث وتلقين مبادئ العربية وشرح مسائل الفقه ، كانوا عاملاً حاسماً في استمرار الثقافة العربية الإسلامية بالمنطقة ، وسبباً مباشراً في اكتساب الجزائر المناعة الحضارية أمام المخططات الفرنسية الهادفة لتغريب الجزائر والقضاء على مقوماتها ، فالفضل يعود إلى هذه الزوايا في الحد من آثار السياسة الاستعمارية وفي تهيئة الأرضية لظهور الحركة الوطنية الجزائرية في القرن العشرين على أيدي الرعيل الأول من المصلحين الجزائريين ، أمثال ابن باديس وصحبه .

الهوامش:

(1) العبدري الحاحي ، محمد ، ما سما إليه الناظر المطرق في خبر الرحلة إلى بلاد المشرق (الرحلة المغربية) ، تحقيق ونشر احمد بن جدو ، قسنطينة 1965 ، ص 23 .

(2) للتعرف على بجاية الحمادية ، راجع :

- أبو الفداء ، صاحب حماه ، تقويم البلدان ، نشر ش . سولقي ، طبعة الجزائر 1839 ، ص 76 .
- ابن سعيد المغربي ، أبو الحسن علي ـ كتاب الجغرافية ، تحقيق وتعليق إسماعيل العربي ، ط2 ، الجزائر 1982 ، ص 142 .
- عدد خاص حول تاريخ بجاية ، مجلة الأصالة ، الجزائر عدد 19 (1974) .
- Brunschwig (R.) La Berbérie orientale sous les Hafsides, Paris, 1940, TI, pp. 377.

- Léon L.
- Brunschwig (R.) La Berbérie orientale sous les Hafsides, Paris, 1940, TI, pp. 377.
- Léon L'Africain, Description de l'Afrique, nouvelle édition traduite par A. Epaulard, Paris, 1956, T II, pp. 360 _ 381.
- Marçais (G.), Bidjâya, in Encyclopedie de l'Islam, T II, pp. 1240 _ 1241.

(3) ابن سعيد المغربي ، المصدر نفسه ، ص 142 .

(4) ابن حمديس الصقلي ، الديوان ، بيروت ، ص .

(5) أنظر العبدري ، المصدر نفسه ، ص 24 .

(6) ابن خلدون ، عبد الرحمن ، كتاب العبر ، بيروت 1957 ، ج 6 ، ص ص 627 ـ 628 .

(7) المصدر السابق ، ج 6 ، ص ص 704 ـ 705 .

(8) ابن بطوطة ، محمد بن عبد الله ، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، تحقيق وتقديم علي المنتصر الكتاني ، بيروت 1958 ، ج 1 ، ص 31 .

(9) ابن خلدون ، عبد الرحمن ، التعريف (خاتمة كتاب العبر) ، تحقيق ابن تاويت الطنجي ، مصر 97 ـ 98 .

(10) الغبريني ، أبو العباس أحمد ، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية ، تحقيق محمد بن أبي شنب ، الجزائر 1910 ، ص 85 .

(11) طالبي ، محمد ، الهجرة الأندلسية إلى إفريقية أيام الحفصيين ، مجلة الأصالة ، 26 (1975) ، ص 73 .

(12) Léon l'Africain, op.cit, T II, p. 361.

(13) الغبريني ، المصدر نفسه ، ص ص 7 ـ 10 ، 108 و 242 ـ 243 .

- ابن خلدون ، المقدمة ، ص 1012 .

(15) الغبريني ، المصدر نفسه ، ص ص 16 ـ 17 .

(16) المقري ، شهاب الدين أحمد التلمساني ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب ، تحقيق وتعليق محمد محيي الدين عبد الحميد ، بيروت ، ديوان تاريخ العلامة ابن خلدون .

ابن خلدون ، المقدمة ، المصدر نفسه ، ص 1012 .

(18) الغبريني ، المصدر نفسه ، ص 247 .

(19) ابن خلدون ، المقدمة ، المصدر نفسه ، ص 766 .

(20) المهدي البو عبدلي، مراكز الثقافة وخزائن الكتب بالجزائر عبر التاريخ، الحلقة الثالثة، مجلة الأصالة، 11 / 1973، ص ص 104 ـ 106.

(21) الغبريني، أبو العباس أحمد، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق رابح بونار، ط2، الجزائر 1981.

- المقري، المصدر نفسه.
- ابن فرحون، إبراهيم بن علي، الديباج المذهب، القاهرة 1329 هـ.
- ابن مريم، أبو عبد الله محمد المليتي، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، تحقيق ابن أبي شنب، الجزائر، 1908.
- ابن قنفذ القسنطيني، أبو العباس أحمد بن الخطيب، الوفيات، تحقيق هنري بيريس، القاهرة 1939.
- التمبكتي، أحمد بابا، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، طبع على هامش الديباج المذهب لابن فرحون، القاهرة، 1351هـ.
- الزركشي، أبو عبد الله محمد، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق محمد ماضور، تونس، 1966.
- الحفناوي، أبو القاسم، تعريف الخلف برجال السلف، 2 ج.، الجزائر، 1909.
- نويهض، عادل، معجم أعلام الجزائر، بيروت، 1971.
- العبدري، المصدر نفسه.

(22) Léon L'Africain, op .cit, T II, p 360.

- الحسن الوزان، وصف إفريقية، ترجمة حجي، ج. 2.

(23) العبدري، المصدر نفسه، ص 24.

(24) ابن خلدون، المصدر نفسه، الجزء، ص.

(25) التمغروتي، أبو الحسن علي، النفحة المسكية في السفارة التركية، باريس 1929، ص 15.

(26) Dr Shaw, Voyage dans la Régence d'Alger, Traduit par Mac Carthy, Paris, 1830, T. II.

- Peyssonnel et Desfontaines, Voyage dans les Régences de Tunis et d'Alger, pub. par M. Dureaud de la Malle, Paris, Gide, 1838, T. II.

(27) Féraud (Ch.L.), Histoire des villes de la province de Constantine, in Receuil de la société archéologique de Constantine, 1869.

- Marçais, op.cit, p. 1241.

مدرسة مدينة الجزائر الأندلسية(*)

بدأت مدينة الجزائر تكتسب أهميتها مع ضعف الزيانيين بتلمسان والحفصيين بتونس وحلول الأندلسيين بها وقيامهم بحركة الجهاد البحري ضد النصارى أثناء القرن الثامن الهجري (القرن الرابع عشر الميلادي)، وكانت قبل ذلك قرية بربرية متواضعة عرفت بجزائر بني زيري نسبة لمؤسسها الأمير الصنهاجي زيري بن مناد الذي أنشأها على أنقاض أيكوزيوم الرومانية (Icosium) (339هـ/950م) وحافظت على عمرانها باسم جزائر بني مزغناي على عهد المرابطين الذين أسسوا مسجدها الرئيسي (الجامع الكبير 475هـ/ 1082م) والموحدين الذين اتخذوها قاعدة عسكرية في مواجهتهم لثورة بني غانية المايورقيين (580هـ/631هـ / 1184 ـ 1233م) وبدأت تتطور، فاتسع عمرانها على عهد الزيانيين، وأصبحت مركزاً إقليمياً حكم منه الزيانيون مناطق متيجة، ومع انكماش سلطة الزيانيين في القرن الثامن الهجري (نهاية القرن الرابع عشر الميلادي)، استقلت بشؤونها وبقيت على صلة بعرب الثعالبة المستقرين بمتيجة، وأثناء ذلك بدأت تستقبل أعداداً متزايدة من مهاجري الأندلس وتحولت إلى مركز للجهاد البحري ضد النصارى مما جعل الأندلسيين يفضلون الاستقرار بها على بقية المراكز الساحلية الأخرى التابعة للحفصيين أو الزيانيين والتي كانت تعيش اضطرابات وفتن حالت دون توجه الأندلسيين إليها.

(*) قدم هذا البحث بعنوان: صور من الهجرة الأندلسية إلى الجزائر، في ندوة تاريخ العرب في أسبانيا التي نظمتها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، بتونس، 1993، وتم نشره في المجلة العربية للثقافة السنة الرابعة عشرة، عدد 27 سبتمبر 1994 ص ص 222ـ241، مع الملاحظة أننا نشر هذا البحث هنا محورا ومقتصرا على ما يهم مدينة الجزائر باعتبار أن هذه المدينة احتضنت ما يمكن وصفه بالمدرسة الأندلسية المتأخرة بالبلاد الجزائرية.

أصبحت مدينة الجزائر محل أطماع الإسبانيين منذ أن أنشأ الأندلسيون قبالتها على إحدى الجزر الصخرية حصناً يرد الهجمات الإسبانية المباغتة وتحتمي به السفن الإسلامية بعد قيامها بغارات على السواحل المسيحية وذلك مع نهاية القرن الخامس عشر الميلادي، وقد سارع القائد الإسباني بدرو نافارو (Pedro Navarro) إلى وضع حد لهذا النشاط البحري الذي عرفت به مدينة الجزائر مع نهاية القرن الخامس عشر، فاحتل البرج الأندلسي (حصن الصخرة) وحوله إلى مركز عسكري إسباني عرف بقلعة رباط الخيل أو حصن البانيون (Peñon) (1511م)، مما اضطر سكان المدينة إلى الدخول تحت الحماية الإسبانية، فتوجه وفد منهم على رأسه شيخ المدينة سالم التومي إلى مدينة برغس (Burgos) بإسبانيا حيث قدم مفاتيح الجزائر للملك الإسباني فردناندو السادس إقراراً بالتبعية له شخصياً، وبعد وفاته (أي الملك الإسباني) (1516م) اعتبر سكان الجزائر أنفسهم في حل من التبعية التي ارتبطوا بها مع العرش الإسباني وحاولوا التخلص من الوجود العسكري الإسباني بقلعة البانيون، فطلبوا العون من الأخوين بربروسة: عروج وخير الدين اللذين كانا بجيجل، وقد أدى ذلك إلى إلحاق الجزائر بالدولة العثمانية (1518م)، وحصولهم على مدد من السلطان سليم الأول (ياووز)، مما مكن خير الدين من طرد الإسبان من القلعة (1529م) ووضع أسس لحكم عثماني مركزه مدينة الجزائر استمر أكثر من ثلاثة قرون، وكان أساس تشكيل الكيان السياسي للجزائر وظهور الدولة الجزائرية الحديثة.

ارتبط استقرار الحكم العثماني بالجزائر بتوافد أعداد كبيرة من مهاجري الأندلس طيلة القرنين العاشر والحادي عشر ومستهل الثاني عشر للهجرة (الخامس عشر والسادس عشر والربع الأول من القرن السابع عشر للميلاد)، فقد حدثت أهم الهجرات الأندلسية الجماعية سنوات: 1512، 1523، 1534، 1535، 1550، 8567، 1570، 1585، 1891، 1607، 1612، 1614 (1). هذا وقد كان لنزوح عامي 1570 و1612 تأثير كبير على الوضع الديمغرافي والبنية الاجتماعية لمدينة الجزائر، فالنزوح الأول (1570) نتج عن فشل ثورة جبال البشارات (1570)، وقد أسفر عن ترحيل 30.000 شخص أغلبهم من نواحي غرناطة وأهالي منطقة بالميرا، والنزوح الثاني أعقب قرار الطرد الجماعي.

وتم عن طريق السفن الإسبانية والمراكب الجزائرية التي أنزلت جموعاً كثيرة من المهجرين بمرسى الجزائر يوم 23 فيفري 1612م[2].

ولم يقتصر ترحيل الأندلسيين رأساً إلى الجزائر من إسبانيا، فقد سمحت مساعي السلطان العثماني أحمد الأول لدى ملك فرنسا هنري الرابع المعادي للإسبان والمتسامح مع غير الكاثوليك أن ينقل عدداً كبيراً من مسلمي الأقاليم الشمالية والوسطى لإسبانيا بأقاليم استرامادور (Extramadura) والأراغون (Aragon) وألمانشا (La Mancha) إلى الجزائر عبر الأراضي الفرنسية عن طريق مرسيليا وليفورن وأغد (Agde)[3].

أدت هذه الهجرات الأندلسية المتتابعة لمدينة الجزائر إلى ارتفاع عدد السكان من 25.000 (1518م) إلى 70.000 (1580م) ليصل ما بين 100.000 و120.000 (1634م) حسبما يستنتج من المصادر المعاصرة[4]، بحيث أصبح الأندلسيون يشكلون ربع سكان مدينة الجزائر في بداية القرن الحادي عشر الهجري (مستهل القرن السابع عشر)، فقد قدر الراهب الإسباني هايدو (Haëdo) عددهم عام 1609 بما لا يقل عن 25.000 نسمة[5]، وهذا ما اضطر حكام الجزائر إلى تحويل قسم منهم إلى الأرياف المجاورة كما حدث عام 1512م الذي عانى فيه السكان المجاعة ونقص الأقوات فحمل متولي الشرطة بالمدينة مسؤولية ذلك للمريسكيين وأمر بطردهم من المدينة في ظرف ثلاثة أيام، ولم يتردد في قتل الأشخاص العاجزين على مغادرة المدينة في الوقت المحدد[6]، كما انجر عن تكاثر الأندلسيين بمدينة الجزائر تخصيص أماكن أخرى لإقامتهم غير بعيد عن الجزائر، فقد أقامت أسر أندلسية بزعامة سيدي أحمد الكبير مدينة البليدة (942هـ /1535م) وأنشأت جماعات المدجنين القادمين من قشتالة وثغور بلنسية مدينة القليعة على مرتفعات الساحل سنة (957هـ/ 1550م)[7].

كما لم يمانع حكام الجزائر في تشجيع عودة بعض الأندلسيين إلى وطنهم بهدف الجوسسة أو إثارة المسلمين ضد الحكم الإسباني، وهذا ما شجع على عمليات التسلل التي كان يقوم بها الأندلسيون إلى سواحل إسبانيا ليلاً، فقد اعتادوا النزول على ساحل الأندلس الشرقي وإخفاء سفنهم الشراعية عند مصاب الأنهار، والتنكر في الزي المسيحي

ليسهل عليهم الاتصال بأقاربهم أو أصدقائهم ومساعدتهم على محاربة الإسبان. ومن الأمثلة الحية لمحاولات العودة إلى إسبانيا من طرف الموريسكيين ما ورد في إحدى وثائق الأرشيف الإسباني من أن أحد موريسكي الموتيكار المدعو لويس البواسن (Luis Alboacen) قفل راجعاً بعد مدة قضاها في الجزائر إلى بلنسية صحبة بعض أصدقائه الموريسكيين وحاول أن يثير انتفاضة ضد الحكم الأسباني فكانت نهايته الإعدام حرقاً سنة 1562م[8].

وفي هذا الإطار من النشاط السري للأندلسيين سارع موريسكيو بلنسية إلى إخبار إخوانهم بالجزائر بالاستعداد الإسباني للقيام بحملة ضد الجزائر سنة 1601م، فأرسلوا لهذا الغرض زورقاً على طرف السرعة، وعندما نجحت مساعيهم وفشل الهجوم الإسباني لم يترددوا حسب الوثيقة الإسبانية التي أوردت هذا الخبر في إقامة حفلات رقص جماعية تعبيراً عن تضامنهم مع إخوانهم بالجزائر[9].

هذا ويكمن التعرف على التأثير الأندلسي وتحديد مجال المساهمة الأندلسية في مختلف مظاهر الحياة بمدينة الجزائر من خلال النقاط التي تتصل بالدعم العسكري الأندلسي والخدمات الإدارية التي قدموها لحكام الجزائر والنشاط الاقتصادي الذي قاموا به وأساليب العيش وطرق الحياة والتقاليد والعادات التي نقلوها للمجتمع الجزائري دون أن ننسى الإسهام الفكري والفني الذي تميزوا به خاصة.

1- الدعم العسكري والتأطير الإداري لجهاز الحكم العثماني بالجزائر:

ساعد الأندلسيون على تدعيم الحكم العثماني بالجزائر، فقد مدوا يد المساعدة والعون للأخوين عروج وخير الدين بربروسة في صراعهما مع الإسبان، ووقفوا بجانبهما في نزاعهما مع بقايا الإدارة الحفصية والزيانية وناصروهما ضد الزعماء المحليين مثل سالم التومي شيخ الجزائر الذي أنهى عداءه لعروج بقتله (1516م) وأحمد بن القاضي أمير كوكو (القبائلي) الذي احتل مدينة الجزائر فترة قبل أن يلقى مصرعه في مواجهة بين قوات خير الدين وأنصاره من قبائل زواوة (1525م).

اتخذ حكام الجزائر منذ عهد خير الدين من الأندلسيين جنوداً لحراسة أبراج مدينة الجزائر وألفوا منهم فرقاً عسكرية شاركت في توطيد الحكم العثماني في الأقاليم الداخلية للجزائر. فقد شارك 500 أندلسي من أهالي غرناطة والأراغون وبلنسية في الحملة التي شنها خير الدين للقضاء على حميد العبد حليف الإسبان والمستبد بتنس ونواحيها (1517م)[10]، وكلفت جماعات من الأندلسيين بحراسة مدينة المدية بعد أن تمكن خير الدين من تنحية حاكمها محمد بن العابد وإلحاقها بالسلطة المركزية بمدينة الجزائر (1517م)[11]، وأثناء ثورة الشيخ بوطريق بإقليم الجزائر شكل الأندلسيون فرقة مؤلفة من 500 من الرماة انضمت إلى قوات حاكم مليانة حسن على عهد حسن بن خير الدين (1544م)، المكلف بالقضاء على هذه الثورة[12]، كما انضم الأندلسيون إلى الحملة التركية التي أرسلها حاكم الجزائر رمضان باشا إلى المغرب بأمر من السلطان العثماني، والتي سمحت لعبد الملك أن يلحق الهزيمة بابن أخيه المتوكل ويتولى العرش السعدي[13].

هذا ومع تزايد عدد الأندلسيين تأكدت مساهمتهم في الدفاع عن مدينة الجزائر، فقد شارك منهم في الدفاع عن المدينة عدد كبير قدر ب 5000 شخص أثناء تعرض الجزائر لحملة شارلكان 1541 م، واستناداً إلى رسالة الملك الإسباني فيليب الثاني لسفير فرنسا فورك فو (Fourque Vouls)[14] بتاريخ 6 جويليه 1566 فإن عدد الأندلسيين المجندين بلغ 6000 فرد من مجموع قوة الجزائر العسكرية المقدرة ب 15000 رجل[15].

أما المنشآت العسكرية بمدينة الجزائر فقد كان للأندلسيين مشاركة فعلية فيها، إذ قاموا ببناء برج خارج باب الوادي غرب مدينة الجزائر (حصن الأندلس)، وأقاموا بطارية بأعلى المدينة مزودة ب 14 مدفعاً، عرفت بطبانة الأندلس (1552م)، وغير بعيد عنها خارج الباب الجديد شيدوا قلعة عسكرية (حصن التغريين)، كما هيأوا مخازن لتحضير البارود وحفظ العتاد عرفت بدار البارود الأندلسية "اندلوس طوفانوسي" (Andulus Tophanesi) يعود تاريخها إلى أواسط القرن السابع عشر الميلادي.

كل هذه الخدمات العسكرية أهلت الأندلسيين؛ لأن يتولوا المناصب الإدارية والخدمات الاجتماعية والثقافية، وهذا ما عرضهم لمنافسة جماعة البلدية (الحضر)

وجر عليهم نقمة بعض العناصر التركية الحاكمة، وقد اشتكى من هذا السلوك الأندلسيون إلى السلطان العثماني سليم الثاني، وأثمرت شكاياتهم صدور قرارات (فرمانات) أكدت لهم حقوقهم وأقرت لهم امتيازاتهم، ففي فرمان صادر بتاريخ 27 رجب 981هـ /23 نوفمبر 1573م، أمر السلطان حاكم الجزائر بإرجاع ما أخذ من أمتعة الأندلسيين وإعفاءهم من الجباية لمدة ثلاث سنوات مع البحث عن المتسببين في المعاملة السيئة التي عومل بها مهاجرو ثورة البشارات (1568 ـ 1570م) الذين أرغموا على دفع نفقات نقلهم إلى الجزائر ولو بأخذ أمتعتهم مقابل ذلك[16].

2ـ النشاط الاقتصادي لأندلسيي مدينة الجزائر:

اشتغل الأندلسيون بمدينة الجزائر في الأعمال التجارية والحرف اليدوية وتفوقوا في الصنائع التي تتطلب المهارة والإتقان، فانتشرت حوانيتهم ومشاغلهم في أرجاء مدينة الجزائر، وكان أغلبها بالشارع الرئيسي للمدينة الممتد من باب عزون إلى باب الوادي والمنفتح على حومة الأسواق الرئيسية بالقسم الأسفل من المدينة.

وأهم الصناعات التي عرف بها الأندلسيون في مدينة الجزائر هي صناعة النسيج بمختلف أصنافها (أقمشة الكتان والقطن والحرير والمخمل (القطيفة)، وقد كان يعمل بها في الربع الأول من القرن السادس عشر ما لايقل عن 3000 صانع[17]، ولا تقل عن هذه الصناعة أهمية أعمال التطريز (الشبيكة) والقلانس (الشاشية) وصناعة الحلي (أسورة وخلاخل وأقراط ومشرفيات) وتجهيز السفن وصناعة الأسلحة (بنادق وبارود) ومعالجة الجلود والخشب وتشكيل الآجر والقرميد والخزف (الزليج) وتحضير الصابون وتقطير ماء الورد واللارنج.

كما كانت للأندلسيين مشاركة في النشاط البحري لمدينة الجزائر، فتحصلوا على الأسرى والغنائم، واشتهر منهم بحارة (رياس البحر) عديدون منهم بلاتكيو وأحمد بوعلي الأشبوني ومراد الكبير من أهالي قويداد ريال[18]. ومما يؤكد دور الأندلسيين في الأعمال البحرية أن المعاهدة الفرنسية الجزائرية لعام 1640م خصت السفن الأندلسية

بالذكر عندما حددت في البند العاشر مسؤولية ما يلحق بالمراكب الفرنسية من خسائر جراء تعرضها للسفن الجزائرية.

لم يقتصر النشاط الأندلسي على الجانب الحرفي والتبادل التجاري بل شمل الزراعة بجهات الجزائر (سهل متيجة ومرتفعات الساحل)، حيث استصلحوا الأراضي واستخرجوا الماء ونظموا الري بفحوص: باب الوادي بواسطة مياه واد المغاسل، وفحوص باب عزون باستغلال مياه الحامة ووادي خنيس وواد الحراش، فبنوا الأحواض والصهاريج والسواقي والقنوات والحنايا والنوريات (الناعورات) وحفروا الآبار، وأنشأوا العيون، وكانت من أهمها عيون الحامة التي بناها أوسطى موسى، أحد الصناع الأندلسيين على عهد قوصة مصطفى حاكم الجزائر (1610 ـ 1613 م)[19].

على أن أهم إسهام للأندلسيين في مدينة الجزائر يتمثل في تلك التقنيات الزراعية المتطورة التي أدخلوها إلى الجزائر، من حيث آلات العمل الفلاحي وطرق التقليم والتلقيح وتحسين أنواع عديدة من الأشجار المثمرة كالعنب والبرتقال والزيتون والتفاح والجوز واللوز والمشمش، وإدخال أنواع عديدة من الخضر والفواكه لم يألفها السكان قبلهم مثل حب الملوك (الكرز) اللارنج والقرنون والكرات والجلبان والمقوف والباذنجان والبطاطس والفلفل وأنواع الزهور والقرمز[20].

بمثل هذه الأعمال الحرفية والتجارية والزراعية، شكل الأندلسيون أساس اقتصاد مدينة الجزائر، فعرف سكانها سعة الرزق ورخاء المعيشة أثناء القرنين السادس عشر والسابع عشر، وهذا ماجعل سيور دو لاكروا (Sieur de la Croix) يؤكد على أن 2000 موريسكي (أندلسي) هم السبب في جعل مدينة الجزائر غنية بمشاغل الحرير والقطيفة وغيرها[21].

3ـ تطوير أساليب العيش:

كان الأندلسيون في مدينة الجزائر يؤلفون شريحة اجتماعية تميزت عن غيرها بكونها أرقى حضارة وأرق معاملة وألطف سلوكاً، فأثروا في أسلوب المعيشة وطريقة

المعاملة فتأثرت بهم جماعة الحضر "البلدية" وطائفة الأتراك والكراغلة في المسكن والملبس والمأكل[22]، فأصبح المنزل الأندلسي هو الغالب في هندسة البناء، بحيث أصبحت أغلب الدور تتألف من فناء تنفتح عليه الغرف وتتو سطه عين ماء أو بئر وبه بعض الأشجار ويغطيه القرميد بالفحوص وتعلوه السطوح المطلة على البحر داخل المدينة. ولا تخلو من الخزف (الزليج) الملون والمجصصات ذات التخاريم والأشكال اللطيفة إذا كان البناء مؤسسة تعليمية أو دينية أو منزلاً لإحدى الأسر الغنية.

أما من حيث الملبس، فقد طغى الطراز الأندلسي على الملابس التقليدية، فاستعمل التطريز خاصة في ملابس النساء، وشاعت أصناف أندلسية صرفة تميزت بجودة قماشها وإتقان صناعتها مثل الصدرية والقفطان والقميصة والطوق والفستان الجابادولي والقندورة والمحيرمة والكشمير والقريملة والصارمة والبنيقة والقرباطة. ومن حيث المأكولات عرف المطبخ الجزائري تنوعاً من حيث نوعية الأكل وطريقة الطهي، لا سيما ما يتصل بالحلويات والأطباق (الطواجين).

هذا ولم يقتصر التأثير الأندلسي على المظهر المادي للحياة اليومية في مدينة الجزائر، بل تعداه إلى الجانب اللغوي والمظهر الأدبي، فانتشرت اللهجة المحلية ذات الطابع البدوي الخشن في الطبقة الفقيرة (البرانية)، وطغت لغة الفرانكا المكونة من خليط من لغات البحر المتوسط في أوساط البحارة، بينما قلدت طبقة الحضر اللهجة الأندلسية الرقيقة المخارج والغنية بالمفردات والتعابير، والتي هي تعبير صادق عن رقة الذوق ورفاهية العيش لهذه الطبقة الموسرة.

4ـ التأثير على البنية الاجتماعية لمدينة الجزائر:

ظل الأندلسيون بمدينة الجزائر لفترة طويلة يعتبرون أنفسهم في دار هجرة مؤقتة، فلم يختلطوا بغيرهم من السكان، وقد عزز هذا الشعور تشبثهم بأصولهم واعتدادهم بنسبهم، فتحفظوا في علاقاتهم حتى مع الحكام، ولم يقبلوا على المصاهرة حتى مع الأسر العريقة، وهذا ماجعلهم شريحة اجتماعية متماسكة، يحتكر أفرادها أغلب

المناصب الإدارية والوظائف الاجتماعية المهمة التي لم يشغلها الأتراك بمدينة الجزائر، وقد كانت لهذه الجماعة حظوة ومكانة لدى الحكام وتعامل خاص مع التجار الأوربيين والمتعاملين اليهود الذين قدموا من الأندلس والمدن الإيطالية. وقد اشتهرت من هذه الطبقة الميسورة عدة أسر توارثت الثروة والنفوذ، واشتغل أفرادها بالتجارة والصنائع مثل: ابن رامول، وابن هني، وبن بكير، وابن النيقرو، وبرزوان، وبرحال، وبوناتيرو، وابن تشيكو، وابن الكبابطي، وبو ضربة، وابن الشاهد، وابن الأمين، وابن عمار، وخوجة، والزهار، والأبلي، وشلاسة، والعنجدون، وغيرها.

ومما ساعد على التحام وتكاليف الجماعة الأندلسية بمدينة الجزائر، وأبقى على وضعها الاجتماعي المميز، الميل إلى التكتل والتناصر الذي عرفت به الأسر الأندلسية، وروح المبادرة والحيوية التي طبعت أفرادها، وهذا ما دفع الأندلسيين إلى تخصيص أوقاف للإنفاق على المحتاجين منهم، فأنشأ أعيان الأندلس بمدينة الجزائر مؤسسة للأوقاف خاصة بهم (980هـ /1573م) وأوكلوا التصرف بها لموظف عرف "بوكيل الأندلس" (1018هـ /1609م)، وأنشأوا زاوية ومدرسة خاصة بهم، فتعددت أوقافهم وبلغت في الربع الأول من القرن الثالث عشر الهجري (1224هـ /1809م) حسب سجلات الوقف، مائة واثنين وأربعين (142) وقفاً منها ثلاثة وسبعون مشتركاً مع غيرهم[23].

5ـ ترقية الحياة الثقافية والفنية بمدينة الجزائر:

عرفت مدينة الجزائر نشاطاً علمياً وفنياً، ساهم الأندلسيون فيه بقسط كبير، فقد شاركوا في التعليم بالمدارس التي اشتهرت منها مدرسة الأندلس، والقشاش، وكان لهم نصيب في فنون الأدب والثقافة لم يصل إلى مستوى أسلافهم من علماء بجاية ولكنه مكن من المحافظة على التقاليد العلمية الأندلسية، وضمن استمرار توارث المعارف الفقهية واللغوية عن طريق دراسة المتون والشروح والحواشي، بل أبقى الأساليب الأدبية الأندلسية حية، فأصبح الفتح بن خاقان ولسان الدين بن الخطيب مثالاً يحتذى في أساليب السجع والمحسنات البديعية والجمل القصيرة الموزونة، كما تؤكده كتابات ابن عمار وابن حمادوش وابن ميمون وغيرهم[24]، يضاف إلى ذلك أن العديد من

الأندلسيين تولوا الوظيف الديني . وكان منهم القضاة والأئمة والخطباء والنظار والوكلاء ، واشتهر منهم خاصة في مجال القضاء ابن البيقرو وابن الأمين وابن عمار وابن الكبابطي ، أما في ميدان الفن ، فكان إسهامهم كبيراً وكادوا ينفردون بتنشيط الحياة الفنية ، فقد نقلوا إلى الوسط الجزائري الموشحات والأزجال الأندلسية (المألوف) ، وأدخلوا الآلات الموسيقية الأندلسية ، وحافظوا عليها مثل العود والرباب والكامنجة والصنوج والطبيلة والطار والدربوكة وغيرها . وأحيوا المدائح النبوية (المولوديات) والإخوانيات وقصائد المدح والغزل ووصف الطبيعة ، التي كانت تعزفها الأجواق الأندلسية في المواسم والأعياد والسهرات العائلية ، ومن أشهر منظمي الموشحات ومروجيها أبو العباس أحمد بن عمار الأندلسي الجزائري ، متولي إفتاء المالكية سنة (1180هـ /1766م) ، ومؤلف "رحلة نحلة اللبيب في الرحلة إلى الحبيب" و"لواء النصر" ، ومحمد بن الشاهد الأندلسي الجزائري (ت1207هـ /1793م) ، وعمر بن محمد بن سيدي علي الأندلسي ، متولي قضاء الحنفية سنة (1163هـ /1750م) وغيرهم من العلماء الذين جمعوا بين الثقافة الإسلامية والمعارف الفنية وتأثروا بموشحات ابن باجة وابن سهيل وأبي الصلت أمية ولسان الدين بن الخطيب[25] .

بهذه النظرة العامة والتناول الإجمالي للهجرة الأندلسية للجزائر في طورها الأول الذي لعبت فيه بجاية دور الريادة والإبداع الثقافي والفكري (القرنين 7 و8 هـ / 13 و14 م) ، وفي طورها الثاني الذي كان فيه لمدينة الجزائر إسهام متميز (القرنين 10 ـ 11 هـ / 16 ـ 17م) ، يمكن لنا القول في ختام هذا العرض بأن الهجرة الأندلسية إلى الجزائر تعتبر عامل ازدهار اقتصادي وحيوية اجتماعية ونمو ديمغرافي وإثراء ثقافي ورقي حضاري ، قبل أن تخبو جذوتها وتنطفئ شعلتها مع حلول القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي) لظروف دولية ضاغطة وعوامل داخلية محبطة ، نتجت أساساً عن استمرار الخطر الإسباني وحدوث انهيار ديموغرافي ، واستبداد الحكام وإهمالهم رعاية الأدب والاعتناء بالاقتصاد ، مما جعل الأندلسيين يفضلون الاندماج مع بقية السكان الذين وجدوا فيهم روح الأخوة والتسامح والتعاون بعد أن تعرضوا للإبادة والتشتيت وهجروا من وطنهم قسراً ، ولم يعد لهم أمل في الرجوع إلى الفردوس المفقود .

الهوامش:

(1) سعيدوني ، ناصر الدين ، الجالية الأندلسية بالجزائر ، مساهمتها العمرانية ونشاطها الاقتصادي ووضعها الاجتماعي ، مجلة أوراق ، مدريد ، عدد 4 ، ص 111 ـ 118.

(2) Sieur de la Croix, Relations universelles d'Afrique, ancienne et moderne, Lyon, s.d., T II, pp. 56 et 74.

- Trumelet (C.), Les saints de l'Islam, Paris, 1881.

(3) الحجري الأندلسي ، أحمد بن القاسم ، ناصر الدين على القوم الكافرين ، تحقيق محمد رزوق ، الدار البيضاء ، 1987 ، ص 41.

- بن حفري ، شكيب ، موقف الدولة العثمانية من الجالية الأندلسية بالجزائر 1571 ـ 1578 ، بحث غير مطبوع ، مقدم في المؤتمر الدولي للدراسات الموريسكية ، زغوان ، 1992 ، ص 10.

(4) Dan (Le Père), Histoire de Barbarie et de ses corsaires, Paris, 1637, p.89.

- Dapper (D'O.), Description de l'Afrique, Amsterdam, 1686, p. 177.
- Savary (J.), Le parfait négociant, 7è éd., Paris, 1712, p. 359.
- Sieur de la Croix, op.cit, T II, p. 71.
- Lespès (R.), Les variations de la population d' Alger avant 1830, in Revue de l'Armée de l'Assiaue n° 1, 2è année, 1925, pp. 26 _ 30.

(5) Haëdo. Histoire des Rois d'Alger , Alger 1881, p. 38.

(6) رزوق ، محمد ، الأندلسيون وهجرتهم إلى المغرب خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر ، الدار البيضاء 1989 ، ص 138

(7) Davity (P.) Description générale de l'Afrique, Paris, 1660, p. 184.

- Sanson (N.d'Abbeville), l'Afrique en plusieurs cartes naturelles, Paris, 1655.
- Description géographique et historique des Royaumes et Provinces qui composent l'empire des chérifs, Paris, 1733, T II, pp. 148 _ 149.
- Anonyme, Blida par un de ses enfants, Blida 1876.

(8) كارداياك ، لوي ، الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون : المجابهة الجدلية (1492 ـ 1640) ، ترجمة عبد الجليل التميمي ، تونس ، 1983 ، ص 86. اعتماداً على وثائق الأرشيف الوطني الإسباني

(9) المصدر السابق ، ص 84

(10) Hädo (Diego de), Topographia e historia général de Algei, Valladalid 1612, pp. 219 _ 220.

(11) Federman (H.), Sur l'histoire et l'administration du Beylik de Titteri, in Revue africaine, N° 9, 1865, p. 281.

(12) Berbrugger (A.) ; El Hadj Pachi, in Revue africaine, N° 64/1864 p 295.

(13) Ilter (A.S.), Simali Afrika'da Turkler, Istanbul, 1936, pp. 157 _ 158 .

(14) Marmol Carvajal (L. de), Description general de Africa, Granada, 1573, T. II, p. 11.

(15) Garcia (A.), Mercedes los Moriscos, ed. National, Madrid, 1975, pp. 177 _ 178.

(16) ابن حفري، المصدر نفسه، عن أرشيف رئاسة الوزراء باستانبول، مهمة دفتري (51 ـ حكم 234 تاريخ 4 صفر 979 هـ / 1571 م و23 ـ حكم 244 تاريخ 19 رجب 981هـ / 14 نوفمبر 1573 و23 حكم 284 تاريخ 27 رجب 981 هـ / 23 نوفمبر 1573 .

(17) Haëdo, op. cit.

(18) عنان، عبد الله، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، ط. 3، القاهرة، 1966، ص 388.

(19) Dan, op.cit., p. 91.

(20) سعيدوني، ناصر الدين، الأندلسيون الموريسكيون بمقاطعة الجزائر (دار السلطان) أثناء القرنين السادس عشر والسابع عشر، بحث مقدم في الندوة الخامسة للدراسات الموريسكية بسان كارل دولارابيتا، طراقونة، أسبانيا، 4 ـ 9 ديسمبر 1990.

(21) Sieur de la Croix, op. cit., T II, p. 56.

(22) سعيدوني، ناصر الدين، الأندلسيون الموريسكيون ... ، المصدر نفسه، (راجع فقرات الحياة الاجتماعية).

(23) سعيدوني، ناصر الدين، أوقاف الأندلسيين بالجزائر من خلال وثائق الأرشيف الجزائري، بحث قدم في الندوة الثالثة للجنة العالمية للدراسات الموريسكية، تونس، 1983.

(24) سعد الله، أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، من القرن العاشر إلى الرابع عشر الهجري (ق 1 ـ 20م)، الجزء الأول، الجزائر، 1981.

(25) سعيدوني ناصر الدين، الأندلسيون الموريسكيون ... ، المصدر نفسه، (راجع فقرات دور الأندلسيين في الحياة الثقافية والفنية).

حصن المرسى الكبير

من رباط إسلامي إلى حصن إسباني إلى محطة عثمانية (*)

حصن المرسى الكبير من الأماكن الاستراتيجية التي لعبت دورا عسكريا خطيرا وعرفت أحداثا تاريخية مؤثرة، إذ لا يماثله في ذلك بحوض المتوسط سوى مالطة وجبل طارق وسنترت، فقد ظل طيلة تاريخه الطويل معلما عمرانيا وقاعدة بحرية ونقطة ارتكاز ومنطلق هجوم، وهذا ما دفعنا إلى محاولة وصف موقعه والتعرف على ماضيه في العهود الإسلامية واستعراض أهم الأحداث التي تأثر بها في فترة الاحتلال الإسباني، دون إهمال مواصفاته العمرانية وهندسته العسكرية قبل أن يتحول إلى ميناء عسكري للبحرية الفرنسية في فترة الاحتلال، ويصبح مع الاستقلال قاعدة متطورة حديثة للبحرية الجزائرية تمكنها من فرض وجودها في الجزء الغربي للبحر المتوسط وتوفر لها نقطة امداد وارتكاز لأي عمل عسكري بحري.

ا ـ موقع حصن المرسى الكبير:

يحدد موقع المرسى الكبير بـ 0.40 درجة غرب خط غرينتش و35.40.35 درجة شمال خط الاستواء، ويحتل نهاية امتداد لسان بحري مكون من جبل سانتو (Santo) (1)، بحيث يؤلف شبه جزيرة صغيرة تمتد من الغرب إلى الشرق بطول 900 متر وعرض متوسطه 200 متر، يتميز القسم الداخلي منه المتصل بالأرض بارتفاعه النسبي (حوالي 35 مترا) أما الجزء الخارجي الممتد في البحر فيتميز بقلة ارتفاعه الذي لا

(*) بحث نشر في الكتاب التكريمي للأستاذ خليل الساحلي أوغلو، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، زغوان، أكتوبر ـ نوفمبر 1997، الجزء الأول، ص ص. 267-286.

يتجاوز 15 مترا. وهذا الامتداد في البحر يجعل من النتوء الطبيعي الذي يحتله حصن المرسى الكبير يتوفر على مرسى محمي بحاجز طبيعي في اتجاه الشرق (Môle) تتكسر على حافته الشمالية الصخرية أمواج البحر التي تتسبب فيها الرياح الشمالية الغربية، بينما يؤلف شاطئه الجنوبي جونا صالحا للملاحة وملائما لإرساء السفن، عكس جون وهران الذي تسود به الرياح الغربية ويتأثر بالأمواج التي تنشط خاصة أثناء النهار، ويعود ذلك إلى تيار مضيق جبل طارق الذي يلامس الشواطئ الوهرانية ويتولد منه تيار معاكس بفعل تحطمه على نتوءات عين الترك وفالكون والمرسى الكبير، ليتحول اتجاهه عند رأس فيرات نحو الغرب مما يسمح له بأن يؤثر في مياه مرسى وهران، هذا في الوقت الذي يبقى فيه المرسى الكبير في معزل عن هذا التيار المعاكس.

لقد ساعد انحناء الشاطئ نحو الداخل عند حصن المرسى الكبير على تكوين تجويف نصف دائري بفعل اتصال جبل مرجاجو بجبل سانتو، بحيث يشكل مرسى طبيعيا سعته الإجمالية 500 هكتار، قادر على استقبال 30 سفينة من الحجم الكبير منها 20 سفينة بإمكانها الرسو بمحاذاة الحصن مباشرة، وفي الحالات الاضطرارية وأثناء العواصف التي تتسبب فيها الرياح الشمالية الغربية يمكن لمياه جون المرسى الكبير أن توفر الحماية لما لا يقل عن 50 سفينة حربية.

ومما زاد في أهمية موقع حصن المرسى الكبير وقوعه في تجويف بحري منفتح على السواحل الإيبيرية في نقطة يتحول فيها الساحل الإسباني من اتجاه مواز للسواحل المغربية إلى اتجاه نحو الشمال بحيث يتوسع الحوض الغربي للمتوسط بعد أن كان منحصرا بين السواحل الوهرانية وبين سواحل المرية وقرطاجنة، وهذا ما ساعد حصن المرسى الكبير على التحكم في الخطوط الملاحية العابرة لمضيق جبل طارق أو المتجهة نحو السواحل الأوروبية للحوض الغربي للمتوسط.

فبمثل هذه المواصفات يمكن القول بأن الطبيعة قد هيأت حصن المرسى الكبير لأن يكون موقعا دفاعيا حصينا ونقطة ارتكاز حربية قادرة على الدفاع عن المناطق الوهرانية ومهاجمة السواحل الأوروبية المقابلة، إذ من الصعب التحكم فيه من طرف أية

قوة أجنبية مهاجمة، ومن السهل الدفاع عنه واتخاذه نقطة انطلاق لأي هجوم بحري أو توسع بري، وهذا ما أشار إليه تقرير اللجنة الإفريقية الذي حرره دوفال دايي (Duval d'Ailly) (1832 م) وأشاد بموقع حصن المرسى الكبير واعتبره قاعدة تسمح بمراقبة الجزء الغربي للمتوسط.

على أن هذه المميزات تحد منها بعض الشروط الطبيعية وفي مقدمتها ندرة المياه الصالحة للشرب وصعوبة المواصلات مع الداخل بفعل التضاريس الطبيعية الصعبة رغم قرب مدينة وهران من حصن المرسى الكبير إذ لا تبعد عنه سوى ثلاثة أميال أو ما يقارب سبعة كيلومترات، وهذا ما جعل إمكانية المحافظة على حصن المرسى الكبير واستخدامه عسكريا تتوقف أساسا على الاستيلاء على وهران وإخضاع المناطق المجاورة لها، وذلك حتى يمكن الحصول على المياه الصالحة للشرب من منبع رأس العين الواقع على السفح الآخر لجبل مرجاجو والذي يوفر كمية كافية من الماء تقدر بـ 5800 لتر يوميا. وحتى يمكن تأمين الطريق الرابط بين حصن المرسى الكبير ومدينة وهران وإبقائه مفتوحا أمام تحركات الحامية لنقل المؤن والعتاد، فهو المسلك الوحيد الذي يمكن الوصول منه بسهولة إلى حصن المرسى الكبير والذي وصفه ابن سحنون الراشدي في كتابه "الثغر الجماني" بقوله: "إنها (أي حصن المرسى الكبير) ليس لها إلا طريق واحد عرضه مقدار ذراعين أو ثلاث...".

لقد ذكر المرسى الكبير بعض الكتاب القدماء مثل بلين (Pline) الذي عرفه بالمرسى الإلهي أو المقدس (Portus Divinis). كما أشاد بموقعه الكثير من الرحالة والجغرافيين العرب، فأبو عبيد الله البكري (ق. 5 هـ/11 م) يشير إليه بقوله: "مرسى جبل وهران مرسى كبير مشتى من كل ريح"، وابن حوقل (ق. 4 هـ/10 م) يعلق عليه بقوله: "بأنه مرسى وهران وأنه في غاية السلامة والصون من كل ريح، وما أظن له مثلا في جميع نواحي البربر سوى مرسى موسى، فقد كنفته الجبال وله مدخل آمن"، ويذكره الشريف الإدريسي (ق. 6 هـ/12 م) بقوله: "إن المرسى الكبير به ترسو المراكب والسفن الشتية، وهذا المرسى يستر من كل ريح وليس له مثال في مراسي حائط البحر من بلاد البربر"، ويماثله في هذا الوصف حسن الوزان (الأسد الإفريقي)

(ق. 10 هـ/16 م) الذي لا يرى له نظير بين المراسي الأخرى في العالم ، إذ بإمكانه استقبال المئات من السفن ، وتوفير الحماية لها من تقلبات الأنواء وعواصف البحر".

ونفس الأوصاف التي أشادت بالمرسى الكبير نجدها في العديد من المصنفات الأوروبية ، التي تختلف في ضبط نطقه لكنها تتفق في ذكر مميزاته ، فلفظ المرسى الكبير يرد بكتابات مختلفة منها مثلا : Mazalquivir, Masselquibâr, Marsel cabir, Mussacabie, Mazar el quivirir, Marzachibir, Marzaquivir, Maza'chebir, Miaza chibir ، أما الأوصاف التي تطلقها عليه هذه المصنفات فتجمع على اعتباره من أكبر المواني وأحسنها وأكثرها ملاءمة لإيواء السفن التجارية واستقبال المراكب الحربية ، مثل ما هو مسجل في مذكرات داپر (Dapper) (ق. 16 م) والطبيب شاو (Dr Shaw) (ق. 18 م) وروزي (Rozet) (ق. 19 م) وغيرهم.

أما عمارة وهندسة حصن المرسى الكبير ، فهو عبارة عن مدينة صغيرة تحيط بالقلعة الإسلامية المعروفة بالقصبة والتي يعود بناؤها إلى العهد المريني (حوالي 1347م). تطورت بفعل الجهاد البحري من مركز بحري إلى حصن عسكري وقاعدة حربية ، فحسب وصف ألفونسو دوسانتونجي (Alphonse de Santongie) الذي يعود إلى نهاية القرن الخامس عشر (1496م) ، كان حصن المرسى الكبير يتكون من بناء مستطيل الشكل تحيط به أسوار مبنية بالحجر على حافة الشاطئ ، يتميز الجانب الداخلي منها والمحاذي لجبل سانتو ببنائه المحكم المحمي بطبقة سميكة من الإسمنت ، وتحيط بهذه الأسوار من الجهة الخارجية خنادق محفورة في الصخر بغرض رد اعتداء المهاجمين لها ، وداخل هذه الأسوار تنتصب على حافة الحصن ثلاثة أبراج ضخمة ، أحدها مربع الشكل في مواجهة المرسى ، وآخر مستدير البناء يعرف ببرج الناقوس يقع في الجهة الشرقية ، أما البرج الثالث فيشرف على البحر مباشرة وهو يعرف ببرج الخيالة أو برج البحر المجنون لمنظره الناشز.

وهذه الأبراج التي كانت تشكل تحصينات المرسى الكبير الإسبانية كانت في مجملها تتوفر عام 1535 م على 38 قطعة مدفعية من مختلف الأنواع منها نوع ضخم يعرف بمدفع التاج (La couronne) قادر على رمي قنابل زنتها سبعون رطلا. ومما

يلاحظ أن عدد المدافع تزايد مع اشتداد الضغط على الحصن من طرف الجزائريين حتى بلغ مع نهاية القرن السابع عشر 300 مدفع حسب بعض الروايات ، ثم انخفض بفعل الإهمال حتى لم يعد يتجاوز عدد المدافع سنة 1734 م سبعة وعشرين مدفعا من الحديد والبرونز رغم أن الدفاع عن الحصن كان يتطلب على الأقل أربعين مدفعا.

أما البناية التي تتوسط حصن المرسى الكبير فهي مخصصة لمقر الحاكم "القصر" الذي أصبح منذ 1505 م سكنا لحكام المرسى الكبير من عائلة دون ديغو فرناندس دو كوردوبا (Don Diego Fernandez de Cordoba) التي احتكرت هذا المنصب طيلة القرن السادس عشر ، وبجانب القصر يوجد مسجد حول إلى كنيسة عند استيلاء الإسبان عليه ، وعرفت باسم كنيسة القديس ميشال (Eglise Saint Michel) ، بينما خصص للمسلمين المتعاونين مع الإسبان مصلى صغير غير بعيد عن هذه الكنيسة.

تحيط بالقصر والكنيسة مجموعة من المنازل مخصصة للمهندسين والضباط وجنود الحامية ، وقد بلغ عدد هذه المنازل سنة 1562 م ثلاثين منزلا ، وبالقرب منها توجد مخازن وبعض أفران طهي الخبز وتسعة أحواض مخصصة لحفظ ماء السيول قادرة على تموين الجنود من المياه لمدة قد تصل إلى ثلاث سنوات.

هذا ويلاحظ أن عمارة المرسى الكبير عرفت في أواخر القرن السادس عشر توسعا جعلها قادرة على إيواء ما لا يقل عن 1800 جندي منهم 300 من الرماة و1500 من المشاة ، وعند الضرورة يمكن أن يتسع الحصن لألفي رجل مع عتادهم ، وقد يتضاعف هذا العدد في حالات الحصار وقدوم النجدات من إسبانيا بعد أن عرف حصن المرسى الكبير تحويرا في بنائه الأصلي ، وبعد أن نفذ الإسبان مشروع إعادة ترميم وتجديد تحصينات المرسى الكبير بأمر من الملك الإسباني فيليب الثاني عندما قرر الاحتفاظ به سنة 1556 م ، فأعطى لحاكمه دون خوان دافالوس (Don Juan d'Avalos) تعليمات يحثه فيها على الشروع في إعادة تحصين المرسى الكبير ، وقد بدأ تنفيذ هذا المشروع العمراني على يد المهندس الإيطالي خوان باتيست أنتونيلي (Jean Baptiste Antonelli) ، ثم أتم العمل به المهندس الإيطالي الشهير الذي سبق له أن شيد حصن

حلق الواد بتونس وهو جاكوم باليرو ألفراتان (Jacome Palearo El Fratin). وقد جند لهذا الغرض سنة 1576 م حوالي 1000 عامل، واستمر العمل به لمدة ثلاثين سنة، وجلبت له مواد البناء من إسبانيا مباشرة، وهذا ما رفع كلفة المشروع العمراني لحصن المرسى الكبير إلى أكثر من ثلاثة ملايين دوكة، وهذا نفس المبلغ تقريبا الذي صرف على إنشاء قصر الإوسكوريال بالقرب من مدريد.

واكب هذه الأعمال تشييد حصن صغير بمرتفعات جبل سانتو يشرف مباشرة على حصن المرسى الكبير عرف بحصن المخلص وكان يشكل واجهة دفاعية ترد الهجمات عن المرسى الكبير، ولهذا لم يلبث أن تعرض للهدم والتدمير عند هجوم حسن بن خير الدين باشا على المرسى الكبير سنة 1563 م، ولم يتمكن الإسبان من إعادة تشييده من جديد رغم شروعهم في بنائه تحت إشراف المهندسين كريستوبال دوروخاس وخوان دوزافرا.

ومع هذا الاعتناء بتحصينات حصن المرسى الكبير إلا أنها لم تلبث أن تعرضت للإهمال وتضررت بفعل الهجمات المتكررة عليها منذ الربع الأخير من القرن السابع عشر، حسبما يفهم من تقرير سنة 1675 م وملاحظات فاليخو (Vallijo) (1734 م)، الذي أكد أن الحصن تنقصه الاستحكامات العسكرية الضرورية مثل الدعائم الخشبية والمتاريس (Estacades, parapets) ودكات الرمي (Banquettes).

2- حصن المرسى الكبير في الفترة الإسلامية:

ارتبط حصن المرسى الكبير بتاريخ مدينة وهران والمناطق المجاورة لها منذ العصور القديمة، حيث كان يعرف بالمرسى الكبير تمييزا له عن مرسى وهران، وقد تأكدت هذه الصلات في الفترة الإسلامية التي عرفت تجديد عمارة وهران، فحسب رواية أبي عبيد الله البكري في كتابه المسالك فإن تعمير مدينة وهران كان على يد جماعة من الأندلسيين بزعامة محمد بن أبي عون ومحمد بن عبدون بالاستعانة بالقبائل المجاورة من نفزة وبني مسقن بن ازداجة (290 هـ/902 م). إن المرسى الكبير الذي لم يكن به سوى تجمع متواضع من بيوت الصيادين وبعض الأهالي قد تأثر على الأرجح بالأحداث التي عرفتها

وهران والتي انتهت بتخريبها على يد رجال القبائل المجاورة لها من بني مسقن لثأر وعداوة بينهم (سنة 297 هـ/909 م)، وترحيل سكانها بأمر من يعلى بن محمد اليفرني بعد أن أوقع العقاب بقبيلة ازداجة التي استوطنتها من جديد، وبذلك انقطع عمران وهران وأهمل المرسى الكبير، ولم يسترجع أهميته إلا بفعل التنافس السياسي والنزاع المذهبي بين أنصار الخلافة الأموية بالأندلس وأتباع الخلافة الفاطمية بإفريقية.

على أن توسع المرابطين في الجهات الوهرانية واستيلائهم على الأندلس كان عاملا مهما في جلب الانتباه إلى أهمية موقع وهران والمرسى الكبير، فأصبحا من القواعد العسكرية الرئيسية لدولة المرابطين بعد أن استولى عليه القائد المرابطي محمد بن تِنْعمر المتوفي سنة 1082م، وقد زادت أهمية المرسى الكبير في آخر عهد المرابطين عندما شيد الأمير تاشفين بين وهران والمرسى الكبير حصنا منيعا مشرفا على البحر واستدعى أسطوله من المرية إلى مياه المرسى الكبير بقيادة محمد بن ميمون (539 هـ/1145م).

لقد تقرر مصير المرابطين في صراعهم مع الموحدين بالقرب من المرسى الكبير، فقد زحفت قوات الموحدين على وهران واستولت عليها بقيادة عبد الرحمن بن زجو، كما تمكنت جموع الشيخ أبي حفص عمر الهنتاتي من مراقبة المرسى الكبير ومحاصرة المرابطين بجبل مرجاجو حيث لقي الأمير المرابطي تاشفين بن علي حتفه في محاولة للتخلص من الحصار، عندما هوت به فرسه في جرف البحر غير بعيد عن المرسى الكبير في 27 رمضان 539 هـ/22 فيفري 1154م.

اتخذ الموحُدون من المرسى الكبير قاعدة رئيسية لأسطولهم، وأصبح نقطة عبور للأندلس ومنطلق السفن الحاملة للجيوش نحو إفريقيا، على أن انقسام دولتهم، في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي، جعل وهران والمرسى الكبير موضع تنافس بين ورثتهم الحفصيين والمرينيين وبني زيان، فولي حكم وهران والمرسى الكبير في أواخر الدولة الموحدية عامل إفريقيا أبي زكريا الحفصي (حوالي 1242م)، بعدها خضعت لسلطة بني مرين إثر انتصارهم على الموحدين (1269م)، وتغلبهم على الزيانيين، وأثناء ذلك حاول السلطان أبو الحسن المريني تعزيز الدفاعات على الساحل، فأنشأ

حسب بعض الروايات البرج الأحمر بوهران وحصن المرسى الكبير حوالي سنة 1137م.

بعد أن انحصر نفوذ المرينيين عن المغرب الأوسط في النصف الثاني من القرن الرابع عشر، أصبحت مدينة وهران وحصن المرسى الكبير لفترة طويلة تحت حكم بني زيان بعد أن تجددت دولتهم على يد السلطان أبي حمو موسى الثاني (1358-1359م)، ولم تخرج عن سلطتهم إلا لفترات قصيرة عندما استولى عليه المرينيون وبنو حفص أثناء محاولاتهم الفاشلة للتوسع على حساب الدولة الزيانية. ومما يلاحظ أن حكام تلمسان أولوا وهران والمرسى الكبير اهتماما كبيرا، فاتخذوهما مركزين تجاريين ومحطتين لاستقبال السفن المتعاملة مع تلمسان، ولم يماثلها في هذا النشاط التجاري سوى ميناء هنين الذي لم يلبث أن اضمحل قبل أن يدمر نهائيا على يد الإسبان سنة 1531 م.

ومما دعم مكانة المرسى الكبير في الفترة المرينية ثم الزيانية أنه أصبح يتوفر على حصن دفاعي منذ القرن الثالث عشر، الأمر الذي شجع السفن التجارية من جنوة والبندقية ومرسيليا وبرشلونة على اتخاذه محطة رئيسية ضمن خطوطها الملاحية عبر المتوسط؛ وبذلك زادت أهمية حصن المرسى الكبير، وأصبح مع حلول القرن الرابع عشر مركزا رئيسيا للتبادل التجاري بين موانئ المتوسط الأوروبية وبين بلاد المغرب، وهذا ما مكن السفن الإيطالية وفي مقدمتها سفن البندقية وجنوة والمراكب الأراغونية من أن تستحوذ على جل التبادل التجاري البحري لبلاد المغرب، فعلى ظهر أحد المراكب القاطالونية استطاع السلطان أبو حمو من مغادرة المرسى الكبير والتوجه إلى مدينة الجزائر سنة 1390م، عندما اضطره الخلاف مع ابنه تاشفين الثاني (1389-1393م) إلى التحول عن تلمسان إلى مدينة الجزائر بنية الاستقرار بها وجعلها عاصمة لدولته.

ومن العوامل المساعدة على تحول المرسى الكبير إلى محطة تجارية رئيسية للدولة الزيانية، توفر العملة الذهبية لدى التجار المتعاملين معه بفضل تجارة السودان العابرة للصحراء نحو تلمسان، وحتى في حالة عدم توفر النقود الذهبية في بعض الأوقات كان التجار يلجؤون إلى المبادلات عن طريق المقايضة حسبما أشار إلى ذلك حسن الوزان. ومما زاد في مكانة المرسى الكبير ووهران توفرهما على فنادق ومخازن بعضها خاص بالتجار الجنويين

والبنادقة، وارتباطهما بخط ملاحي منتظم يربط أهم موانئ الحوض الغربي للمتوسط بالضفة الشمالية: بيزا وجنوة ومرسيليا وبرشلونة وقادس بالمراسي الواقعة بالشواطئ المغربية (سبتة والمرسى الكبير ووهران وبجاية وتونس وطرابلس الغرب).

لقد ظلت هذه الموانئ البحرية أثناء القرنين الثالث عشر والرابع عشر مرتبطة بخط ملاحي موسمي يعرف بالمدة (Muda)، تتولى المحافظة عليه قافلة من السفن الضخمة من نوع الكالياس (Galéasse) ذات الأربعة أشرعة والقادرة على حمل طاقم مؤلف من مائتي رجل وكمية كبيرة من البضائع، فهذه القافلة التي كانت تعرف بالقافلة البحرية الكبرى لبلاد المغرب، كانت تنطلق حسب بعض التقارير التي تعود إلى عام 1436 م، في شهر جويلية من كل سنة من ليدو (ميناء روما) نحو السواحل المغربية فتمر بطرابلس الغرب وتونس وبجاية والمرسى الكبير حيث تمكث عشرة أيام لإفراغ وشحن السلع والبضائع في مقابل أربعة أيام تقضيها السفن بميناء بجاية، بعدها تتوجه إلى سبتة ومنها إلى سواحل إسبانيا قبل أن تلتحق من جديد بالموانئ الإيطالية.

لقد ظل هذا الخط التجاري البحري عاملا طيلة القرن الخامس عشر بفضل السفن البيزية والفلورانسية التي كانت تصل مدينة تونس بميناء قادس بإسبانيا ذهابا وإيابا مع التوقف لثلاثة أيام بالجزائر ومثلها بهنين وستة أيام بوهران والمرسى الكبير، هذا في الوقت الذي ظل فيه البنادقة والقاطلانيون منذ القرن الرابع عشر وحتى أواسط القرن السادس عشر يحافظون على معاملاتهم التجارية ومواصلاتهم البحرية مع سواحل بلاد المغرب متخذين المرسى الكبير نقطة ارتكاز لهم ومركزا لتصريف قسم كبير من بضائعهم المؤلفة غالبا من أقمشة وأدوات زجاجية وبهارات وعطور وغيرها، مقابل الحصول على منتجات مملكة تلمسان من جلود وصوف وأغطية (حياك) وبرانس وقطن ملينة وزرابي القلعة وزيت وفواكه جافة وشمع وغيرها.

3ـ حصن المرسى الكبير في مواجهة الغزو البرتغالي:

كان لاستيلاء النصارى على الأندلس وقدوم أعداد كبيرة من المهاجرين الأندلسيين

إلى سواحل المغرب الأوسط هربا من بطش الإسبان وتعصب رجال الدين المسيحيين بالجزيرة الإيبيرية ، أثر في تحول حصن المرسى الكبير من مركز حامية ومحطة تجارية تحت حكم ملوك تلمسان الزيانيين إلى رباط جهاد وقاعدة هجوم على السفن المسيحية والشواطئ الأوربية شأنها في ذلك شأن بجاية التي أصبحت هي الأخرى مقرا لمجاهدي البحر منذ أواسط القرن الثالث عشر الميلادي .

وأثناء ذلك استطاع مجاهدو الأندلس وفي طليعتهم بحارة المرية جمع أكثر من مائة سفينة بالمرسى الكبير مكنتهم من مهاجمة النصارى الإسبان وإلحاق الهزيمة بهم في بعض المعارك ، فقد تحصلوا على غنائم كبيرة سنة 1245 م ، وألحقوا خسائر كبيرة بسفن أوجين الثالث (1245 م) انتقاما من استيلائه على المرية بتشجيع من البابا عام 1247 م ، وقد شجعت هذه الانتصارات الأندلسيين المقيمين بالمرسى الكبير على مواصلة الجهاد البحري الذي أصبح يشكل النشاط الرئيسي للمرسى الكبير مع مطلع القرن السادس عشر إذ استطاع مجاهدو البحر أن يأسروا أكثر من مئتين فردا بالقرب من قرطاجنة بالأندلس سنة 1500 م ، وأسروا عددا كبيرا من المسيحيين بالقرب من الليقانت بفضل المعلومات التي أدلى بها أحد مواطني مرسية كان ملتجئا بوهران ، كما استطاعوا أيضا حرق السفن المسيحية الراسية بميناء مالقة ونهب ضواحي ألشن سنة 1505 م .

حاول النصارى وفي مقدمتهم البرتغاليون مواجهة هذا النشاط البحري بتنظيم حملات بحرية استهدفت السواحل المغربية ، كانت في طليعتها حملة الملك البرتغالي جان الأول في 14 أوت 1415 م التي استطاعت الاستيلاء على كل من وهران والمرسى الكبير والبقاء بهما قبل أن يتمكن المسلمون من استرجاعهما (1437 م) واتخاذهما من جديد قاعدة جهاد ضد السفن البرتغالية ، وهذا ما دفع الملك القشتالي ألفونسو العاشر إلى مهاجمتهما والاستيلاء عليهما (1471 م) ، لكنه لم يستطع إبقاء قوة عسكرية بحصون وهران والمرسى الكبير لانقطاع المدد عن الحامية البرتغالية وتعرضها للمحاصرة من طرف المسلمين لمدة ست سنوات ، فاضطر أن ينسحب منها عام 1477م ، بعدها عادت وهران والمرسى الكبير من جديد لحكم ولاة تلمسان الزيانيين ، وأصبحت مقصد جموع مهاجري الأندلس (1490 م) ، فاستقرت بوهران جماعات من غرناطة

على رأسها الأمير أبو عبيد الله محمد بن سعد الزغل عم آخر سلاطين غرناطة من بني الأحمر ، في الوقت الذي ظلت فيه المرسى الكبير قاعدة جهاد يتجمع بها الأندلسيون لشن غاراتهم على سواحل إسبانيا ، وهذا ما دفع البرتغاليين إلى شن آخر حملة لهم عليها سنة 1501 م انتهت بانهزامهم تحت أسوار أبراجها .

4ـ حصن المرسى الكبير يتعرض للغزو الإسباني:

تابع الإسبان جهود البرتغاليين الهادفة للقضاء على النشاط البحري الإسلامي المتمركز بحصن المرسى الكبير ، وذلك حتى يتمكنوا من بسط سيادتهم على الحوض الغربي للمتوسط في مطلع القرن السادس عشر ويصبح في استطاعتهم المحافظة على موضع قدم لهم بالسواحل الوهرانية المقابلة لشواطئهم ، فجردوا حملة بحرية (1497م) بقيادة الدوق دومدينا سيدونيا (Duc de Medina Sidonia) ، بهدف احتلال وهران والاستيلاء على حصن المرسى الكبير ، لكنها لم تستطع أن تحقق ما كان يُؤمَّل منها ، مما اضطر القوة الإسبانية إلى تحويل اتجاهها إلى مليلة بسواحل المغرب الأقصى حيث تمكنت من احتلالها وترك حامية إسبانية بها .

بعد هذه الحملة الفاشلة اتخذت الحملات الإسبانية على المرسى الكبير طابع غزو منظم وهادف لبسط السيادة الإسبانية على الشواطئ الإفريقية ووضع حد نهائي للنشاط البحري الإسلامي بغرب المتوسط ، لا سيما وقد اتجهت الأنظار إلى حصن المرسى الكبير لكونه من أكثر الحصون مناعة ومن أحسنها موقعا ، فقد أوردت بعض الروايات المتداولة أن التاجر البندقي جيروم فيانال (J. Vianelle) الذي كان يتردد على حصن المرسى الكبير قد تمكن من إقناع رجال البلاط الإسباني وفي مقدمتهم الكاردينال كزيمينيس (Don F. Ximènes de Cesnéros) بأن المرسى الكبير هو باب إفريقيا وأن وهران القريبة منه هي من أغنى وأجمل المدن بالساحل الإفريقي ، وهذا ما جعل الكاردينال كزيمينيس المتحمس لمواصلة الريكونكيستا ضد المسلمين يعتقد بأن العناية الإلهية أهلته للقضاء على القرصنة ونشر المسيحية ببلاد المغرب .

وفي هذا المسعى نظمت حملة بحرية ضد حصن المرسى الكبير في سنة 1505 م، جند لها خمسة آلاف رجل وأسطول مؤلف من ست سفن كبيرة من نوع كارافال (Caravelle) مع العديد من سفن النقل، أوكلت قيادته للأميرال رايمون دي كوردوبا (R. de Cordoba) وأعطي الإشراف على فرق المدفعية للضابط دييغو دوفيرا D. de Vera، وقيادة فرق المشاة لجيروم فيانال J. Vianelle، بينما أسند الإشراف العام على العمليات الحربية للقائد العام دون دييغو فرنانديز دي كوردوبا Don D.F. de Cordoba الذي اشتهر وذاع صيته بعد استيلائه على غرناطة (1491م).

غادرت القوة الإسبانية مالقة يوم 25 أو 29 أوت 1505 حسب مختلف الروايات ووصلت إلى المرسى الكبير في 11 سبتمبر من نفس السنة، فلم تجد إلا خمسمائة جندي مرابطين بالحصن بقيادة موسى بن علي إثر تفرق المتطوعين وانسحاب العديد من المدافعين عن الحصن بعد أن ملوا الانتظار والترقب لعدة شهور، وهذا ما مكن الإسبان من النزول إلى البر واحتلال المرتفعات المشرفة على الشاطئ ومحاصرة حصن المرسى الكبير وقصفه بالمدفعية، وبعد اشتباكات دامية طيلة ثلاثة أيام اضطر في نهايتها جنود الحامية المدافعة عن الحصن إلى عقد هدنة مع القائد الإسباني مكنتهم من الانسحاب من الحصن والتوجه إلى وهران بعد أن قتل منهم حوالي مائة جندي، على أن هناك رواية تشير إلى أن حامية المرسى الكبير ظلت محاصرة من طرف الإسبان لمدة خمسين يوما، وأنها لم تحاول الانسحاب أمام الإسبان إلا بعد أن نفذت مؤنها وانقطع عنها المدد، وهذا ما يؤخر تاريخ الاستيلاء على الحصن إلى يوم 23 أكتوبر بدل 13 سبتمبر الذي تؤكده أغلب الروايات اعتمادا على توجه سفينة قائد الحملة لنقل خبر الاستيلاء على المرسى الكبير إلى إسبانيا في الأسبوع الثاني من شهر سبتمبر من نفس السنة.

بادر الإسبان إلى إطلاق الأسرى المسيحيين الذين وجدوهم بالحصن، وكان عددهم 35 منهم 7 نساء بعضهم من بقايا الحملة البرتغالية الفاشلة على المرسى الكبير عام 1501م، كما عملوا على تحويل مسجد الحصن إلى كنيسة ونصب المدافع على أبراج الحصن وإدخال بعض الإصلاحات على بناءاته لتمكين الحامية الإسبانية من الإقامة به والدفاع عنه، وبالفعل استطاعت التحصينات الإسبانية وبطاريات المدفعية المنصوبة

على أسوار الحصن إحباط المحاولات المتكررة لاسترجاعه من طرف جموع المتطوعين من سكان جهات وهران وفرق جيش تلمسان التي قدرتها بعض الروايات بما لا يقل عن 24000 رجل منهم ألف فارس.

على أن الاندفاع الاسباني واجهته في أول محاولة له للتوسع نحو الداخل مقاومة عنيفة حدت من فعاليته واضطرته إلى الاحتماء بحصن المرسى الكبير، فقد وقعت قوات دون دييغو فرناندز دي كوردوبا في كمين نصب لهم من طرف المتطوعين ورجال القبائل المجاورة أثناء عودتها إلى حصن المرسى الكبير يوم 7 جوان 1507 م، بعد أن قامت بمهاجمة نواحي مسرغين وأسرت العديد من الرجال والنساء بتشجيع ومعاضدة قبيلة قيزة المتعاونة مع الإسبان، وأثناء هذا الكمين لم يتمكن القائد الإسباني وعدد قليل من الجنود من الالتحاق بحصن المرسى الكبير إلا بشق الأنفس، تاركين وراءهم عددا كبيرا من القتلى والأسرى قدرته بعض المصادر الإسلامية بحوالي ثلاثة آلاف قتيل وعدة مئات من الأسرى.

ورغم هذا الانكسار الذي حد من طموح الإسبان، فإن سقوط حصن المرسى الكبير بيدهم كان بمثابة بداية مشجعة لتنفيذ مخطط صليبي دعا إليه الكاردينال الدون فرانسيسكو كزيمينيس دو سيسنيروس وباركه الكرسي البابوي وساهمت في تمويله الكنيسة الإسبانية، وكانت أولى مراحله الاستيلاء على وهران وفرض حماية إسبانية على مملكة تلمسان وذلك قبل أن يتوسع ليشمل بعد ذلك أغلب سواحل بلاد المغرب.

وبالفعل فقد ساهمت الكنيسة في تجهيز الحملة المتوجهة للاستيلاء على وهران، وقدم الكاردينال الدون فرانسيسكو كزيمينيس لهذا الغرض مبالغ مالية مهمة من ثروته الخاصة ونصب نفسه مشرفا وموجها للجيش الذي أوكلت قيادته إلى الدون بدرو نافارو (Don P. Navaro)، فانطلقت السفن الحاملة للجيش البالغ عدده حوالي 21700 جندي منهم 2000 فارس من ميناءي قرطاجنة ومالقة في 18 مارس 1509 م وألقت مراسيها أمام المرسى الكبير في 27 ماي من نفس السنة حيث كانت تنتظرها الحامية الإسبانية بحصن المرسى الكبير، وتوجه الجيش الإسباني من هناك نحو وهران حيث تمكن من دخولها

بفعل خيانة أحد اليهود وهو المكاس الإشبيلي سطورة وتواطؤ متعاونين معه من الأهالي وهما عيسى العربي والقائد بن قانصو حسب ما هو متداول في بعض الروايات التاريخية.

مكن هذا الانتصار السهل الذي لم يفقد فيه الجيش الإسباني حسب بعض الروايات سوى 30 رجلا الكاردينال الدون فرانسيسكو كزيمينيس من تدشين كنيسة إفريقيا بقتل 4000 من سكان وهران وتحويل مساجدها إلى كنائس وتخريب بيوتها ونهب ثرواتها وطمس معالمها، وبذلك أصبحت وهران مع المرسى الكبير تشكل القاعدة الأمامية للجيش الإسباني على السواحل المغربية في محاولاته المستمرة للتوسع في الداخل وتنفيذ مخطط الريكونكيستا أو التمسيح القصري الذي لم يحالفه النجاح في أول اصطدام حقيقي له مع قوة الجزائر العثمانية الناشئة بزعامة حسن بن خير الدين باشا والقوة الإسبانية بقيادة حاكم وهران والمرسى الكبير الكونت دالكوديت (Comte d'Alcaudete)، فقد دمر الأسطول الإسباني بخليج أرزيو وقضي على الفرق الإسبانية بسواحل مزغران القريبة من مستغانم في 26 أوت 1558 م حيث لقي الكونت دالكوديت مصرعه ووقع ابنه ومعاونه الدون مارتان في الأسر مع مئات الإسبان. بعدها لم تعد الهجمات الإسبانية انطلاقا من وهران والمرسى الكبير تشكل خطرا أو تهديدا على المدن الداخلية بل تحولت مع مرور الوقت إلى هجمات انتقامية بهدف الحصول على الأقوات أو الرد على مضايقات القبائل المجاورة لوهران أو انتقاما من تحرشات حكام تلمسان ومعسكر مثلما وقع في سنوات: 1590، 1608، 1616، 1632، 1639، 1675، 1687، 1704 م.

5ـ محاولات الجزائريين استرجاع حصن المرسى الكبير:

تعرض حصن المرسى الكبير ووهران للعديد من الهجمات من طرف الجيش الجزائري منذ أواسط القرن السادس عشر وحتى أواخر القرن الثامن عشر، مما أرغم القوات الإسبانية على التخلي عن مبادرة الهجوم واتخاذ موقف الدفاع، فاكتفت في أغلب الأحيان بالاحتماء بالحصون وطلب النجدة من إسبانيا أثناء تعرضها لهجمات الجزائريين المتكررة، ومن أهم هذه الهجمات:

1. هجوم 1556 م: مهد له صالح رايس حاكم الجزائر بحشد السفن والعتاد والرجال (حوالي 40 سفينة و17000 جندي) قبل أن يتوفى بالطاعون برأس تامنفوست وهو يستعد للإقلاع على رأس الأسطول نحو وهران وحصن المرسى الكبير، وقد تولى قيادة الجيش خلفا له كل من القائد يحي والرايس حسن قورصو، وقد تمكن الجيش الجزائري الذي انضم إليه 30000 متطوع من اقتحام حصن رأس العين، لكن الظروف الدولية اضطرت الأسطول الجزائري للتوجه نحو شرق المتوسط لإحباط مناورات آندري دوريا البحرية بطلب من السلطان العثماني، وهذا ما حال دون إتمام عملية استرجاع وهران والمرسى الكبير.

2. هجوم 1563 م: جند له حسن بن خير الدين ما لا يقل عن 37000 جندي منهم 15000 من رماة البنادق و6000 من رجال زواوة، وضرب الحصار على وهران والمرسى الكبير عن طريق البر والبحر في 30 أفريل 1563م، وتمكن الجزائريون من استرجاع حصن القديسين بالقرب من وهران، بعدها ركزوا الهجوم على حصن المرسى الكبير لأهميته، فأنزلت طلائع القوات على الساحل الغربي غير بعيد عن أبراج الحصن، وتصدت لحصن المخلص الواقع على المرتفعات المشرفة على المرسى الكبير، وبعد 22 يوما اضطرت الحامية الإسبانية بعد أن تهدمت تحصيناته إلى إخلائه في 7 ماي 1563 م، بعدها تحول الهجوم إلى حصن المرسى الكبير إثر وصول النجدات الإسبانية إلى وهران بقيادة الدون فرانسيسكو موندوزا (Don F. de Mondoza).

استطاعت المدفعية العثمانية أن تحدث ثغرات في أسوار الحصن وتمكنت طلائع الجيش الجزائري التي التحمت في مواجهات دامية يومي 8 و9 ماي من رفع علمين على برج الجنويين (22 ماي) بعد اشتباكات دامية لعدة أيام، إلا أن استبسال الجنود الإسبان المدافعين عن الحصن وكان عددهم 470 جنديا بقيادة الدون مارتان ابن حاكم وهران من 11 ماي إلى غاية 5 جوان، حد من اندفاع الجزائريين، كما أن ارتفاع الإصابات في صفوف الفرق الجزائرية المهاجمة ـ إذ قدر عدد القتلى بما لا يقل عن 500 شخص منهم قائد فرق زواوة أحمد بن القاضي صهر حسن باشا بن خير الدين ـ ووصول أسطول ضخم من إسبانيا مؤلف من 55 سفينة تحمل المدد والرجال لمياه المرسى الكبير يوم 8

جوان، كل ذلك اضطر الجيش الجزائري إلى رفع الحصار والتخلي عن محاولة اقتحام حصن المرسى الكبير وتوجيه جهوده بعد ذلك لحصار مالطة مع الأساطيل العثمانية الأخرى سنة 1565 م.

بعد هذين الهجومين الكبيرين تحولت المحاولات المتكررة لاسترجاع وهران والمرسى الكبير إلى عمليات عسكرية محدودة لم تؤد إلى نتائج ملموسة إلا في الربع الأول من القرن الثامن عشر حيث أمكن استرجاع وهران والمرسى الكبير سنتي 1708 و1709 م، ومن هذه المحاولات العديدة نذكر :

- مهاجمة وهران والتضييق على المرسى الكبير من طرف قوات الباشا قوصة مصطفى القابجي أثناء تولي الكونت دوتيبا حكم وهران والمرسى الكبير (1605 م) .
- مهاجمة القوة الإسبانية من طرف فرق اليولداش بأحواز مدينة وهران ونواحي الهبرا على عهد حسين باشا (1622 م) .
- محاصرة وهران والمرسى الكبير برا وبحرا على عهد علي باشا (بعد سنة 1665-1671 م) وأثناء تولي الدون ألفارو دو بازان حكم وهران .
- مهاجمة تحصينات وهران والمرسى الكبير من طرف فرق من الجيش الجزائري على عهد الحاج محمد التركي وأثناء تولي حكم وهران الدون أنيغو (1675 م) .
- مهاجمة وهران وقتل حاكمها دوتيبا في إحدى الاشتباكات مع اليولداش ورجال بني راشد على عهد الحاج محمد التريكي (1681 م) .
- الالتحام مع الفرق الإسبانية المؤلفة من 8000 رجل تحت أسوار وهران بكدية الأخبار، وقد ألحق الجيش الجزائري المؤلف من 4000 رجل الهزيمة بها، ولم يتراجع المهاجمون إلا بعد استشهاد قائدهم باي الغرب شعبان الزناتي (1686 م) .
- مهاجمة وهران من طرف الباي إبراهيم خوجة (1687 م)، ولم يرفع الحصار عنها إلا بطلب من الديوان، وذلك حتى يتمكن من الالتحاق بمدينة الجزائر والمشاركة في التصدي لهجوم الأسطول الفرنسي عليها بقيادة ديستري سنة 1688 م .

- محاولة مولاي اسماعيل ملك المغرب التصدي لوهران أثناء توسعه بالغرب الجزائري سنتي 1694 و1700 م، ولكنه تراجع عنها أمام مقاومة الحاكم الإسباني كانزانو، متعللا بأنها حصن لا يمكن الاستيلاء عليه، فوهران حسب قوله: "هي أفعى تحت صخرة تضر غيرها ولا يقدر عليها أحد".

كل هذه المحاولات المتعددة والهجومات المتكررة من طرف الجزائريين لم تزد الإسبان إلا إصرارا على البقاء بحصن المرسى الكبير والاحتفاظ بوهران، ويعود ذلك في واقع الأمر إلى دوافع عسكرية واستراتيجية بالدرجة الأولى، فقد اتخذوا من المرسى الكبير خاصة قاعدة ارتكاز بحري بغرض مراقبة السواحل المغربية وحماية الشواطئ الإسبانية من أي نشاط بحري معاد لهم قد تقوم به السفن الجزائرية أو الأساطيل العثمانية، فتحول المرسى الكبير لهذا الغرض إلى محطة لاستقبال القطع البحرية الإسبانية في عملياتها بالبحر المتوسط، فتوقف به الأسطول الإسباني الذي كان يقوده الدون هيغو دومانكار في طريقه لمهاجمة مدينة الجزائر سنة 1518م، وتجمعت به السفن الحربية المسيحية بقيادة الدون ألونزو دوبازان (D.A. de Bazan) في طريقها لفك الحصار العثماني عن مالطة (1565 م)، وقضى به بطل الليبانت الأمير خوان النمساوي (D. Juan d'Autriche) (1568 م) يومين أثناء قيامه بجولة مراقبة لأوضاع القوات البحرية للإمبراطورية الإسبانية بغرب البحر المتوسط على رأس أسطول مؤلف من 35 قطعة بحرية (1568 م) .

اتخذ الإسبان وهران وحصن المرسى الكبير نقطة اتصال مع حكام تلمسان وذلك بقصد استدراجهم للوقوف بجانبهم ضد الحكم العثماني بمدينة الجزائر، فأيد الإسبان كل أمير زياني تعاون معهم ضد منافسيه، كما فعلوا مع أبي حمو الثالث في صراعه مع أخيه السلطان أبي زيان، ومن وهران والمرسى الكبير كذلك اتصل الإسبان بالملوك السعديين بهدف تأليف حلف موجه لمحاصرة قوة الجزائر العثمانية والقضاء عليها، ولولا يقظة باي لارباياث الجزائر وهم: صالح رايس وعلج علي وحسن بن خير الدين وحسن قورصو لأمكنهم تحقيق أهداف عسكرية واستراتيجية في هذا المسعى.

وحتى بعد فشل هذه السياسة الرامية لتوسيع النفوذ الإسباني بشمال إفريقيا تحول حكام وهران والمرسى الكبير إلى تكوين أحلاف مع القبائل القاطنة بنواحي وهران وتأليف قوة عسكرية منها تكون قادرة على الوقوف في وجه قوات باي الغرب بمازونة أو معسكر، وقد وجدوا التشجيع في خطتهم هذه من شيوخ عشائر بني عامر وغيزة وأولاد عبد الله وأولاد علي القبيل وشافع وأحلافهم من الونازرة وحميان وكرشتل وغيرهم، فقد قدمت هذه القبائل المتعاملة مع الإسبان مساعدات عينية من حبوب ومواشي وإعانات مالية وهي "جزية الرومية" سمحت للإسبان بتغطية حاجاتهم وتعزيز موقعهم بوهران والمرسى الكبير، ولم ينته الأمر عند هذا الحد بل ناصرت هذه القبائل الجند الإسباني على شن الحملات والقيام بالغارات على المناطق الوهرانية، وحتى عند انهزام القوات الإسبانية كان أفراد هذه القبائل المتعاملة يسارعون لتغطية تراجع الجنود الإسبانيين مثلما حدث في حملة مسرغين (1507م)، وكذلك أثناء هجوم الباي شعبان الزناتي على وهران (1686م)، وهذا ما جعل الإسبان يجلون جماعات كثيرة منهم ظلت ترتبط بهم عرفت بالمغطسين عند خروجهم من وهران حتى لا يتعرضوا للانتقام، وقد أشار إلى ذلك ابن سحنون في "الثغر الجماني" بقوله: "و منهم من غلب على قلبه حب الكفرة فلم تطب نفسه بفراقهم ورضي أن يسير معهم حيث ساروا... وكان أول ما بدؤوا (أي الإسبان) به أن حملوا جميع المغاطيس الباقين فبعثوهم إلى سبتة على أسوء حال يشمت بهم حاسدهم".

6ـ تحرير وهران وحصن المرسى الكبير من الاحتلال الإسباني:

بعد التضييق على وهران والمرسى الكبير ومهاجمتها من طرف فرق عسكرية بعث بها الداي حسن خوجة (1705 م)، زحفت قوات باي الغرب مصطفى بوشلاغم المسراتي وضربت عليهما الحصار ابتداء من 14 من شهر جوان 1707 م بتشجيع من داي الجزائر محمد بكتاش الذي أرسل صهره الخزناجي أوزون حسن على رأس قوة عسكرية مؤلفة من 3000 رجل وكمية كبيرة من العتاد، وبذلك بلغ الجيش المحاصر لوهران والمرسى الكبير من جنود نظاميين ومتطوعين من القبائل المجاورة حوالي أربعين ألف رجل حسب

بعض الروايات، وقد استطاع هذا العدد الضخم من الجنود الاستيلاء في ظرف عدة أيام (8-11 سبتمبر 1707 م) على الأبراج والتحصينات المحيطة بوهران: برج العيون، برج الجبل (مرجاجو)، برج حسن بن زهرة، برج الصبايحية (البرج الجديد)، البرج الأحمر (برج لامون)، برج اليهودي، وأسرت بها ما لا يقل عن 2000 إسباني منهم حوالي 200 ضابط حسبما أثبته بعض المصادر، وهذا ما ساعد على اقتحام مدينة وهران في 16 أفريل 1708م وأسر 1461 إسبانيا بها أرسلوا إلى مدينة الجزائر، بينما التجأ قائد الحامية الإسبانية الدون كاربوس كارافا (Don Carlos Carrafa) إلى حصن المرسى الكبير حيث تعرض لحصار مشدد تميز بهجمات متكررة من جانب الجزائريين أسفرت عن استسلام حصن المرسى الكبير في 21 جانفي 1709 م وأسر قائد الحامية المتمركزة بالحصن الدون بلتزار دولافيلابيلا (D. Baltazar de Villabella).

كان وقع الهزيمة قاسيا على الحكام الإسبان، فلم يسلموا بفقدان وهران وضياع حصن المرسى الكبير، بل عقدوا العزم على استرجاعهما بعد أن وضعت "حرب الخلافة الإسبانية" بأوربا أوزارها وبعد أن ردوا هجوم مولاي إسماعيل عن سبتة. وقد أعقب اكتمال الاستعدادات الإسبانية لاسترجاع قاعدتي وهران والمرسى الكبير خطاب حماسي توجه به الملك الإسباني فيليب الخامس إلى رعاياه في 6 جوان 1732 م يحثهم فيه على ضرورة استرجاع وهران والمرسى الكبير باعتبارهما بابا للمسيحية بإفريقيا، بعدها توجه أسطول إسباني من ميناء أليكانت في 25 جوان 1732 م مؤلف من 25000 جندي و525 قطعة بحرية منها 12 سفينة حربية مجهزة بـ 720 مدفعا ومحملة بكمية كبيرة من الزاد والعتاد تحت قيادة الكونت دومونتومار (Comte de Montemar).

وقد نزلت طلائع الجيش الإسباني على الساحل الغربي لحصن المرسى الكبير بناحية عين الترك في 28 جوان 1732 م وزحفت نحو تحصينات المرسى الكبير في اليوم التالي وتمكنت بمعاضدة الأسطول الذي ألقى مراسيه قبالة الساحل، من التغلب على المقاومة الجزائرية بحصن المرسى الكبير في 30 جوان وإرغام المدافعين على أبراج الحصن البالغ عددهم 150 جنديا على التسليم، بعدها سهل الأمر على الإسبان لاحتلال مدينة وهران وتمكنوا من دخولها في مستهل شهر جويلية.

بادر الإسبان بعد تحقيق هذا الانتصار السهل والذي لم يكلفهم سوى 30 قتيلا و100 جريحا إلى تعزيز دفاعاتهم حول وهران وتحصين حصن المرسى الكبير ونصب المدافع عليه، وهذا ما مكنهم فيما بعد من التصدي للقوات الجزائرية المؤلفة من 2500 جندي و2000 متطوع، والتي حاولت مرارا بقيادة الباي مصطفى بوشلاغم تحرير المرسى الكبير ووهران من الإسبان طيلة سنتي 1733 و1734 م.

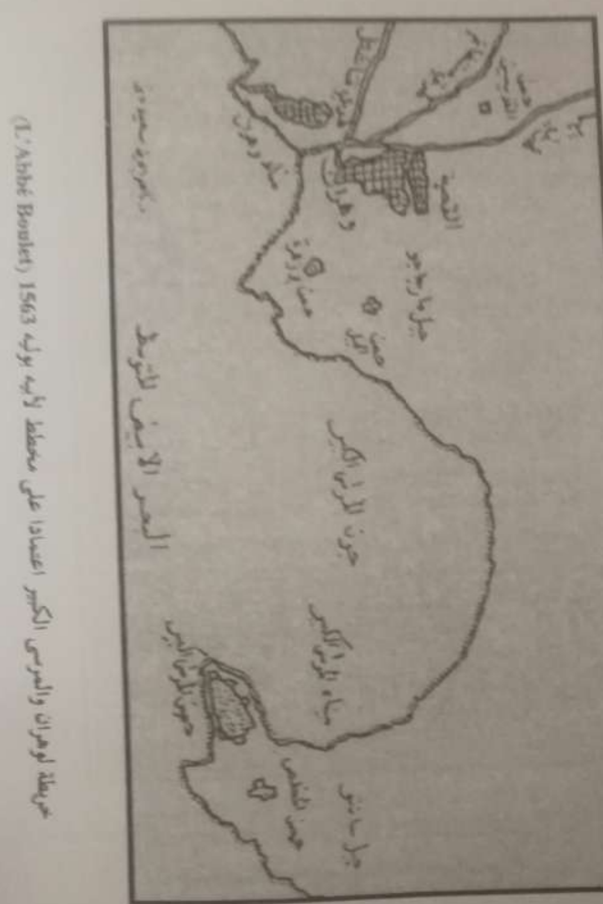
بعد ذلك عرف حصن المرسى الكبير فترة هدوء نسبي استمرت خمسا وثلاثين سنة (1734-1770 م)، بعدها بدأت الجهود تتكرر لطرد الإسبان من حصن المرسى الكبير، فبادر بايات الغرب (معسكر) بأمر من دايات الجزائر بالتضييق على الحاميات الإسبانية (سنتي 1780 و1784 م)، قبل أن يضرب عليها حصار مشدد عام 1789 م، وقد ساعد على ذلك ورود الإمدادات من الجزائر وتوافد أعداد كبيرة من المتطوعين منهم حوالي 500 من طلبة العلم وشيوخهم، في الوقت الذي ضعفت فيه معنويات الحاميات الإسبانية لاستمرار الحصار وانقطاع الإمدادات عليها من إسبانيا، وقد زاد الحالة سوءاً تضرر تحصينات وهران والمرسى الكبير بفعل زلزال عام 1790 م، وهذا ما ساعد فيما بعد على التسليم بمطالب الجزائريين وإخلاء حصون وهران والمرسى الكبير عملا بمعاهدة السلام والصداقة الجزائرية الإسبانية (1791 م).

وبذلك عاد حصن المرسى الكبير ومدينة وهران للسيادة الجزائرية ووضع حد نهائي للاحتلال الأسباني لهما الذي دام أكثر من قرنين ونصف (1505-1792 م).

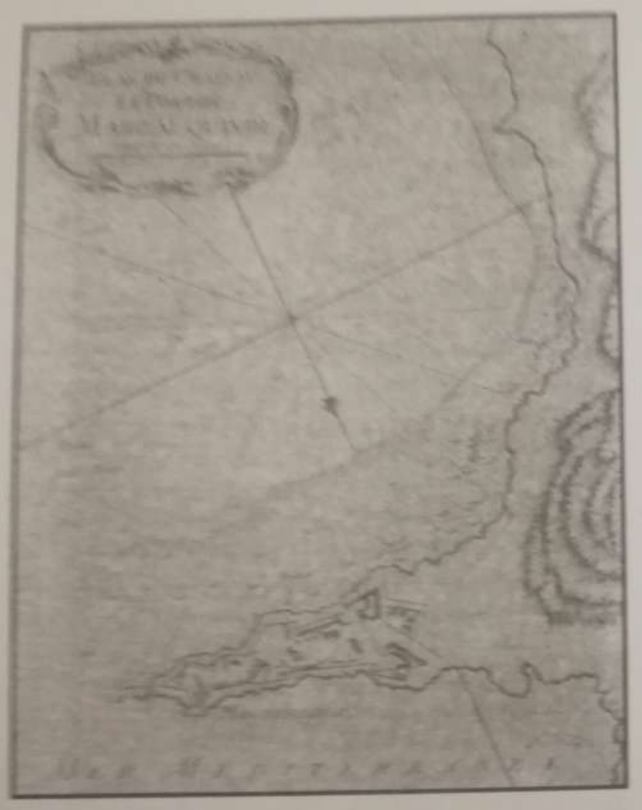


كردينال طليطلة كزيميناس دوميسنيروس مخطط ومنفذ حملة وهران 815ه/ 1509م

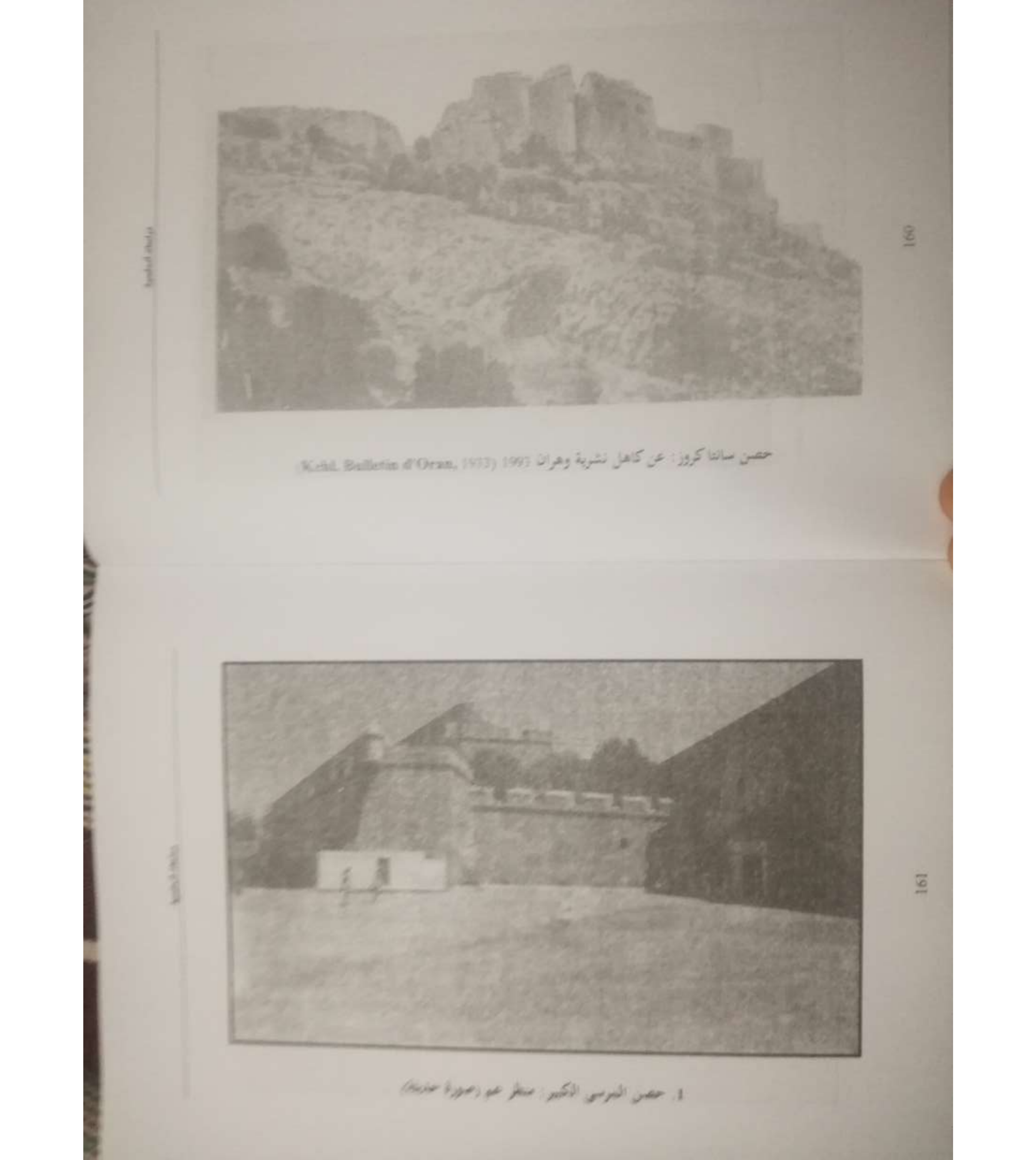
(cardinal F. Ximenez de Cisneros)



خريطة لوهران والمرسى الكبير اعتمادا على مخطط لأبه بوله 1563 (L'Abbé Boulet)

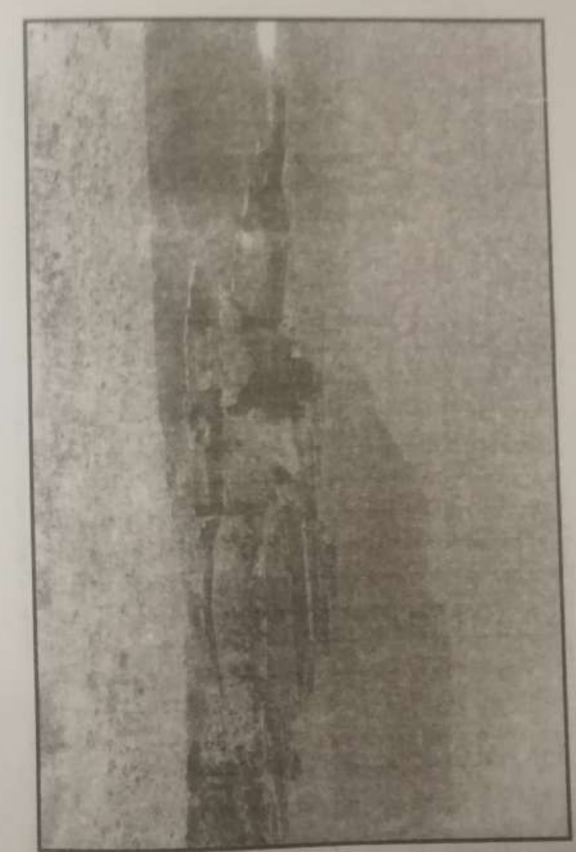


مخطط المرسى الكبير عن أطلس لابيه بوليه (L'Abbé Boulet) طبعة 1770.
(المكتبة الوطنية بباريس)



حصن سانتا كروز: عن كاهل نشرية وهران 1993 (Kehl, Bulletin d'Oran, 1933)

1. حصن المرسى الكبير: منظر عام (صورة حديثة)



2. حصن المرسى الكبير التحصينات الداخلية (صورة حديثة)

المصادر والمراجع المعتمدة

المراجع العربية:

1ـ أبو عبد الله محمد الإدريسي، "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق"، قسم المغرب العربي، تحقيق ونشر محمد حاج صادق، باريس منشورات الجنوب، 1983.

2 ـ أبو عبيد الله البكري، "كتاب المسالك والممالك"، قسم بلاد إفريقية والمغرب، تحقيق ونشر دوسلان، باريس، أدريان ميزلوف، 1965، ص ص. 70 و 81.

3 ـ أبو القاسم بن حوقل النصيبي، "كتاب المسالك والممالك والمفاوز وذكر الأقاليم والبلدان على مر الدهور والأزمان"، المعروف بصورة الأرض، بيروت، دار مكتبة الحياة، د.ت.، ص. 39 ؟

4 ـ أحمد بن محمد بن سحنون الراشدي، "الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني"، تحقيق وتقديم المهدي البوعبدلي، منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، قسنطينة، مطبعة البعث، 1973، ص. 254.

5 ـ محمد بن ميمون الجزائري، "التحفة المرضية في الدولة البكتاشية في بلاد الجزائر المحمية"، تحقيق وتعليق وتقديم محمد بن عبد الكريم، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر، 1972.

6 ـ يحي بوعزيز، "وهران"، سلسلة مدن تاريخية، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر، 1985.

7 ـ محمد بن يوسف الزياني، "دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران"، تقديم ونشر المهدي البوعبدلي، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر، 1979.

8 ـ أحمد توفيق المدني، "حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا (1492-1792 م)"، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر، قسنطينة، مطبعة البعث، 1968.

10 ـ "سيد أحمد بلبوري، أهمية ميناء المرسى الكبير والنشاط التجاري الفرنسي الإنكليزي إبان الاحتلال الإسباني (1732-1754 م)"، دفاتر التاريخ المغربية، معهد علوم الاجتماع، جامعة وهران، مخبر التاريخ، العدد الأول، ديسمبر 1987، ص ص. 54-61.

المراجع الأجنبية:

1. J. Barbier, *Itinéraire historique et descriptif de l'Algérie*, Paris, 1855.
2. R. Basset, "Fastes chroniques de la ville d'Oran pendant la période arabe", in *Bulletin de la Société de Géographie d'Oran*, 1892, pp. 49-75.
3. A. Berbrugger, "Mers-El-Kebir et Oran d'après Diego Svarezi et Marmol," in *Revue africaine*, T. 9-11, 1865.
4. A. Berbrugger, "Conquête d'Oran", in *Revue africaine*, T. 10, 1866.
5. N. Blum, "La croisade de Xinénès en Afrique", Oran, in *Bulletin de la Société de Géographie d'Oran*, 1898.
6. F. Braudel, "Les Espagnols en Afrique du Nord de 1492 à 1477", in *Revue africaine*, 1928, pp. 184-233 et 351-428.
7. E. Carette, "Algérie", in *L'univers, histoire et description de tous les peuples*, Ed. Bouslama, Tunis, 2è éd., 1980, pp. 50-51.
8. Cassaigne et Loqueyssie (Les capitaines), "Relacion generale de la consistencia de los plaza de Oran y Merzalquivir, 31 décembre 1772, de Don Harnoldo Hantasat", in *Bulletin de la Société de Géographie d'Oran*, T. XLIV, 1924.
9. E. Cat, *Mission bibliographique en Espagne*, Paris, 1891 (Contient le rapport du gouverneur du Mers-El-Kebir Pedro de Castro).
10. J. Cazenave, "Cervantès à Oran", 1581, in *Bulletin de la Société de Géographie d'Oran*, T. 43, 1923, pp. 215-242.
11. J. Cazenave, "Contribution à l'histoire du vieil Oran", in *Revue africaine*, T. 66, 1925, pp. 323 et 368 (contient le rapport sur l'état des places d'Oran et de Mers-El-Kebir en 1734 du Général Don J. Vallējo).
12. J. Cazenave, "Les gouverneurs d'Oran pendant l'occupation espagnole de cette ville, 1509-1792", in *Revue africaine*, T. 71, 1930, pp. 257-299.
13. J. Cazenave, "Les présides espagnols en Afrique, leur organisation au XVIIè siècle", in *Revue africaine*, 1922, pp. 257-299.
14. J. Cazenave, "Un chroniqueur espagnol de l'Algérie au XVIè siècle (Diego Suarez)", in 2è *Congrès des sciences historiques*, Alger, 14-16 avril 1930, Alger, 1932 (pp. 113-124).
15. J. Cazenave, "Oran, cité berbère", in *Bulletin de la Société de Géographie d'Oran*, T. 46, 1926.
16. J. Cazenave, "Les sources de l'histoire d'Oran", in *Bulletin de la Société de Géographie d'Oran*, T. 54, 1933, pp. 303-376.
17. P. Clauzolles, *L'Algérie pittoresque*, partie moderne, Paris, 1843.

18. Didier (Général), *Histoire d'Oran*, T. VI, Oran, 1929.
19. Didier (Commandant), *Les Français à Oran depuis* 1830 *à nos jours*, Alger, 1846.
20. J. Duval, *Tableau de l'Algérie*, Paris, 1854.
21. El-Korso et De Epalza, *Rapport de Don Joseph Basilio d'Aramburer en* 1741, traduit et présenté par El-Korso et De Epalza sous le tire "Oran et l'Ouest algérien au XVIIIè siècle, Notes et documents, Alger, 1978.
22. M. De Epalza et J.B. Vilar, Plans et cartes hispaniques de l'Algérie XVIè-XVIIIè siècles, Vol. I, Institut hispano-arabe de culture, Madrid, 1978.
23. J. Fonteneau, dit Alphonse de Saintongie, *La cosmographie avec l'espèce et régime du soleil et du nord*, Paris, E. Leroux, MDCCCCIV, 1544.
24. H.L. Fey, *Histoire d'Oran avant, pendant et après l'occupation espagnole*, Oran, Perrien, 1868.
25. L. De Foulques, "Le plan d'Oran en 1509", in *Bulletin de la Société de Géographie d'Oran*, T. 22, 1884, pp. 122-124.
26. R. Francique Michel, "Traduction de document ayant trait à l'occupation d'Oran par les Espagnols", in *Bulletin de la Société de Géographie d'Oran*, 1887.
27. Guin (Dr), "Notes sur l'entreprise des Espagnols pendant l'occupation d'Oran", in *Revue africaine*, 1886.
28. Don Harnoldo Hantabat, "Relacion generale de la consistencia de los plaza de Oran y Merzalquivir, 31 décembre 1772", pub. par le Commandant Pellecat, Oran, 1924, *Bulletin de la Société de Géographie d'Alger*, pp. 99-130, 211, 224.
29. Jean Léon l'Africain, *Description de l'Afrique*, trad. par A. Epaulard, T. II, Paris, A. Maisonneuve, 1956, p. 324, 342.
30. René Lespès, *Oran, étude de géogrphie et d'histoire urbaines*, Paris, F. Alcan, 1930.
31. Lieussou, *Ports maritimes de France*, T. VII, Ports d'Algérie, Paris, 1890.
32. Monnereau (Dr), "Les inscriptions d'Oran et de Mers-El-Kebir", in *Revue africaine*, T. 15, 1871, pp. 173-183, 271-284, 434-446, 353-360.
33. Notes et documents, "La reprise d'Oran par les Espagnols en 1732", in *Bulletin de la Société de Géographie d'Alger*, T. 52, 1931, pp. 83-88.
34. R. Offrey, *Oran et Mers-El-Kebir*, Bourg, 1938.

35. Pellecat (Commandant), "Rapport sur l'état des places d'Oran et de Mers-El-Kebir en 1738 du Général Don Joseph Valléjo", in *Bulletin de la Société de Géographie d'Alger*, T. 66, 1926, pp. 211-238.

36. A. Pestemaldjoglu, "Mers-El-Kebir, Historique et description de la forteresse", in *Revue africaine*, T. 84, 1940, pp. 154-185.

37. A. Pestemaldjoglu, "Ce qui subsiste d'Oran espagnole", in 2è Congrès F.S.S.A.N., Tlemcen, 14-17 avril 1936, T. II, Alger, 1936, pp. 665-686 + planches, in *Revue africaine*, T. 84/1940, pp. 154-185.

38. F. Elie de la Primaudie, "Documents inédits de l'histoire de l'occupation espagnole en Afrique (1506-1574)", extrait de *Revue africaine*, Alger, A. Jourdan, 1874.

39. M. Robin, "Nécessité de fortifier Oran, 1576 (Documents sur l'histoire)", Trad. par M. Robin, in *Bulletin de la Société de Géographie d'Alger*, T. 55, 1934, pp. 369-374.

40. P. Rozet, "Alger", in *L'univers, histoire et description de tous les peuples*, Ed. Bouslama, Tunis, 2è éd., 1980, pp. 50-51.

41. P. Rozet, *Voyage à la Régence d'Alger*, T. I, Paris, 1833.

42. P. Ruff, *La domination espagnole à Oran*, Paris, E. Leroux, 1900.

43. Sandoval, "Sur la reprise d'Oran et de Mers-el-Kébir", in *Revue africaine.*

44. Sandoval, "Les inscriptions d'Oran et de Mers-el-Kébir", in *Revue africaine*, T. 16, 1872, pp. 192-199.

45. D.G. Seguy, *Oran et l'Algérie en* 1887, Oran, 1888.

46. D.G. Seguy, Oran, "Histoire et description", in *Oran et l'Algérie de l'association française sur l'avancement des sciences*, Oran, 1888.

47. Dr Shaw, *Voyage dans la Régence d'Alger*, Trad. de l'anglais par J. Mac Carthy, Tunis, s.d.

48. Tabalosos (Marquis de), "Histoire d'Oran", Trad. par J. Cazenave, in *Bulletin de la Société de Géographie d'Oran*, T. 51, 1930, pp. 117-154.

49. *Tableau de la situation des établissements français*, Paris, imp. Royale, année, 1838.

50. R. Tinthoin, Oran et Mers-el-Kébir, il y a cent ans, in *Bulletin de la Société de Géographie d'Oran*, T. 71/1948.

51. P. Tisserand, *L'ancien et le nouvel Oran*, Oran, Ed. Pièce, 1881.

52. Val-Parisot, *Alger, Description spéciale*, s.d.

53. X. Yacono, La Régence d'Algérie (1830), in *Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée*, n° 2/1966, pp. 227-247 (Rapport Duval d'Ailly I, 299).

الهجوم الإسباني على الجزائر

"معركة الحراش" (1189 هـ/1775 م)(*)

يعتبر الهجوم الإسباني على مدينة الجزائر عام 1189هـ/ 1775م من المعارك المهمة والوقائع الحاسمة في التاريخ الجزائري الحديث وذلك للأحداث التي تميز بها والنتائج التي أسفر عنها، فقد كان هذا الهجوم الإسباني إحدى حلقات المخطط الصليبي الذي حاولت الدول الأوروبية وعلى رأسها اسبانيا تنفيذه لصالح المسيحية على حساب سيادة أقطار المغرب العربي، وقد أصبحت السيطرة على الحوض الغربي للبحر المتوسط تقتضي تنفيذ هذا المخطط الذي ارتسمت ملامحه إثر تصفية الوجود الإسلامي بالأندلس والتحاق إيالات المغرب (الجزائر وتونس وطرابلس) بالإمبراطورية العثمانية.

وقد حاول الإسبان في هذا النطاق القيام بحملات متتالية استهدفت أغلبها السواحل الجزائرية أثناء القرن السادس عشر إلا أنها لم تكن لها أية نتيجة نظراً لقوة البحرية الجزائرية وسيطرتها على مياه البحر المتوسط آنذاك، وبعد أن أصبحت موازين القوى الدولية تميل لصالح الدول الأوروبية منذ نهاية القرن السابع عشر، قرر شارل الثالث ملك إسبانيا القيام بحملة بحرية كبرى ضد الجزائر التي أصبحت القلعة المنيعة والحارس الأمين للدفاع عن السيادة الإسلامية في الضفة الجنوبية للمتوسط، وقد استعان في حملته هذه بنفوذ الكنيسة وبتأييد بعض الدول الأوروبية المسيحية وعلى رأسها دول المدن الإيطالية التي أمدته بقوات عسكرية مثل جنوه ونابلي ومالطة وليفورن، وذلك بحجة حماية السواحل الإسبانية من غارات البحارة الجزائريين، ومن أجل إطلاق الأسرى النصارى، الذين كانوا يقدرون

(*) مقال نشر في كتاب ذاكرة الجزائر (صفحات من تاريخ المقاومة الشعبية الجزائرية عبر العصور) منشورات المتحف المركزي للجيش، الجزائر 1984، ص ص 109-115. وفي كتاب دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر، الجزء الثاني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1988، ص ص 155 - 165.

آنذاك بالآلاف ، فهم حسب رواية نقيب الأشراف ، كانوا بمدينة الجزائر وحدها لا يقلون عن ثمانية عشر ألفاً من الأسرى منهم حوالي عشرة آلاف من الإسبان .

وقد جند الملك الإسباني لهذا الغرض جيشاً قوامه ثلاثة وعشرون ألف رجل منهم ألف فارس ، بقيادة الأميرال الإيرلندي الأصل "الكونت أوريلي" (O'Reilly) ، وجمع أسطولاً يتكون حسب الروايات الجزائرية مما لا يقل عن خمسمائة مركب ، بينما المصادر الأوربية تقدر عدد قطعه بعشرين بارجة وعشرين مدمرة وسبعة مراكب من نوع شباك ، وثلاثمائة وأربعة وأربعين باخرة شحن مزودة بمائة مدفع .

هذا وقد علم الجزائريون الذين استطاعوا قبل سنوات التصدي لهجوم الدانويين الدانمارك (عامي 1770 و1772م) مبكراً بالاستعدادات الإسبانية ، فاستنفر الداي محمد عثمان باشا ومعاونوه القوات الموجودة بالجزائر وضواحيها ، واستقدموا الفرق العسكرية من البايليكات ، ونادوا في الناس بالجهاد للدفاع عن العقيدة وحرمة الوطن ، وقد وصف تجنيد هذه القوات للمشاركة في صد الهجوم محمد بن الجيلالي بن رقية الذي عاش الأحداث في مصنفه الزهرة النائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة بقوله "إن الداي محمد عثمان باشا بعث إلى صالح باي صاحب ناحية الشرق لأنه كان ينبهه [كذا] أن لا يفارق ناحية حمزة ، بحيث يقدر أن يأتي إلى الجزائر في يومين أو ثلاثة إذا أمره بالقدوم إلى الجزائر ، وكذلك باي ناحية تيطري ، وكذلك بعث إلى خليفة ناحية الغرب ، لأن الباي كان مشتغلاً بحفظ مستغانم وأيضاً كان معترضاً بجهة وهران إذ شاع بأن اللعين أراد أن يبعث جماعة من العسكر من وهران إلى الجزائر في البر ، وربما يتمكن من إغارة ناحية تلمسان أو ناحية معسكر أو مستغانم إن لم يكن الباي هناك" .

أما القوة العسكرية الموجودة بمدينة الجزائر وضواحيها ، والتي كان عددها يقدر حسب الأرشيف الجزائري عام 1745م بـ 11897 مجنداً ، منهم 9322 قادر على المشاركة الفعلية في المعركة ، فقد كانت مقسمة إلى 424 فوجاً (أورطة أو وجاقات) مقيمين بثماني ثكنات (قشلات) داخل أسوار مدينة الجزائر ، وقد وزعوا للمشاركة في صد الهجوم على ثلاث مجموعات إحداها بقيادة حسن الخزناجي والأخرى بقيادة علي آغا

العرب ، ولكل مجموعة منهما أربعون خباء وكل خباء به ثلاثون جندياً ، بينما المجموعة الثالثة وأغلبها من جنود المدفعية والبحارة فقد أبقيت لحراسة الحصون والقلاع الواقعة بالقرب من مدينة الجزائر أو داخل القصبة والمرسى ، وتولى الإشراف على الموجود منها بتحصينات المرسى وكيل الحرج ، الذي أوكلت له مهمة إبعاد أية قوة بحرية تحاول الاقتراب من مدينة الجزائر ، وذلك باستعمال المدفعية الموجودة بتحصينات الميناء والتي تتوزع على برج البحرية أو برج فنار المجهز بمائة وثمانين مدفعاً ، وبرج السردين الذي وضعت به بطاريتان من المدافع بهما اثنان وثلاثون مدفعاً ، والبرج الجديد المعروف ببرج الزوبية الذي جدد بناءه محمد عثمان باشا عامي 1773/ 1774 ، وزوده بالعديد من المدافع هذا وقد بدأت الاستعدادات الحثيثة مع ظهور الأسطول الإسباني بخليج الجزائر في اليوم الأول من شهر جمادى الأول من عام 1189هـ ، بعد أن أخبر صاحب الناظور المكلف بمركز المراقبة ببوزريعة الداي محمد عثمان ومعاونيه بأن: "البحر كله تغطى بقلاع السفائن بحيث لم تر بتلك الناحية فوق البحر إلا القلاع" ، وفي اليوم التالي أخذت القوات الجزائرية مواقعها ، عندما رست طلائع الأسطول الأسباني بقيادة الدون بيدرو كاستيخو بساحل الحراش مع وقت صلاة الجمعة ، وفي اليوم الثالث بدأ التعرف على قوة العدو مع بداية نزول الجيش الإسباني على رمال الشاطئ الشرقي للجزائر بين وادي خنيس "العناصر" والحراش ، هذا وقد استمرت عمليات الإنزال حتى تم حشد حوالي عشرين ألف جندي على الشاطئ مع عدتهم الحربية . وقد وصف القائد الإسباني المكلف بالإشراف على عملية النزول إلى البر الأميرال مازاريدو ظروف تمركز الجيش الإسباني بالساحل المقابل لمدينة الجزائر بقوله : "بعد أن تجمعت الحملة في خليج الجزائر يوم غرة جويلية طلب مني الكونت أوريلي باعتباري قائداً للأسطول أن أنزل إلى البر مباشرة مع الأفواج الأولى من الجيش اثنتي عشرة قطعة مدفعية من عيار أربعة وأن يتبع على الفور انزال اثني عشر مدفعاً من عيار ثمانية بالإضافة إلى ثمانية مدافع من عيار إثني عشر ، وقد هبت الريح قوية يوم ثلاثة جويلية مما عاق النزول الذي كان مقرراً أن يكون في اليوم الرابع من جويلية ، ولهذا كلفت بأن أضع الخطة النهائية لنقل الجنود وتعيين السفن التي ستقوم بحمل الجنود إلى الشاطئ على أن تنزل للبر قوة قوامها سبعة آلاف وسبعمائة رجل

وتلتحق بهم بوقت قليل قوة أخرى مكونة من سبعة آلاف رجل".

وأثناء ذلك أخذت القوات الجزائرية مواقعها مستعدة للالتحام مع القوة المهاجمة، فرابطت القوة التي يقودها حسن الخزناجي في الناحية الغربية المؤدية إلى مدينة الجزائر بين وادي خنيس وعين الربط "الحامة ساحة أول ماي حالياً" أسفل مرتفعات عين الأزرق وبالقرب منها عسكر علي آغا العرب بالقرب من وادي خنيس، وعلى الشرق من ساحل الحراش نحو الجنوب استقرت قوات صالح باي بين وادي الحميز والحراش المكونة من حوالي عشرين ألف رجل، والتي كانت تضم العديد من الممتطين الخيل والجمال، وقد ورد في إحدى التقاييد المعاصرة أن عدد الجمال التي حشدها صالح باي في المعركة يبلغ 450 جملا. ومن الناحية الجنوبية الغربية تحصنت القوات التي كان يقودها مصطفى خوجة الخيل وقائد فرق الصبائحية بناحية باب الوادي تنتظر التدخل في حالة تغيير قد يطرأ على خطة العدو بتحوله إلى الجهات الغربية من مدينة الجزائر، وبالقرب من هذه القوات الاحتياطية رابطت فرق زواوة برأس كاكسين لحماية الجهات الغربية من فحص مدينة الجزائر، وإلى الجنوب نحو الغرب من موقع نزول المهاجمين كانت قوة خليفة باي الغرب تنتظر أوامر الداي للمشاركة في المعركة بينما توزعت قوات باي التطري بسهل متيجة ومنه إلى رأس تمانتفوست "البرج البحري" المقابل لوادي الحراش لتأمين مؤخرة المدافعين وإمدادهم بالمؤن والمساعدة عندما يتطلب الأمر ذلك.

وقد كان لهذه الاستعدادات المبكرة والتحصينات المتوفرة والمشاركة الفعالة لمختلف فرق الجيش وجموع المتطوعين، دور كبير في تطويق القوات الإسبانية والتضييق عليها، وإحباط مخططاتها الرامية إلى إلحاق الهزيمة بالجيش الجزائري ومحاصرة مدينة الجزائر والاستيلاء عليها، ومما ساعد الجزائريين على تطويق القوة المهاجمة بطء عملية الإنزال الإسباني على الساحل التي استغرقت أسبوعاً كاملاً نظراً للقصف الذي تعرضوا له من الجزائريين، وتمكنت أثناءه السلطات الجزائرية من استقدام التعزيزات وتجنيد المتطوعين، وقد ذكر ذلك صاحب الزهرة النائرة بقوله: " إن مكث العدو كان خيراً علينا لأن قبائل العرب كانوا يجيئون من كل ناحية إلينا " وكذلك ساعد نجاح الخطة الجزائرية تجمع الجيش الإسباني في مساحة ضيقة من الأرض

محصورة بين مرتفعات الساحل بناحية حسين داي وشاطيء البحر، ومطوقة من جميع الجهات بقوات مزودة بالمدافع ومدعمة بالفرسان رغم تحصينات الإسبان الذين بادروا منذ نزولهم بإقامة المتاريس والحواجز، ومحاولتهم المبكرة فك الحصار بالتقدم إلى البساتين الواقعة بمنحدرات الساحل بين الحراش وخنيس، واستخدامهم الأسطول في قصف تجمعات الجزائريين وإسكات مدفعيتهم، إلا أن المعركة بدأت بعد اليوم الأول تميل لصالح الجزائريين، وذلك بفعل مساهمة قوة المدفعية بحصن مرتفع خنيس، وبفضل تدخل فرسان صالح باي واشتراك مجموعة كبيرة من ممتطي الجمال في مهاجمة العدو وإحداث الهلع والخوف في صفوفه.

هذا وقد استطاعت طبانة وادي خنيس المزودة بعدة فوهات من المدافع المشرفة على تجمعات العدو والمقابلة لسفنهم الصمود أمام القصف السريع والمتواصل للسفن الإسبانية أثناء اليوم الثامن الذي تلقت فيه هذه البطارية حوالي 1500 قذيفة مدفعية، وقد حاولت أثناء تعرضها للسيل المتواصل من القذائف أن ترد على العدو، وتحدث خسائر جسيمة في سفن وتجمعات الإسبانيين بعدما استطاع المدفعي عمر برامقسيس إدارة مدفعين إلى ناحية الإسبان وإحداث ثغرة في حائط الحصن المقابل لهم مما مكنه من توجيه قذائف مباشرة إلى سفنهم وتجمعاتهم، وقد بلغ عدد القذائف الجزائرية في تلك الليلة خمسمائة طلقة في اتجاه المواقع الإسبانية تسبب في تشتيت جموعهم وإغراق بعض سفنهم مثل السفينة المهاجمة التي أغرقتها مدفعية أحمد خوجة باشدفتر.

أما تدخل فرسان صالح باي فقد حال دون اختراق الإسبان للقوات الجزائرية عبر مرتفعات الساحل، بعد أن جندوا لهذا الغرض قوة عسكرية مؤلفة من ثمانية آلاف جندي، وذلك بشنه هجوماً خاطفاً في اليوم الأول مستخدماً جميع قواته البالغة عشرين ألف فارس في المعركة على القوات الإسبانية المتقدمة مستعملاً في ذلك أعداداً كبيرة من الجمال والخيل، وقد التحقت به بعد ذلك بقية القوات التي قدرت حسب بعض الروايات الجزائرية بـ 150 ألف رجل منهم ستة آلاف تركي وثلاثة آلاف كرغلي الأمر الذي أرغم الإسبان على التراجع والالتحاق بالسفن دون محاولة تنظيم صفوفهم وجمع عتادهم تاركين أعداداً كبيرة من القتلى والجرحى وكميات ضخمة من العتاد والسلاح في ميدان

المعركة التي دامت عشرة أيام من 1 إلى 11 جويلية.

هذا وقد استكمل الإسبان انسحابهم غير المنظم والسريع في ظرف عدة أيام فغادرت آخر سفنهم خليج الجزائر في اليوم السابع من جمادى الأول عام 1184هـ، وقد تعرضت لهم السفن الجزائرية أثناء انسحابهم فأسرت منهم العديد واستولت على مغانم كثيرة في عرض البحر، بيعت في المزاد العلني بباب البستان حسب رواية نقيب الأشراف.

ومما يلاحظ أن الأميرال الإسباني مازاريدو المسؤول عن عمليات الإنزال إلى الشاطيء، حاول في تقريره السري، التقليل من وقع هذه الهزيمة عندما برر عملية الانسحاب بقوله: "وما تركنا وراءنا على الساحل إلا أربعة مدافع مشاة، وبعض قطع مدفعية عيار ثماني عشرة بالإضافة إلى تسعة عشرة رطلاً من رصاص البنادق، ورامي قذائف وبعض الأدوات، وهذه الخسائر لا تعتبر شيئاً مذكوراً بالنسبة لعدد الرجال الذين كنا سنتركهم قتلى لو انتظرنا الصباح".

لكن هذا القول تكذبه الأحداث وتنفيه نتائج المعركة فقوة الهجوم الجزائري وفعالية المدفعية وتدخل كل القوات المتواجدة في مواجهة العدو، ومهارة القادة الجزائريين أمثال صالح باي ومصطفى خوجة الخيل، ومحمد بن عثمان خليفة باي الغرب، وحنكة الداي محمد عثمان باشا المجاهد، كل هذا أرغم الإسبان على ترك عتادهم والتخلي عن أسلحتهم على أمل الوصول إلى السفن الراسية بالقرب من الساحل، تاركين في ميدان المعركة نحو مائة مدفع وجميع الآلات الحربية الأخرى مع حوالي 2800 قتيل و2080 جريحاً حسب أغلب الروايات، وإن كان هناك روايات أخرى تقدر عدد الجرحى بثلاثة آلاف وعدد القتلى النهائي بثمانية آلاف، وهذا عكس ما ذهب إليه الإسبان من أن عدد قتلاهم لم يتجاوز 191 ضابطاً و2088 جندياً بالنسبة لليوم الأول للمعركة، ولعل أقرب رقم إلى الواقع هو أربعة آلاف قتيل الذي أوردته بعض الروايات، ومما يؤكد هذا ما ذكره صاحب الزهرة النائرة من أنه: "رأى في مكتوب جاء من قرطاجنة بعد وصول الإسبان إلى بلادهم أنهم أخرجوا إلى مستشفى قرطاجنة ألفين وثلاثمائة من المجاريح والمرضى، فضاقت عليهم المستشفيات فوضعوهم في كنائسهم، والحال أن أقل من نصف العمارة توجهت إلى قرطاجنة، وأما

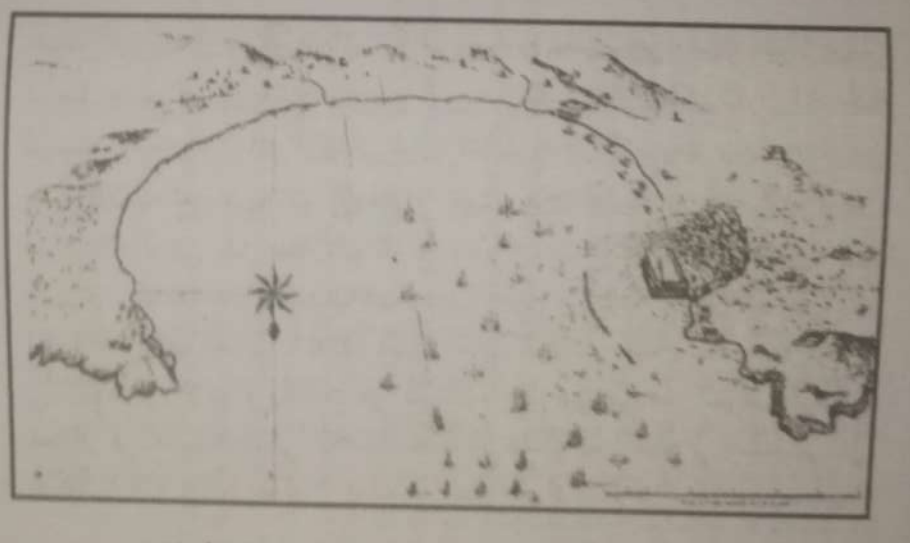
الأكثر فقد التحق بأليكانت".

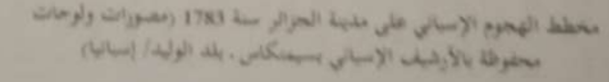
أما خسائر الجزائريين، فقد كانت ضئيلة، لم تتجاوز عند بعض المؤرخين المائتين، أما عند البعض الآخر مثل أبي رأس الناصري والمزاري فقد بلغت أربعمائة شهيد، جمعوا وجعلت لهم مقبرة بالرميلة إزاء عين الربط عرفت لدى العامة بحصن المجاهدين.

بعد هذا الانكسار، لم يجد الإسبان بداً من محاولة التوصل إلى صلح مع حكام الجزائر يحفظ لهم مصالحهم ويخفف من أثر هذا الاندحار أمام مدينة الجزائر، وعندما أصر الداي محمد عثمان باشا على ضرورة تخليهم عن وهران كشرط مسبق للتوصل معهم إلى أي اتفاق، حاولوا التوسط بالباب العالي، لكن النوايا الإسبانية التوسعية ومحاولة الملك الإسباني شارل الثالث إعادة الكرة ومهاجمة الجزائر من جديد بالاستعانة بالدويلات الإيطالية، تحت رعاية الكنيسة وبزعامة البابا بيوس السادس أدت إلى فشل محاولات الصلح، وبذلك استمرت حالة العداء بين إسبانيا والجزائر إذ حاولت إسبانيا الهجوم مرة أخرى (في شهر أوت 1783 وفي شهر جويلية 1784) وظلت الجزائر حصناً منيعاً وقلعة صامدة في الذود عن الإسلام والدفاع عن مقوماته، وقد عبر عن هذا الموقف البطولي للجزائر في العهد العثماني محمد ابن عبد الرحمن الجيلالي التلمساني في مصنفة الزهرة النائرة بقوله: "وليعرفوا قدر الجزائر، إذ تراب نواحيها معجون بدماء الكفار، اللهم أدمها دار جهاد، ومحل عزم واجتهاد يوم التناد.



مخطط الهجوم الإسباني على مدينة الجزائر سنة 1775





مخطط الهجوم الإسباني على مدينة الجزائر سنة 1783 (مصورات ولوحات محفوظة بالأرشيف الإسباني بسيمنكاس. بلد الوليد/ إسبانيا)

المصادر المعتمدة في البحث

- المدني، أحمد توفيق، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492-1792، الجزائر 1968، الفصل 27، ص ص 485-505.
- الزهار، الحاج أحمد الشريف، مذكرات نقيب أشراف الجزائر، (754-1830)، تحقيق أحمد توفيق المدني، الجزائر، 1974، ص ص 26-27 و196.
- الجيلالي، عبد الرحمن، تاريخ الجزائر العام، الجزء الثالث، دار الثقافة، بيروت، 1980، ص ص 240-248.
- بن رقية التلمساني، محمد بن محمد بن عبد الرحمن، الزهرة النائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة، تحقيق وشرح سليم بابا عمر، تاريخ وحضارة المغرب، عدد 3، سنة 1967، ص ص 25-32.
- أبو راس الناصري، عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، مخطوطة بالمكتبة الوطنية، ص ص 111-142.
- بو تار (رابح)، البدوي (حلول أحمد)، الجزائر والغزو الإسباني الفاشل، مجلة الثقافة الجزائرية، عدد 10/1972، ص ص 24/35.
- Berbrugger (A.), Expedition d'Oreilly contre Alger, 1775, in Revue africaine, T. 8-9 et 11.
- Berbrugger (A.), Traduction de documents sur l'expédition d'Oreilly, in Revue africaine, T. 18.
- Bresnier, Traduction du récit inedit de l'expédition d'Oreilly, in Revue africaine, T.
- Féraud (Ch.L.), Attaques des espagnols contre Alger au XVIIIè siècle.
- Julien (Ch.A.), Histoire de l'Afrique du nord, T. II, Paris, Payot, 1964, p. 297.
- Gaid (M.), L'Algérie sous les turcs, Tunis, 1975, pp. 163-164.
- Abi-Ayad (A.), La victorieuse Alger face à l'attaque espagnole de 1775 et ses répercussions littéraires hispano- algériennes, in Arab Historical Review for Ottoman Studies, Zaghouan, Tunisie, n° 11-12, 1995, pp. 6-29.
- Darlymple (W.), Le voyage fait en Espagne et au Portugal Paris, 1783.
- Féraud (Ch.L.), Ephémérides d'un secrétaire officiel sous la domination turque à Alger de 1775 à 1830, in Revue africaine, T. 18/1874, pp. 297-298.

المعاهدة الإسبانية الجزائرية (1206 هـ/1791 م)(*)

اتصفت العلاقات الجزائرية الإسبانية طيلة العهد العثماني بالعداء، وغلب عليها طابع التحدي، نظراً لموقف إسبانيا المعادي للنشاط البحري الجزائري وتمسكها باحتلال وهران والمرسى الكبير، فلم يوضع حد لهذه الحالة من التوتر إلا بإقرار هدنة في أواخر عهد الداي محمد عثمان باشا (1786) والتوصل بعد ذلك إلى المصادقة على معاهدة سلم وصداقة عند اعتلاء حسن باشا الداي (1791)(**).

ساعدت الأوضاع والظروف التي كانت تعيشها كل من أسبانيا والجزائر على تقريب وجهات النظر ودفع حكام البلدين إلى البحث عن اتفاق مصالحة وسلام فإسبانيا التي تعاقب على حكمها كل من فيليب الخامس (1700-1746) حفيد لويس الرابع عشر، وإبنه فردناندو السادس (1746-1759) وكارلوس الثالث (1759-1788) وكارلوس الرابع (1788-1808). وكلهم من أسرة البربون واجهت حلفا دولياً معادياً (الحلف الرباعي) وتعرضت للضغوط الإنكليزية المعادية لأي تحالف بين فرعي أسرة البوربون بفرنسا وإسبانيا. كما كان لانفصال البرتغال عنها وضياع ممتلكاتها الأوربية ببلجيكا وإيطاليا تأثير مباشر على سياستها، وهذا ما دفع كارلوس الثالث إلى السعي لتكوين تآلف مع العرش الفرنسي في نطاق الروابط العائلية لأسرة آل بوربون التي كانت تحكم إسبانيا وفرنسا، وقد تأكد هذا المسعى في عقد معاهدات العائلة المالكة (Pacts

(*) بحث قدم للمتحف المركزي للجيش الوطني الشعبي (1989) ونشر في مجلة الدراسات التاريخية لمعهد التاريخ جامعة الجزائر، عدد: 7/1993 ص ص 71-93.

(**) من الخطأ اعتبار هدنة 1786م معاهدة سلم وصداقة إذ لم يتم التوصل إلى عقد معاهدة بين الجزائر وإسبانيا إلا في وقت لاحق، ولم توقع بصفة رسمية إلا بعد موت الداي محمد عثمان باشا (12 جويلية 1791م)، وتولي قريبه بابا حسن مقاليد الحكم بالجزائر، فوقع على المعاهدة في 12 سبتمبر 1791م، وصادق عليها الملك الإسباني كارلوس الثالث بمدريد في 9 ديسمبر من نفس السنة.

(de famille في سنوات 1743 ، 1761 ، 1763 ، بغرض الدفاع عن المصالح والممتلكات الإسبانية الفرنسية والوقوف في وجه المنافسة الإنكليزية .

هذا وقد عرفت إسبانيا أثناء حكم كارلوس الثالث إصلاحات إدارية ونشاطاً اقتصادياً ساعدها على زيادة قدرتها العسكرية وبناء أسطولها البحري ، وهذا ما شجع البلاط الإسباني على انتهاج سياسة تهدف لوضع حد للنشاط البحري الجزائري وتأمين خطوط الملاحة بالحوض الغربي للمتوسط والسعي لإقامة مراكز تجارية على الشواطئ الإفريقية المقابلة للسواحل الإسبانية ، وقد بدأ هذا التوجه بإجراء أول اتصالات إسبانية جزائرية في شأن تبادل الأسرى أو افتدائهم سنة 1767 ، لكنها لم تلبث أن غيرت أسلوبها وانتهجت سياسة التهديد والضغط إزاء الجزائر ، مما أدى إلى مواجهات حربية بين البلدين ، لم يحقق الإسبان من ورائها أي مكسب ، بل ألحقت بهم خسائر جسيمة أثناء حملات سنوات 1775 و1783 و1784 .

وأثناء ذلك عرفت الجزائر ، منذ منتصف القرن الثامن عشر استقراراً سياسياً أثناء حكم الداي محمد عثمان باشا (1766-1790) ، الذي انتهج سياسة حازمة مع الدول الأوربية وعلى رأسها انكلترا وفرنسا ، فشدد الرقابة على الامتيازات الفرنسية عند تجديد هذه الامتيازات سنوات 1767 و1768 و1790 وحد من نفوذ قنصل الإنكليز الذي اضطر إلى مغادرة الجزائر 1783 ، ورفع قيمة الأتاوات السنوية للدول التي كانت تنتفع بالتبادل التجاري مع الجزائر دون أن ترتبط بمعاهدات معها مثل البندقية وهولندا والسويد والدانمارك في الوقت الذي رفض فيه أي اتفاق سلام ومصالحة مع روسيا لعدائها التقليدي للدولة العثمانية ، وأبقى العلاقات متوترة مع إسبانيا لنزعتها الصليبية وتمسكها بوهران والمرسى الكبير .

وحتى يكون لهذه السياسة التي انتهجها محمد عثمان باشا تأثير على علاقات الجزائر بالدول الأوربية ، فإن البحرية الجزائرية ، دأبت على التصدي لسفن الدول المعادية أو التي لم تكن ترتبط مع الجزائر بمعاهدات سلام وصداقة ، وقد تمكنت السفن الجزائرية بقيادة رياس بحر مشهورين أمثال الحاج سليمان وبن يونس وبن زرمان

وحميدو من الحصول على غنائم وفيرة وأسر عدد كبير من الأوربيين قدر عددهم بحوالي ثمانية عشر ألف أسير منهم ما لا يقل عن عشرة آلاف من الإسبانيين حسب رواية الشريف الزهار .

وهذا ما أدى إلى حدوث اصطدامات بحرية مع الدانمارك (1770) ومع إسبانيا التي جردت ضد الجزائر ثلاث حملات متتالية الأولى 1184هـ ، 1775م والثانية 1197هـ ، 1783م والثالثة 1198هـ ، 1784م . كانت في أساسها محاكاة وتقليداً ساذجاً واستمراراً للسياسة العدائية التي انتهجها لويس الرابع عشر الفرنسي مع الجزائر والتي كلفته غالياً دون أن يحقق من ورائها أي مكسب .

وحتى نضع العلاقة الجزائرية الإسبانية في إطارها الحقيقي فإنه يتوجب علينا الإشارة إلى هذه الحملات الإسبانية الثلاث ، فهي تعكس الجهد الذي بذله الإسبان في مواجهة الجزائر وتبرز التحدي الذي واجهته الجزائر والخسائر التي ألحقت بها من جراء تلك الهجمات ، فالحملة الأولى التي تولى قيادتها الكونت أوريلي (C.O'Reilly) سنة 1775م والتي تعرضت لها العديد من المصادر بالتفصيل والتعليق ، قد شارك فيها ما لا يقل عن ثلاثة وعشرين ألف رجل وخمسمائة سفينة من مختلف الأصناف وحشد الداي محمد عثمان باشا لمواجهتها على شواطئ وادي الحراش والحامية ما لا يقل عن خمسين ألفاً من الجنود والمتطوعين .

أما الحملة الثانية التي أوكلت قيادتها إلى الدون أنطونيو بارسيلو (A.Barcelo) فقد جند لها الإسبان ما لا يقل عن ست وسبعين سفينة وأحدثت أضراراً كبيرة بمدينة الجزائر بفعل تمكنها من إطلاق خمس وسبعين ألف قذيفة ، واجهها الجزائريون بتوجيه ما يقل عن خمسة عشر ألف قنبلة طيلة أيام الهجوم الذي استمر من الأول إلى التاسع من شهر أوت (1783) .

هذا وقد كانت الحملة الثالثة التي تولى قيادتها نفس قائد الحملة السابقة تكراراً لنفس الخطة ، فقد شاركت فيها مائة وثلاثون سفينة إسبانية من مختلف الأصناف ، وتمكنت بالفعل من توجيه 15.150 قذيفة لمدينة الجزائر وميناها أثناء تواجدها في

خليج الجزائر من 29 جويلية إلى 9 أوت (1784).

كل هذه الحملات البحرية التي كلفت الخزينة الإسبانية غالياً لم تسفر على أية مكاسب ملموسة، فلم تحقق ما كانت إسبانيا تأمله منها من إطلاق الأسرى المسيحيين والحصول على امتيازات تجارية، وضمان أمن الملاحة بالحوض الغربي للمتوسط، وذلك لتفطن الجزائريين لخططها وعملهم على تحصين مدينة الجزائر وتدعيم دفاعاتها، مع تنظيم الدفاع باستخدام فرق الإنكشارية المدربة واستقدام المتطوعين من داخل البلاد. وهذا ما دفع الحكام الإسبان إلى الاقتناع بعدم جدوى هذه السياسة المعتمدة على القوة العسكرية، بل جعلهم يقتنعون مع مرور الوقت بضرورة إقرار هدنة بغرض التوصل إلى إمضاء معاهدة سلام وصداقة مع دولة الجزائر، لا سيما وأن أوضاع إسبانيا لم تساعد على استمرار هذه السياسة المعتمدة على شن الحملات البحرية على الجزائر، فقد تعرضت إسبانيا منذ أواخر عهد كارلوس الثالث لأزمة اقتصادية، أعقبها في عهد كارلوس الرابع اضطراب سياسي زاده النزاع والتنافس بين أفراد الأسرة المالكة حدة، وهذا ما ساعد نابليون بونابرت في آخر الأمر أن يضع نهاية غير مشرفة لأسرة البربون بإسبانيا بتنصيب أخيه جوزيف على العرش الإسباني (1808)، وقد كان لهذه التطورات دخل في تحول إسبانيا من سياسة القوة والمواجهة في علاقاتها مع الجزائر إلى انتهاج أسلوب المهادنة والتصالح، وهذا ما سمح بعقد معاهدة سلم وصداقة (1791) سمحت للإسبان بالانسحاب من وهران والمرسى الكبير بشروط ملائمة حفظت لهم كرامتهم.

فبفضل هذه الظروف بدأت الاتصالات في شأن التوصل إلى اتفاق بين البلدين بعد سنتين من الحملة الأولى (1777) وتأكدت بخطابات متبادلة بين وكيل الحرج الجزائري حسن آغا، ابن أخ الداي عثمان باشا والوزير الأول الإسباني الكونت دوفلوريدا بلانكا (Le comte de Florida Blanca) وهذا ما سمح بعد فشل الحملتين الثانية والثالثة بالقيام بالمساعي الرسمية بغرض التوصل إلى اتفاق هدنة في أوائل شهر جوان 1785 من طرف مندوبين إسبانيين هما الكونت ديسبيي (Comte d'Expilly) والأميرال مازاريدو (Mazarido) وبمساعدة من القنصل الفرنسي بالجزائر دوكرسي (De Kercy) الذي حاول جاهداً تقريب وجهات النظر بين الجانبين خدمة للبلاط الإسباني المتحالف مع فرنسا.

هذا وقد تكللت هذه المفاوضات بالنجاح بعد سنة من الاتصالات والمباحثات بعد أن تمكن وكيل الحرج حسين آغا الذي كانت له اتصالات وثيقة بالإسبان، من إقناع الداي محمد عثمان باشا بحسن نوايا البلاط الإسباني وجدية العروض التي تقدم بها من أجل التوصل إلى إقرار سلام مع الجزائر، وبذلك توصل الطرفان الجزائري والإسباني إلى إقرار هدنة وإعلان حالة سلام بين البلدين في 17 شعبان 1200هـ الموافق لـ 14 جوان 1786م، والتي أصبحت سارية المفعول بعد أن وقع بنودها الداي محمد عثمان باشا باسم الجزائر، وأمضاها الكونت ديسبيي والأميرال مازاريدو قائد العمارة البحرية نيابة عن ملك إسبانيا كارلوس الثالث.

وقد جاء نص هذا الاتفاق الذي اعتبره بعض الكتاب بمثابة معاهدة على شاكلة الاتفاقيات التي اعتادت الجزائر إبرامها مع فرنسا خاصة، رغم كونه لم يكن معاهدة وإنما كان مجرد اتفاق هدنة، فقد ضمنت بنوده الخمسة والعشرون للطرفين الجزائري والإسباني حقوقاً جمركية وامتيازات تجارية وصلاحيات قنصلية وإجراءات أمنية، فالبنود: الأول والثاني والثالث والسابع عشر (1-2-3-17) أقرت حالة السلم وضمان حرية الملاحة والتبادل التجاري للطرفين مع بيان إجراءات تفتيش السفن وإمكانية التجائها إلى المرافئ الجزائرية أو الإسبانية، والحالات التي يتم فيها تعويض الخسائر عند وقوع اعتداء عليها من أي طرف عملاً بمبدإ المعاملة بالمثل.

والبندان: الرابع والثامن (4-8) نصا على إمكانية حماية سفن الطرفين داخل المرافئ أو عند مغادرتها، مع الالتزام بعدم تقديم يد العون والمساعدة للدولة المعادية لأي طرف. هذا بينما تتعلق البنود: السابع، التاسع والثامن عشر (7-9-18) برسوم الجمارك وإجراءات شحن البضائع، مع التأكيد على ضرورة حصول السفن الإسبانية التي تتعامل تجارياً مع الجزائر على رخصة لهذا النشاط وإسقاط الرسوم على السفن التي ترسو بالمرافئ دون أن تفرغ حمولتها أو تقوم بشحن أي سلع.

أما البنود العاشر والثاني عشر والرابع عشر والخامس عشر والتاسع عشر (10-12-14-15-19) فتوضح حقوق القنصل الإسباني بالجزائر إذ تخول له ما كان يتمتع به

القنصل الفرنسي من رفع العلم على مقره واختياره الترجمان والوكيل التجاري الخاص به وإعطائه حرية زيارة السفن الإسبانية بالموانئ الجزائرية مع إعفائه شخصياً من دفع جميع رسوم الجمارك وعدم تحمله وزر التجار الإسبان إلا إذ أقر بذلك كتابياً على نفسه، هذا في مقابل أن يكون لداي الجزائر الحق في تعيين من ينوب عنه بإحدى المراسي الإسبانية، واعتبار هذا النائب ممثلاً رسميا لدولة الجزائر بمملكة إسبانيا.

بينما أقرت البنود: الحادي عشر والثالث عشر والسادس عشر (11-13-16) التي أقرت حرية ممارسة الشعائر الدينية للإسبان بالجزائر وكفلت لهم حق افتداء الأسرى والتقاضي بالجزائر أمام مجلس الباشا أو ديوان الانكشارية وتنفيذ العقوبات الصادرة في حقهم في حضور القنصل الإسباني مع عدم اعتباره مسؤولاً عن رعاياه في حالة فرراهم من العدالة الجزائرية.

هذا وينص البندان العشرون والواحد والعشرون (20-21) على عدم مهاجمة وهران والمرسى الكبير والتضييق عليها من طرف الداي بالجزائر أو باي الغرب بمعسكر في مقابل امتناع الإسبان عن إرسال أي مركب قد يعتبره الطرف الجزائري عملاً عدائياً إلا بالرجوع إلى السلطات الجزائرية.

وفي الأخير تتضمن البنود: الثالث والعشرون والرابع والعشرون والخامس والعشرون (23-24-25) الإجراءات المتخذة في حالة تجدد العداء بين إسبانيا والجزائر، بحيث يكون لرعايا كل طرف مهلة ثلاثة أيام حتى يتمكنوا من تسوية أعمالهم ومغادرة البلاد، أما في حالة إقرار السلام فإن البحارة الجزائريين يمتنعون عن مهاجمة السواحل الإسبانية والبابوية، ولا يتعرضون بالأذى للشخصيات التي أسبغ عليها ملك إسبانيا حمايته، هذا مع عدم قبول التجاء العبيد أو الأسرى إلى سفن بني جلدتهم عند ترددها على السواحل أو الموانئ وذلك بالنسبة لكلا الطرفين.

وبذلك يكون هذا الاتفاق بما تضمنه من إجراءات وما نص عليه من حقوق وواجبات التزم بها الطرفان الجزائري والإسباني قد أغفل التعرض لحجر الزاوية في العلاقات الإسبانية - الجزائرية المتوترة وهو تحقيق مطلب الجزائريين في استرجاع

وهران والمرسى الكبير الذي لم تتطرق إليه بنود الاتفاق، فحتى البند الواحد والعشرون الذي أشار إلى وضعية وهران لم ينص سوى على ضرورة الامتناع عن أي هجوم قد تتعرض له وهران من طرف قوات باي الغرب، مع عدم تحمل حاكم الجزائر تبعة أي مناوشات قد يتسبب فيها العصاة أو المتطرفون من الأهالي.

وهذا ما يطرح عدة تساؤلات بل يثير بعض الشكوك حول صحة نص الاتفاق وسلامته من التحريف أو التزوير، لا سيما وأن بعض المؤرخين مثل موسيي وغرامون (Mercier, Grammont)، يؤكدون على أن اتفاق 1786 تضمن صراحة موافقة الإسبان على الانسحاب من وهران والمرسى الكبير مقابل الضمانات والتعهدات التي أعطيت لهم، وهذا ما يدفعنا إلى القول بأن الاحتمالات الواردة في شأن هذا التناقض بين ما ورد في النص الإسباني للاتفاق وما كان متعارفاً عليه يعود إما إلى كون النسخة الإسبانية قد وقع فيها تحوير أو حذف لبعض الفقرات دون الإخلال عملياً بمضمون الاتفاق باعتبار أن النص الإسباني نسخة موجهة أساساً للرأي العام الإسباني الذي كان يرى في التخلي أو الإنسحاب من وهران عملاً غير مشرف للعرش الإسباني وسلوكاً يتنافى وكرامة الإسبانيين، لا سيما وأن نداء فيليب الخامس (Philippe V) للجنود الإسبان، الذين استرجعوا وهران 1732 لا يزال صداه يتردد في البلاط الإسباني ويؤثر في رجال الكنيسة " فاسترجاع وهران حسب هذا النداء - كان بمثابة نصر مؤزر لإسبانيا والمسيحية " لأنها ظلت دوماً تحت حكم المسلمين باباً مغلقاً أمام انتشار الدين المسيحي المقدس ومنفذاً مفتوحاً لاستعباد وأسر سكان الشواطئ الإسبانية المقابلة.

أو يرجع إلى أن النص الإسباني وقعت مراجعته وتنقيحه فيما بعد عن عمد حتى لا تطرح قضية الجلاء عن وهران والمرسى الكبير، وذلك لأن الحكام الإسبان كانوا يأملون في أن المبالغ المالية الطائلة التي تعهدوا بتقديمها كفيلة بصرف حكام الجزائر عن إصرارهم على التمسك بمطلبهم المتمثل في استرجاع وهران والمرسى الكبير، هذا مع عدم استبعاد كون الإسبان كانوا ينتظرون نهاية الداي محمد عثمان باشا الذي تجاوز الثمانين من عمره وتولية ابن أخيه وكيل الحرج حسن المتهم لمطالبهم وذلك حتى يتمكنوا من عقد معاهدة بشروط مرضية.

ومما يرجح أن النيات الإسبانية لم تكن صادقة في تعهدها بالالتزام بخصوص اتفاق الهدنة لسنة 1786 ما ورد في رسالة كان قد بعث بها الداي محمد عثمان باشا إلى الكونت دي فلوريدا بلانكا مؤرخة في 9 رجب 1201 الموافق لـ 24 أفريل 1787 ، ذكر فيها أن الكونت دي سيبي قام بتغيير بعض فقرات الصلح بحيث حور ثلاثة بنود وهي البند الرابع المتعلق بالتجارة والبند العشرون الخاص بوهران والبند الخامس والعشرون الذي وردت فيه إجراءات تخص شواطئ الدولة البابوية بإيطاليا ، وقد أعرب الداي عن رأيه في هذه المراسلة بأنه يعتبر ذلك غدراً وخيانة من دي سيبي وأنه من الضروري إعادة العمل بهذه البنود حسب نصها الأصلي مؤكداً رفضه لأي تحوير وعدم قبوله إطلاقاً بتفسير البند الأخير أي الخامس والعشرون لأن حرمة المراكب الإسبانية حسب نص الاتفاق الأصلي مقيدة بمسافة رمي مدفع من الشواطئ الإسبانية أما غيرها من الشواطئ فلا دخل للإسبان فيها ولا يحكمها عقد صلح بين البلدين.

هذا وبغض النظر عن هذه التساؤلات التي تظل مطروحة ، فإن اتفاق الهدنة لعام 1786 قد وضع أسس تفاهم جزائري - إسباني بتصفية الخلافات المالية المترتبة عن الخسائر التي ألحقتها الحملات الإسبانية بالجزائر وقد كفلت للجزائر مبلغاً مالياً معتبراً أشار إليه نقيب الأشراف الشريف الزهار بقوله : "... ودفع الإسبانيول ثمن الصلح وغرامة مائة سنة سلفاً ... وقد تعمرت بذلك المال الخزينة الأولى والثانية ووضعوا في الثالثة هذا خلاف ما دفع عن الأسرى لأهل البلاد" كما ذكره أبو راس الناصري بقوله : "ثم جاؤوا (أي : الإسبان) طالبين الصلح في الحال ، باذلين القناطير من الأموال يدفعونها ... لما أيسوا من الظفر".

وبهذا تكون هدنة عام 1786 عبارة عن خطوة ممهدة للوصول إلى إقرار معاهدة بين إسبانيا والجزائر ، وهذا ما يبرزها في شكل عملية مقايضة للمال الإسباني مقابل التسهيلات الجزائرية ، ومما يؤكد هذه الصفة التي اتخذها اتفاق الهدنة تلك المفاوضات والمواقف التي أحاطت بها ، فقد كان أعضاء الديوان في أول الأمر يطالبون بتعويض إجمالي يقدر بثلاثة ملايين قرش إسباني ، فيما لم يلتزم المندوب الإسباني إلا بدفع 400 ألف سكة جزائرية أي ما يعادل أربعة ملايين جنيه تورنوا ، وبعد أخذ ورد ، اتفق

الطرفان على تحديد مبلغ التعويضات بمليون قرش إسباني مع الهدايا القنصلية التي ترك أمر تحديدها إلى وقت لاحق حيث انتهى الاتفاق بشأنها إلى رفعها إلى 800 .291 قرش إسباني يكون نصيب الداي منها 60 ألف قرش والباقي لموظفي الدولة حسب رتبهم واستحقاقهم ابتداءاً من خوجة الخيل الذي صرفت له 20 ألف قرش.

على أن تحول الموقف الإسباني في السنوات التالية من التشبث باتفاق تجاري وامتيازات قنصلية إلى التسليم بمطلب الجزائريين المتمثل في الانسحاب من وهران والمرسى الكبير ، يعود إلى عوامل مساعدة وأسباب مباشرة منها :

1) محاصرة وهران والمرسى الكبير وتضييق الخناق عليهما ومهاجمتها من طرف الباي محمد الكبير (1790-1798) الذي سبق له مهاجمة وهران سنتي 1780 و1784 قبل أن يعسكر بالقرب منها ويفرض عليها الحصار لعدة شهور من 13 صفر 1205 (22 أكتوبر 1790) إلى أول محرم 1206هـ (31 أكتوبر 1791) وأثناء هذا الحصار هاجم محمد الكبير حصون وهران بقوة تناهز الخمسة آلاف مقاتل منهم 500 من الطلبة ، وبادر إلى قطع الماء عنها قبل أن يلتحم في اشتباكات دامية مع الحامية الإسبانية بلغت أوجها في شهري رمضان وذو القعدة 1205هـ (ماي وجويلية من عام 1791) ، وقد وصف هذه الجهود الحربية محمد بن يوسف الزياني بقوله : "ودام حصاره (أي الباي) لها (أي لوهران) بالقتل الصادر منه ومن جنوده وشدة صواعقه ومدافعه وكوره وباروده إلى أن فتحها بقتاله".

2) النفقات الباهضة التي كان يتوجب على إسبانيا صرفها على الفرق العسكرية بوهران والمرسى الكبير ، فالحامية الإسبانية المرابطة بهذه الحصون كانت تقدر بحوالي أربعة آلاف رجل أي : ثماني فرق من المشاة وكتيبة واحدة من الفرسان تتطلب نفقات لا تقل عن أربعة ملايين دورو سنوياً ، أصبح من الضروري زيادتها بعد أن امتنعت القبائل الحليفة للإسبان المقيمة بالقرب من وهران عن دفع الغرامة المفروضة عليها " الرومية " بعد أن تعرضت للضغط من طرف البايليك إثر انكسار الإسبان بالجزائر عام 1775م .

3) الآثار المدمرة التي أحدثها الزلزال الذي ضرب وهران ونواحيها ليلة 8-9 أكتوبر 1789 واستمرت هزاته العنيفة إلى 22 فيفري بعد أن ضرب بشدة مرة ثانية يوم 6

جانفي 1790 ، وقد تسبب هذا الزلزال في خراب وهران وهلاك ما بين 2000 إلى 3000 شخص بين الأنقاض بعضهم من جنود الحامية الإسبانية وفي مقدمتهم الحاكم العام الإسباني لوهران بالنيابة دون نيكولا غارسيا فضلاً عن تلف واحتراق بعض السفن الراسية بوهران والمرسى الكبير وتدمير القصبة والقسم الأعلى من المدينة ، هذا ومن الملاحظ أن بعض الكتاب الأوربيين مثل روني لسبس (René Lèspes) ذهبوا إلى القول بأن هذا الزلزال قد قرر مصير وهران ، مرددين بذلك الروايات الأوربية العديدة التي دأبت على تفسير الهزائم الأوروبية أمام الجزائر في العهد العثماني منذ حملة شارلكان عام 1541م وحتى الهجوم الإسباني 1775 بعوامل طبيعية من عواصف وزلازل وغيرها دون الأخذ بعين الاعتبار قوة الجزائر العسكرية وكفاءة جيشها القتالية . وهذا ما يدفعنا إلى اعتبار زلزال وهران عاملاً ثانوياً وليس رئيسياً لأن ما أرغم الإسبان على الانسحاب هو في واقع الأمر جهود حكومة الجزائر العسكرية وضغطها الديبلوماسي والسياسي ، فالزلزال في الحقيقة كان عاملاً مشجعاً للجزائريين على مواصلة حصار وهران والتضييق على الإسبان بها ، وهذا ما أشار إليه أحمد بن سحنون الراشدي بقوله : "وكان السبب في شروع هذا القتال بسرعة هو المصيبة الكبرى التي أصابت وهران وفتنذ بالزلزلة التي خربت جلّ البلاد ومات بها خلق كبير" .

4) تأزم الأوضاع بإسبانيا بفعل التنافس داخل أسرة البوربون وسقوط فرع الأسرة بفرنسا نتيجة الثورة الفرنسية (1789) ثم دخول إسبانيا في دوامة الصراع القاتل بين فرنسا وانكلترا والذي لم ينته إلا بانتهاء حكم البربون بمدريد وتولي نابليون بونابرت التصرف في مقدرات إسبانيا (1808) كما سبقت الإشارة إلى ذلك .

هذا وقد كان الإسبان بتشجيع من البلاط الفرنسي يأملون في مبادلة وهران والمرسى الكبير بقلعة جبل طارق التي احتلها الانكليز في حرب الخلافة الإسبانية عام 1704م ، ولم يستطيعوا استرجاعها في معاهدة فرساي لعام 1783م ، لكن عداء الانكليز وإلحاقهم الهزيمة بالجيش الإسباني في معركة وادي آش حال دون تحقيق هذه المقايضة على حساب الجزائر .

5) اقتناع الحكام الإسبان بأن اتفاق الهدنة لعام 1786م لم يحقق الهدف المرجو منه ، فرغم المبالغ المالية التي تعهدوا بدفعها ، ظلت المطالب الجزائرية قائمة بشأن وهران والمرسى الكبير ، مما حال دون ضمان حالة السلم وإقامة تبادل تجاري في الوقت الذي انتهج فيه البلاط الإسباني سياسة تعايش سلمي بالمتوسط أدت إلى عقد معاهدات مع بعض الدول الإسلامية : مثل المغرب العلوي 1780 والدولة العثمانية 1782 وباشوية طرابلس الغرب 1784 . فلم تبق سوى الجزائر وتونس مما دفع الديبلوماسية الإسبانية إلى العمل على استكمال هذه المعاهدات مع الجزائر 1791 بعد أن لم تكن لشكوى السفيرين الإسباني والفرنسي من تصرفات الجزائر لدى الباب العالي أي تأثير على داي الجزائر ، ولم تسفر وساطة ملك المغرب محمد بن عبد الله عن أي نتيجة .

وهذا ما جعل الديبلوماسية الإسبانية تسعى جاهدة لاستكمال هذه السلسلة من الاتفاقيات السلمية بإمضاء معاهدة مع الجزائر 1791 ثم مع تونس في نفس السنة ، وذلك حتى تتفرغ لمواجهة القضايا الأوربية وفي مقدمتها الصراع الإنكليزي الفرنسي الذي أصبح يهدد وجود الدولة الإسبانية ذاتها .

6) وجود شخصيات جزائرية في الحكم متحمسة للتوصل إلى إقرار معاهدة سلام كفيلة بتوفير مبالغ مالية كانت الخزينة الجزائرية في حاجة إليها ، وتضمن للموظفين السامين بالدولة مكاسب مادية معتبرة . هذا وقد كان في طليعة هذه الشخصيات وكيل الحرج حسن ابن أخ الداي عثمان باشا الذي ظلت تربطه علاقة وطيدة بالحكام الإسبان منذ أن أسره الإسبان وأطلقوا سراحه في 23 ماي 1776م بمساع من القنصل الفرنسي بمدريد وتدخل من ملك فرنسا الملك لويس السادس عشر ، فقد عمل وكيل الحرج هذا كل ما في وسعه على إقناع الداي محمد عثمان باشا بجدية المساعي الإسبانية ومدى الفائدة التي يحققها أي اتفاق مع الحكومة الإسبانية . ومما يؤكد هذا تلك المراسلات الكثيرة لوكيل الحرج حسن مع الحكام الإسبان ، وفي مقدمتهم بازليني الذي تسبب في أسره ورافقه عند عودته إلى الجزائر والتي بلغ عددها ستة عشر رسالة .

وهذا ما دفع بعض الكتاب إلى القول بأن الإسبان قد نجحوا في استدراج وكيل

الحرج حسن لتبني وجهة نظرهم عن طريق الهدايا والترضيات، ومما لا شك فيه أن هذه المساعي كان لها دخل في انتهاج الداي محمد عثمان باشا في آخر عهده سياسة تهدف إلى وضع حد لحالة العداء مع بعض الدول الأوربية وفي مقدمتها إسبانيا .

هذا وقد أدت هذه الظروف المساعدة والعوامل المؤثرة في آخر الأمر إلى إجراء اتصالات رسمية بين إسبانيا والجزائر في شهر أفريل 1791 أسفرت عن إقرار صيغة معاهدة سلام وصداقة في تسعة بنود (فصول) على شاكلة المعاهدات التي ارتبطت بها الجزائر مع كل من انكلترا وفرنسا، في 12 سبتمبر 1791، وتم إبرامها نهائياً في 9 ديسمبر 1791 من طرف داي الجزائر حسن باشا والقائم بالأعمال وممثل قنصلية ملك إسبانيا بالجزائر الدون مكاييل دولاريا ودخلت حيز التنفيذ الفعلي برفع الحصار الجزائري عن الحامية الإسبانية بوهران في أول محرم 1206 الموافق لـ 1 سبتمبر 1791 والانسحاب النهائي من وهران في 3 رجب 1206هـ الموافق لـ 24 فيفري 1792 .

أما مضمون بنود هذه المعاهدة فهي حسب النص العثماني الذي نقدم له ترجمة عربية أثبتناها في نهاية هذه الدراسة مع النص العثماني، يمكن تلخيصها في خمس نقاط رئيسية موزعة على تسعة فصول أو بنود وهي :

1 . الانسحاب من وهران والمرسى الكبير الذي ينص عليه البند الأول .

2 . إجراءات تنفيذ الانسحاب من وهران والمرسى الكبير : الذي تطرق إليها البند الثاني حيث أعطى للإسبان مهلة يتمكنون خلالها من إزالة ما أحدثوه من بناء وتحصينات بوهران منذ عودتهم إليها سنة 1732 مع السماح لهم بسحب العتاد الحربي .

3 . الامتيازات التجارية والجمركية والحقوق القنصلية الواردة في البنود: الثاني والثالث والخامس والسادس والسابع والتي أعطت لإسبانيا حق بناء مؤسسة تجارية قرب المرسى الكبير وسمحت لها بشراء المواد الأولية (من حبوب وشمع وصوف وعسل) مع احتكار صيد المرجان بالسواحل الغربية مثل ما كان للفرنسيين على السواحل الشرقية .

4 . الضمانات والحقوق المترتبة عن الامتيازات الممنوحة للإسبان التي أشير إليها في البنود: الرابع والثامن والتاسع والتي أصبح الإسبان بمقتضاها يتمتعون بتخفيضات

جمركية مقابل مبالغ مالية (إتاوات) وهدايا قنصلية، وأعطى للسفن التجارية الإسبانية حق الرسو بميناء حصن المرسى الكبير دون غيرهم مقابل رسم محدد بـ 56 ريالاً (أي : حوالي 63 فرنكاً) .

5 . أما النقطة الخامسة والأخيرة فهي تتصل بالواجبات المترتبة على الإسبان مقابل الامتيازات التي حصلوا عليها . وقد أكد البند السادس خاصة هذه الالتزامات بحيث أصبح يتوجب على الخزينة الإسبانية دفع مبلغ مالي سنوي لحكومة الجزائر يقدر بـ 120 ألف جنيه مقابل الامتيازات والحقوق السالفة .

ومما يلاحظ أن بنود هذه المعاهدة لم تنص على بعض الإجراءات المتفق عليها مثل ضرورة إرجاع كل ما استحوذ عليه الإسبان بوهران والمرسى الكبير من عتاد ومؤن عند استيلائهم عليهما سنة 1732م . وضمان حق الإسبان في إنشاء مركز تجاري لهم بالمرسى الكبير، فقد تقاعس الطرفان الإسباني والجزائري على الالتزام بتنفيذ هذه الشروط والإيفاء بهذه الالتزامات، فالإسبان لم يرجعوا ما أخذوه إلى قرطاجنة من عتاد ومؤن، كما تنص المعاهدة، وهو 138 مدفعاً منها 87 من البرونز و51 من الحديد بالإضافة إلى 7 مهاريس (Mortiers) وكمية كبيرة من العتاد والزاد منها 5 سفن من نوع بريفانتان (Brigantins) وسفينة واحدة من نوع الغليوطة (Galiote) وجدوها بمياه المرسى الكبير عند احتلالهم له سنة 1732م .

هذا وقد قام الإسبان، كذلك بتخريب عدة تحصينات ومباني بوهران والمرسى الكبير بحجة أنها قد استحدثت بعد رجوعهم سنة 1732 وقد ذكر ذلك محمد بن يوسف بقوله "ولما اصطلح الأمير محمد بن عثمان مع نصارى وهران على رفع القتال عنهم ويخرجون منها صاروا يخربون بنيانها بالألغام نكاية بالمسلمين" . وبفعل هذه الأعمال التخريبية اضطر محمد الكبير عند دخوله وهران إلى الإقامة بالحصن الجديد بعد أن لم يبق إلا القليل من بنايات المدينة قائماً، فأعالي المدينة والقصبة قد تضررت بالزلازل وباقي الحصون والمنشآت هدمت من طرف الإسبان .

أما الجانب الجزائري فلم تصدر منه أي مبادرة تنم عن رغبته في تنفيذ تلك

الالتزامات المتعلقة بالجمارك والتجارة إذ تركت حرية التصرف في ذلك للإسبان الذين لم يستطيعوا الوقوف في وجه المنافسة الإنكليزية فلم يتمكنوا من إنشاء مركز تجاري خاص بهم بنواحي المرسى الكبير ، بل اتخذوا من هذا الامتياز ذريعة لهم عندما استولوا على الجزر الصخرية المعروفة بالزفارين (Zaffarine) عند مصب نهر الملوية سنة 1848 ، مدعين أن احتلالهم لهذه النتوءات ما هو إلا تطبيق لإحدى بنود معاهدة 1791 .

هذا ومما يلاحظ أن الأسر الإسبانية التي بقيت بوهران والتي كان عددها يتراوح بين 70 و80 أسرة وكان من المفروض أن تنتفع بتلك الامتيازات ، لم تلبث أن فضلت العودة إلى إسبانيا على ممارسة أي نشاط تجاري بوهران .

وعلى كل فإن هذه المعاهدة (1791) سمحت بإلغاء بنود اتفاق الهدنة لعام 1786 التي وقع في شأنها الخلاف وسمحت بتحويل حالة السلم المؤقت بين الجزائر وإسبانيا إلى علاقة صداقة وتعامل تجاري لفائدة الطرفين بعد أن عوضت إسبانيا الخسائر التي ألحقتها بالجزائر . وهذا ما جعل مبلغ التعويضات الإسبانية للجزائر يشكل ثلثي المبالغ المالية الإجمالية التي ترتبت على الخزينة الإسبانية مقابل معاهدات السلام مع الدول الإسلامية ما بين سنتي 1780- 1790 والمقدرة بـ 491 .590 .50 ريال إذ كان نصيب الجزائر منها 977 .258 .35 ريال .

وهذا ما يسمح لنا بالقول بأن معاهدة السلام والصداقة الإسبانية الجزائرية لعام 1791 قد وضعت حداً لحالة التوتر والعداء بين البلدين استمرت منذ سقوط غرناطة ونزوح اللاجئين من الأندلس إلى السواحل الجزائرية ولم تنته إلا بانسحاب آخر جندي إسباني من وهران والمرسى الكبير بعد احتلال عسكري دام 260 سنة عند رفع العلم الجزائري على قلاع وهران وحصن المرسى الكبير وسارت مواكب النصر عبر أبواب وهران يتقدمها محمد الكبير باي الغرب الذي وصفه محمد بن يوسف الزياني بقوله : "ودخلها في ذلك اليوم المبارك وأناخ بها رحله ولا له فيها شريك" . وبذلك وضع الفصل الختامي للملحمة العدائية بين إسبانيا والجزائر والتي أطلق عليها اسم حرب الثلاثمائة سنة (1492-1792) لارتباطها بالصراع الحضاري بين عالمي المسيحية والإسلام .

نص المعاهدة باللغة العثمانية

حق سبحانه وتعالى حضر تلرنيك عون وعنايتي بر له السويك ايكيوز الي سنه سنك ماه محرم الحرامنك ، ابتدا سنده قلعة وهران خصوصي وشروط معقود لري ايجون واسطة أولان طرف مزده مقيم اسبانية بادشاهي ، دور تنجي دو تفرلوس حضر تلرنيك قونصو لوسي وكيلي ومصلحت كزاري أولان دو نميكيل ده لاريا ، وساطتيله مكالمة ومعاهده لر لنمشدر غفلت اولميه .

فصل أول

الشوبيك ايكيوز التي سنه سي ماه محرم الحرامنك ابتدا سنده دولتلو لوحسن باشا افند يمز جزاير ولا يتنه متصرف أولد قده اسبانية بادشاهى حضر تلرنيك مراطري أوزره شول وهران قلعة سي كي سابقا جزاير حكمنده ايدي شمدي كندي يد تصر فنده در كندي حسن رضا سي واختيار يله ودولتلو حسن باشا أفند يمزه تخليه وترك أيدوب اندن وازكجر .

فصل ثاني

ودخى مزبور قلعة وهرانده اسبانية بادشاهينك يد تصرفنه كجدكدن صكرة تقدركه أحداث وبنا ايلد وكى بور جلرى هدم ايدوب وكند وقورد قلرى طوب قوتياده لرتقدر واوايسة جمله سنى قلدوروب ما عدا اول تقد راية كه دولتلوحسن باشا أفند يمزه حسن رضا لر يله هدية وير يلجدكر نقل ايدنجه ومذكوره هرشيدن بوش ايدوب تفريغ ايلينجة يه دكين اول طرفده نه عربلردن ونه عجملردن هيج بركمسنه قلعه مزبوره اوزرينة وارسيه لروا يجر وسنه كيرميه لروكيرميه إذن ويرميه .

فصل ثالث

ودخی اسبانية بادشهاهي حضر تلری حسن باشا أفند يمزك خطری ايجون ليمان بورجني وهران قلعه سي كبي ترك أيدوب اندن وازكجراول شرط ايله كه حسن باشا أفند يمزامريله وطن بكی مزبور ليمانده وياخود وهران قلعه سنده اسبانيو للرين مراد لرينه كلوة برقاج مخزن واسبانيول بازر كانلرينه يكيدن براوينا ايدرتاكه بازركانلر انده اولوب ووهرانده بيع وشرا ايدوب تجارت ايتد كلرنده ساكن واقامت ايده لر .

فصل رابع

ودخی جزاير محروسة نيك دايسي ووالبسی أولانه دولتلو اسبانية باد شاهي حضرتلرنيك كندي حسن اختياري ورضا سيله مزبور وهران وليمان بور جينك قلعه لريني يه جزاير مملكته ردّ ايلدوكي مقابله سنده وهران وليمان بورجنيك قلعه لرنده أولان بيع وشرا اتمكي يالكز اسبانيول طائفة سنة تخصيص أولنوب مزبور قلعه لرده بو غداي واريه وبقله ونخوذ وقيون وصغير وسائر اشيا لرموم ودری وصوف بازار ايدوب صاتون اله بيلورلروغيري جنس طائفة لردن بركمسنه مزبور محللرده نه بيع ونه شرا اتمكه براقميوب اذن ويرميه وهيج بروجهله اليش وريش اتميه .

فصل خامس

ودخی وطن بكی بهر سنه ده دار الكريميه ويره كلد وكی اون بيك او لجوك بو غداي ويوز قنطار بال مومی كه افندمز مزهركمبه دلرسه بيع ايدر باشا أفند يمز اقرار ايدره بهر عام صاتمق زماني كلد كده اسبا نيوللّره اعلام ايدوب ويرور اكر انلر المق استيوب وغير يلرين ويردوكی بهائي ويرور لرايسه انلر فرخت ايدوب بشقه لره بيع ايتميه واكر اخر لرانلردن زياده ويروب وانلر آخرون زيادة ايتمز لرايسه آخره بيع أو النور .

فصل سادس

ودخی جونكی ايكی طرفينك اتفا قلريله مناسب وموافق كورلدي كله عوائد كمرك ويدعتلرين مقابله سنده اسبانيول تجار لرينه بر مقدار مبلغ معين تعيين اولنه تحول وقرار او لديكی اسبانيول تجار لری بهرايده دار الكريميه بيك جزائر التونی ويره لرومزبور وهران وليمان بور جنك قلعة لرنده سائر صاتون الدقلری واخراج ايلد كلری مال ومتاع وارزاقلره قطعاً هيج عوائد كمرك ونه يدعت ويرميوب انلردن طلب اولنمية وويرمكه ابرام والزام ايملميه لرو بوندن ما عدا باشا أفند يمز دخی بهر سنه ده انلره اون بيك اولجك بوغدای قلدورن سفاينلر دن ما عداء معتاد اوزره يتمور اقجه سی اللی ريال اوفق ويريلوركه التي جزاير التونی وبر ريال اوفق ايدر مزبور اون بيك اولجك بيع اولندوغی وجه اوزره الورلر .

فصل سابع

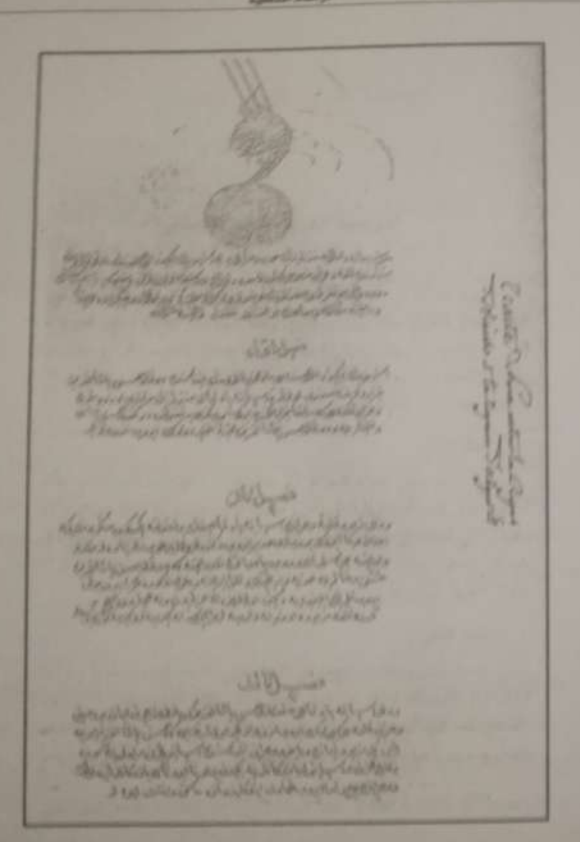
ودخی بوكندن صكره اسبانيول سفا ينلری كرك حرب وكرك بازر كان كميلری بزم ليما نلر يمزه حين احتيا جلرنده صائع واذ نسز كيروب جقالر وعهد يمان قد يمده بلا اذن كير ميه لر ديويكرمی ايكنجی فصل ده بيان وشرح اولنان كلام شمديدن صكره بطال وشروط مزبورة دن مرفوع وموجبنجة عمل اولنمز .

فصل ثامن

ودخی أول مد تده كه آز اولمسيله الدن كلدوكی قدر سعی وجهد اولنوب تاكه وهران وليمان بورجينك قلعه لرنده هراشيا وامتعه لری نقل وبوشالدوب تفريغ اولور بوزمان مدتين ايجينده طشردن بركمسنه مانع ومزاحيم اولميوب وتجاوز لك كوسترميه ديو تاكيد وتنبيه اولنور .

فصل تاسع

ودخى اورده لرده يعني وهران وليمان بور جينك قلعه لرنده مقيم اولان اسبانيول تجارى وطائفه لرينه بلا وجه شرعيٍّ بركمسنه رنجيده ورميده ايتميوب كرك سمتلرده وكرك بشقه ليمانلر يمزده بلا سبب انلره بركمسنه رنجيده وجور ومعتدى اتميه.



المعاهدة الجزائرية "الإسبانية" 1206هـ 1791م: النسخة الأصلية (العثمانية) "المحفوظة بأرشيف بلد الوليد بإسبانيا"

الترجمة العربية للنص العثماني (*)

بعون وعناية من الله سبحانه وتعالى ، تم التفاوض وعقدت معاهدة في أوائل شهر محرم الحرام سنة ألف ومائتين وستة (سبتمبر 1791) مع الدون مكاييل دولاريا القائم بالأعمال وممثل قنصلية سعادة الدون كارلوس الرابع ملك إسبانيا ، ونظراً لإقامته بيننا ووساطته في القضايا المتعلقة بقلعة وهران والشروط المحددة بشأنها ، فإنه يتعين الأخذ بما يلي :

البند الأول

في بداية شهر محرم الحرام من عام ألف ومائتين وستة ، تحت حكم دولة أفندينا حسن باشا أمير ولاية الجزائر ، وطبقاً لرغبات سعادة ملك إسبانيا ، فإن قلعة وهران التي كانت في السابق تحت حكم الجزائر والتي هي الآن في حوزة إسبانيا ، يتم الانسحاب منها وتركها عن رغبة واختيار من ملك إسبانيا وذلك بدافع الصداقة لدولة أفندينا حسن باشا .

البند الثاني

إن الإسبانيين سيقومون بهدم كل الأبراج التي أقاموها أو بنوها بقلعة وهران السالفة الذكر منذ الاستيلاء عليها من طرف ملك إسبانيا (1732) وسوف يأخذون منها كل المدافع ومدافع الهاون " المهاريس " التي كانوا قد نصبوها بها ، باستثناء ما سوف يقدمونه منها برغبة من ملك إسبانيا كهدية لدولة حسن باشا ، هذا ومنذ قيامهم بنقل ذلك وحتى يتمكنوا من الانتهاء من إخلاء المدينة من كل تلك الأشياء ، فإنه لا يسمح لأي عربي أو

(*) لقد تمت الترجمة في إطار الدروس التي كنت أتلقاها في اللغة التركية من الأستاذ برنار كابورال بجامعة الجزائر (1979م) ، واستعنت في تصحيح بعض بنودها بالزميلتين بمعهد التاريخ لجامعة الجزائر ، أ. زكية زهرة وأ . نعيمة بوحمشوش ، فإليهما وللأستاذ كابورال شكري وتقديري.

أجنبي الاقتراب أو الدخول لقلعة وهران السالفة الذكر، كما لا يعطى لهم إذن بذلك.

البند الثالث

نزولاً عند رغبة أفندينا حسن باشا فإن ملك إسبانيا سوف يترك المرسى الكبير كما فعل بالنسبة لقلعة وهران ويتخلى عنها بشرط أن يشيد في المرسى الكبير وقلعة وهران بأمر من أفندينا حسن باشا أمير وطن الجزائر وحسب رغبة الإسبانيين بعض المخازن والمساكن لإقامة التجار الإسبان، وذلك حتى يتمكنوا من القيام بعمليات البيع والشراء وحتى يستطيعوا السكن والإقامة بهما.

البند الرابع

إن داي الجزائر المحروسة يمنح مقابل استرجاع وهران والمرسى الكبير باختيار ورضا سعادة ملك إسبانيا لطائفة الإسبان بيع وشراء القمح والشعير والفول والحمص والغنم والأبقار ومنتوجات أخرى كالشمع والجلد والصوف، وأن داي الجزائر لا يسمح لأي شخص من الطوائف الأخرى (من غير الإسبان) بالتجارة ولا لأي سفينة أن تقوم بالشحن والتفريغ في الأماكن المذكورة سلفاً.

البند الخامس

على باي الوطن " باي الغرب " أن يوفر للدار الكريمية 10.000 قية (*) قمح و100 قنطار عسل كما أشير إلى ذلك سلفاً كما له الحق في بيعها بموافقة الباشا لمن يراه مناسباً وعندما يحل فصل التجارة من كل سنة فإن الباي يعلم الإسبانيين بذلك، فإن أرادوا الشراء ورغبوا فيه فستكون لهم الأفضلية إن عرضوا سعراً يساوي ما قدمه غيرهم، فإذا قدم غيرهم سعراً أكثر كانت التجارة من نصيب هؤلاء الآخرين من غير الإسبان.

(*) قية أو كيلة وهي أولجك (ölçek) التي تعني باللغة التركية مقياس أو مكيال.

البند السادس

اتفق الطرفان (الجزائري والإسباني) على تعويض عوائد الجمارك والرسوم المستحدثة بفرض قيمة معينة على التجار الإسبانيين، بحيث يدفعون مبلغاً معيناً كل سنة للدار الكريمة يقدر بـ 1.000 قطعة ذهب جزائري عندما يقومون بالشراء في قلعة وهران والمرسى الكبير، مع عدم إلزامهم عند المغادرة بدفع أي ضريبة أو رسم مستحدث على الأموال والأرزاق والمتاع، إضافة إلى أن أفندينا الباشا سيبيع لهم 10.000 أوقية قمح سنوياً. وأن السفن التي تأتي لنقل هذه الحمولة المشار إليها، تعفى من دفع المبلغ المالي المتوجب على غيرها من السفن والمقدر بخمسين ريال صغير أو ما يقدر بست قطع ذهبية جزائرية وريال واحد، هذا وعندما يتم بيع هذه الحمولة المقدرة بـ 10 آلاف أوقية في السوق بدون تدخل من باي الوطن فإن التجار الإسبانيين سوف يشترونها بنفس الطريقة.

البند السابع

ابتداءً من هذا اليوم فإن سفن الإسبانيين سواء الحربية منها أو التجارية يحق لها أن تدخل إلى موانئنا أو تغادرها بلا ترخيص وبدون إذن عندما تضطر إلى ذلك، هذا وأن الشروط المتعلقة بحالة دخول هذه السفن بلا إذن الواردة في الفصل الثاني والعشرين من المعاهدة القديمة (1786) تعتبر ملغاة ولا يجري العمل بها.

البند الثامن

أثناء هذه المدة القصيرة يجب السعي لنقل الأموال والأمتعة وإخلاء وهران والمرسى الكبير في الفترة الفاصلة بين تاريخ الاتفاق ويوم الانسحاب، بحيث لا يتعرض الإسبان للمزاحمة أو يمنعوا من القيام بمهمتهم مع التأكيد على عدم السماح بأي تجاوز في هذا الشأن.

البند التاسع

ينبغي عدم التعرض للتجار الإسبان المقيمين هنا (أي وهران والمرسى الكبير) بأي أذى بغير وجه شرعي ، كما لا يجب المساس بتجارتهم وينطبق ذلك حتى على الجهات والمواقع الأخرى من الجزائر بحيث يكونون في مأمن من الجور والاعتداء بلا سبب أو مبرر من أي طرف كان .

المصادر والمراجع المعتمدة

أ ـ العربية:

- ابن سحنون الراشدي ، أحمد بن محمد ، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني ، تحقيق وتقديم المهدي البوعبدلي ، قسنطينة ، مطبعة البعث ، 1973 .
- أبو راس الناصري ، عجائب الأسفار ولطائف الأخبار ، مخطوط محفوظ بالمكتبة الوطنية .
- إيبالزا ، ميكال دي ، معاهدة السلم الأولى الإسبانية الليبية المعقودة في 1784م-1198هـ ، طرابلس ، منشورات مركز جهاد الليبيين ، 1980 .
- بوعزيز ، يحيى ، مفاوضات السلم بين الجزائر وإسبانيا من خلال الداي محمد عثمان باشا ، مجلة أوراق ، مدريد ، عدد 7-8-1985 ، ص ص 75-89 .
- بلحميسي ، مولاي ، صفحات من تاريخ العلاقات الجزائرية الإسبانية ، معاهدة 1786 بين الجزائر وإسبانيا ، مجلة تاريخ وحضارة المغرب ، الجزائر ، العدد 11-1974 ، ص ص 5-22 .
- الزهار ، الحاج أحمد الشريف ، مذكرات نقيب أشراف الجزائر 1754-1830 ، تحقيق ونشر أحمد توفيق المدني ، الجزائر ، 1974 .
- سعيدوني ، ناصر الدين ، الهجوم الإسباني على الجزائر عام 1775-1189 (معركة الحراش) ، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر ، الفترة الحديثة والمعاصرة الجزء الثاني ، الجزائر ، 1988 .
- المدني ، أحمد توفيق ، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492-1792 ، الجزائر ، 1968 ، ص ص 523-527 .
- مسلم ، بن عبد القادر الوهراني ، أنيس الغريب والمسافر في طرائف الحكايات والنوادر ، تحقيق ونشر رابح بونار ، الجزائر ، 1974 .
- المشرفي ، عبد القادر الجزائري ، بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإسبانيين بوهران من الأعراب كبني عامر ، تحقيق وتقديم محمد بن عبد الكريم ، بيروت ، مكتبة الحياة ، د.ت .

ب ـ الأجنبية:

- Archive historique national de Madrid Sec. Étado., les 3370, Carpeta-3.
- Cazenave (J.), Les gouverneurs d'Oran pendant l'occupation espagnole de cette ville, 1509-1792, in Revue africaine, T. 71, 1930, pp 257-299.
- Epalza (M. de), de Notice d'un fonds de lettres officielles algériennes à Madrid, fin XVIII siècle, in archives nationales algériennes, N° 6/1977, pp. 71-74.
- Fey (H.L.), Histoire d'Oran avant, pendant et aprés la colonisation espagnole, A. Berrier, Oran, 1856.
- Grammont (H.D. de), Histoire d'Alger sous la domination turque 1555-1830, Paris, E. Leroux, 1887.
- Lespès (R..), Oran, étude de géographie et d'histoire urbaines, F. Alcan, Paris, 1938.
- Mercier (E.), Histoire d'Afrique septentrionale (Berbérie), Paris, E. Leroux , 1891, T. III.
- Péchot (L.), Histoire de l'Afrique du Nord avant 1830, T. 3, Alger, Gojosso, 1914.
- Pestemaldjoglou (A.), Mers-El-Kebir (historique et description de la forteresse), in Revue africaine, année 1940, pp. 154-185.

ملحق

ترجمة لوثيقة تتعلق بمعاهدة السلم الجزائرية الإسبانية لسنة 1119 هـ/1785 م

ما يتوجب على إسبانيا

1 . عقد محمد باشا[1] معاهدة سلم[2] مع الإسبان في شوال 1119 هـ (1785 م) ، وتحمل هؤلاء (أي الإسبان) دفع الإتاوة وهي بالتفصيل كالتالي :

ـ 500000 سلطاني ذهبي (أي حوالي 2700000 فرنك) ، إضافة إلى مواد متنوعة ، وقدرت قيمتها بـ 100000 سلطاني ذهبي (أي : حوالي 3240000 فرنك) ، وهي بالتفصيل كالتالي :

ـ 2000 قنطار من البارود المسحوق ، مدفعان من عيار 200 ، مدفعان من عيار 150 ، 200 قذيفة من عيار 200 ، 200 قذيفة من عيار 150 ، 25 مدفع من النحاس من عيار 24 ، 25 مدفع من الصلب من عيار 24 ، 100 سارية للسفن ، 50 صار مائل ، 500 قنطار من الحبال ، 30حبل لرسو السفن بالمرسى ، 600 قذيفة مدفع من عيار 24 ، 15 حبل ، 400 قطعة قماش للأشرعة ، 1000 لوحة ارتكاز ، 1600 لوحة من الخشب الصلب ، 500 قنطار من قطع الرصاص ذات وزن رطل ورطلين ، 1000 برميل من الزفت ، 50 برميل من القار (القطران) ، 500 لوحة من خشب الجوز .

(1) الداي محمد باشا : 1179-1205 هـ / 1766-1791 م .

(2) هي في الواقع اتفاقية هدنة سمحت بإجراء مفاوضات والتوصل إلى عقد معاهدة سلم وقعت في عهد الداي بابا حسان (1205-1212 هـ/1791-1798 م) .

تم تسليم هذه المواد في 13 من شهر ذي الحجة 1200 هـ (1786 م) ، وفي 22 من شهر ذي الحجة 1201 هـ (1787 م) تم دفع مبلغ 500000 سلطاني ذهبي من طرف القائد والقنصل الإسباني المدعو دون ميغال .

2 . دفع القنصل الإسباني الإتاوة بتاريخ 16 شوال 1207 هـ (1792 م) ، ودفع في شهر أفريل 1212 هـ (1797 م) ، ودفع في 15 من شهر شوال 1217 هـ (1802م) .

3 . في 22 من شهر ذي الحجة 1219 هـ (1804م) ، خلال حكم مصطفى باشا[3] ، بعث الإسبان إلى الجزائر المدافع النحاسية ، وهي :

- 9 مدافع من عيار 24 ، يزن الواحد منها 55 قنطارا و90 رطلا ، و9 مدافع من عيار 18 ، يزن الواحد منها 3 قناطير و28 رطلا انجليزيا .

4 . حل قنصل إسبانيا بالجزائر ودفع الإتاوة العادية المتوجبة على دولته ، كما سدد الإتاوة التي تأخر دفعها في شهر جانفي 1228 هـ (1813 م) ، حسبما كان معمولا به في السابق .

5 . دفع القنصل الإسباني الأتاوة حسب ما كان معمول به قديما في شهر مارس 1231 هـ (1816م) ، كما أقر القنصل الإسباني في منصبه مقابل دفع ما كان متوجبا عليه في 9 أوت 1245 هـ (1829م) .

المصدر :

- Archives Nationales d'Outre-mer à Aix-en-Provence, F80/1733.
- Devoulx (A.), Le Bandjek, Recueil de documents authentiques officiels concernant les tributs payés à la Régence d'Alger par diverses nations européennes, p. 9.

(3) الداي مصطفى باشا : 1212-1220 هـ/1798-1805 م.

وثيقة بخط أ. دوفو تتعلق بمعاهدة السلم الجزائر . الإسبانية لسنة 1119هـ/ 1785م. انظر الترجمة العربية ص 204 . 205.

(A.Devoulx, le Bandjek. Archives d'Outr- Aix-en. Provence F 80/1733).

المعاهدة البرتغالية الجزائرية

15 جمادى الثاني 1228 هـ ـ 14 يونيو 1813م(*)

ظلت العلاقات الجزائرية البرتغالية في العهد العثماني فترة طويلة (من القرن السادس عشر وحتى الثلث الأخير من القرن الثامن عشر) تخلو من أية مجابهات عسكرية أو توترات سياسية ذات أهمية، وذلك لتحول نشاط البرتغال كلية في تلك الفترة نحو مستعمراته بسواحل الهند وإفريقيا وبأقاليم البرازيل، ولكون التبادل التجاري البرتغالي بمنطقة المتوسط ـ والذي كان ذا أهمية ثانوية ـ كان يتم في الغالب بواسطة سفن أوروبية، هذا في الوقت الذي كانت فيه خطوط المواصلات البرتغالية عبر الأطلسي والمحاذية لمضيق جبل طارق في منأى عن السفن الجزائرية التي كان نطاق نشاطها يتركز أساساً على الحوض الغربي للمتوسط ويتوجه خاصة نحو السواحل الإسبانية والإيطالية.

لكن ومع نهاية القرن الثامن عشر لم تلبث الأوضاع أن تغيرت بفعل الظروف المستجدة التي تسببت فيها أحداث الثورة الفرنسية وحروب نابليون (1789 ـ 1814) والتي أصبحت تؤثر بشكل مباشر في أوضاع أوروبا الغربية، ومنها البرتغال، وهذا ما أدى إلى انعكاسات سلبية على العلاقة البرتغالية الجزائرية آنذاك، فأصبحت تلك العلاقة تكتسي طابعاً عدائياً بعد أن اشتدت وطأة الأسطول الجزائري على السفن البرتغالية في مياه مضيق جبل طارق، وفي عرض السواحل الأطلسية لشبه الجزيرة الأيبيرية. وهذا ما دفع البرتغال بعد أن تضررت تجارتها، وتكبدت خسائر في الرجال والعتاد، إلى محاولة التوصل إلى اتفاق مع الجزائر يضمن سلامة خطوطها الملاحية، وقد ساعدت على ذلك بعض الدول، وفي مقدمتها انكلترا فانتهى الأمر إلى إقرار هدنة مهدت لعقد معاهدة صداقة وسلام مع دولة الجزائر في 14 يونيو (جوان) 1813، وسيكون موضوع

(*) نشرت في مجلة الندوة (عمان) المجلد الثامن، العدد الثاني، محرم 1418هـ، أيار 1997م، ص ص40-50.

بحثنا منصباً على الظروف التي انعقدت فيها هذه المعاهدة، والعوامل التي ساعدت على التوصل إليها مع محاولة استعراض محتوى المعاهدة نظراً للأهمية التي تكتسيها في مجال العلاقات الدولية للجزائر قبل الاحتلال الفرنسي.

أ. **الظروف**: التي أدت إلى توتر العلاقة الجزائرية البرتغالية والتي دفعت البحارة الجزائريين لمهاجمة السفن البرتغالية والاستيلاء عليها، بعد أن ظلت الجزائر فترة طويلة تركز نشاطها بالحوض الغربي للمتوسط، وتركز جهودها على مواجهة القوات الأوربية التي ظلت تتحرش على السواحل الجزائرية، دون أن تتعرض للمصالح البرتغالية أو تحاول الإضرار بها فمن هذه الظروف المساعدة على اتخاذ العلاقة البرتغالية الجزائرية طابعاً عدائياً نذكر:

1. تجدد نشاط البحرية الجزائرية مع نهاية القرن الثامن عشر بمهاجمة السفن الأوروبية التي لم تكن تربطها بها أي اتفاقية صلح أو معاهدة سلام وصداقة، ويظهر هذا التحول الذي طرأ على قدرة الأسطول الجزائري الهجومية في تزايد القطع الحربية العاملة بالبحر المتوسط، فبعد أن كان عدد قطع الأسطول لا يتجاوز اثنتي عشرة سفينة مع نهاية القرن الثامن عشر (1795)، أصبح مع مطلع القرن التاسع عشر (1805) يشتمل على عشرين سفينة ذات تجهيزات حربية جيدة، مما مكنها بالفعل في هذه الفترة من فرض هيبتها على الحوض الغربي للمتوسط والحصول على غنائم معتبرة قدرت قيمتها الإجمالية بما يعادل 575152,74 ف، وقد كانت الجهود التي بذلها حكام الجزائر وبالأخص الدايات: محمد عثمان باشا (1766 ـ 1791) وبابا حسان (1791 ـ 1797) ومصطفى باشا (1797 ـ 1805) والحاج علي باشا (1809 ـ 1815) دور كبير في ازدياد قوة البحرية الجزائرية ودفع الرياس "القباطنة" الجزائريين إلى مواصلة نشاطهم وتكبيد الدول التي لم تتوصل بعد إلى إقرار معاهدة سلم مع الجزائر، خسائر فادحة وأضرارا بليغة في الرجال والعتاد والسلع مثل الدويلات الإيطالية والولايات المتحدة والبرتغال.

2. ضعف مملكة البرتغال وافتقارها إلى قوة بحرية قادرة على الوقوف في وجه السفن الجزائرية، بعد أن أصبحت السفن الإسبانية غير ملزمة بتوفير الحماية لها في المياه الأطلسية المحاذية لمضيق جبل طارق والقريبة من السواحل البرتغالية، نتيجة

إقرار معاهدة صلح وصداقة بين الجزائر وإسبانيا (1786م)، إذ أقرت هذه المعاهدة التي التزم بها كل من كارلوس الثالث الملك الإسباني ومحمد عثمان باشا داي الجزائر، حق حرية الملاحة والتبادل التجاري للبلدين، وبذلك أصبح بإمكان السفن الجزائرية تخطي مضيق جبل طارق دون أن تتصدى لها السفن الإسبانية بعد أن سحب الإسبان قطعهم البحرية من تلك المياه في فترة سابقة، وهذا ما أمكن الجزائريين في سنة واحدة (1785) من الاستيلاء على ست عشرة سفينة برتغالية من مختلف الأحجام وأسر 118 رجلاً كان على متنها مع كميات كبيرة من البضائع، ولم تجد البرتغال والحالة هذه ما تحصل عليه من امتيازات إضافية بعد أن عقدت معاهدة مع ملك المغرب مولاي محمد بن عبد الله (1773)، خولت للبحارة البرتغاليين الحق بالتردد على مدن طنجة وتطوان والعرايش للتزود بالمؤن والحصول على المعلومات التي تمكنهم من التعرف على تحرك السفن الجزائرية في عرض السواحل المغربية.

3. تورط دولة البرتغال في النزاع الإنكليزي ـ الفرنسي وانشغالها بمواجهة المخططات الإسبانية الفرنسية الرامية إلى تقسيم أراضيها، والاستحواذ على مستعمراتها منذ توصل نابليون إلى عقد اتفاقية مدينة بال مع الإسبانيين (1795). على أن تشكيل الحلف الدولي المعادي لنابليون والمعروف بالائتلاف الدولي الرابع (1806) من طرف إنكلترا وروسيا والنمسا والسويد أعاق تنفيذ هذا المخطط الفرنسي الإسباني، وأدخل البرتغال في دوامة الصراع الأوربي ضد النزعة التوسعية لنابليون.

هذا وقد كانت معاهدة فونتان بلو (Fontainebaleau) التي توصل إليها الفرنسيون والإسبان في 7 أكتوبر 1807 بداية التدخل الفعلي الفرنسي في شؤون البرتغال بعد أن رفضت الحكومة البرتغالية غلق موانئها في وجه التجارة الإنكليزية، وحاولت أن تنضم إلى الحلف المعادي لنابليون والذي تتزعمه إنكلترا، وقد أدى ذلك إلى قيام الجيش الفرنسي بشن حملة على البرتغال بقيادة جينو (Junot) الذي تمكن من إخضاع البرتغال (نوفمبر 1807) مما أضطر الأسرة المالكة وعلى رأسها الملك جوان السادس إلى الالتجاء إلى البرازيل بعيداً عن تهديد الجيوش الفرنسية.

على أن مخططات نابليون لم يكتب لها النجاح بعد أن اندلعت المقاومة الوطنية

الإسبانية بزعامة أعضاء مجلس الأعيان "الكورتيز" انتقاماً للسيادة الإسبانية ومناصرة للملك الإسباني فردناند السابع الذي نحي عن العرش إثر المؤتمر الذي استطاع أثناءه نابليون فرض أخيه جوزيف على عرش اسبانيا بحجة تنازع فردناند السابع مع أبيه شارل الرابع على العرش ، وقد حالف الثائرين النجاح فاستطاعوا إلحاق الهزيمة بالفرنسيين مستعينين في ذلك بالإنكليز الذين تمكنوا هم الأخرون من تحرير البرتغال بعد الانتصار الذي حققه الدوق ولنغتون (Duc Wellington) على قوات القائد الفرنسي جينو .

بعدما اضطر جوزيف بونابارت إلى الانسحاب من مدريد (جويليه 1808) فلم يجد نابليون بونابرت بداً من التدخل في شبه الجزيرة الإيبيرية بجيش قوامه ثلاثون ألف جندي ، فأوقف التقدم الإنكليزي وأعاد الأمور لصالح الفرنسيين (8108 ـ 1809) ، وأثناء ذلك ظلت إنكلترا تقف بحزم إلى جانب البرتغال في محنتها فعقدت معها معاهدة تعاون وإخاء (1810) في الوقت تجدد فيه الصراع الأوربي نتيجة تشكل الحلف الدولي ضد نابليون (المعروف بالائتلاف الدولي الخامس 1809) والذي أسفر عن تراجع الفرنسيين عن البرتغال وانسحابهم من إسبانيا أمام تصعيد المقاومة المحلية وتزايد التدخلات الإنكليزية ، وفي هذه الظروف تمكن الدوق ولنغتون من إنزال قواته بالبرتغال (1809) والضغط على القائد الفرنسي ماسينا (Masséna) لإخلاء الأراضي البرتغالية في شهر مارس سنة 1811 ، وقد استكمل الانسحاب الفرنسي من الأراضي الإسبانية (1813 ـ 1814) بعدما سلم نابليون بحق فردناند السابع في العرش الإسباني ، وبعد أن اضطر إلى استقدام قواته عبر جبال البرانس (Pyrénées) للدفاع عن الجنوب الفرنسي الذي كان معرضاً للغزو من طرف القوات الإنكليزية .

ففي هذه الظروف الصعبة والتطورات الخطيرة لم تكن البرتغال في وضعية تمكنها من تنظيم الدفاع عن خطوط مواصلاتها البحرية وتعزيز قطع أسطولها في مياه الأطلسي أمام تهديد السفن الجزائرية التي كانت تتميز بالسرعة في المناورة والفاعلية في القتال والتصميم على تنفيذ الهجمات ، وهذا ما جعل السفن البرتغالية غنيمة سهلة في كل اشتباك بحري تتعرض له من طرف البحارة الجزائريين ، ولعل أصدق دليل على ذلك هو ما نستعرضه من عمليات بحرية قامت بها القطع الجزائرية ضد السفن الرتغالية .

فالعمليات الحربية التي قام بها الأسطول الجزائري ضد السفن البرتغالية ، والتي تكاد تنحصر في الربع الأخير من القرن الثامن عشر والسنوات العشر الأولى من القرن التاسع عشر (1795 ـ 1811) انتهت في أغلب الأحيان بوقوع السفن البرتغالية في أيدي البحارة الجزائريين وغنم كميات معتبرة ، من البضائع والسلع وأسر العديد من البرتغاليين ، منهم رجال كنيسة وتجار وأطباء وبحارة وقباطنة سفن ، فقد بلغ عدد قادة السفن البرتغاليين الذين أسروا في الجزائر حسب سجلات غنائم البحر ثلاثة عشر قبطاناً أو قائد سفينة ، نذكر منهم مع تاريخ وقوعهم في الأسر الأسماء التالية :

خوان خوزيفو (Juan Josefo) 1173-1760 ، جيتانو فرانسيسكو (Gitano Francisco) 1174 ـ 1761 ، أندري شافيرو (André Chaviro) 1174 ـ 1761 ، فرانسيسكو جوزيف (Francisco Joseph) 1183-1769 ، باستينا لويس فاريرا (Bastina) Louis Varira 1183 ـ 1769 ، نيكولاس سانتو (Nicolas Santo) 1183 ـ 1769 ، دومنيغو باديستا بونغيرو (Dominigo Podesta Bonguerro) 1190 ـ 1776 ، جوزيف مارتان (Joseph Martin) 1200 ـ 1786 ، لويس فرناندو (LouisVernando) 1214-1800 ، مانويل ماتيو (Manuel Mathreu) 1214-1800 ، وأماسيو فيريرا (Amassio) Varira Vando 1214-1800 .

وحسب المعلومات المسجلة في دفتر التشريفات المحفوظ بالأرشيف الفرنسي ، فإن عدد الأسرى البرتغاليين الذين تم القبض عليهم أثناء مهاجمة سفنهم من طرف البحارة الجزائريين كانوا يتوزعون حسب السنوات كالتالي :

سنة 1188هـ/1774م = 144 أسيراً ، 1189هـ/1775م = 161 أسيراً ، 1192-1778 = 155 أسيراً ، 1194-1780 = 15 أسيراً ، 1199هـ/1785م = 15 أسيراً ، 1210هـ/1795م = 40 أسيراً ، 1214هـ/1800م =95 أسيراً ، 1217هـ/1802م = 366 أسيراً ، 1226هـ/1811م = 360 أسيراً .

لقد اشتهر في هذه العمليات البحرية التي قامت بها وحدات الأسطول الجزائري ضد السفن البرتغالية "رياس" قباطنة جزائريون عرفوا برباطة جأشهم ومهارتهم الحربية مما مكنهم من تحقيق النصر على السفن البرتغالية ، ومن هؤلاء الرياس الذين تميزوا بالكفاءة القتالية والحنكة في تسيير المعارك نخص بالذكر كلاً من الرايس أحمد المدعو

بالشباغ، والرايس مصطفى، والرايس بن زرمان، والرايس ساري حسين، والرايس الحاج محمد المدعو الشبيني، والرايس عصمان، والرايس علي، والرايس محمد، والرايس سليمان، والرايس صالح، والرايس حميدو، والرايس القليونجي، والرايس الحاج محمد المدعو بالإسلامي، والرايس طاباق.

ومن المعارك المهمة التي قام بها هؤلاء الرياس نشير إلى ثلاث منها على سبيل المثال، لما أسفرت عنه من أسر العديد من البرتغاليين والاستيلاء على كميات كبيرة من العتاد الحربي والمؤن والبضائع.

فالمعركة الأولى وقعت بتاريخ 28 ربيع الأول 1214 الموافق ل 30 أوت 1799، وفيها استطاع الرايس بن طاباق الذي كان على متن أحد المراكب الجهادية المزودة ب 36 مدفعاً أن يأسر سفينة برتغالية تحمل اسم بلانترة في عرض السواحل الإسبانية ويتتبع أخرى تعرف ببسكونة حتى ميناء برشلونة الإسباني، ورغم تعرضه لنيران الحصون الإسبانية للحيلولة دون تقدمه، إلا أنه استطاع أن يلحق بها ويتمكن من إغراقها، وقد أسر الرايس بن طاباق في هذه المعركة 79 برتغالياً، واستولى على كميات من البضائع، مما جعل القيمة الإجمالية للغنائم في هذه المعركة ترتفع إلى حوالي 29385 ف.

أما المعركة الثانية فقد جرت في مياه جبل طارق بتاريخ 25 محرم 1217 الموافق لـ 28 ماي 1802، وقد تمكن أثنائها الرايس حميدو بفعل مناورة بحرية جريئة من وضع يده على إحدى القطع الحربية للبرتغال من نوع فرقاطة تحمل اسم "أوزة (Cygne) مزودة بأربعة وأربعين مدفعاً وعلى متنها 282 راكباً، محملة بكميات من البارود والقنابل "بومبات"، وقد قدرت قيمة الغنائم الإجمالية ب 17265 ريالاً، أي: مايعادل 25 .194231 ف، وقد التحقت هذه السفينة البرتغالية التي أصبحت تعرف بالبرتقيزة بقطع الأسطول الجزائري، وأصبحت تساهم في عملياته الحربية حتى تعرضت للتدمير مع غيرها من السفن الجزائرية أثناء هجوم اللورد إكسموث الإنكليزي على ميناء الجزائر 1816.

ولقد تم اقتسام غنائم هذه السفينة البرتغالية حسب العادات المتبعة، فقدم اثنان من الأسرى هدية للداي، ووضع آخر في خدمة ضريح سيدي عبد الرحمن الثعالبي، ووزع عشرون آخرون على البحارة بينما وضع الآخرون تحت تصرف البايليك ليتفاوض في

شأن افتدائهم أو تبادلهم مع الأسرى المسلمين بالبرتغال مقابل قيمة إجمالية دفعها البايليك إلى البحارة قدرت بـ 17265 ريال بوجو (25 .231 .194 ف) أي: بنسبة 04 .722 ف عن كل أسير، وبذلك قدر سهم كل بحار في هذه الغنائم بما يقدر بـ 25 .103 ريالات وحصة البايليك من العملية باعتباره يمثل بيت المال التي تحظى بخمس الغنائم بـ 1721 ريال وحصة المساهمين في العملية من بحارة ومشاركين بأموالهم بـ 5683 ريال بوجو، أما ما كانت تحمله السفينة من عتاد وذخائر فقد وضع تحت تصرف الداي حسب ما هو معمول به آنذاك، وبذلك يكون المقدار الإجمالي للغنائم في هذه العملية لا يقل حسب دفاتر "البانجاك" عن 103590 ف.

وأما المعركة الثالثة فقد قام بها الرايس حميدو سنة 1809/1224 في مياه الأطلسي، وانتهت بحجز ثلاث سفن برتغالية منها سفينة صغيرة محملة بالتبغ قادمة من ميناء هافانا بكوبا، وقد قدرت حصة كل بحار من غنائم المعركة البحرية بما لا يقل عن ثلاثة عشر دورو.

لقد كانت هذه الأعمال الحربية التي قامت بها قطع الأسطول الجزائري ضد السفن الحربية والتجارية البرتغالية بمثابة الدافع القوي والسبب الرئيسي للدولة البرتغالية للبحث عن وسيلة تمكنها من وضع حد لهذه الخسائر الجسيمة التي تكبدتها، لا سيما وأنها كانت آنئذاك تتعرض لاعتداء القوات الإسبانية والفرنسية، التي احتلت بالفعل جزءاً من ترابها، وهذا ما جعل دولة البرتغال ترغب في التوصل إلى هدنة أو اتفاقية مع حكام الجزائر تضمن لها سلامة خطوطها الملاحية وتوفر لها الإمدادات الضرورية من مستعمراتها بالبرتغال وسواحل إفريقيا والشرق الأقصى.

بدأت بالفعل المساعي الرامية لإقرار صلح بين الجزائر والبرتغال في وقت مبكر بتشجيع من الملك الإسباني شارل الثاني الذي كانت تجمعه صلة قرابة بالملكة البرتغالية دونا ماريا (Dona Maria) وقد تضمنت المراسلات المحفوظة بالأرشيف الوطني الإسباني بمدريد بقسم وثائق الدولة: رقم 3615 رسائل تتعلق بالاتصالات الأولى من طرف الإسبان في شأن إقرار الصلح بين الجزائر والبرتغال، ففي رسالة بتاريخ 13 أوت 1785 وجهها الوزير الأول الإسباني الكوند دي فلوريدا (El Conde de Florida) إلى

حاكم الجزائر الداي محمد عثمان باشا رداً على رسالة سابقة للداي يعرب فيها عن رغبته في أن لا يمانع داي الجزائر في توقيع الصلح مع دولتي نابلي والبرتغال .

وفي رسالة أخرى بعث بها نفس الوزير الإسباني إلى المكلف بالعلاقات الخارجية لدولة الجزائر ، وهو وكيل الحرج حسين بتاريخ 25 أفريل 1786 يعلمه فيها بأنه سيمر المبعوث البرتغالي جاك دولاندرست (Jacques F.De Landerset) بالجزائر مع الكونت دي سيبي المبعوث الإسباني المكلف بإعداد شروط الصلح بالجزائر ليسلم له خطاباً من طرفه (أي من دي فلوريدا) راجياً إياه أن يساعد هذا المبعوث البرتغالي على مقابلة الداي للتفاوض معه من أجل إبرام الصلح بين دولتي الجزائر والبرتغال .

ومما يلاحظ أن هذه الاتصالات الأولى لم تتجاوز مرحلة جس النبض ومحاولة التعرف على نيات الطرفين في إمكانية عقد معاهدة سلام وصداقة ، ولهذا لم يتمكن المبعوث البرتغالي إلى الجزائر جاك دولاندرست أثناء قدومه إلى الجزائر من إقناع السلطات الجزائرية "ديوان الجزائر" بتحويل هذه الاتصالات الأولى إلى مفاوضات مباشرة بين البرتغال والجزائر ، وقد دفع هذا الفشل في عقد محادثات مع الجزائر حكام البرتغال إلى البحث عن وسيط أكثر مصداقية يتكفل بمهمة تقريب وجهة نظر الطرفين ، فتوجهت أنظارهم لملك المغرب مولاي محمد بن عبد الله العلوي الذي سبق أن عقدوا معه معاهدة سلام وصداقة (1773) لكن العاهل المغربي هو الآخر لم يكن آنذاك على علاقة جيدة بالجزائر ، وبالتالي تعذر عليه إقناع الجزائريين بضرورة إقرار السلام مع دولة البرتغال ، فاكتفى البرتغاليون والحالة هذه بالامتيازات التي حصلوا عليها منه والتي مكنتهم من حرية التجارة والتزود بالمؤن من موانئ المغرب الشمالية مثل العرائش وطنجة (1787-1793) ، كما ساعدهم على استعمال القاعدة البحرية العسكرية المقامة من طرف الإسبان بطنجة أثناء حصار جبل طارق ، في جمع المعلومات الضرورية من قناصلهم في كل من طنجة وتطوان وفاس للتعرف على تحرك السفن الجزائرية .

ففي هذا الصدد أبلغ المبعوث المغربي إلى لشبونة القائد عمر بن الدوادي حكام البرتغال بقرار الملك بالسماح لسفنهم الراسية بميناء العرائش وطنجة بالتزود بما تحتاجه من مؤن وعتاد لتتمكن من مجابهة السفن الجزائرية المترصدة لها في مياه

المحيط الأطلسي ، كما أبلغهم بأنه في حالة ما إذا أتى البحارة الجزائريون بغنائم لبيعها في المغرب ، فإنه سوف يقوم بحجزها وتسليمها إلى ممثلي دولة البرتغال ، هذا ولم تجد هذه الامتيازات والتسهيلات التي حصل عليها البرتغاليون من المغرب شيئاً بعد أن تعددت هجمات السفن الجزائرية على المراكب البرتغالية وازدادت حدتها في سنة 1809/1224 بحيث أصبح من الصعب عليهم إبعاد خطر السفن الجزائرية عن خطوط مواصلاتهم مع البرازيل بعد أن اضطرت سفنهم إلى الاحتماء بالموانئ البرتغالية عدة مرات من جراء الهجمات المباغتة التي شنها الرايس حميدو خاصة .

ولم تجد البرتغال والحالة هذه مخرجاً من هذا الوضع الحرج سوى الاتجاه إلى إنكلترا لتتوسط لها لدى داي الجزائر للتوصل إلى هدنة تؤمن لها سلامة سفنها في المحيط الأطلسي . وقد كانت انكلترا آنذاك ترغب في ذلك بل تراه عملاً يتجاوب ومصالحها التجارية ، لا سيما أن عقد أي اتفاق بين الجزائر والبرتغال من شأنه أن يزيد من عزلة نابليون ويقوي حليفتها البرتغال ويفشل سياسة الحصار الاقتصادي الذي كان ينتهجها نابليون ضد النشاط التجاري الانكليزي ، وقد تكللت المساعي البريطانية بالنجاح نظراً للعلاقة الممتازة التي كانت تربط في تلك الفترة إنكلترا بكل من الجزائر والبرتغال ، ولكون الداي الحاج علي باشا (1809-1815) كان بدوره يتخوف من الأطماع الفرنسية ولا يطمئن إلى مخططات نابليون العدائية اتجاه إيالات الشمال الأفريقي وفي مقدمتها الجزائر ، فبادر إلى القبول بإقرار الصلح مع البرتغال بعد أن ظلت الاتصالات جارية في شأنه منذ عهد الداي أحمد باشا (1805/1220) .

وبالفعل أعطى الداي الحاج علي باشا موافقته النهائية لإبرام هدنة مع البرتغال في 3 جمادى الثانية 1225 الموافق لـ 6 جويلية 1810 .

وقد تضمن نص اتفاق الهدنة المشتمل على ثماني مواد تتعلق بالإجراءات التي يتوجب القيام بها في شأن افتداء الأسرى من الطرفين ، وتقر مبدأ أمن الملاحة وحرية التجارة للسفن البرتغالية أسوة بسفن الدولة الصديقة التي تربطها بحكام الجزائر معاهدات سلام وصداقة (راجع نص الهدنة الملحق بالبحث) .

وحسبما سجل في نص المعاهدة فإن المبعوث البرتغالي قيمس سكاريتشا

والمبعوث البريطاني كاسا مافار والمترجم جوزي دي سانتو انطونيو موره (Fr. José de Santo Antonio) سمح لهم بالعودة إلى البرتغال لتحضير المعاهدة في ظرف سنتين.

وهكذا أصبح أمر ابرام معاهدة صداقة وسلام بين الجزائر والبرتغال قضية وقت لا أكثر ولا أقل، وبالفعل حضر الوفد البرتغالي المخول بالإمضاء على المعاهدة والمؤلف من القبطان جوزي جواكيم دروزة كويليو والمترجم جوزي دي سانتو أنطونيو مورة السابق الذكر، وانضم إليهما بصفته وسيطاً وضامناً للاتفاق الوزير المفوض والمبعوث فوق العادة من قبل التاج البريطاني لدى دول الشمال الإفريقي السير وليام أ. كورث (William A. Court) والذي أصبح بحكم الواقع القنصل الشرفي للبرتغال في الجزائر.

وتم التوقيع على نص المعاهدة الموضوعة بلغة البلدين العربية والبرتغالية بتاريخ 15 جمادى الثانية 1228 الموافق لـ 14 حزيران 1813 من طرف الداي الحاج علي عن الجانب الجزائري العاهل البرتغالي يوحنا السادس (الدون خوان) الذي لم يتمكن من المصادقة عليها حتى 30 ديسمبر 1813، لكونه كان يقيم آنذاك بريودي جانيرو بإقليم البرازيل، وقد ضمنت الشروط الستة عشرة التي تشتمل عليها هذه المعاهدة للسفن البرتغالية والجزائرية على حد سواء أمن الملاحة وحرية التبادل التجاري وضمان التزود من موانئ البلدين، كما أعطت لها حق الالتجاء عند الضرورة إلى الموانئ الآمنة بالسواحل البرتغالية والجزائرية، وأقرت كذلك بالنسبة للطرفين إجراءات التعرف على هوية السفن وحددت شروط التفتيش التي تخضع لها (راجع نص المعاهدة).

كما خولت المعاهدة للقنصل البرتغالي نفس الامتيازات التي كان يحظى بها القنصل البريطاني، ومنح امتيازات قضائية ودينية تمكنه من رعاية الجالية البرتغالية بالجزائر فيما يتعلق بالسهر على ضمان أحوالها الشخصية المتعلقة بإقامة الشعائر الدينية وتصفية التركات وغيرها.

وحتى تأخذ المعاهدة شكلها القانوني المتعارف عليه ويوضع حد لكل ما قد يطرأ من خلاف بشأن العلاقات البرتغالية الجزائرية، اتفق الطرفان الجزائري والبرتغالي على الرجوع في ما قد يطرأ من الحالات التي لا تنص عليها مواد المعاهدة إلى الاتفاقية الانكليزية الجزائرية مع إعطاء الملك الإنكليزي صفة الوسيط والضامن لهذه المعاهدة،

كما اتفق الطرفان على مبدإ عدم شن الغارات البحرية والقيام بالأعمال الحربية إلا بعد ستة أشهر من إعلان نقض المعاهدة من أحد الطرفين، وذلك ليتمكن رعايا الدولتين من تصفية أمورهم وإعطاء فرصة لحاكمي البلدين لمراجعة موقفيهما.

هذا ولقد ذكر الشريف الزهار نقيب الأشراف في تقاييده ما ترتب على هذه المعاهدة من التزامات مالية بقوله: "وكان البردقيز قد جاؤوا سنة سبع وعشرين (1227هـ) لعقد الصلح بعد أن توسطت له الوسائل، فانعقد الصلح ودفع مليونين، (لكل واحد) فرق الأمير على العسكر من دراهم الصلح عشرة دورو لكل واحد" وقد جاء ذلك مفصلاً في دفتر معاملات البايليك (البانجاك) فحدد المبلغ الذي تقدمت به الدولة البرتغالية والذي كان في شكل "إتاوة" سنوية وهدايا قنصلية، وكذلك المبالغ المستحقة لافتداء الأسرى البرتغاليين بـ 131112000 دورو فضة "سكة جزائرية" أي: ما يعادل 400 .2486 فرنك ذهبي، وهو يتوزع على الشكل التالي:

1) مبلغ 000 .350 دورو فضة (سكة الجزائر) أي حوالي 000 .1470 ف (بقيمة الفرنك آنذاك) يدفع لخزينة الجزائر.

2) مبلغ 000 .150 دورو فضة (سكة الجزائر) أي حوالي 000 .630 ف حصة الباشا وموظفي الدولة.

3) مبلغ 000 .12 دورو فضة (سكة الجزائر) أي: حوالي 400 .50 ف أتاوة سنوية تدفع لحكومة الجزائر.

4) مبلغ 000 .850 دورو فضة (سكة الجزائر) أي: حوالي 000 .3570 ف، ثمن فداء الأسرى البرتغاليين بالجزائر، والبالغ عددهم 541 أسيراً، ينقص منها فدية 41 أسيراً مسلماً أي: ما قيمته 000 .50 دورو فضة أو ما يقدر بـ 000 .21 ف.

ومما يلاحظ أن المبلغ المترتب على عقد المعاهدة البرتغالية الجزائرية يعد باهظاً ومع ذلك لم تجد البرتغال بداً من دفعه صاغرة، فالإتاوات السنوية التي فرضت عليها كانت في الواقع ضعف ما كانت تساهم به دول أخرى مثل إسبانيا وهولندا وتوسكانيا وسردينيا (حوالي 000 .240 ف) ولم يماثله سوى ما كان يتوجب على دولة الصقليتين

(نابلي) دفعه ، ولا يتفوق عليها إلا ما كانت فرنسا تقدمه مقابل امتيازات الشركة الإفريقية بالقالة وحقوق البحارة بباقي الموانئ الجزائرية .

ومع ذلك فقد دأبت البرتغال على دفع ما يترتب عليها من إتاوة وهدايا قنصلية في موعدها المحدد من كل سنة وهو شهر ماي وإن اضطرت في بعض الأحيان أن توكل أمر تسديد مبلغ الإتاوة المستحقة عليها إلى القنصل الانكليزي بالجزائر ، كما حدث سنتي 1815/1230 و1818/1234 ، ولم تنقطع عن الدفع إلا مع فرض الحصار البحري الفرنسي على السواحل الجزائرية (1827) فكان آخر مبلغ للإتاوات قدمته البرتغال للجزائر يعود إلى سنة 1826/1242 .

هكذا نلاحظ أن هذه المعاهدة نجحت في تلبية طلبات الجزائر وضمان مصالح البرتغال ، فلم تسجل المصادر أي نزاع في شأنها عكس الاتفاقيات المعقودة مع بعض الدول الأوروبية الأخرى ، وظلت البرتغال تحافظ على أداء ما يتوجب عليها من إتاوات سنوية على الرغم من تغير الأوضاع بتحرير أراضيها من السيطرة الفرنسية (1814) وانتكاسة الأسطول الجزائري من جراء هجوم اللورد اكسموث الانكليزي على ميناء الجزائر (1816) . وكل ما قامت به البرتغال في شأن هذه المعاهدة هو إبداء رغبتها في التخفيف من أعبائها المالية التي أصبحت تثقل كاهل الخزينة البرتغالية كما يفهم من رسالة توجه بها الوزير البرتغالي يوحنا السادس الدون خوان إلى الداي حسين باشا بتاريخ 7 جمادى الثانية 1240 الموافق لـ 28 جانفي 1824 يطلب فيها عقد اتصالات في شأن مراجعة بنود المعاهدة ، لكن الظروف التي عرفتها الجزائر إثر ذلك والتي انتهت بفرض الحصار الفرنسي على سواحلها حال دون إجراء أية اتصالات أخرى في هذا المسعى بين الطرفين .

النص العربي للمعاهدة البرتغالية . الجزائر*

بسم الله الرحمن الرحيم



[illegible]

الشرط الأول

[illegible]

الشرط الثاني

[illegible]

الشرط الثالث

[illegible]

الشرط الرابع

لا يمكن لقراصين الجزاير ان يجاوزوا [illegible] ويقرصوا [illegible] في اسفل [illegible] مراسي البرطقال وجزاير الا المراكب البرطقيز [illegible] المذكورة [illegible] وهذا [illegible] من جهة مراسي البرطقيز في مقابلة سواحل [illegible]

الشرط الخامس

اذا التقى قرصان الجزاير احدا من مراكب البرطقيز [illegible] فانه لا يطالبه الا باظهار الباسبورط واوراق البحر ولا يفتش [illegible] ولا يصعد المركب [illegible] الباسبورط الا رجلان فقط.

الشرط السادس

كل من دخل تحت [illegible] البرطقيز [illegible] من سلعته [illegible] في مركب من مراكب البرطقيز من [illegible] الغير المعاهدين باشا الجزاير فيكون [illegible] بسبب دخوله لها ولا يصل اليه احد من اهل الجزاير بوجه من الوجوه وكل [illegible] في مراكب الجزاير فان هذا العمل [illegible] وكل من [illegible] من اهل الجزاير [illegible] البرطقيز في مركب من مراكب اهل غير الصلح وعلى العدو [illegible] احد من [illegible] فانه [illegible] وسلعته [illegible] مسلم بالباسبورط واذا انعقدت [illegible] الباسبورط فانه لا يكون [illegible] الا من [illegible] ويرحل لبلاده

الشرط السابع

اذا احتمى احد من مراكب البرطقيز بمراسي ايالات الجزاير [illegible] او تحت [illegible] من عدوه او من مراكب الجزاير في مراسي ايالات البرطقال فارا من عدوه فان اهل البلاد لا يمنعون [illegible] العدو بوجه من الوجوه واذا انعقدت [illegible] مركب من مراكب البرطقيز في مراسي ايالات الجزاير مع مركب من مراكب عدوه فان اهل الجزاير لا يمنعون خروج مركب عدو البرطقيز [illegible] اربعة وعشرين ساعة من خروج البرطقيز وعلى هذا المنوال العمل [illegible] مراكب الجزاير في مراسي البرطقيز

الشرط الثامن

اذا [illegible] مركب من مراكب البرطقيز بسواحل ايالات الجزاير [illegible] [illegible] ولا يتعرض احد [illegible] ولا ينهب [illegible] بل [illegible] [illegible] [illegible] ولا يكلف [illegible] سوى اجرة [illegible] على ذلك وهذا [illegible] العمل [illegible] مراكب الجزاير ان [illegible] منه شيء من ذلك [illegible] بسواحل بلاد البرطقيز

الشرط التاسع

كل من [illegible] سلطان البرطقال واراد التجارة ببلاد الجزاير او [illegible] فيها فان له ذلك من غير ان يعارضه احد ولا يلزمه من [illegible] والعادة في [illegible] شيئا زائدا على ما [illegible] في شروط الصلح التي بين سلطان الانجليز وبين باشا الجزاير وديوانه واما رعية الجزاير من [illegible] وغيرهم [illegible] في بلاد البرطقيز الا ما يلزم لجنس الانجليز في تلك البلاد

الشرط العاشر

قونصوا البرطقيز فانه يكون محترما مكرما في بلاد الجزاير مثل قونصوا [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] من غير ان يدخل [illegible] [illegible] البلاد [illegible] بحضور القونصوا المذكور

الفرنسوا التي تقعد في الجزاير .. صار الاتفاق بحضرة الجزاير بين الجانبين
في اربعة عشر شهر ربيع الثاني عام الف وثمانية مائة وثلاثة عشر الذي
يوافق لخمسة عشر من شهر جويليه الثاني على الف وثمانية وثمانية
وعشرين من الهجرة

شرط مميز

فان جنس البرطقيز يعطي بالموجود في هذا الصلح مرة واحدة
خمسة مائة الف دورو ذهب من اربعين موزونة للواحد
وفي اخر كل السنة من قبل المهمات اللازمة لغيرهم اربعة وعشرين
الف دورو فضة متاع اصبنيه
ومن قبل الهدية في كل سنتين ستة عشر الف ريال دورو فضة
متاع اصبنية لا غيره وهذا الذي وقع عليه الاتفاق

امضاء الوهبات يوسف	ويليام اكورط	جوزف جواكيم
موره باشدور	وسيطو باشدور	دوزه كويليا
أمير بطقال	سلطان الانجليز	باشدور أمير برطقال

الشرط الحادي عشر

فان الفرنسوا المذكور وهاندال بارم نوبا دين البرطقيز الى اذا ارم حسه
حال تكوفيقط ستة يعطي بذلك

الشرط الثاني عشر
اذا مات احد من البرطقيز في ايالة الجزاير تماجد تدفع للفرنسوا
المذكور ليبعث بذلك لبلاده او للعربيين لنسبه
الشرط الثالث عشر
اذا حدث خلاف لهذه الشروط المعاهدة من رعية البرطقيز او من
رعية الجزاير فلا يبطل هذا الصلح لاجل ذلك بل تبحث وتفتش تلك
القضية على حقيقتها وليعبر العاصي المكسور ويكافى الضرر المحصول

الشرط الرابع عشر

اذا نقضت لا يسمع الله المهادنة والصلح بين جانبي الدولتين فلا يجوز
من الجهتين الفريقين اظهار العداوة وممارستها الا بعد ستة اشهر
من تاريخ بروزها التي في هذه المدة يستطيع الفرنسوا وجميع اهل
الدولتين برحيل لبلاده وحمل جميع ارزاقهم من غير ان يتعارض له
احد بسوء
الشرط الخامس عشر

فان الباقي غير مذكور في هذه الشروط يفصل على شروط الصلح التي
بين معيننا سلطان الانجليز وبين باشا الجزاير
الشرط السادس عشر
واما ليثبت ويدوم ابدا هذا الصلح بين الجانبين ورعية الدولتين فان
سلطان البرطقيز وباشا الجزاير يقبل وسامحة وضمن وكفالة سلطان الانجليز
لعهد وباشدور السلطان المذكور يستقبل ايضا هذه الشروط ويمضيها
وهنا تدفع نسختان للرسولين المذكورين واخذة لسلطانهما والاخرى

المراجع المعتمدة في البحث

- الزهار (أحمد الشريف ، نقيب أشراف الجزائر) ، مذكرات 1754- 1830 ، نشر وتعليق أحمد توفيق المدني ، الجزائر ، 1974 .
- سعيدوني (ناصر الدين) ، صفحات من ماضي الجزائر المجيد البحرية الجزائرية : ظروف نشأتها وعوامل تطورها وأسباب ضعفها ، مجلة الدراسات التاريخية - معهد التاريخ - جامعة الجزائر - عدد 1/1996 ، ص ص 63-91 .
- زوزو (عبد الحميد) ، هدنة 1810 ومعاهدة 1813 ، بين الجزائر والبرتغال ، مجلة التاريخ ، عدد 11/ 1981 ، ص ص 21-52 .
- زوزو (عبد الحميد) ، نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر المعاصر ، 1830-1900 ، الجزائر ، 1984 .
- سبنسر (وليام) ، الجزائر في عهد رياس البحر ، ترجمة عبد القادر زبادية ، الجزائر ، 1980 .
- وولف (جون) ، الجزائر وأوربا ، ترجمة أبي القاسم سعد الله ، الجزائر ، 1986 .
- بو عزيز (يحيى) ، مفاوضات الصلح بين الجزائر وإسبانيا من خلال مراسلات الداي محمد عثمان باشا 1780-1787 ، مجلة أوراق - مدريد ، عدد 7-8 / 1985 ، ص ص 75-89 .
- Archives du Ministère de la Guerre à Vincennes, Paris, H.228.
- Archives Nationales d'Outre - Mer à Aix - en - Provence, F.80/1733, Recueil de documents authentiques et officiels Concernant les tributs payés à la Régence d'Alger par divesses nations Chrétiennes, écrits par A. Devoulx, (Le Portugal, pp. 18-19).
- Tachrifat - Recueil de notes historiques sur l'administration de l'ancienne Régence d'Alger, Pub. par A. Devoulx, Imp. du Gouvernement, Alger, 1852.
- Devoulx (A.) - Un exploit des Algériens en 1802, in Revue africaine, 1865, p. 127.
- Devoulx (A.) - La Marine de la Régence d'Alger, in Revue africaine, n° 77.

- Devoulx (A.) - Le registres des prises maritimes, in Revue africaine /1872, (doc. N° 357, pp. 71/72).
- Devoulx (A.) - Le Rais Hamidou, Alger, A. Jourdan, 1859.
- Roman (L.D.) - Le commerce entre le Portugal et le Maroc pendant la deuxième moitié du XVIIIè siècle, Traduit par M. De Epalza, in Revue d'Histoire Maghrébine, n° 5, 1976, pp. 27-46.
- Grammont (H.De) Alger sous la domination turque (1515-1830), Alger, 1887.

ملحق

ترجمة لوثيقة تتعلق بمعاهدة الصلح مع البرتغال (1228 هـ/1813 م)

ما يتوجب على البرتغال

1 . خلال حكم سيدنا الحاج علي باشا[1] ، وفي شهر شوال 1225 هـ (1810م) ، تم إعلان الحرب على البرتغاليين الكفرة ، وبعد عامين التمسوا الصلح منه ، وقد حدد سيدنا الحاج علي باشا مبلغا من المال مقابل وقف الحرب معهم .

كتب ذلك يوم الثلاثاء ، الخامس عشر من شهر جمادى عام 1228 هـ (1813م) . ويتوزع المبلغ المالي الذي تكفلوا بدفعه كالتالي :

يعود لخزينة البايليك : 350000 دورو فضي (1470000 فرنك) للباشا ، وكانوا يدفعون قبل ذلك 7 ريالات سلطاني صغار ؛ ولحاشية الباشا : 150000 دورو (630000 فرنك) ، أي : أن المجموع 500000 دورو (2100000 فرنك) ، بالإضافة إلى فدية 541 أسيرا من النصارى ، أي : 850000 دورو (3570000 فرنك) تستخلص منها فدية 41 من المسلمين المسجونين بالبرتغال ، أي : 50000 دورو (210000 فرنك) .

هذا ويتوجب على البرتغاليين ، عملا بإحلال السلام ، فضلا على المبلغ السالف ذكره ، دفع إتاوة سنوية بقيمة 12000 دورو ، دفعت منها مسبقا قيمة إتاوتين (100800 فرنك) ، وذلك عوض ما كانوا يدفعون وهو مبلغ 7 ريالات بوجو صغار (50400 فرنك) .

و قد تم عقد الصلح على هذا الأساس بوساطة من دولة إنكلترا الكافرة .

---

(1) الداي الحاج علي باشا المعروف بحاجي علي خوجة : 1224-1230 هـ/1809-1814 م .

2 . دفع القنصل البرتغالي الإتاوة في 15 رجب 1228 (ماي 1813 م) ، ودفع كذلك القنصل البرتغالي الإتاوة السنوية في جمادى الثانية من عام 1230 هـ (1815 م) . ثم دفع إتاوة أخرى في شهر ماي 1232 هـ (1817م) . كما دفع القنصل الإنجليزي نيابة عن القنصل البرتغالي الإتاوة المتوجبة عليه في 7 ماي 1234 هـ (1818م) . وكذلك في شهر ماي 1236 هـ (1820م) . ثم قدم إتاوة أخرى في ماي شهر 1238 هـ (1822م) .

3 . دفع القنصل البرتغالي إتاوة في شهر ماي 1240 هـ (1824م) ، ثم في شهر ماي 1242 هـ (1826 م) .

المصدر :

- Archives Nationales d'Outre-mer à Aix-en-Provence, F80/1733.
- Devoulx (A.), Le Bandjek, Recueil de documents authentiques officiels concernant les tributs payés à la Régence d'Alger par diverses nations européennes, p.

الوطن في ذاكرة المقري(*)

مكانة الأندلس ومنزلة لسان الدين بن الخطيب في مدونة "نفح الطيب"

لقد كان الدافع لاختيار معالجة "الوطن في ذاكرة المقري" في هذا الملتقى عدة اعتبارات : أولها هجرة المقري من بلده تلمسان وحياته بعيدا عنه وموته في ديار الغربة ، رغم تعلقه به واشتياقه إلى العودة إليه ، وثانيها محاولة تلمس البعد الإبداعي في مخيلة المقري المعبر عن الحنين إلى الوطن والاشتياق إلى الأهل ، وثالثها ، ولعل أهمها ، وضعية العلماء الصعبة في المغرب الأوسط (الجزائر) في أغلب فترات تاريخه والتي دفعت العديد منهم إلى الترحال ومفارقة الأهل والاغتراب عن الوطن .

كل هذه الاعتبارات تفرض علينا في مستهل هذه المداخلة طرح إشكالية مكانة المثقف والأديب ومنزلة الكاتب والمفكر في مجتمعه ، هذه الإشكالية التي نحاول تحديد أبعادها من خلال هجرة المقري من وطنه وهروبه من واقعه ونفي نفسه في التأليف والتدريس والعبادة ، ويمكن إجمالها في هذه الأسئلة :

- لماذا هاجر المقري من تلمسان وفضل العيش بعيدا عنها في المغرب الأقصى أولا والمشرق العربي أخيرا ؟ .
- هل كان إنتاجه الأدبي وإسهامه التاريخي يعكس حياته في دار الهجرة وبعده عن الأهل والوطن ؟ .
- هل وجد في ذكرى الأندلس وطنا عاشه في ضميره وعبر عنه بعاطفته ، وفي صورة

(*) بحث قدم في الملتقى الدولي حول أبي العباس أحمد المقري التلمساني ، المنعقد بكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية ، جامعة تلمسان (الجزائر) ، يومي 13 و14 جوان 2001 .

أديب غرناطة وكاتبها ووزيرها لسان الدين بن الخطيب شخصية تعكس طموحاته وميوله ؟.

- هل أن هجرة المقري مثالا يتكرر وظاهرة تتجدد في تاريخ المغرب الأوسط (الجزائر) ؟.

د. المقري في ارتحاله من تلمسان وانتقاله بين أقطار المغرب والمشرق:

ولد أبو العباس أحمد المقري بتلمسان سنة 986 هـ (1578 م) حسبما سجله سيدي العربي الفاسي في مرآة المحاسن من أخبار أبي المحاسن[1]، ونشأ في دار المقري بدرب السلسلة[2]، وتلقى تعليمه على شيوخ بلده وفي مقدمتهم عمه أبو عثمان سعيد المقري مفتي تلمسان (ت. 1010هـ/1600م).

وكان أول ارتحاله عن تلمسان إلى المغرب الأقصى عندما اصطحبه الفقيه إبراهيم بن محمد الآيسي أحد قواد السلطان السعدي أحمد المنصور الذهبي (986-1012 هـ/1578-1603 م)، وقد كان هذا الفقيه قد أعجب بحدة ذكاء المقري وتوقد قريحته ورجاحة عقله وغزارة علمه، فقدمه إلى السلطان أحمد المنصور بمراكش، فاندمج المقري لفترة في جماعة علماء البلاط السعدي، حيث اطلع على التآليف وتعرف على العديد من الشخصيات، وساعده على التعمق في دراسة مسائل الفقه وقضايا الأدب. وقد برزت مكانته العلمية في تأليفه لكتاب "روضة الآس العاطر الأنفاس في ذكر من لقيته من علماء مدينة فاس"، الذي بدأ كتابته في مدينة فاس، وواظب على إتمامه عندما عاد إلى تلمسان (1010 هـ/1601 م)، وكان يأمل أن يقدمه إلى السلطان أحمد المنصور الذي شاءت الأقدار أن يتوفى قبل أن ينتهي المقري من تأليفه (1012 هـ/1603 م)، وهذا ما جعل المقري يتصل عند عودته إلى المغرب (1013 هـ/1604 م) بالسلطان زيدان السعدي، ويتولى الإمامة والخطابة بجامع القرويين بفاس، قبل أن يرتقي بعد فترة إلى خطة الإفتاء بعد وفاة شيخه محمد الهواري (1022 هـ/1604م)، وهذا ساعده على تعزيز مكانته ونيل رضا السلطان "الشيخ محمد السعدي"، فطابت له الإقامة بحاضرة فاس مدة ناهزت خمس عشرة سنة، ألف أثناءها "أزهار الرياض" و"أنواء تلمسان" والتي قال فيها[3]:

بلـــد لبـــه الأنـــس حينـــا
صـــفا العـــود فيـــه والإبـــداء
فـــقت عهـــده العهـــاد وردت
منـــه تلـــك النـــوادي الأنـــداء

أو يتحول عن المغرب الأقصى الذي قال فيه[4]:

قطـــر كـــأن نســـيمه
نفحـــات كـــافور ومـــسك
وكـــأن زهـــر رياضـــه
در هـــوى مـــن نظـــم ســلك

ما كان المقري يغادر فاس لولا الاضطرابات والضغوط التي تعرض لها من جراء تلك الاضطرابات، فركب البحر من ساحل تطوان في شهر رمضان 1027 هـ/1617 م نحو مصر، وقد سمحت له هذه الرحلة أن يمر بمدينة الجزائر وأن يتعرف على عالمها أبي عثمان سعيد قدورة، ولم يفته أن يطلع على واقع الحكم العثماني بها، ولعله وجد نفسه غريبا في بيئة تعيش الجهاد البحري ولا تهتم كثيرا بذوي المعرفة والعلم، فآثر مواصلة السير إلى المشرق، فنزل بمدينة تونس، ومر بسوسة، ثم التحق بالإسكندرية ومنها قصد القاهرة، فأقام بها نحو شهر ثم غادرها إلى الحجاز لأداء فريضة الحج والعمرة (1028 هـ/1618م)، ثم أعاد الحج والعمرة في السنة التالية ليعود بعدها مرة أخرى إلى القاهرة (1029 هـ/1619م) حيث اتخذها دار هجرته. وتزوج هناك امرأة من أسرة السادة الوفائية، وقد اتخذ لنفسه مكانا في رواق المغاربة بالأزهر للتدريس، وأثناء ذلك أدى فريضة الحج عدة مرات بلغت في مجملها خمس حجات مكث في بعضها مجاورا بمكة المكرمة والمدينة المنورة حيث أملى الحديث بالمسجد النبوي

الشريف ووضع هناك مصنفه "فتح المتعال وأزهار الكمامة".

انتقل المقري أثناء إقامته بمصر إلى بلاد الشام فزار غزة والقدس ودرس بالمسجد الأقصى، واستقر به المقام بدمشق مدة أربعين يوما ألقى خلالها دروسا بالجامع الأموي واختتم به شرح صحيح البخاري (1037 هـ/1628 م) ثم عاد إلى مصر وفي نيته العودة إلى دمشق للاستقرار بها بعد أن ماتت ابنته وطلق زوجته وأكمل معلمته الأدبية والتاريخية "نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب"، لكن الأجل لم يمهل المقري للارتحال مجددا إلى الشام، فوافته المنية بالقاهرة في شهر جمادى الآخرة 1041هـ/1632م عن سن لم يتجاوز الرابعة والخمسين (54 سنة) فدفن غريبا في قرافة المهاجرين غير بعيد عن الجامع الأزهر[5].

هذا وقد أدرج المقري في كتابه "نفح الطيب" فقرة تلخص محطات حياته وتحدد خط رحلته والأماكن التي استقر بها في ترحاله، جاءت بهذه العبارة: "ارتحلت عنها (أي تلمسان) في زمن الشبيبة إلى مدينة فاس سنة تسع وألف (1009 هـ) ثم رجعت إليها آخر عام عشرة وألف (1010 هـ) ثم عاودت الرجوع إلى فاس سنة ثلاثة عشرة وألف (1013 هـ) ثم ارتحلت عنها للمشرق أواخر رمضان سنة سبع وعشرين وألف (1027 هـ)، ودخلت مصر في رجب عام ثمانية وعشرين (1028 هـ) والشام بشعبان عام سبعة وثلاثين وألف (1037 هـ) وأُبتُ منها إلى مصر أواخر شوال من العام"[6].

2ـ حياة المقري في دار هجرته :

لم يكن المقري راضيا عن حياته في المشرق بعد أن عاش أيام عز ورفعة وسؤدد بفاس حيث كان سعيدا بحياته الزوجية قانعا بحياته العلمية غير آبه بما يكيده له منافسوه، معززا مكرما من محبيه المقدرين له من ذوي الجاه والعلم والسلطان، فقد كان الأمر مختلفا في مصر، إذ لم ينل بها ما كان يأمله ويستحقه أديب في منزلته وعالم في مكانته، وقد عبر عن ذلك في بعض أشعاره، نقتطف منها هذه الأبيات[7]:

تركت رسوم عزي في بلادي
وصرت بمصر منسي الرسوم
ورضت النفس بالتجريد زهدا
وقلت لها عن العلياء صومي
مخافة أن أرى بالحرص ممن
لا يكون زمانه أحد الخصوم

ومما زاد في شقائه بمصر إخفاقه في زواجه الثاني، فلم يجد السعادة الزوجية ولم يهنأ بالاستقرار بارتباطه بسيدة من عائلة السادة الوفائية المتنفذة، فظل التوتر يسود حياته الأسرية، وانتهى به الأمر إلى تطليق زوجته بعد أن لن يعد يربطه بها شيء إثر وفاة ابنته منها (1038 هـ)، وقد جلب له هذا الطلاق نقمة أسرة زوجته الثرية صاحبة النفوذ. وقاطعه من كانت له صلة به بسببها، وأحجموا عن التعامل معه، فحز ذلك كثيرا في نفس المقري، ولم يجد من يشتكيه همه ويبثه أحزانه، وقد عبر عن ذلك لأحد أصدقائه خارج مصر بقوله: "ولما طلقتها لم يبق في مصر (القاهرة) أحد يسلم علي إلا رجل حداد"[7].

ومما زاد في محنته بمصر شعوره بالعزلة ومعاكسة الحياة له، فقد كان يعاني ثقل حياته وخيبة آماله وانتكاس طموحه وسعي بعض علماء مصر للنيل من مكانته العلمية ومنزلته الأدبية حسدا وغيرة، وهذا ما جعل الخفاجي يؤكد أن المقري "وجد بمصر الكساد والنفاق وتجارة الآداب ليس لها بسوقها نفاق". على أن المقري لم يجد ما يغالب به الصعاب سوى التحلي بالعزيمة والإرادة لمواجهة كيد الكائدين وحسد الحاسدين، ورغم أن نفسه تعاني من ذلك أشد المعاناة فإنه كان يترفع عن الصغائر ويعتز بنفسه، وهذا ما عبر عنه في هذا البيت:

ولي عزم كحد السيف ماض
ولكن الليالي من خصومي

وكما يتضح ذلك أيضا من خلال هذه العبارات: "و ليت شعري علام يحسد من أبدل الاغتراب شارته وأضعف الاضطراب إشارته، وأنهل بالدموع أنواءه، وأقلل

أضواءه، وكثر علله وأدواءه»[8].

إلا أن المقري حاول تجاوز ذلك بالترفع عن المعاملة بالمثل والالتزام بأخلاق العلماء والسير على نهج الفقهاء. فابتعد عن كل صداقة أو معاملة يرى أنها قد تنال من كرامته وعزة نفسه. فعزل نفسه وامتنع في أغلب الأوقات عن مخالطة الناس مما عمق شعوره بالغربة والحرمان، فصار منقبض النفس منكسر الفؤاد "فالقلب ـ حسب قوله ـ حليف شجن وغربة والفكر أليف حزن وكربة»[9]، و"الخاطر بأشجان الغربة، الجالبة للفكر غالب الكربه، وتقسم البال، بين شغل عائق وبلبال»[10].

3ـ الحنين إلى تلمسان:

ظلت تلمسان ماثلة في ذاكرة المقري، فهو لم يفتأ يحن إليها ويتحسر على فراقها ويمني النفس بالرجوع إليها والعيش فيها. فجاء ذكره لها في كتابه نفح الطيب بعبارات تدل على مدى ارتباطه وتعلقه بها، فانتسب إليها بقوله: "و بها (تلمسان) ولدت أنا وأبي وجدي وجد جدي. وقرأت بها ونشأت إلى أن ارتحلت عنها في زمن الشبيبة إلى مدينة فاس»[11]. كما اعتبرها موطن الأهل ومنزل الأجداد في هذه العبارة: "تلمسان هذه هي مدينتنا التي علقت بها التمائم، وقد نزلها من سلفنا عبد الرحمن بن أبي بكر المقري بن علي صاحب الشيخ أبي مدين الذي دعا له ولذريته بما ظهر فيهم قوله وتبين، وهو الأب الخامس كما سبق في ترجمة أخبارهم»[12].

وهذا ما جعله يحرص على الإشادة بمحاسن تلمسان، فهي حسب قوله: "أحسن مدائن المغرب ماء وهواء»[13]، وهذا ما جعل ابن مرزوق يصف تلمسان بقوله:

بلد الجدار[14] ما أمر نواها
كلف الفؤاد بحبها وهواها
يا عاذلي في حبها كن عاذلي
يكفيك منها ماؤها وهواها

وقد أثبت المقري في كتابه "نفح الطيب" العديد من الأشعار التي تصف تلمسان

وتذكر مرابعها وتشير إلى محاسنها، وهذا ما دفع عبد الكريم الفقون الأديب القسنطيني (ت. 1073 هـ/1662 م) إلى القول: "إن للمقري محبة في المغاربة وله معهم مباسطة وإن كان شغوفا بوطنه وأهله، وأنه كان كثير الحج مع الركب المغربي (عندما كان بالقاهرة) ليتحدث مع أهله (أي: حجاج تلمسان) فيتسلى ويسمع أخباره، كما كان يتراسل مع عدد من علمائه وأدبائه"، وقد علل ذلك ابن الفقون بكون المقري قد "ترك ابنته وأهله وراءه»[15].

لقد حرص المقري على الإشادة بمحاسن موطنه تلمسان، فأثبت في كتابه "نفح الطيب" العديد من الأشعار التي أشادت بتلمسان عاصمة المغرب الأوسط الحضارية وعاصمة الدولة الزيانية ووارثة مجد الموحدين وحافظة تراث الأندلس، منها قصائد أبي عبد الله محمد بن يوسف القيسي المعروف بالثغري، ولسان الدين بن الخطيب، والإمام أبي عبد الله محمد، وابن خميس، وأبي عبد الله محمد بن أبي جمعة التلالسي. فقد فخر بها أبو عبد الله محمد بن يوسف القيسي في معرض مدحه للسلطان الزياني أبي حمو موسى بقوله[16]:

قم مبصرا زمن الربيع المقبل
تر ما يسر المجتني والمجتلي
تاهت تلمسان بدولته على كل
البلاد بحسن منظرها الجلي
راقت محاسنها ورق نسيمها
فحلا بها شعري وطاب تغزلي
عرج بمنعرجات باب جيادها
و افتح منها بباب الرجاء المقفل
ولتغد إلى العباد منها غدوة
تصرح هموم النفس عنك بمعزل

وتمشي في جنباتها ورياضها
واجنح إلى ذاك الجنان المخضل

يسليك في دوحاتها وتلاعها
نغم البلابل واطراد الجدول

وبربوة العشاق سلوة عاشق
فتنته ألحاظ الغزال الأكحل

بنواسيم وبواسم من زهرها
تهديك أنفاسا كعرف المندل

كما ذكر محمد بن يوسف كذلك مرابعها في قصيدة أخرى مدح بها السلطان الزياني، منها هذه الأبيات[17]:

أيها الحافظون عهد الوداد
جددوا أنسنا بباب الجياد

وصلوها أصائلا بليال
كلآل نظمن في الأجياد

في رياض منضدات المجاني
بين تلك الربى وتلك الوهاد

كم غدونا بها لأنس ورحنا
جادها رائح من المزن غاد

يا حيا المزن حيها من بلاد
غرس الحب غرسها في فؤادي

حيث مغنى الهوى وملهى الغواني
ومراد المنى ونيل المراد

كل حسن على تلمسان وقف
وخصوصا على ربى العباد

ومن عيون شعره في تلمسان أيضا قوله[18]:

تاهت تلمسان بحسن شبابها
وبدا طراز الحسن في جلبابها

فالبشر يبدو من حباب ثغورها
متبسما أو من ثغور حبابها

قد قابلت زهر النجوم بزهرها
وبروجها ببروجها وقبابها

كما لم يفت المقري أن يثبت استهلال لسان الدين بن الخطيب إحدى قصائده بهذه الأبيات في وصف تلمسان[19]:

حيا تلمسان الحيا فربوعها
صدف يجود بدره المكنون

ما شئت من فضل عميم إن سقى
أروى ومن ليس بالممنون

أو شئت من دين إذا قدح الهدى
أروى دنيا لم تكن بالمدون (دنية)

ورد النسيم لها بنشر حديقة
قد أزهرت أفنانها بغصون

وإذا حبيبة[20] أم يحيى أنجبت
فلها الشفوف على عيون العين

وفي ميله لموطنه وحنينه إليه واشتياقه إليه، ضمن المقري كتابه "نفح الطيب" عدة قصائد في مدح تلمسان والإشادة بمحاسنها، منها قصيدة للتلالسي مطلعها[21]:

سقى الله من صوب الحيا هاطلا وبلا
ربوع تلمسان التي قدرها استعلى
ربوع بها كان الشباب مصاحبي
جررت إلى اللذات في دارها السابلا
وكم غازلتني الغيد فيها تلاعبا
وكم من عذول أطيع له قولا
وكدية عشاق لها الحسن ينتهي
يعود المسن الشيخ من حسنها طفلا

ومنها قصيدة لأبي عبد الله محمد بن خميس يَحِنُّ فيها لتلمسان[22]:

تلمسان جادتك السحاب الروائح
و أرست بواديك الرياح اللواقح
وسح على ساحات باب جيادها
ملث يصافي تربها ويصافح
ضباء مغانيها عواط عواطف
و طير مجانيها شواد صوادح
على قرية العباد مني تحية
كما فاح من مسك اللطيمة فائح
نسيت وما أنسى الوريط ووقفة
أنافح فيها روضة وأفاوح
لئن كنت ملآنا بدمعي طافحا
فإني سكران بحبك طافح

وكذلك أبيات ابن خميس في التأسي على عهد الشباب بتلمسان[23]:

تلمسان لو أن الزمان يسخو
منى النفس لا دار السلام ولا الكرخ

ومهادي بها والعمر في عنفوانه
وماء شبابي لا أجن ولا طبخ
معاهد أنس عطلت فكأنها
طوامس ألفاظ تحيفها النسخ

4ـ المقري يجد في ذكريات الأندلس ما يعوضه عن حنينه إلى تلمسان:

إن حنين المقري لتلمسان وتعلقه بها وبعده عنها حولها في ذاكرته إلى فردوس مفقود ووطن موعود. وقد وجد في مأساة الأندلس وقد كانت حديثة العهد، ما يذكره بتلمسان ويحيي ذكراها ويؤجج عواطفه نحوها، فارتسمت صورتها المثالية في مخيلته وملأت وجدانه وأحاسيسه، فخلدها في معلمة "نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب"، وجعل منها موضوع تأسي يخفف عنه غربته وتشوقه لموطنه تلمسان. وبهذا الموقف اتخذ المقري من الأندلس دار هجرته في أحلامه، وموضوع إبداعه وتصوراته الأدبية، فحاول من خلالها أن يتجاوز واقعه المتأزم بإحياء أمجاد الأندلس، ومما ساعده على ذلك أن ذكرياتها ما زالت ماثلة لعينيه وصدى أحداثها لم يبرح مخيلته لقرب الأندلس منه مكانا وزمانا، ولارتباطها بتكوينه إحساسا ووجدانا وفكرا، فاستبدل فيها المقري تلمسان الواقع الذي ابتعد عنه بالأندلس الذكرى التي لا زالت عالقة بذهنه، وهذا ما عبر عنه بقوله: "إن شجون الحديث التي حواليها (أي: الأندلس) شوقني إلى معاهدي المغربية التي أكثر البكاء عليها". فأحيا ذكراها وخلد أمجادها وأشاد بفضائلها في معلمته "نفح الطيب"، فجاءت بفعل عمق العاطفة وطرافة الموضوع وتنوع المعلومات وحسن العرض عملا إبداعيا ومرجعا معرفيا، جعل مؤلفه يرى فيه شيئا مستحدثا في عالم الأدب، تجاوز فيه المقري الكتابة التقليدية وأساليب التأليف المتعارف عليها إلى معالجة عاطفية سمحت له برسم لوحة حية لتراث الأندلس ومآثر رجالها وعطاء أدبائها وكتابها من البكري إلى ابن بشكوال إلى لسان الدين بن الخطيب، فكانت معلمته "نفح الطيب" بحق، حسب قول المقري نفسه: "هدية مستملحة ومستعلبة، وطرفة مقبولة

مستغربة»[24]. كما أنها حسب أمير البيان العربي شكيب أرسلان "حقيبة أنباء وقمطر حوادث وخزانة آداب وكشكول لطائف وديوان أشعار".

لقد استعاض المقري بتأليفه "نفح الطيب" عن ما كان ينوي كتابته عن تلمسان وتاريخها، قبل ارتحاله عنها إلى المغرب الأقصى، وهذا ما أشار إليه بقوله: "و قد كنت بالمغرب نويت أن أجمع في شأنها كتابا ممتعا أسميه بأنواء نيسان في أنباء تلمسان، وكتبت بعضه، ثم حالت بيني بين ذلك العزم والأقدار، وارتحلت منها إلى حضرة فاس حيث ملك الأشراف ممتد الرواق، فشغلت بأمور الإمامة والفتوى والخطابة وغيرها، ثم رحلت بنية الحجاز وحولت إلى الحقيقة المجاز، وهاأنذا إلى الآن في البلاد المصرية، وفي علم الله تعالى ما لا نعلم، والتسليم لأحكام الأقدار أسلم، والله تعالى يختم لنا بالحسنى بجاه نبيه ومصطفاه ﷺ»[25].

على أن "نفح الطيب" ما كان له أن يؤلف لولا سفر المقري إلى الشام وتفاعله بوسطها الأدبي، وقد وجد في دمشق خير حافز له على ذلك، فقد أثارت فيه بجوها العلمي وفضائها الثقافي وتفاعلها الاجتماعي لواعج النفس، فرأى فيها صورة متجددة لموطنه تلمسان، فقال عن نفسه: "لقد تذكرت بلادي النائية بذلك المرأى الشامي الذي يبهر رائيه»[26]. فجعل مآثر تلمسان ومآسيها موضوعه المفضل لحلقاته العلمية بالجامع الأموي التي تحولت بفضل تشجيع نخبة من علماء الشام وأعيانها وفي مقدمتهم أحمد بن شاهين وعبد الرحمن العمادي ومحمد بن يوسف الكريمي ومحمد علي القاري ويحي المحاسني، إلى مشروع معلمة تخلد الأندلس وتحيي ذكرى وزيرها لسان الدين بن الخطيب.

لقد بعثت "الأندلس" في المقري من خلال ما سجله من أخبارها وما أورده من اثرها وما ذكره من رجالها روحا جديدة وعزيمة قوية جعلته يتجاوز واقع غربته ينسى شجون أحزانه، بل دفعته إلى التفكير في تغيير أسلوب عيشه وطريقة حياته، ستقر رأيه على القدوم إلى دمشق ومغادرة القاهرة، فعاد إلى مصر (1037 /1627م) وكله تصميم على بدء حياة جديدة، فانكب على إنجاز معلمته الأندلسية ـح الطيب"، فانتهى من تسجيل مادتها في ظرف ستة شهور، وما كان لغيره أن ينتهي

منها لضخامة مادتها وغنى محتواها في ظرف سنوات، فحقق بذلك إنجازا تاريخيا وإسهاما أدبيا كانت الذاكرة العربية آنئاك في أشد الحاجة إليه.

إن المقري بتعلقه بتلمسان وتذكره مآثر العرب المسلمين بالأندلس فرض نوعا جديدا من العرض التاريخي والإسهام الأدبي وهو تاريخ الذكريات وأدب الحنين إلى الوطن. ورغم أن التراث العربي لا يخلو من هذا التوجه إلا أنه لم يكن له من التأثير والالتزام والعمق ما يماثل إسهام المقري في هذا المجال، ولعل هذا ما يجعل المقري مجددا فيما يتعلق بالإحساس بالانتماء إلى الوطن والتأكيد على عاطفته نحوه والارتباط به والانتساب إليه اللتي سوف تقوم عليه في العصور الحديثة فكرة الوطنية ببعدها السياسي ومفهومها الإيديولوجي.

كما أن المقري بارتباطه بالتراث الأندلسي المغربي والتعريف به في المشرق من خلال ما سجله في كتبه ابتداء من روضة الآس وانتهاء بنفح الطيب يعتبر بحق رائد المدرسة المغربية الأندلسية بشقيها الأدبي والتاريخي، وهذا ما يجعله حلقة وصل بين عطاء القدماء وإسهام المتأخرين من الأدباء والمؤرخين الأندلسيين والمغاربة، ويظهره في طليعة مجموعة العلماء التي آثرت التحول إلى المشرق ومغادرة المغرب بعد أن انقطع تيار ارتحال العلماء من المشرق إلى المغرب، وقد عبر عن ذلك مفتي الشام عبد الرحمن العمادي عندما وصف المقري في قصيدة بعث بها إليه بقوله[27]:

شمس هدى أطلعها المغرب
وطار عنقاء بها مغرب

فأشرقت في الشام أنوارها
وليتها في الدهر لا تغرب

أعني الإمام العالم المقري
أحمد من يكتب أو يخطب

والمقري باعتباره وجها بارزا في تيار هجرة العلماء المغاربة إلى المشرق يعبر عن حركية الثقافة العربية الإسلامية وتراجعها من الأطراف إلى المركز بفعل الظروف

السياسية والتحولات الاجتماعية والثقافية ودوافع الرحلة لأداء فريضة الحج وطلب العلم والقيام بالأعمال التجارية وطلب الشهرة وتجنب الظروف الصعبة التي كانت بلاد المغرب العربي تعيشها بعد كارثة الأندلس... فكان في ذلك المقري حلقة في سلسلة من التواصل البشري والتفاعل الروحي الذي يؤكد تكامل المناخ الفكري والثقافي بين مشرق العروبة ومغربها. فلم يعد المشرق مكتفيا بتراثه ولم يعد ينظر إلى ما يساهم به المغاربة على كونه اجترارا لعطاء الثقافة العربية، وإنما أصبح في حاجة إلى ما يكتبه المغاربة لما فيه من إبداع وتجديد.

5ـ المقري يجد في مأساة لسان الدين بن الخطيب ما يعبر عن موقفه في الحياة وعلاقته بالحكام:

تعرف المقري على واقع الثقافة العربية الإسلامية ووضعية رجالها بموطنه تلمسان وفي دار هجرته الأولى بمراكش ثم فاس، وأثناء استقراره في هجرته الثانية بمصر وتردده على الحجاز والشام، فخبر عن قرب مدى انقطاع أصحاب السلطة عن فضاء الثقافة ومجافاة أصحاب الفكر والكلمة الحرة، ولم يفته في ذلك ما كان يلاحظه من سعي مثل الأدباء والفقهاء لدى الحكام من أجل العيش الكريم والمكانة الرفيعة، جعل بعضهم يتخلون عن رسالتهم من أجل تحقيق مطامحهم ويتنازلون عن تفوقهم الأدبي وهيبتهم العلمية ليصبحوا في زمرة المتزلفين والوصوليين والمتزاحمين على أبواب السلطان... وهذا ما أشعر المقري المتشبع بتقاليد السلف والمعتز بمكانة العالم وحرمة العلم بالتحدي، بل زاده نفورا من الحكام وذوي النفوذ، فأبت عليه نفسه الحرة أن يجاري علماء البلاط وفقهاء السلطان، وهذا ما عبر عنه في هذين البيتين[28]:

وما أنا عن تحصيل دنيا بعاجز ... ولكن أرى تحصيلها بالدنية

وإن طار عني رقة حال مرة ... أبت فعلها أخلاق نفس أبية

لقد وجد المقري في حياة لسان الدين بن الخطيب وفي مأساته ما يعبر عن موقفه ويجدد علاقته بذوي السلطة. فأخذ على نفسه إنصاف لسان الدين بن الخطيب المثقف والأديب والشاعر، فأحيا ذكراه وأعاد له مكانته بل خلده في التاريخ كأحد نوابغ الثقافة العربية في فترة أفولها بالأندلس، وما كان للمقري ذلك لولا إحساسه العميق وارتباطه اللاشعوري بلسان الدين بن الخطيب، فقد رأى فيه تجسيداً لشخصيته وتكراراً لتجربته وتعبيراً عن نظرته إلى الحياة وعلاقته بالحكام وموقفه منهم.

إن قراءة متأنية انطلاقا من نظرة جديدة تتجاوز الإطار التاريخي ولا تقنع بالتحليل الأدبي العادي، قد تسمح للباحث في حياة لسان الدين بن الخطيب ومعطيات تجربته أن يعالج مسألة السلطة وقضية الحكم وموقف ذوي السلطان من أهل العلم وأصحاب المعرفة والرأي؛ فحجر الأساس في حياة لسان الدين بن الخطيب وكذلك في تجربة المقري ومواقفه من الحياة وتعامله مع الناس، تنطلق من جدلية هذه العلاقة، فقد عرف المقري مثل سلفه لسان الدين متطلبات السلطة من العالم وضغطها القوي على سلوكه وفكره، وموقفه منذ صباه الباكر بتلمسان التي ودعت حكم بني زيان وتقبلت سلطة العثمانيين في جو من الاضطراب والفوضى وتدخل الإسبان، مما دفعه إلى مغادرتها، وعندما استقر به المقام بفاس لم يستطع البقاء بعيدا عن تقلبات السلطة وضغوطها وكادت حياته تنتهي بمأساة وتكون نهايته مماثلة لما عرفه لسان الدين بن الخطيب لولا حيطته واختفاؤه في ظروف وصفها بقوله: "إن سماسرة الفتن (بالمغرب) سامت بضائع أمنه نقضا وطما به بحر الأهوال"[29]، فغادر فاس نحو ساحل تطوان متسترا، وغادر المغرب على ظهر سفينة نحو الجزائر في شهر رمضان 1027 هـ/1617 م كما سبقت الإشارة إليه، وذلك ليأمن أذى أهل فاس وينجو من امتحان السلطان الشيخ المأمون السعدي الذي يصر على أن يصدر علماء فاس فتوى تجيز له تسليم مدينة العرايش للإسبان مقابل إعانتهم له على استرجاع عرشه والمحافظة على سلامة أهله المحتجزين لدى الإسبان. فاستجاب له عن كره بعض الفقهاء وامتنع البعض الآخر وفي مقدمتهم الشيخ محمد الجنان.

لقد كانت الهجرة خير مخرج للمقري الذي كان يتولى الإفتاء آنذاك بفاس بعد وفاة شيخه محمد الهواري (1022 هـ) كما سبقت الإشارة إلى ذلك. فقد رأى فيها خير مخرج

له من هذا الموقف الحرج، فهي تجنبه الخوض في قضية تمكين النصارى من أرض المسلمين، وتقيه من مغبة القبض عليه وإيقاع العقاب به، وقد ساعده على اتخاذ قرار الهجرة من المغرب تأثره بنهاية لسان الدين بن الخطيب ونفوره الطبيعي من الحكام الذي ظهر عندما تجنب حكام الجزائر وتعجل في الذهاب إلى تونس ليلتحق بمصر، وأكثر [illegible] في خدمة حكام مصر من الأتراك والمتعاونين معهم من أعيان المماليك، فظل [illegible] بعيدا عن ذوي السلطان وأصحاب القوة ويعيش حياة العلماء المتقشفين ويعاني معاناة الوحدة وتجاهل عامة الناس لمكانته ومنزلته العلمية.

إن موقف المقري من ذوي السلطان ونظرته للحكام تطرح إشكالا محوريا يتجاوز حياة لسان الدين بن الخطيب والمقري، ليؤثر في حياة الشعوب العربية والإسلامية، فقضية السلطة وممارسة الحكم تظل في نظرنا حجر الأساس في التفاعلات والتطورات التي عرفها العالم العربي الإسلامي منذ وفاة الرسول ﷺ وحتى الآن، لانعكاسها على تطور البنية السياسية والمناخ الثقافي للمجتمعات العربية الإسلامية، ولعجز الدول التي تعاقبت على حكم الأقطار العربية الإسلامية على إيجاد حلول عملية لها تكون في فائدة الفرد وتخدم تطور المجتمع وتتماشى وسير التاريخ.

فممارسة الحكم اعتمادا على القوة التي يوفرها الإقطاع العسكري وعصبية السيف، حولت مسألة السلطة وطريقة الحكم وقضية شرعية تولي الأمر عند المسلمين إلى ملحمة [illegible] مأساة دفعت بالمجتمعات الإسلامية وخاصة العربية منها إلى صراع مستمر وتوتر دائم، نتج عنه تراجع متسارع في العطاء الفكري والإسهام الحضاري، وعداء تقليدي بين من يستعمل السيف ومن يمتلك القلم، فلم يحل القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي إلا والسلوك العدائي للحكام لذوي الفكر الحر من العلماء والفقهاء والأدباء يصبح ظاهرة عامة تطبع حياة العالم الإسلامي، وتتحكم في سلوك حكامه، وما النهاية المأساوية للعديد من رموز الثقافة والفكر العربي الإسلامي إلا دليل قاطع على ذلك، وما من قارئ للتاريخ لا يتأثر بما تعرض له أبو محمد علي بن حزم (456 هـ/1063م)، وما عاناه أبو الوليد بن رشد (595 هـ/1198م) ومحمد بن مرزوق الخطيب (781 هـ/1379م)، ومن منا لا تهزه [illegible] للفكر العربي الإسلامي أمثال ابن تيمية (728 هـ/1327م) وابن سبعين وابن

الأبار (658 هـ/1260م) وأحمد الغبريني (704 هـ/1304م) ويحيى بن خلدون (780 هـ/1385م) ولسان الدين بن الخطيب (776 هـ/1374م).

6_ جدلية حق القوة وقوة الحق في صراع السيف والقلم عند المقري:

إن جدلية التناقض بين من يملك حق القوة بحد السيف ومن له قوة الحق بفضل العلم والمعرفة كانت نتائجها وخيمة على مقدرات العالم الإسلامي، لأنها تسببت في عسكرة الجهاز الإداري وتأزم العلاقات الاجتماعية واضطراب النشاطات الاقتصادية وانغلاق الفكر وجمود الثقافة، بعد أن كانت الغلبة لرجل السلطة الذي يملك المال الذي يغري والسلاح الذي يخيف والكلمة التي تنفذ، وأصبح أمر الرعية بيد من يمتلك القوة، مما قضى على أية معارضة فعلية أو معنوية، وعمل على تحويل العامة إلى غوغاء، والفقهاء والأدباء إلى تبع وحاشية يصدرون الفتاوى حسب الطلب وينسجون القصائد في المديح والإطراء والتزلف...

على أن انتصار القوة وتأكيد العلاقة القائمة على الخضوع والإكراه بين الحاكم بأمره والخاضع دون إرادته، لم تحقق للحكام إلغاء الخصم وحيازة حق التصرف المطلق، لأنهم ظلوا عاجزين عن امتلاك شيء لا يتأتى بالقوة ولا يمتلك بالحيازة والمصادرة والاستحواذ وهو قوة الحق وبقاء الضمير ونزاهة الموقف وخلود الفكرة وتأثير الكلمة، فكل متتبع للأحداث ومتفحص لنتائجها ومتفهم لمواقفها، يلاحظ أن رجال السلطة في العالم الإسلامي على مر السنين كانوا يمتلكون الجبروت ويرمزون إلى السلطة، ومع ذلك ظلوا عاجزين عن امتلاك أو مصادرة عبقرية المفكر وإبداع الأديب وإسهام المثقف خارج إرادته، فعز على كثير منهم وهم الذين اعتادوا المصادرة والحجز والقيام بدور المنهي والقاضي على [illegible] أن يحصلوا على ما كان يتمتع به المفكرون من مكانة معنوية ومنزلة أدبية وتأثير عميق في المواقف والسلوك، وهذا ما جعل الخصم الأبدي للحاكم، وهو المثقف الواعي صاحب المواقف، بمثابة ضمير الأمة وصاحب الكلمة الأخيرة في تطور أحداث التاريخ، ولعل ما حير العقل الاستبدادي للحاكم العربي أن يكتشف هؤلاء المثقفين من علماء وفقهاء، والأدباء [illegible] النبع والتنكيل التي طالتهم، تتحول مع الزمن إلى مظاهر انتصار لهم في آخر الأمر، وعند

كان النصر دائما بجانب المفكر الحر والأديب المبدع يقره ضمير الأمة وتسجله محكمة التاريخ التي لا تجامل الحكام ولا تلتفت إلى سلوكات التبع وطموحات الكسالى ومواقف الانتهازيين ولو كانوا من ذوي العلم والمعرفة وأصحاب الثقافة . . .

إن حياة المقري ومواقفه ومآثر لسان الدين بن الخطيب وتقلبات حياته تفرض على كل دارس للتاريخ ومستقرئ للأحداث، وكل أديب محلل للإسهام الأدبي ومتفهم لدوافعه معالجة إشكالية تعامل الأديب المفكر والفقيه العالم مع الحاكم بسيفه صاحب الأمر والنهي، لأنها مفتاح فهم المناخ الفكري وتحليل الواقع الاجتماعي، فلا يمكن دراسة إنتاج لسان الدين بن الخطيب وأساس تحليل إسهام المقري بعيدا عن طرح هذه الإشكالية، فمسألة السلطة كانت حجر الأساس في حياة كل من لسان الدين والمقري، كما كانت في كل العصور والبيئات قضية كل مفكر واع وأديب ملتزم وفقيه ورع . . .

لقد عبر المقري في "نفح الطيب"، كما أوضح لسان الدين قبله في "الإحاطة ونفاضة الجراب"، عن هذه الإشكالية، ليس باللفظ الصريح وإنما بالتلميح الأدبي الذي لا يقف عنده القارئ العادي، وإنما يستقرئه الباحث المتفحص، القادر على تكوين فكرة صحيحة عن المناخ الثقافي الذي عاشه كل من لسان الدين والمقري.

إن هذا المناخ الثقافي الذي عبر عنه المقري من خلال فاجعة الأندلس ومأساة لسان الدين بن الخطيب، لا يمكن فهمه ووضعه في مكانه من الذاكرة التاريخية العربية، إلا باستكمال النظرة بقراءة إسهام من ماثله من المفكرين والأدباء المغاربة وفي مقدمتهم ابن رشد وأبو بكر الطرطوشي وابن خلدون والقاضي عياض وابن الأزرق وغيرهم، فإنتاج هؤلاء يستكمل الصورة التي رسمها المقري لعصره من خلال التعريف بالأندلس وأديبها لسان الدين بن الخطيب، ولعلي لا أكون مخطئا إذا اعتبرت أن القراءة الصحيحة لهذه الصورة لا يمكن أن تتجاوز تناقضات إشكالية السلطة التي لا يمكن إيجاد حل لها إلا في جعل السلطة في أي بلد عربي مسلم تقوم على ثلاثة أبعاد، يد تنفذ تملك القوة وتكسب الهيبة والفعالية، وعقل مفكر قادر على معرفة قضايا العصر ومتطلبات المجتمع وحاجات الثقافة الإنسانية، وطاقة روحية تدفع لا تتأتى إلا ضمن إطار مفهوم

ديني يتطلب من الحاكم أن يكون على دراية والتزام بأحكام الشرع وشؤون القضاء، وبذلك فقط تكتسب الشرعية، وكل إخلال في المجتمع بين عامل العقل والإيمان والسيف يؤدي إلى قصور في التعامل ويبطل شرعية الحاكم ويضرب مصالح الأفراد ويهز كيان الأمة، وهذا ما عاشه العالم العربي الإسلامي عبر تاريخه الطويل ولا زال يعيشه حتى اليوم لاستحالة التوفيق في حياتنا بين يد فاعلة تنفذ وفكر نير يوجه وروح مبدعة تبث الحياة في الفرد وتنظم سلوك المجتمع.

إن أحمد المقري، شأنه شأن ابن خلدون قبله، لم ير في المغرب العربي كما لم يعش في المشرق العربي سوى مظاهر سلطة تقوم على أسبقية الحاكم المستبد على الفقيه المفكر، مما اضطر هذا الأخير إلى التخلي عن دوره في ممارسة نقد المجتمع والوقوف في وجه الحكام بعد أن اقتنع بأن التوافق بين الحاكم والعالم في السلوك والمهام شيء من قبيل المستحيل، بعد أن فشل لسان الدين بن الخطيب صاحب الوزارتين السيف والقلم في تقديم هذا النموذج من الحكام العلماء، ولعلي لا أكون مجانبا للحقيقة إذا قلت بأن المقري استوعب هذا الدرس الذي ارتسم في مخيلته وملك عليه شعوره، كما لا أكون بعيدا عن الحكم الصحيح إذا اعتبرت نهاية لسان الدين بن الخطيب مؤشرا لانقطاع عصر الإبداع في المغرب العربي بتكريس استبداد الحكام وتبعية الفقهاء وتهميش العلماء وخنوع الأمة وخضوعها.

7 ـ المقري يدافع عن بطله لسان الدين بن الخطيب

لقد تمثل المقري حياة لسان الدين الخطيب وحاول معالجتها من خلال ميوله الشخصية وقناعاته الذاتية، ولعله في ذلك كان يعبر عن قناعاته وموقفه من الحكام، بعد أن ملأت شخصية لسان الدين عليه حياته، وبعد أن وجد في ذكرى الأندلس ما يعوض به عن حرمانه من موطنه تلمسان ومرارة عزلته بفاس. لم يكن إعجاب المقري بلسان الدين صادرا عن تقدير أدبي فقط، وإنما هو نابع أساسا من إحساسه بأنه الشخصية المثالية التي يمكن أن يعبر من خلالها عن مواقف أصحاب الفكر والإبداع من قضايا عصرهم وشواغل مجتمعاتهم.

لقد كان المقري على حق عندما اختار بطله وعرف كيف يتناوله في إطار مأساة الأندلس لارتباط موت الفكر بضياع الوطن... إن لسان الدين بن الخطيب بكل معايير الدراسة التاريخية والأدبية يعتبر بحق فلتة من العبقرية وشعاعا من الفكر وشهابا مضيئا في سماء الأندلس والمغرب في وقت عم فيه الظلام وانمحت معالم المستقبل، حاول التوفيق بين ما لا يمكن الجمع بينه وعمل على تجاوز ما لا يمكن عبوره، لقد جمع في حياته شخصية الحاكم والمثقف، وعمل على ملاءمة سلوك من يملك حق القوة المرتبط بسلوك الحكام وقوة الحق المعبرة عن مكانة المفكر الحر، كما حاول أن يلائم في حياته بين طموح الحاكم وموقف الأديب، لكنه في الأخير وبعد أن تحول عنه السلطان النصري الغني بالله، اضطر أن يفك الارتباط وأن ينهي هذه العلاقة والمواقف المتناقضة، وعرف بعد أن تراجع هيلمان السلطة وبريقها حقيقة نفسه وجوهر شخصيته، فغدا مفكرا حائرا ومثقفا لا يملك إلا سلاح الفكر والقلم في مواجهة خصومه من ذوي القوة والسلطان الذين حاربوه بسلاح لا يعرفه وبأساليب لم يألفها، كيف له بقوة الحيلة والمكر وإغراء المال ورهبة السلاح وهو الأديب المفكر والمثقف المؤمن بالمواقف النزيهة والصادقة... فانتهت حياته كما هو معروف بالنفي إلى المغرب ثم بالقتل بمدينة فاس، ولعل التمثيل بجثته بعد إخراجها من قبرها وحرقها بمباركة مثقفي السلطة وتحريض فقهائها وفي مقدمتهم من قدم لهم الخدمات وشملهم بالعطف والرعاية أمثال تلميذه وخليفته في الوزارة ابن زمرك وصنيعته الفقيه أبو الحسن النباهي الذي قربه لسان الدين بن الخطيب وقلده القضاء والخطابة بجامع غرناطة، بعد أن كان فقيها مجهولا ببلده مالقة...

لقد عرف لسان الدين بن الخطيب كيف يشمت بهم ويجاوز مكرهم ويسخر منهم لأنه يمثل العبقرية التي لا تموت فيما هم يمثلون مصالح الحكام التي لا يمكن تبريرها، فظلت أبياته التي كتبها ليلة قتله ووضعها تحت وسادته قبل أن تنقطع أنفاسه خنقا على يد الحاقدين عليه بمثابة اللعنة الأبدية التي تلاحق أعداء الفكر والأدب والتأسي الذي لا يمكن أن ينساه ضمير كل مثقف مبدع وأصيل[30] :

بعدنا وإذ جاورتنا البيوت
وجئنا بوعظ ونحن صموت
وأنفاسنا سكنت دفعة
كجهر الصلاة تلاه القنوت
وكنا عظاما فصرنا عظاما
وكنا نقوت فها نحن قوت
وكنا شموس سماء العلا
غربنا فناحت علينا البيوت

***

فقل للعدا ذهب بن الخطيب
وفات، ومن ذا الذي لا يفوت
فمن كان يفرح منهم له
فقل، يفرح اليوم من لا يموت

إن نهاية لسان الدين بن الخطيب[31] بكونها رمزا لمأساة الفكر والمعرفة في العالم الإسلامي تعبر بعمق عن استحالة التوفيق بين السيف والقلم وبين بلاط الحكام ومجالس العلماء وبين الأوامر الصادرة عن مصالح آنية وبين فكر يتجاوز الذاتية ولا يرضى بتحكيم العاطفة، بل إن هذه النهاية تعتبر بحق أروع فصول حياة لسان الدين بن الخطيب الحافلة بجلائل الأعمال، إنها العقدة الأبدية في سيرة الحاكم والجريمة التي لا يمكن نسيانها في حق المفكر والأديب في عالمنا العربي الإسلامي.

إن تعريف المقري بعبقرية لسان الدين بن الخطيب يعتبر بحق مرافعة في محكمة التاريخ لمأساة الفكر وبؤس العقل في العالم الإسلامي الذي وضع فيه فقهاء السلطان نهاية للإبداع والتجديد، فكرسوا بذلك التقليد والاجترار والجمود، فلم يعد المسلمون يعيشون الحاضر ويتطلعون للمستقبل، وإنما صاروا يلتفتون إلى الماضي ويحاولون تقي

أنفسهم فيه بعد أن لم يعودوا يستطيعون مواجهة الأعداء على الحدود والوقوف في وجه استبداد وتسلط الحكام داخل تلك الحدود.

لقد عرف المقري من خلال ما كتبه وسجله ورواه عن لسان الدين بن الخطيب، كيف يبرز مظاهر عبقرية هذا الأديب المفكر، فأظهره أديبا مبدعا وشاعرا معبرا ومفكرا مجنحا، وأبرز صفاته الإنسانية الخالدة عندما انقشع عن مخيلته بريق المجد الخادع وهوى السلطة القاتل... فتحول بذلك رثاؤه لنفسه من شفقة وتأسي إلى شماتة بأعدائه، بل تحدي لسلوك الحكام في تعاملهم في كل زمان ومكان مع أهل الفكر والمعرفة والقيم. إن رثاء لسان الدين بن الخطيب لنفسه وانتظاره لموعده مع الموت يتجاوز الاعتبارات الذاتية ليرسم صورة إنسانية معبرة عن عداء السيف للعقل والقوة المادية للقيم الروحية، فكانت نهاية لسان الدين بن الخطيب في مفهومنا اليوم بمثابة تكريس لإلغاء روح المواطنة المسؤولة وتأييد لفكرة الرعية المأمورة، وتحييد للفكر الواعي لفائدة جمود التقليد، بدأت مع محنة ابن رشد ولم تنته إلى اليوم ممارستها المدمرة في الفضاء الثقافي والفكري في العالم العربي الإسلامي، وما دامت هذه السلوكات المدمرة قد حكمت على الشعوب العربية الإسلامية بالعجز الأبدي فإنه لا مناص من توجيه أصابع الاتهام إلى كل من ساهم في اضطهاد الفكر وتهميش رجاله، وعمل على غلق باب الاجتهاد وتأييد ثقافة اجترار النصوص والتعامل مع التراث بدون تمثل أو تجديد وإصدار الفتاوى حسب الطلب والمناسبة وإلهاء العامة بالشعارات الخادعة والكلمات الحماسية.

كل ذلك يتطلب منا قراءة جديدة للإسهام الأدبي والتاريخي للمقري، وخاصة معلمته "نفح الطيب"، وهذا ما يتطلب منا الحذر من القراءات السطحية التي تتبنى الأساليب الغربية والمفاهيم الأجنبية التي قد تنطلي على القارئ بفعل غموض المصطلحات وتأثير الإغراء والانجذاب لبريق ما يعرف بالحداثة، ويفرض علينا أيضا تجاوز النظرة التقليدية لفهم وتحليل التراث في بعده التاريخي وواقعه الأدبي، إلى محاولة تفهمه انطلاقا من واقع اليوم وتحديات الحاضر، هذا الواقع وتلك التحديات التي تؤكد لنا أن نقطة الضعف في الحضارة الإسلامية في جميع العصور هي قصور الفرد عن تجاوز منزلة الرعية الخاضعة إلى مرحلة المواطنة المتحررة، والتغلب على تناقضات مسألة السلطة من حيث تنظيمها وتحديد

مواصفاتها ومتطلبات شرعيتها وشروط فاعليتها.

وفي الأخير لا يسعنا إلا أن نؤكد أن دراسة إنتاج المقري، وخاصة معلمته "نفح الطيب"، بغض النظر عن مضامينها التاريخية ودلالاتها الأدبية، تظل رصيدا لا ينضب ومعيناً لا ينقطع لاستقراء الدروس واستلهام الأفكار واستخلاص العبر، مما يؤكد مكانة المقري ومنزلته في عالم الفكر والأدب، وهذا ما يجعل منه معلما خالدا في الذاكرة التاريخية العربية، كما كان في حياته شمعة أضاءت فضاء الشرق العربي بعد أن لم تجد المناخ الملائم والمكان الآمن بموطنها تلمسان.

الهوامش:

(1) سيدي العربي الفاسي، مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن، ط. فاس الحجرية، 1324 هـ.

- ذكر ليفي بروفنصال (Lévi-Provençal) أن ولادة المقري كانت سنة 999 هـ/1591م، وهذا غير صحيح وغير موثق.

(2) لا تزال حتى الآن الدار التي ولد وتربى بها المقري معروفة بحي مرسى الطلبة بالقرب من رأس البحر باب علي، درب السلسلة، بمدينة تلمسان القديمة.

(3) أبو العباس أحمد المقري التلمساني (986-1041 هـ/1578-1632 م)، نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار صادر، ج. 1، ص. 14. (سوف نشير إليه فيما يلي بـ "نفح الطيب")

(4) نفح الطيب، ج. 1، ص. 14.

(5) للتعرف على حياة المقري وإنتاجه الأدبي والمصادر المعتمدة في دراسته، راجع: ناصر الدين سعيدوني، من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي (تراجم مؤرخين ورحالة وجغرافيين)، ترجمة أبي العباس أحمد المقري، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1999، ص ص. 327-336.

(6) نفح الطيب، ج. 7، ص. 136.

(7) نفح الطيب، ج. 1، ص. 74.

(8) نفح الطيب، ج. 1، ص. 73.

(9) نفح الطيب، ج. 1، ص. 74.

(10) نفح الطيب، ج. 1، ص. 71.

(11) نفح الطيب، ج. 7، ص. 136.

(12) نفح الطيب، ج. 7، ص. 133.

(13) نفح الطيب، ج. 7، ص. 133.

(14) تعرف تلمسان أيضا ببلد الجدار.

(15) عبد الكريم الفقون، منشور الهداية في حال من ادعى العلم والولاية، تحقيق أبي القاسم سعد الله، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1987، ص. 223.

(16) نفح الطيب، ج. 7، ص. 126.

(17) نفح الطيب، ج. 7، ص ص. 121-122.

(18) نفح الطيب، ج. 7، ص. 25.

(19) نفح الطيب، ج. 7، ص. 129.

(20) حبيبة أم يحي: عين ماء بتلمسان يوصف ماؤها بأنه أعذب المياه وأخفها، تعرف باسم إحدى جواري القصر السلطاني بتلمسان.

(21) نفح الطيب، ج. 7، ص. 130.

(22) نفح الطيب، ج. 7، ص. 131-132.

(23) طاهر توات، ابن خميس، شعره ونثره، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1991، ص. 137.

(24) نفح الطيب، ج. 1، ص. 18.

(25) نفح الطيب، ج. 7، ص. 135.

(26) نفح الطيب، ج. 1، ص. 118.

(27) نفح الطيب، ج. 2، ص. 412.

(28) نفح الطيب، ج. 1، ص. 74.

(29) نفح الطيب، ج. 1، ص. 13.

(30) أوردها ابن خلدون وأثبتها عبد الله عنان في تحقيقه للإحاطة، انظر: لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، القاهرة، مكتبة الخانجي، 1973.

(31) للتعرف أكثر على نهاية ابن الخطيب، راجع: ناصر الدين سعيدوني، من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي (تراجم مؤرخين ورحالة وجغرافيين)، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1999، ص ص. 165-181.

من وحي الأندلس
"رحلتي في ربوع إسبانيا"

إن الأندلس في الوجدان العربي وفي الإحساس الإسلامي وفي المخيلة المغاربية، ليست إقليما جغرافيا محدود المعالم أو مجتمعا بشريا متميز الصفات، وإنما هي ذكريات تاريخية وقيم حضارية تثير الشعور بعزة الأمس ومذلة اليوم، لا تدع في عالمنا العربي الإسلامي المعاصر الباحث موضوعيا ولا المؤرخ محايدا ولا الأديب ملتزما، لأن في كل ما يفكر فيه أو يكتبه هؤلاء عن الأندلس وإسهامها الحضاري يعبر في الواقع عن عظمة ماض مجيد انقضى بمآثره ومنجزاته، وتعاسة حاضر لا يمكن الخلاص من إحباطاته أو التستر على فقر إسهامه وجدب عطائه.

لقد بدأ إحساسي بعظمة التاريخ الأندلسي وتعلقي بمظاهر تراثه مع توارد أسماء لعلماء أندلسيين انشد إليهم انتباهي أثناء مطالعاتي الأولى في مرحلة الشباب الباكر، وأصبح الميل واضحا والارتباط أكيدا بكل ما يتصل بالأندلس مع متابعتي محاضرات وتعليقات أستاذ الجيل د. محمد عبد الهادي شعيرة ـ رحمه الله ـ حول التاريخ الأندلسي والمغربي في سنوات الدراسة الجامعية الأولى بمعهد الدراسات العربية العليا (جامعة الجزائر) (1963-1966)؛ وقد كانت إحدى زيارات الأستاذ الباحث عبد الله عنان لشعبة التاريخ في هذا المعهد وإلقائه على طلبته عرضا عن تراث ومآثر الأندلس من التأثير ما جعلني آنذاك اندمج بكل أحاسيسي في ملحمة الفتح العربي للأندلس، ولم أجد نفسي إلا وأنا مشدود إلى روايات البطولة وقصص الخيال التي ارتبطت بالوجود الإسلامي بشبه الجزيرة الإيبيرية.

إن فتح الأندلس (91 هـ / 711 م)، سواء في الذاكرة التاريخية أو الإحساس القومي

لأبناء المغرب العربي ، لم يكن فقط حادثة تاريخية حاسمة بقدر ما كان انقلابا غيَّر موازين القوى في الحوض الغربي للبحر المتوسط ، فقد وضع حدا لاختلال تاريخي دام عدة قرون كانت فيه منطقة شمال إفريقيا تستقبل المنتصرين وتودع المنهزمين من رومان وبيزنطيين ووندال ، لتتحول هذه المنطقة بعبور طارق بن زياد مضيق "الزقاق" واندفاع موسى بن نصير في ربوع الأندلس، إلى عامل تأثير في مجالها البحري وبعدها المشرقي وامتدادها الصحراوي، وتغدو بوتقة تفاعل بين عنصري الحضارة المغربية "بربر عاربة وعرب مستعربة" ، فكانت الأندلس في كل ذلك مخبر هذا التمازج والتفاعل والخلق والإبداع بين الخميرة العربية والعجينة البربرية ، وبيئة ذلك التلاحم بين بطون عرب المشرق وقبائل بربر المغرب الذين رفعوا رايات العروبة والإسلام خفاقة في ربوع المغرب والأندلس ، والتي عبر عنها بصدق الكاتب المغربي المبدع عبد الكريم كنون بهذه الأبيات :

رحـــــم الله (طارقـــــا) فهـــــو أولى
بقــــريش مـــــنكمُ وأدنــــى انتمـــــاء

و(ابـــن تاشـــفين) إذ حماهـــا في الغـــز
وفـــــزادت عـــــزا بــــه واعـــــتلاء

و(المصـــــامدة) بعــــده إذ رعوهـــــا
فأفـــــادت غنـــــى بهـــــم ونمـــــاء

و(مرينـــــاً) وحزبهـــــا حـــــين أعلـــوا
رايـــــة يتتـــــا لهـــــا ولـــــواء

عربـــــا كـــــان هـــــؤلاء وناهيـــــ
ـــــك بهـــــم أريحيـــــة وإبـــــاء

هـــم كـــ (ســـلمان) مـــن أعاريـــب جـــ
ـــــاء الـــــوحي نصـــــا علـــــيهم وثنـــــاء

إن فقدان الأندلس في الشعور العربي الإسلامي لم يكن خسارة وطن وضياع شعب

فقط ، وإنما هو كارثة قومية ومأساة حضارية ، فهو محو للذاكرة وتحطيم للمستقبل ، بل تكريس لخطيئة آدم الذي حرم من الفردوس (جنة عدن) لخطيئة ارتكبها مع خالقه ، كما ارتكب الأندلسيون وأبناء المغرب العربي الخطيئة مع أنفسهم ، فكان مصيرهم الطرد من فردوس الأندلس ، هذا الفردوس الذي تحول مع هذا الطرد من أرض يعيش عليها الإنسان إلى حلم يستبد بالخيال ويستقر إلى الأبد في ذاكرة الأجيال ، وغدت الأندلس بذلك فردوسا لا نفكر في استرجاعه ؛ لأن الذهنية العربية الإسلامية اليوم المتعبة بالماضي لا تقوى على العيش خارج عالم الأحلام ومجال الذكريات ، هذه الأحلام التي اصبحت بمثابة الفضاء الوحيد الذي يشد أحاسيسنا ويشعرنا بالوجود . . .

إن مأساة ضياع الأندلس في المخيلة العربية الإسلامية تحولت إلى حرقة تهز المخيلة التاريخية المغاربية بفعل ارتباط مغادرة آخر أفواج المسلمين سواحل الأندلس بتغير مقدرات العالم المعاصر ، فقد اقترنت نهاية الإسلام بالأندلس بحدوث أكبر انقلاب كوني غير الموازين وعدل القيم وحول حضارة الشرق إلى المؤخرة ودفع بحضارة الغرب إلى الصدارة ، فكانت نهاية القرون الوسطى وبداية العصور الحديثة بما تميزت به في عالم أوربا من نهضة علمية وبعث ثقافي وتجدد فكري وحيوية اقتصادية وإصلاح ديني ونمو لمجتمع المدن وتطور لمؤسسات الدول ، فانتشرت المعرفة وتراكمت الثروة واكتسبت الخبرة لدى المجتمعات الأوربية ، وظهرت نتيجة ذلك قوة إسبانيا المسيحية التي لم تعد تقنع باستيلائها على الأندلس الإسلامية وإنما تتطلع إلى ابتلاع بلاد المغرب ومحو طابعها العربي الإسلامي . ولولا رد الفعل المغاربي وظهور القوة العثمانية في الساحة لوقعت الكارثة وقضي الأمر . . .

و في الوقت الذي كانت فيه أوربا على موعد مع "ليلة القدر" باكتشافها للعالم الجديد وانسيابها نحو تخوم إفريقيا وآفاق الشرق الأقصى عبر مياه المحيطات ، في هذا الوقت ذاته انغلق فيه المستقبل بالنسبة للعرب والمسلمين ، فكان سقوط آخر موضع قدم لهم بالأندلس وهو غرناطة في 2 ربيع الأول 897 هـ (2 جانفي 1492م) ، فكان ذلك بداية انحدار العرب وانحصار المسلمين لم يصلوا فيه إلى النهاية حتى الآن ، كما كانت بداية صعود الأوربيين وامتدادهم بالعالم الجديد لم يتنازلوا فيه عن الزعامة حتى الوقت الحاضر .

قد يجد المتأسي بأحداث التاريخ شيئا يرد عليه فؤاده ويريح نفسه ويغير في عينيه ملامح الصورة القاتمة في فتح محمد الفاتح العثماني لعاصمة المسيحيين بالشرق وهي القسطنطينية (29 ماي 1453 م)، وفي توسع الإسلام في أقاليم البلقان وربوع الهند وأقطار الشرق الأقصى ودواخل إفريقيا، لكن كل ذلك يظل في نظري اعتمادا على النتائج التي أسفرت عنها هذه المكاسب مجرد غنيمة حربية أو توسع سلمي وارتماء روحي لا يحمل روحا حضارية مبدعة ولا يعبر عن عطاء فكري خلاق، ولا يؤدي إلى إحداث حركة نمو ذاتي في المجتمعات الإسلامية قادرة على إبعاد الفواجع وعثرات الزمان عن واقع المسلمين، لأن مصائر العالم منذ القرن التاسع الهجري / السادس عشر الميلادي لم يعد يتحكم فيها السلاح المستند إلى الشجاعة والاندفاع والحماس، وإنما أصبحت تستند إلى قوة المعرفة المعززة بالمهارة التقنية والحيوية الاقتصادية والتفاعل الاجتماعي والثقافي، وهذا ما افتقده المسلمون واكتسبه الغرب الأوربي عند احتكاكه بهم واقتباسه مناهجهم ومعارفهم في القرن الثالث عشر الميلادي، وظل يعمل على تطويره حتى أتى أكله مع "النهضة الأوربية" في القرن السادس عشر الميلادي.

أ. من الجزائر إلى غرناطة:

لقد كانت تلك التأملات التي تقوم على المزج بين الذكريات التاريخية وواقع العرب والمسلمين اليوم، كفيلة بأن تشكل في ذهني وأن ترسم في أحاسيسي "أندلسا" خاصة بي، حاولت المحافظة عليها في وجداني والتعامل معها في مخيلتي، بحيث أصبحت جزءا من كياني، بل شيئا مكونا لثقافتي، وقد تكرس ذلك مع تكرر رحلاتي إلى ربوع الأندلس والتي جاوزت السبع، وقد كانت أولى زياراتي لتلك الربوع رحلة جامعية شاركت فيها في شتاء عام 1965 وآخرها ملتقى علميا نظم في شتاء عام 1990.

لقد كانت الرحلة الأولى أكثر هذه الرحلات أثرا في النفس وأشدها وقعا على الضمير وأعمقها احساسا في المخيلة، وهذا ما جعلني أركز عليها في التعرف على الأندلس. وقد نظم هذه الرحلة قسم التاريخ بجامعة الجزائر في عطلة شتاء 1965-1966 في شكل جولة دراسية شاركت فيها نخبة فاضلة من الأساتذة والطلبة وفي مقدمتهم

الأستاذان محفوظ قداش ورشيد بورويبة، وقد بدأت تلك الرحلة بالقطار من مدينة الجزائر إلى وجدة بالمغرب الأقصى والمتاخمة للحدود الجزائرية، حيث قضينا ليلة مريحة في تلك المدينة المغربية في فندق رائع كان يملكه أحد اليهود المغاربة والذي شد انتباهنا بنشاطه وحرصه على خدمة وإرضاء نزلاء فندقه. وفي الغد انتقلنا في الحافلة عبر مدينة بركان نحو مدينة المليلة بسواحل الريف الشرقية، وهي قاعدة مغربية احتلها الإسبان سنة 1497 م وساعدتهم الظروف التاريخية على المحافظة عليها، فتحول أغلب سكانها مع الزمن إلى إسبان قدموا إليها عبر البحر مع بعض الجماعات من المغاربة المقيمة أصلا بالمدينة أو المهاجرة إليها، وقد استرعى انتباه الجميع اختلاف أسلوب الحياة وتباين مستوى المعيشة ونوعية العمران بين مدينة الناظور التي تظهر واقع المغرب الأقصى وحياته التقليدية المتواضعة ومدينة المليلة التي تعكس ما بلغه الأوربيون من رقي وحضارة، فتأكد لنا أن الحضارة ليست أرضا وإنما هي إنسان وأن التقدم ليس إمكانيات وإنما هو فعالية وطريقة حياة وأسلوب عيش.

بعد قضاء مساء ذلك اليوم (17 ديسمبر 1965 م) بالمليلة أبحرنا مساء نحو مالقة في سفينة إسبانية صغيرة كانت تقل بعض الركاب ومجموعة من الجند الإسباني العامل في موقع المليلة، فلم ينتصف الليل حتى هبت عاصفة هوجاء، ولم ندر إلا والسفينة تتقاذفها الأمواج العاتية، ولم يكن لي معرفة سابقة بركوب البحر، فكانت تجربة قاسية ضاقت فيها النفس واعتصرت المعدة بفعل اهتزاز السفينة وتأرجحها، ومع اشتداد العاصفة اعترانى دوار وغثيان وكدت أن أفقد وعيي كلما ارتفعت السفينة بعنف عند مواجهتها للأمواج أو هوت بقوة نحو الأسفل عندما تنزاح عنها تلك الأمواج المتلاطمة... ولم تخفف عني إلا غفوة اعترتني ولم أستفق منها إلا مع الصباح عندما بدأت سواحل الأندلس تلوح في الأفق، والتي كانت كلما اقتربنا منها تزداد ارتفاعا، فبدت رائعة المنظر لخضرتها الموشحة بالبياض بفعل انتشار زهور شجر اللوز الذي كان ينتشر بسفوحها المشرفة على البحر... ولم يطل الأمر حتى رست السفينة بميناء مالقة (صبيحة يوم 18 ديسمبر 1965)، فكانت بحق بابا لولوج فردوس الأندلس بعد ليلة عذاب وكأنها يوم الحساب الذي يمتحن فيه المؤمن قبل دخوله الفردوس.

لقد جعلتني حالتي النفسية المشحونة بالذكريات التاريخية في تلك الرحلة أشبه بشخص يريد أن ينسلخ عن الحاضر ليعيش الماضي، ولكنه في آن واحد يجد نفسه مضطرا للتعامل مع هذا الحاضر، فولد ذلك إحساسا غريبا في نفسي ولكنه عميق في وجداني ومعبر عن خوالج النفس، ربما عاناه سيرفانتس وعبر عنه من خلال بعض مواقف الدون كيشوت عندما كان يحاول أن يعيش الحياة ويتعامل معها من خلال رفض الواقع الذي تعبر عنه تلك الحياة نفسها ... فكنت أتساءل عن مجد الأجداد بالأندلس وأحاول أن أستأنس بالمعالم الباقية والذكريات الماثلة، علني أجد أجوبة خاصة بي أستقرؤها في تلك الملامح العربية والعيون المشرقية التي تميز سكان الأندلس اليوم... لكن واقع الحياة اليوم بأسبانيا هو أبعد ما يكون عن ماضيها العربي الإسلامي، رغم ارتسام ظلال ذلك الماضي على الملامح واستقراره في الذاكرة، وهذا ما عبر عنه بعمق شاعر العاطفة نزار قباني في هذه الأبيات من قصيدته "أحزان في الأندلس":

كتبت لي يا غاليه

كتبت تسالين عن إسبانيه

عن طارق، يفتح باسم الله دنيا ثانيه

عن عقبة بن نافع

يزرع شتل نخله...

في قلب كل رابيه...

لم يبق في إسبانيه

منا، ومن عصورنا الثمانيه

غير الذي يبقى من الخمر،

بجوف الآنيه...

قضت قرون خمسة... يا غاليه

كأننا... نخرج هذا اليوم من اسبانيه...

لقد خالطني من جراء الانفصام بين الخيال والواقع وبين التاريخ والحياة، إحساس غامض يجمع بين الفخر والانشراح، وبين التأسي والحزن، وهذا ما تأكد لي عندما انتقلنا بعد تناول الغداء في أحد الفنادق القديمة بالحافلة السياحية لمشاهدة قصبة مالقة المقامة على المرتفعات التي تشرف على الميناء، فتذكرت ماضي المدينة الإسلامي الحافل منذ أن تم إنشاء البنايات الأولى من قصبة مالقة أواخر عهد عبد الرحمن الداخل لحماية المدينة من غارات النورمانديين، وحتى استكمل بناءها الحاكم الصنهاجي حبوس وأقام بها قصرا منيفا، فتذكرت حكم يحي بن علي بن حمود لها (1021 - 1037) وما جرى بها على عهد المرابطين والموحدين وبني الأحمر، والتي لم تبق عوائد الزمن من مآثرهم سوى على أسس البناء وعلى قاعة صغيرة (7.5 على 3 أمتار) تكسو أجزاءها الداخلية الزخارف وتتفتح شرفتها الجوية على البحر.

ولم تشغلني هذه الآثار عن التأسف على ما آل إليه أمر المسلمين بمالقة من قتل وتشريد وتنصير، عندما سقطت بيد النصارى (1489 م)، ولم أجد نفسي إلا وأنا أردد لأحد شعراء الأندلس هاذين البيتين اللذين علقا بالذاكرة:

فمالقة الحسناء ثكلى أسيفة
قد استفرغت ذبحا وقتلا حجورها

وجزت نواصيها وثلت يمينها
وبدل الويل المبين سرورها

ولم تمح ذكريات مالقة الحزينة من مخيلتي إلا والحافلة قد انطلقت بنا نحو غرناطة في مساء ذلك اليوم، فكانت المسافة إلى عاصمة بني الأحمر (179 كلم) مليئة بالمناظر ومشحونة بالذكريات... اندفعت الحافلة في الطريق الساحلي الجميل المعروف عند السياح بساحل الشمس (Costa del Sol)، والذي لم يلبث أن أصبح منعرجا كلما أوغلنا نحو الشرق، فكان البحر عن يميننا وسفوح الجبال عن يسارنا، تارة تقترب منا حتى تكاد أن تلقي بنا في لجة البحر، وتارة أخرى تبتعد عنا حتى

نخالها تودعنا ، ولم نكد نبتعد كثيرا عن محطة طوردالمار (Torre del Mar) حتى توقفنا عند مغارة نيرخة (Cueva de Nerja) ، فانبهر الجميع بسكون الطبيعة وجلال اللوحات الفنية التي رسمتها الترسبات الكليسية من السواقط والصواعد التي كانت تحف ببوهر المسرح الطبيعي داخل المغارة (Salle du bellet) .

وبعد أن أخذنا قسطا من الراحة واصلنا سفرنا نحو غرناطة ، فاستدار الطريق عند منتجع مورتيل (Mortil) ليترك الساحل ويتعرج شمالاً عبر شعاب البشارات أو سييرا نيفادا (Sierra Nevada) العميقة ، فكان المنظر يزداد روعة كلما تقدمنا في الجبل ، وأثناء ذلك استرعت أنظارنا قرية تنهيدة العربي (Suspiro del Moro) الواقعة على ارتفاع 865م على إحدى المنعرجات المشرفة على غرناطة ، فبدت لنا منها قمم البشارات الشامخة متحدية الزمن ، تعلوها قمة أبو الحسن (3478م) (Mulhacén) المكللة بالثلوج والمتوغلة في السماء ، فتعلق نظري بها وتذكرت وصف أحمد شوقي لها ، فكان القول المناسب في المكان المناسب :

جلــل الـــثلج دونهـــا راس (شـــيرى) فبـــدا منـــه في العجائـــب بـــرس

ســـرمد شـــيبه ، ولم أر شـــيبا قبلـــه يرجـــى البقـــاء وينســـي

كان دخولنا غرناطة دخول متلهف على مجد ضاع وزيارة محب لموطن حبيب لم يعد يربطه به سوى ذكريات ترسبت في الخيال . . . فتوقف الزمن بالنسبة لي واستسلمت للذكريات وأرسلت خيالي مجنحا يستقرئ الماضي ويسائل الحاضر ، وخلت نفسي وكأني أعيش لحظات خروج العرب من قصر الحمراء .

لقد حاولت أن أعيش مع الأندلسيين العشرية الأخيرة من القرن الخامس عشر ، وهي بمثابة العشاء الرباني الأخير في التقاليد المسيحية ، فقد أحسوا بالنهاية عندما بدأت هجمات النصارى تضيق عليهم الخناق ، ولم يطل الأمر حتى استحكمت حلقات الحصار حولهم عندما هاجم الملك فردناندو ما تبقى من مملكة غرناطة (895 هـ /

1490 م) بجيش قوامه خمسة وعشرون ألف رجل ، فأتلف مزارعها ووصل إلى أسوار وحصون مدينة غرناطة ، فتصدى له المدافعون عنها وعلى رأسهم الملك أبو عبد الله والفارس موسى بن أبي الغساني ، ولم يطل الأمر حتى ضرب الملك الإسباني الحصار على غرناطة في ربيع العام التالي (869 هـ / أفريل 1491 م) ، فانتشر حولها جيش من النصارى يناهز عدده الخمسين ألف رجل ، وحتى يفت في عزيمة المدافعين عن المدينة وينال من عضدهم ، عمد الملك الإسباني إلى بناء مقر قيادته قبالة المدينة وأطلق عليه اسم مدينة الإيمان المقدس (Santa Fé) ، فاستحال على الغرناطيين الخروج للتزود بالمؤن والقوت الضروري ، فعانوا مرارة الجوع ، ولم يكن بدا من الاستسلام ، فقبلوا بتسليم مدينتهم بوثيقة تضمنت ستين بندا حددت شروط التسليم وضمنت سلامة السكان والمحافظة على أملاكهم واحترام عقيدتهم . . .

وجاء اليوم الموعود وهو اليوم الثاني من شهر ربيع الأول 897هـ/ 2 جانفي 1492م ، فوقف أبو عبد الله محمد الزغيبي في ثلة من فرسانه على هضبة جبل الريحان ليستقبل موكب الملكين الإسبانيين فردناندو ملك الأراغون وإيزابيلا ملكة قشتالة (1479 ـ 1555 م) ، ويسلم لهما مفاتيح غرناطة ومقاليد قصور الحمراء ، وليلوي عنان جواده نحو الجنوب يتبعه جمع حزين من المصاحبين له مؤلف من حاشيته وبجانبه أمه عائشة وزوجته المفضلة مريم وجمع من جواريه وأفراد أسرته وخدمه ، تحف بهم كوكبة من فرسانه المخلصين . ولم يتوقف المحفل الملكي الحزين في رحلة الضياع هذه ، إلا عند إحدى الهضاب التي يستدير عندها الطريق ليبتعد عن غرناطة ويتوغل في الجبل والمعروفة بحور الوداع والذي أطلق عليه الإسبان "تنهيدة العربي" (Suspiro del Moro) ، فتوقف الملك أبو عبد الله الذي أصبحت المصادر الأوربية تنعته بالملك الصغير (بوعبديل) ، وألقى نظرة أخيرة على أسوار غرناطة ومشارف حصون الحمراء ، فاضطربت أحاسيسه واهتز قلبه وضاقت نفسه وهو يرى غرناطة غارقة في خمائلها وشرفات الحمراء وهي تخلب العين بفعل انعكاس أشعة الغروب الذهبية على جدرانها الوردية . . . فأجهش بالبكاء واحتبست أنفاسه من الحرقة ، وتردد إلى أذنيه صدى كلمات أمه عائشة وهي تقرعه وتندب حظه : "أو تبكي يا بني كامرأة على ما لم تفلح في

المحافظة عليه كالرجال..."، فكانت كلماتها وكأنها لعنة التاريخ التي لا تمحى وصرخة الدهر التي لا يتوقف دويها عبر الزمن لكل الحكام الذين ضيعوا الوطن والشرف في مواقفهم المتخاذلة ومغامراتهم الفاشلة وتقاعسهم المشين...

لم تدر الأميرة عائشة المسكينة وهي تندب حظها أن ابنها حاكم عربي سابق لزمانه لا يتجاوز أفقه موضع عرشه ولا تتعدى نظرته مصالحه الخاصة وشهواته الشخصية... إنه بداية فصيلة من الحكام سوف يسعد العرب المسلمون في آخر الزمان بتمجيدهم، لا يضيرهم ضياع أرض أو فقد كرامة بمقدار ما تؤرقهم المحافظة على الملك والخلود في السلطة، فالانهزام عندهم نصر ما دام الكرسي ثابت، والنصر هزيمة إذا لم يمنحهم الخلود في الحكم... فكان عبد الله الملك الصغير، الذي سوف يقضي أجله بفاس مهملا، بمفهوم عصرنا هذا كبش فداء وخاتمة سلوكات تخاذل وتراجع ميزت سياسة حكام الأندلس في تعاملهم مع ملوك قشتالة والآراغون.

لقد ضاعت الأندلس يوم أهمل المسلمون وفي مقدمتهم فقهاء البلاط معالجة قضية الحكم وتطوير نظرية السلطة، ولا أخال المسلمين اليوم يصلون إلى توازن في حياتهم وإلى تأمين مستقبلهم إلا بحل هذه المعضلة، ولعل مسألة السلطة هذه هي التي جعلت الحكام المسلمين الأوائل للأندلس يتغافلون عن الخطر الداهم على المسلمين مع بداية توسع النصارى نحو الجنوب، ولم يروا في سقوط حواضر الأندلس نهاية حتمية لوجود المسلمين في تلك الربوع، بل لعلهم وجدوا في إمارات الطوائف (422 ـ 484 هـ/1031 ـ 1091 م) التي ورثت الخلافة الأموية في قرطبة ما يبقي الرعية تعيش على تقاليدها المتوارثة ويؤمن للحكام مظاهر الملك وامتيازات السلطة، ولو كان ذلك في حد ذاته مظهرا مزريا ووضعا غير طبيعي، عبر عنه أحد شعراء الأندلس بسخرية بهذين البيتين:

مما يزهدني في أرض أندلس

سماع مقتدر فيها ومعتضد

ألقاب مملكة في غير موضعها

كالهر يحكي انتفاخا صولة الأسد

كما لم يفت أحمد شوقي وهو يتأسف على النهاية المأساوية للإسلام بالأندلس بأبيات معبرة أن يصف هذا الوضع المزري الذي كان عليه حكام الأندلس آنذاك، فامتزج في شعره العتاب بالتأسي والرثاء:

ومفاتيحها مقاليد ملك

باعها الوارث المضيع ببخس

خرج القوم في كتائب صم

عن حفاظ، كموكب الدفن خرس

ركبوا بالبحار نعشا، وكانت

تحت آبائهم هي العرش أمس

لم أستفق من هذا الحلم ولم أتخلص من ذلك الإحساس والشعور إلا والحافلة التي كانت تقلنا تدخل ضواحي غرناطة وضجيج الحياة وحركة الناس تملأ الشوارع، فتيقنت أن التاريخ لم يتوقف بخروج العرب من الأندلس، وأن الحمراء لم تندثر معالمها بمغادرة ملوكها من بني الأحمر لها، بل ربما كان ذلك خيرا على أرض إسبانيا وعلى واقع العرب اليوم، أن يلتحق الإسبان بالغرب ليعيشوا الحياة، بينما رجعنا نحن العرب المطرودين إلى التاريخ لنخيم فيه وننام على ذكرياته، ما دامت الذهنية العربية ترفض المعالم المحسوسة في الحياة وتفضل الاستسلام للخيال، وبذلك أصبحت الأندلس كالطيف الجميل والحلم اللذيذ الذي يتماشى والذهنية العربية....، هذه الذهنية التي ترفض في سلوكها الحاضر وتبكي الماضي ولا تتصور المستقبل، فلم أملك نفسي، وهذه الأفكار تراودني، إلا وأنا أردد مع شوقي هذه الأبيات التي تحيي ماضي الحمراء في الذاكرة التاريخية العربية التي لم نعد نستطيب الحياة ونستلذ العيش خارجها:

سنة من كرى، وطيف أمان

وصحا القلب من ظلال وهجس

وإذا الدار ما بها من أنيس

وإذا القوم ما لهم من محس

مــن لحمــراء جللــت بغبــار الــ
ــدهر كــالجرح بــين بــرء ونكــس

حصــن غرناطــة، ودار بــني الأحــ
ــمر: مــن غافــل، ويقظــان دنــس

مــا تــرى غــير وافــدين علــى التــا
ريــخ، ســاعين في خشــوع ونكــس

لقد كانت إقامتنا بغرناطة لبضعة أيام (الأسبوع الأخير من شهر ديسمبر 1965) مصدر غبطة وانشراح، ومجال تذاكر في كتب التاريخ والأدب والرحلات، فكانت قراءاتي في كتاب الإحاطة للسان الدين بن الخطيب (ت. 776 هـ/1374م) ونفح الطيب لأحمد المقري (ت. 1041 هـ/1632م) مصدر إلهام تاريخي عميق وإحساس أدبي مرهف، فتجددت أمامي أوصاف غرناطة ومواقف رجالها وإنتاج أدبائها، فقدرت تعلق المقري بأخبارها وتفهمت حب لسان الدين لها، بل أحسست معه تشوقه إليها ولهفته إلى أيامه بها عندما كان ملتجئا في المغرب، واستحضرت معه تلك القصيدة التي عبر فيها عن عتابه لغرناطة بعد هروبه منها ومصادرة أملاكه بها، والتي ضمنها مذكراته "نفاضة الجراب وعلالة الاغتراب" التي وضعها بالمغرب الأقصى عندما كان ملتجئا لدى السلطان المريني عبد العزيز ومحميا من وزيره بكر بن غازي (773 هـ)، ومما جاء في هذه القصيدة، هذه الأبيات المعبرة:

جــزتني غرناطــة بعدمــا
جلــوت محاســنها بــالجلا

ولم تبــق جاهــا ولا حرمــة
ولم تبــق مــالا ولا منــزلا

ولم أجــن ذنبــا ســوى أننــي
صــدعت بأمــداحها في المــلا

وإنــي صــنعت فيهــا الغريــب
فصــرت الغريــب أجــوب الفــلا

ومــا خصــني زمــني بــالعقوق فــ
ــكم مــن فاضــل مبــتلا

***

ومثلــي يبقــى علــى عهــده
إذا أعــرض الخــل أو أقــلا

إن لسان الدين بن الخطيب مثال للعبقرية الأندلسية ونموذج لتعامل ذوي السلطة والسلطان مع أصحاب الفكر والإبداع، فقد جمع في حياته بين طموح الحاكم وموقف المثقف، لكنه في الأخير، بعد أن تحول عنه السلطان النصري الغني بالله، اضطر أن يفك هذا الارتباط بعد أن تراجع هيلمان السلطة عنده، ووجد نفسه مثقفا لا يملك إلا سلاح الفكر والقلم في مواجهة خصومه من ذوي القوة والسلطان الذين واجهوه بقوة الحيلة والمال والسلاح... فانتهت حياته بالنفي ثم بالقتل والتمثيل بجثته بعد إخراجها من قبرها وحرقها بمباركة مثقفي السلطة وفي مقدمتهم من قدم لهم خدمات وشملهم بالعطف والرعاية من أمثال ابن زمرك تلميذه وخليفته في الوزارة والفقيه أبو الحسن النباهي الذي قربه ابن الخطيب وقلده القضاء والخطابة في جامع غرناطة.

لقد عرف لسان الدين بن الخطيب بعد أن انقشع من مخيلته بريق المجد وهوى السلطة، كيف يكون بحق رجل الفكر والثقافة، فخلد ذكره وتحول أعداؤه وحساده إلى ظل له وتبع له، ولم يعد رثاؤه لنفسه شفقة عليها أو دفاعا عنها وإنما شماتة بأعدائه وتحديا لسلوك الحكام في تعاملهم مع أهل الفكر والمعرفة والقيم، ولعل هذا ما أحس به أحمد المقري عندما أثبت في كتابه نفح الطيب هذه الأبيات للسان الدين ابن الخطيب في سجنه بفاس وهو على موعد مع الموت، فجاءت تعبيرا إنسانيا خالدا يجمع الحكمة والتحدي والرثاء والاعتزاز بالنفس:

بعــــدنا وإن جاورتنـــــا البيـــــوت … وجئنـــــا بـــــوعظ ونحـــــن صـــــموت

وأنفاســــــنا ســــــكنت دفعـــــة … كجهـــــر الصـــــلاة تـــــلاه القنـــــوت

وكنــــا عظامــــا فصــــرنا عظامــــا … وكنــــا نقـــوت فهـــا نحـــن قـــوت

وكنــــا شمـــوس سمـــاء العـــلا … غربنــــا فناحـــت علينـــا البيـــوت

***

فقـــل للعـــدا ذهـــب ابـــن الخطيـــب … وفـــات، ومـــن ذا الـــذي لا يفـــوت

فمـــن كـــان يفـــرح مـــنهم لـــه … فقـــل : يفـــرح اليـــوم مـــن لا يمـــوت

لم يطل بي الأمر حتى تجاوزت ذاكرتي مأساة ابن الخطيب لأنها أصبحت اليوم واقعا نعيشه في عالمنا الإسلامي ونتعامل معه في واقعنا العربي لأنه المظهر الطبيعي لتأخرنا والنتيجة المسلم بها لسلوكاتنا... وعدت إلى واقع غرناطة الإسبانية اليوم، فاسترعى انتباهي منذ أولى الجولات في شوارع المدينة طريقة الحياة وأسلوب العيش وكيفية التعامل بين الناس، وكان مثار دهشتي النظام في المظهر والنظافة في المكان والصدق في السلوك والانشراح في معاملة الآخرين. ولعل الشيء الذي يلفت انتباه أي زائر أثناء لغرناطة هو ما يلاحظه من حسن مظهر رجالها وجمال نسائها، فالمتجول في هذه المدينة لا تقع عيناه على رجل تنفر منه العين ولا على امرأة لا يستريح إليها النظر، فكانت ملامح الجمال العربي ماثلة في الوجوه الجذابة للغرناطيات، وتكاد تنطق بها لحظات عيونهن السوداء الفاتنة، ولعل هذا ما حاول نزار قباني تسجيله في هذا

المقطع من رائعته "أوراق إسبانية" :

وأعين سوداء

لا بدء لها ولا انتهاء

شوارع غرناطة في الظهيرة

حقول من اللؤلؤ الأسود...

ودفعه في رائعته "غرناطة" إلى مخاطبة تلك الإسبانية التي التقى بها عند باب الحمراء، بقوله :

في مدخل الحمراء كان لقاؤنا...

ما أطيب اللقيا بلا ميعاد

هل أنت إسبانية... ساءلتها.. قالت : وفي غرناطة ميلادي

غرناطة ! وصحت قرون سبعة...

في تينيك العينين.. بعد رقاد

ما أغرب التاريخ.. كيف أعادني...

لحفيدة سمراء.. من أحفادي

و دمشق.. أين تكون ؟ قلت ترينها...

في شعرك المنساب نهر سواد

في وجهك العربي، في الثغر الذي...

ما زال مختزنا شموس بلادي

في طيب (جنات العريف) ومائها...

في الفل، في الريحان، في الكباد

سارت معي.. والشعر يلهث خلفها...

كسنا بل تركت بغير حصاد

يتألق القرط الطويل بجيدها . . .

مثل الشموع بليلة الميلاد

ومشيت مثل الطفل خلف دليلتي . . .

وورائي التاريخ . . كوم رماد

الزخرفات أكاد أسمع نبضها . . .

والزركشات على السقوف تنادي

قالت : هنا الحمرا . . .زهو جدودنا . . .

فاقرأ على جدرانها أمجادي

أمجادها !! ومسحت جرحا نازفا . . .

ومسحت جرحا ثانيا بفؤادي

يا ليت وارثتي الجميلة أدركت . . .

أن الذين عنتهم أجدادي . . . .

عانقت فيها عندما ودعتها

رجلا يسمى (طارق بن زياد)

كل هذا أوجد لدي تقاربا نفسيا ، فلم أجد نفسي غريب الوجه والملامح ، وإن كنت بحق غريب الوجدان واللسان ، وقد تأكد هذا الإحساس عندما حل بالفندق الذي كنا نقيم فيه جمع من الطلبة والطالبات الإسبان قدموا من بلنسية لزيارة معالم غرناطة ، فاختلطنا على موائد المطعم وفي ردهات الفندق ، فتبادلنا التحية ، فأحسسنا بالبراءة في السلوك والصدق في القول والاحترام في التعامل عندما تبادلنا الكلام حول الماضي والحاضر وأفهمنا بعضهم من خلاله أن الحكم الإسلامي من تاريخ بلادهم فترة معترضة في سيرورة تاريخهم ، ولكنهم مع ذلك يثبتونها ولا يجدون حرجا في التفاخر بمآثرها .

ولعل هذا ما أوحى لشاعر غرناطة الإسباني فرنسيسكو فيلاسباز بقصيدته الرائعة "ملحمة غرناطة" التي نقلها شاعر المهجر فوزي معلوف إلى الشعر العربي ، رائعة نقتطف منها هذه الأبيات :

غرناطة أواه غرناطة

لم يبق شيء لك من صولتك

هل نهرك الجاري سوى أدمع

تجري على ما دال من دولتك ؟

والنسمة الغادية الرائحة

هل هي إلا زفرة نائحة ؟

آه على أمجادك الضائعة

شيعتها بالنظرة الدامعة

لله حمراؤك تحسو الأسى

وحيدة في الروضة الخالية

لم يبق لا زهوة ندمانها

ولا صدى أعيادها الماضية

ولم يعد للحب فيها أنين

ينقله العود إلى العاشقين

وقصرها الخاوي بأرجائه

كم غمر الليل بضوضائه

إذا الجواري خاطرات على

سجاده جارية جارية

أروع ما في الشرق من رقصة

تسجها أقدامها العارية

و لعل مثل هذه المناظر هي التي أوحت للشاعر إلياس طعمه الذي أصبح يعرف بعد إسلامه بأبي الفضل الوليد، أن يخاطب فتاة أندلسية لا أخالها إلا غرناطية :

هـذا المحيـا خلـيط اللـون والنسـب
فيـه تلاقـى دم الإسـبان والعـرب

في الحـرب والحـب قـد كـان امتزاجهمـا
فـأنزل الحسـن منـه آيـة العجـب

إذا الفراسـة صـحت قلـت مفتخـرا
يـا بنـت عـم حبـاك الحسـن خـير أب

لـيس الجمـال الـذي أشـتاق رؤيتـه
مـن حمـرة الـروم بـل مـن سمـرة العـرب

إن بقايا هذا الماضي العربي لغرناطة، رغم تبني الإسبان له اليوم، تعرض للتدمير والمحو، وهذا ما عبر عنه الشاعر نزار قباني بقوله :

لم يبق من غرناطه
من (بني الأحمر) . . .إلا ما يقول الراويه
وغير (لا غالب إلا الله)
تلقاك بكل زاويه
كامرأة من الرخام عاريه
تعيش ـ لا زالت ـ على
قصة حب ماضية

إن المتجول في غرناطة اليوم قد لا يجد ما يقف عليه من معالمها الإسلامية سوى بقايا الجزء الشمالي من سورها وبعض جدران من أحد الحمامات والقصور وبقايا القيصرية (سوق القماش) وقد كانت بالقرب من المسجد الجامع حيث يتوزع التجار

على حوالي مائتي حانوت للمنتجات الحريرية والأشياء الثمينة، ولم يبق إثر تعرضها للحريق سنة 1843 من طرقاتها الكثيرة والمتشعبة سوى طريق واحد أصبح يضم اليوم متجرا للفنون اليدوية.

ولعل الأثر الذي يلفت انتباه زائر غرناطة هو فندق الفحم (Corral del Carbon) الذي يعتبر مثالا حيا للفنادق الأندلسية التي تعود إلى أواخر العهد الإسلامي (القرن الثامن الهجري/القرن الرابع عشر الميلادي)، ويعتبر من أجمل النماذج في العمارة الأندلسية ببوابته وببهوه الفسيح وحوض السقاية الذي يتوسطه، ولا ينافسه في ذلك إلا المعبد الملكي (كابيار ريال) القريب منه والذي أقامه الملكان فرديناندو وإيزابيلا ليكون مدفنا لهما.

إن المعلم العربي الذي خلد غرناطة هو بلا شك قصور الحمراء الواقعة خارج المدينة والتي حرصنا على الوقوف عليها، فقد توجهنا في الغد من الفندق الذي نقيم فيه إلى أعالي المدينة لزيارة تلك القصور، فسايرنا وادي شنيل (Rio Genil) واجتزنا عند التقائه بوادي حدرة قنطرة جميلة (قنطرة شنيل) ذات أقواس نصف دائرية يتوسطها قوس كبير عرضه سبعة أمتار، ومنها سايرنا وادي حدرة صعودا فتركنا على شمالنا حومة البيازين المقامة على هضبة أعلى حارة القصبة القديمة، ولم تلبث أن بدت أمامنا أسوار الحمراء شامخة مهيبة تنتشر أسفلها بنايات المدينة الحديثة في السهل الفسيح.

ومع تقدمنا نحو الهضبة المقامة عليها الحمراء عبر طريق متعرج غدت أسوار وشرفات الحمراء أمام أعيننا رائعة جميلة تعبر عن براعة المهندسين الذين أقاموها لتكون حصنا دفاعيا أعلى غرناطة اليهود وفي مقابلة مدينة غرناطة الإسلامية، قبل أن يستقر بها أول ملوك بني الأحمر (1238 م) ويعملون على استكمال عمرانها، فانتهوا من إنشاء القصور الأولى على عهد الملك النصري أبي الحجاج يوسف (1334-1354م) وهي برج قمارش وقصر مشوكة والحمام الملكي وباب الشريعة (الذي انتهى بناؤه سنة 1348 م) وبرج الأسيرة ومصلى برطل (أي الظلة)، ثم اكتمل مخطط الحمراء بإضافة القصور الملكية التي تحيط ببهو الريحان والسباع في عهد السلطان محمد بن أبي الحجاج يوسف المعروف بمحمد الخامس والملقب بالغني بالله، وبذلك تحولت

الحمراء إلى قلعة حصينة ومجمع قصور جميلة وحدائق غناء.

إن الزائر المتقصي للآثار لا يمكن له أن يمر بالحمراء دون الوقوف مطولا بقاعة العرش "قصر قمارش" بسقفها الخشبي المزين بالنجوم ونوافذها المقوسة المنفتحة على الأفق البعيد، والتريث برهة ببركة ساحة الريحان التي تعكس مياهها الصافية بنايات القصر الملاصق لها والذي تحول الطابق الأعلى منه إلى متحف للآثار القديمة، بينما ظلت القاعات الأخرى محافظة على بنائها الأول كما هو، سواء تلك التي كان يشغلها الحريم أو قاعات الاستقبال ومنها قاعة أمراء بني سراج وقاعة الملوك التي تبهر نظر الزائر لما تعبر عنه من إبداع الفن العربي بنقوشها اللطيفة وتخاريمها الدقيقة على شكل أوراق مشبكة تغطي السقوف...

وغير بعيد عن تلك القصور وداخل أسوار الحمراء يوجد برج الأميرات ودير سان فرانسيسكو، بينما باقي بنايات الحاشية لم تبق منها عوادي الزمن سوى أساساتها التي أصبحت جزءاً من البساتين التي انتشرت حولها... وهذا ما جعلنا نتجول في تلك الجهة من الحمراء عبر ممرات جنة العريف أين كان ملوك بني الأحمر وحاشيتهم المقربة يقضون وقتا ممتعا في النزهة بين الأشجار، يروّحون عن النفس بالنظر إلى صورة قصور الحمراء وهي تنعكس في مياه السواقي، ويستمعون إلى صدى الألحان الشجية للموسيقى الأندلسية التي تزيد تلك الحدائق الغناء روعة وبهاء وتجعل طعم الحياة ممتعاً في فناء الريا وساحة السلطانة والحديقة العليا والدرج المؤدي إليها والذي تنساب مياهه رقراقة على حافتيه... وهذا ما عبر عنه ابن غرناطة البار لسان الدين بن الخطيب بشعر وخلده بهاذين البيتين:

سرح بطرفك في محاسن منزل
عبقت لنا نفحاتها كالمندل
فإذا نظرت إلى الحقيقة قلت لي
السر في السكان لا في المنزل

لقد تعرضت الحمراء للإهمال في عهد ملوك إسبانيا من أسرة البربون، وتحولت

بناياتها إلى شبه أطلال، بعد أن استخدمه نابليون مركزا لإيواء جنوده، ولم يتردد في نسف بعض أبراجها الحصينة عندما اضطر إلى مغادرتها، ولم تخرج الحمراء من عزلتها إلا بعد أن زارها الشاب الأمريكي واشنطن إرفينج (Washington Irving) عام 1829، وأغرم بجمال عمارته وروعة هندسته، فكتب في أحد أجنحته مجموعة قصص خصصها لوصف هذا المعلم العمراني بعنوان "قصص الحمراء" (Tales of the Alhambra)، فقصد السياح الإنكليز والأمريكان قصر الحمراء، ولم يجد الإسبان بدا من الاعتناء به باعتباره كنزا أثريا ومعلما عمرانيا قل نظيره في العالم، فعادت إليه الحياة وأصبح المكان المثالي الذي يستقرئ فيه السائح رقة الذوق وعمق الأحاسيس وجمال المناظر، فهو يشد إحساس المتجول فيه بالذكريات والمناظر الخلابة، فلا يشعر بالساعات تمضي حتى يجد نفسه منهكا من المشي بين ردهاته.

لقد تملكنا ونحن نتجول في تلك المعالم إحساس امتزج فيه الإعجاب بالأثر بالتأسف على أهله، ولم نجد ما يعبر عنه أحسن مما سجله أمير الشعراء أحمد شوقي شعرا عند زيارته للحمراء، وهو يعارض سينية البحتري، بقوله:

مشت الحادثات في غرف (الحمـ
ـراء) مشي النعي في دار عرس
هتكت عزة الحجاب، وفضت
سدة الباب من سمير وأنس
عرصات تخلت الخيل عنها
واستراحت من احتراس وعس

***

لا ترى غير وافدين على التا
ريخ، ساعين في خشوع ونكس
نقلوا الطرف في نظارة آس

مـن نقـوش ، وفي عصـارة ورس

وقـبـاب مـن لازورد وتـبـر

كـالربى الشم بـين ظـل وشمـس

وخطـوط تكفلـت للمعـاني

و لألفاظهـا بـأزين لـبـس

ونـرى مجلـس السـباع خـلاء

مقفـر القـاع مـن ظبـاء وخـنس

لا (الثريـا) ، ولا جـواري الثريـا

يتنـزلن فيـه أقمـار إنـس

مرمـر قامـت الأسـود عليـه

كلـة الظفـر ، لينـات المجـس

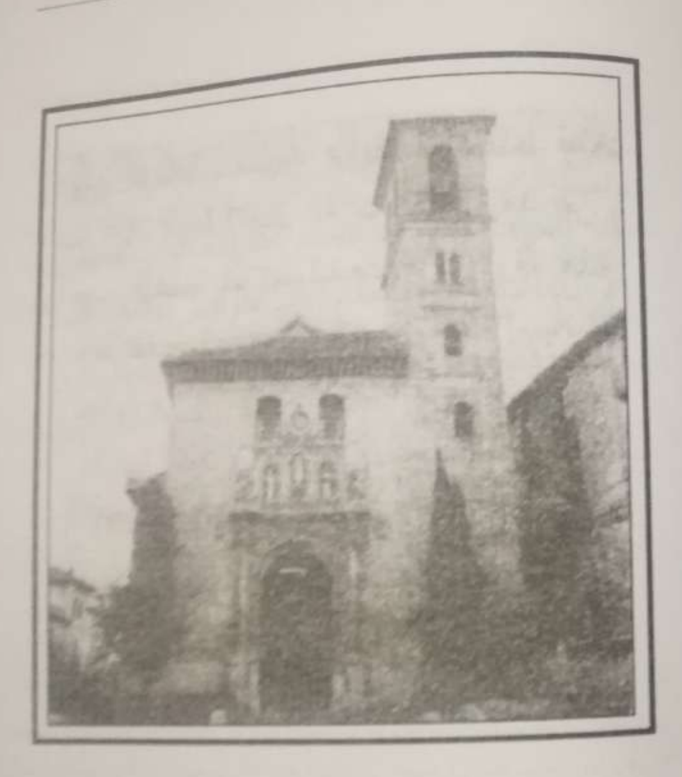
تنثـر المـاء في الحيـاض جمانـا

يتنـزى علـى ترائـب ملـس

قصر الحمراء: بهو السباع



لوحة زيتية لمشهد استيلاء الإسبان على غرناطة (2 جانفي 1492) ظهر فيها أبو عبد الله وهو يسلم مفاتيح الحمراء للملكين الكاثوليكيين: فرناندو وايزابيلا



مسجد بحي البيازين بغرناطة على نهر حدرة حول إلى كنيسة
وتمت المحافظة عليه كأثر معماري

ب. من غرناطة إلى مدريد:

غادرنا غرناطة في الصباح الباكر ، فودعنا دار ملك ومنزل مجد ومكان عزة ، وكان عزاؤنا في ذلك أن سنة الحياة جعلت البقاء في حد ذاته مستحيلا والتشبث بالماضي مهما كان وهما ومحاولة بعثه جنونا ، فكفى الأديب الذكرى والخيال ، وحسب المؤرخ التأسي والعبرة ، فغرناطة لها من الأدب ما يغنيها ومن التاريخ ما يحييها ... أليست المدينة التي رثاها أحد شعراء الأندلس النابهين بقوله :

بدار العلا حيث الصفات كأنها
من الخلد والمأوى غدت تستطيرها
محل قرار الملك غرناطة التي
هي الحضرة العليا زهتها زهورها
ترى بالأسى أعلاقها وهي خشع
ومنبرها مستعبر وسريرها
ومأمومها ساهي الحجى وإمامها
وزائرها في مأتم ومزورها

كان الطريق بين غرناطة ومدريد طويلا وممتعا ، قطعناه في يوم كامل ، توقفنا في أوله بمدينة خيان (Jaén) (جيان العربية) التي تبعد عن غرناطة بـ 97 كلم ، تناولنا الفطور في أحد مطاعمها ثم تجولنا هنيهة في أزقة هذه المدينة التي تجمع في أسلوب عمارتها وطريقة حياتها بين ما كانت تعيشه إسبانيا المحافظة وما بدأت تتأثر به من حداثة وتجديد في السنوات الأخيرة من حكم فرانكو . ولم ينسنا ذلك تذكر تاريخها وذكر عالمها النحوي المشهور محمد بن عبد الله بن مالك الطائي الجياني الأندلسي (600 ـ 672 هـ/1203-1273م) الذي اشرأبت نفسه للمعالي ، فغادرها في مطلع شبابه بعد أن أخذ قواعد اللغة عن مكرم وابن صباح وثابت الكلاعي اللبلي وابن يعيش ، وجلس في حلقات ابن الحاجب وأبي

علي الشلوبين الذي لازمه بضعة أيام ، قبل أن يستزيد علما بحواضر العالم الإسلامي ويستقر نهائيا بدمشق . فكانت دمشق دار هجرته حيث واظب على التدريس والتأليف في مسائل اللغة وقواعدها ، فأخذ عنه علماء أجلاء أمثال الإمام النووي وابن العطار وشهاب الدين بن غانم . وأغنى المكتبة العربية بأمهات مؤلفاته النحوية مثل "الكافية الشافية" وخلاصتها المعروفة بالألفية التي وضعها ابن مالك على بحر واحد ، وقد أعادت الألفية بي الذكرى إلى معهد ابن باديس بقسنطينة حيث درست الألفية على شرح ابن عقيل (ت . 769 هـ) وشرح ابن هشام النحوي (ت . 761 هـ) المعروف بأوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك ؛ فكانت تلك الشروح أحسن وسيلة لتمثل قواعد العربية وشرح غوامض نظم ابن مالك التي أوحت للمتعلمين بهاذين البيتين :

ألفية ابن مالك
مطموسة المسالك
وكم بها مشتغل
أوقع في المهالك

رغم أن صاحبها يستهلها بأبيات تجعلها وسيلة شرح ومنطلق معرفة لقواعد اللغة العربية :

قال محمد هو ابن مالك
أحمد ربي الله خير مالك
مصليا على النبي المصطفى
وآله المستكملين الشرفا
واستعين الله في ألفية
مقاصد النحو بها محوية
تقرب الأقصى بلفظ موجز
وتبسط البذل بوعد منجز

ولم يفتني وأنا أتعرف على مدينة ابن مالك تذكر تقاليد السلف الصالح في الاجتهاد والإبداع والتواضع في العلم والاعتراف بفضل السابق وإقرار مكانته والاعتذار إليه إن صدر ما يفهم بأنه تجاوز أو اعتزاز بالنفس، وهذا ما عبر عنه ابن مالك بقوله:

وتقتضي رضا بغير سخط — فائقة ألفية ابن معطي

وهو بسبق حائز تفضيلا — مستوجب ثنائي الجميلا

والله يقضي بهبات وافره — لي وله في درجات الآخره

تابعنا سفرنا نحو بيلان (Bailén)، فبلغناها بعد 39 كلم، كلها مناظر جبلية فاتنة، بعدها انقطعت الغابات لتترك مكانها لأعشاب سهوب قشتالة الجديدة حيث امتزج مناخها القاري الجاف بقسوة وتقشف وانقباض الإنسان القشتالي الذي يعود إليه الفضل في بعث إسبانيا على أنقاض الوجود العربي الإسلامي بالأندلس، فأقفرت الأرض وكاد العمران أن ينقطع لولا محطة مانزاناريس (Manzanares) (296 كلم عن جيان) المنعزلة في فيافي ممتدة في كل الاتجاهات، فكأنها إحدى قرى الهضاب العليا بالجزائر. واصلنا السير وكأننا نقطع الطريق بين سطيف وقسنطينة، فلم تبدأ المناظر الرتيبة والأفق الرحب ينحصر إلا ونحن نقترب من مدريد ونتوغل في السفوح الشرقية لجبال طليطلة التي تبدو في الأفق مهيبة بلونها الأزرق الداكن، ولم يمض وقت طويل حتى بلغنا ضواحي مدريد ودخلنا حيزها العمراني، فاندهشنا لعظمة المدينة وحيويتها واتساع عمرانها، رغم ماضيها التاريخي المتواضع، فقد كانت مركزا سكانيا صغيرا عندما أسسها الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط في القرن الثالث الهجري في وسط مجاري المياه المنتشرة حولها، فعرفت بسبب ذلك بمجريط المشتقة من الكلمة العربية مجرى (الماء) بإضافة مقطع "يط" الذي يدل في اللهجة القشتالية على التكثير، بعدها تحولت من مجريط إلى مدريد بفعل النطق المحلي.

واشتد انتباهنا إلى شوارع مدريد وبناياتها الحديثة المنظمة، قبل أن نحط الرحال في فندق "لندن" بوسط المدينة خلف الساحة البيضاوية الشكل "بوابة الشمس" (Puerta Del Sol) مركز المواصلات في مدريد، فكان مقر إقامتنا طيلة مكوثنا في مدريد، فكنا نغادره صباحا لنعود إليه في المساء، لنقضي كل اليوم في التجول وزيارة المعالم التاريخية والمواقع الأثرية بالعاصمة الإسبانية.

لقد صادف حلول شهر رمضان يوم رحلتنا إلى مدريد، فعقدنا العزم على الصوم مع بداية اليوم الأول لإقامتنا بمدريد، واضطرنا ذلك إلى تغيير سلوكنا وعاداتنا، فوجدنا تفهما في ذلك من إدارة الفندق، فتحول الغذاء إلى فطور والفطور إلى سحور...

ولم يكن ذلك عائقا للاستمتاع بالرحلة ومساءلة المعالم والتعرف عن قرب على واقع الحياة بمدريد قلب إسبانيا النابض، ومركزها الحيوي الذي يعج بالحركة والضوضاء والنشاط... فكادت عجلة الحياة المتسارعة في مدريد أن تنسينا ذكريات التاريخ وما يرتبط بها من ذكريات وعواطف وأحاسيس.

لقد أعادت لي زيارة قمت بها للأستاذ حسين مؤنس مع بعض رفاق الرحلة طعم ذكريات التاريخ وحضوره في النفس؛ فقد وجدنا ذلك العالم الجليل والباحث في التراث الأندلسي جالسا خلف مكتبه بالمعهد العربي الإسباني والكتب تحيط به والأوراق متناثرة فوق مكتبه، فبادرنا بابتسامة صادقة مستفسرا عن أحوال الجزائر، ولم يلبث الحديث أن تناول ذكريات ماضي الأندلس ومجد العرب بها، فعبر عن ذلك بكلمة وقورة متأنية توجه بها إلينا: "أليس كل شيء هنا يا أولادي يذكرنا بالماضي..."، فكانت بمثابة الوخز الذي أثار الجرح وأيقظ الإحساس، فعاد شريط الذكريات التاريخية للعرب والمسلمين يتوارد إلى خاطري، ومدريد تعيش أعياد رأس السنة، فلم أجد ما أسلي به نفسي وأنا جالس في ركن أحد المقاهي الجميلة يوشحه لون خافت يعكس بريق المرايا واللوحات التي تزين المقهى، فخالطني شعور بالانشراح والهدوء، فاستسلمت لأصداء أصوات الرواد تتردد في أذني، فتزيدني غبطة وزهوا، فكان شعوري بالوحدة أقرب ما يكون إلى ما شعر به نزار قباني في قصيدته الجميلة: "لو كنت في مدريد"، والتي يصف

فيها معاناته في مدريد وهو يعيش مباهج رأس السنة :

لو كنت في مدريد في رأس السنة

كنا سهرنا وحدنا

في حانة صغيرة

ليس بها سوانا

تبحث في ظلامها عن بعضنا يدانا

كنا شربنا الخمر في أوعية من الذهب

كنا اخترعنا - ربما - جزيره . . .

أحجارها من الذهب . . . أشجارها من الذهب . . . تتوجين فوقها أميره

لقد سمحت لنا إقامتنا بمدريد بزيارة المعالم والمآثر العمرانية بعد أن تخلصت من آثار الحرب الأهلية ورمم ما تهدم من بناياتها أثناء حصار جيوش الجنرال فرانكو للحكومة الإسبانية (نوفمبر 1936 ـ مارس 1939 م) ، مثل مباني الجامعة ومتنزه روتيرو (Retiro) ، وكذلك ساحات بلازا دو كاستيا (Plaza de Castilla) وبلازا دو سيبلس (Plaza de Cibeles) وبلازا ماجورا (Plaza Majora) وبوابة القلعة (Puerta de Alcala) وسوق راسترو (Rastro) خلف بوابة الشمس ، حيث تعرض مختلف البضائع على الأرض في جو من الحركة والزحام ، ويقصدها كل راغب في التعرف على واقع الحياة بمدريد .

على أن زيارة متحف البرادو (Prado) والتجول فيه تظل أهم ما يقوم به زائر مهتم بالتاريخ ومستقرئ للآثار ، فقد توجهنا إليه صبيحة يوم 27 ديسمبر 1965 م ، فاستوقفتنا عمارته الكلاسيكية التي زادت في هيبتها الأعمدة المقامة في واجهة الشرفات التي نقشت عليها المشاهد التاريخية ، كما أثار إعجابنا بثروته الفريدة من الأعمال الفنية ، وخاصة لوحات الرسام الغريكو (El Greco) التي تغلب عليها الألوان القاتمة الغريبة وتعطي

إحساسا بالتشاؤم ، ولوحات الرسام بيلاثكث (Velasquez) الذي خلد بلاط الملك فيليب الرابع في مشاهد معبرة بدقة بملامحها وسحر أضوائها وظلالها ، لعل أشهر لوحات هذا الفنان الخمسين المعروضة في المتحف لوحة وصيفات الشرف (Las Menias) التي كانت مثار إعجاب الجميع ، وكذلك لوحات الرسام موريللو (Murillo) البالغ عددها أربعين لوحة كلها تعكس واقع الحياة بإسبانيا وتشد الناظر إليها بألوانها البنية والرمادية المعبرة . وهذا ما جعل متحف البرادو يضاهي في ثروته الفنية متحف اللوفر بباريس .

وبالقرب من هذا المتحف يقع القصر الملكي الفخم الذي شيده الملك فيليب الخامس على نهر مدريد "مانزاناريس" (Manzanares) ، وقد اكتسب أهمية لما يضمه من مآثر التاريخ الإسباني من أسلحة ملكية وتيجان ذهبية بعضها لملوك القوط الغربيين ، وطنافس ثمينة ، وخزف نادر ، وتماثيل ذات أحجام طبيعية ، ومجسمات لكبار محاربي إسبانيا بملابسهم الحربية . ولعل ما يستوقف الزائر للقصر الملكي قاعة العرش بثرياتها البلورية وقاعة جاسباريني (Gasparini) بجدرانها المكسوة بالحرير الأزرق وثرياتها المصنوعة من الخزف على شكل فواكه أزهار ، على أن ما يشد انتباه الزائر العربي هي مفاتيح الحمراء التي تسلمها فرديناندو وإيزابيلا من أبي عبد الله آخر ملوك بني الأحمر (1492 م) ، والعلم العثماني الذي أتى به الدون خوان النمساوي من معركة الليبانت بعد أن تمكن من إلحاق الهزيمة بالأسطول العثماني (1571م) ، وسيف البطل الوطني الإسباني بلايو (Pelayo) الذي قاتل به طلائع العرب في معركة كوفادونجا (Covadonga) . ونظرا لأهمية هذه المعركة ومكانة البطل بلايو في تاريخ إسبانيا ، فإننا نشير إلى أن هذا البطل القوطي بعد أن كتبت له النجاة من سيوف المسلمين في معركة البرباط (711 م) ، تراجع إلى الشمال واعتصم مع ثلة من أنصاره بجبال بأشتورية حيث اتخذ كهف كوفادونجا مخبأ له لوقوعه في نهاية خانق عميق بين جبلين يصعب الوصول إليه ، وهذا ما مكنه من تحقيق أول انتصار له على المسلمين عندما أباد سرية إسلامية كانت تتبعه (718 م) ، فدشن بذلك بداية حرب الاسترداد التي استمرت 774 سنة (718-1492 م) ، وسمحت للنصارى الإسبان بالاستيلاء على مناطق إسبانيا الشمالية

(أشتورية - الباسك - نبرة - آراغون - قطالونيا) وتشكيل ضغط مستمر على المسلمين على طول خط الثغور الذي أصبح يمتد مع ضعف الدولة الأموية بالأندلس على طول الأنهار الكبرى بوسط الجزيرة الإيبيرية : إبرو (Ebro) ودويرة (Duero) والتاج (Tagus)، قبل أن ينهار مع انقسام الأندلس إلى ممالك الطوائف، ولولا تدخل المرابطين والموحدين والمرينيين لما استطاع المسلمون مواجهة النصارى إلى غاية القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) .

لا يمكن مغادرة مدريد إلا بعد زيارة المدن التاريخية المهمة القريبة منها مثل الأسكوريال (El Escurial) وآبلة (Avila) وشقوبية (Segovia) وطليطلة (Toledo) . فتوجهنا في أول جولة لنا خارج مدريد إلى قصر الأسكوريال (28 ديسمبر 1965 م) ، الذي شيده الملك فيليب الثاني ابن شرلكان إثر انتصاره على الفرنسيين في 10 أوت 1557 م ، وقد اختاره ليكون مقرا له ومجمعا لحاشيته بعد أن استقل بالجزء الآخر من إمبراطورية هابسبورغ المتكون من جرمانيا والأراضي المنخفضة وملحقاتها عمه الإمبراطور فرديناند .

يتشكل قصر الأسكوريال من عدة مرافق ومنشآت منها محل إقامة الملك ومجمع الدير وبناية المكتبة التي جمعت فيها أمهات الكتب بعد أن أصدر الملك فيليب الثاني المغرم بجمع الكتب واقتناء اللوحات الفنية ، باستشارة من المؤرخ الإسباني دي مورالس (1616م) أمرا ملكيا أوجب بمقتضاه أن توجه إلى مكتبة القصر نسخة من كل كتاب مطبوع بالمملكة الإسبانية ، وأصبحت تتوفر على رصيد غني من المخطوطات بعد أن حفظت بها سنة 1612م مكتبة السلطان المغربي مولاي زيدان السعدي التي وقعت في يد البحارة الإسبان بعد أن فر بها أحد القباطنة الفرنسيين الذي كان مكلفا بنقلها من آسفي إلى أغادير ، وفضل التوجه بها إلى مرسيليا بحجة عدم تقاضيه أجرا مناسبا عن مهمته .

وبذلك أصبحت مكتبة الأسكوريال (سنة 1870م) تضم أكبر رصيد من المخطوطات في القرن السابع عشر ، قبل أن تتعرض لحريق سنة 1671 م الذي أتلف الكثير من ودائعها ، فلم يبق بها سوى 40 ألف كتاب مطبوع و1900 مخطوط عربي

و20909 مخطوط لاتيني وإغريقي وإسباني و72 مخطوط عبري. وقد قدرت المخطوطات التي التهمتها النيران في هذا الحريق بما يزيد عن 4000 مخطوط ومئات اللوحات الفنية التي أهديت للملك فيليب، بعدها تعرضت المكتبة للنهب من طرف الجند الفرنسيين أثناء احتلال نابليون لإسبانيا ، فاختفى من رفوفها 20 مخطوطا وتم الاستيلاء على 1600 كتاب مطبوع .

هذا وقد عمل الراهب اللبناني ميخائيل العزيري (Casiri) على فهرسة مكتبة الأسكوريال منذ 1749م ، وتمكن من وضع جدول باللاتينية لودائعها ، أنهى الجزء الأول منه سنة 1760 م ، ثم أتم الثاني سنة 1770 م ، وهذا ما ساعد على التعريف بثروة نادرة من التراث الانساني ، تقدر اليوم بحوالي 45000 كتاب مطبوع و5000 مخطوط منها 1870 مخطوط عربي ، مما يتطلب من الباحثين العرب أن يولوا وجهتهم نحو هذه الكنوز لينفضوا عنها الغبار ويغترفوا من معينها ويجددوا من خلالها ذاكرتهم التاريخية وعطاءهم العلمي .

لقد غادرنا في المساء رحاب الأسكوريال ، فتوارى عن أنظارنا منظر القصر المهيب ببناياته الزرقاء الداكنة وهندسته الفخمة التي تعكس روح عصر النهضة بما تضمه من 16 فناء و86 سلما و2700 نافذة ، لنعرج شمالا في طريق عودتنا إلى مدريد على معلم الأموات (Valle de Los Caïdos) الذي أقيم لتخليد ذكرى ضحايا الحرب الأهلية الإسبانية ، فشدت أنظارنا إلى ذلك الصليب الضخم المنتصب على الجبل الذي تكسوه الغابات والذي نحتت أسفله كنيسة ضخمة .

توجهنا في الغد إلى زيارة معلمين أثريين إسبانيين مهمين ، وهما مدينتا شقوبية وآبلة بقشتالة القديمة ، عند خط ثغور إسبانيا المسيحية المندفعة والأندلس الإسلامية المتراجعة ، وهذا ما جعلها حلقة الوصل بين المراكز الإسبانية القديمة وهي : برغش (Burgos) وبلد الوليد (Valladolid) وسلمنقة (Salamanca) في الشمال وبين حواضر المسلمين في الجنوب وهي : طليطلة وبطليوس .

كانت وجهتنا في الصباح إلى شقوبية (Segovia)، وبعد قطع 80 كلم تركنا الطريق الرئيسي المؤدي إلى بلد الوليد البعيدة عن مدريد بـ 102 كلم ، وانحرفنا عند

قرية فيلا كاستان (Villa Castin) نحو الشمال، فوصلنا شقوبية (36 كلم)، فتراءت لنا عن بعد بنايات المدينة المقامة على مرتفع من الأرض وسط سهول قشتالة القديمة، يعلوها القصر (El Alcazar)، وتشرف عليها الكاتدرائية (Cathédrale)، وهذا ما أكسب شقوبية منظرا مهيبا وموقعا حصينا، لا يجد الزائر معه سوى الإعجاب بالطراز القوطي الروماني الذي يتميز به القصر والكاتدرائية اللذين يراهما القادم فيخالهما وكأنهما مقدمة سفينة ضخمة أو سحابة دكناء في فضاء واسع يحيط بهما. وغير بعيد عنهما أسفل المدينة توجد الحنايا الرومانية الضخمة بأقواسها المزدوجة (Acueducto) والتي ظلت تحمل الماء إلى مدينة شقوبية منذ أن تم تشييدها على عهد الإمبراطور الروماني تراجان وحتى الوقت الحاضر.

لقد كان قصر شقوبية مكان تأمل للزائر وتذكر للمؤرخ، فقد كان مركزا لانتقال علوم العرب المسلمين إلى الغرب ومنارة إشعاع على أوربا بفضل رعاية الملك ألفونسو العاشر (الحكيم) (Alfonso (X) el-Sabio) (1255–1284 م) للمترجمين الوافدين عليه، فقد وجد فيهم الأنيس في قصره حيث كان يقضي أوقاتا طويلة في تدوين أحداث التاريخ من بداية الخليقة وحتى عصر أبيه الملك فرديناندو الثالث، والتي أصبحت تعرف بالتاريخ العام (Cronica General)...

إن هذا الملك الحكيم (ألفونسو العاشر) يمثل نموذجا للحاكم المثقف سوف يقتفي أثره العديد من حكام الغرب، مما ساعد أوربا على ترشيد الحكم وتطوير مؤسسات الدولة، مما مهد الأرضية لحركة النهضة وفتح أمام الشعوب الأوربية آفاقا واسعة لم تستطع الكنيسة الوقوف ضدها رغم مسايرة بعض الحكام لها والتجائهم إلى التعصب وتصفية خصومهم عن طريق الحجر والاضطهاد ومحاكم التفتيش؛ هذا في الوقت الذي فشل فيه الحكام المسلمون على عهد المرابطين والموحدين الذي بلغت فيه الحضارة الإسلامية أوج عطائها، في إقامة مؤسسات حكم تجمع بين الحزم وحسن النظر وبين تقدير العلم وتشجيع العلماء، عندما فضلوا مناصرة الفقهاء المتزمتين وقمع المفكرين المبدعين، فأغلقت الآفاق أمام الفكر وساد الاستبداد، وبذلك انقلبت الدائرة على المسلمين في شبه الجزيرة الإيبيرية، فلم يعودوا أصحاب رسالة ومناصروا حق

وأهل إسهام، ليتركوا المبادرة للنصارى الذين سوف يتخلصون لاحقا من الفكر الكنسي المغلق الذي لا يرى العالم إلا من خلال وصف الإنجيل وتصور رجال الدين.

و بعد التجول في جنبات القصر وأروقة الكاتدرائية، توجهنا في طريق العودة إلى مدينة آبلة (Avila) التي انحرف الطريق نحوها عند قرية فيلا كاستان التي تبعد عنها بـ 29 كلم، ولم نشعر كيف قطعنا المناظر الجميلة التي تحف بقرية وادي الرملة (Guadarrama) ونفق سان رفائيل (Tunel San Raphael).

لقد أعادنا منظر مدينة آبلة بمنازلها القديمة وتحصيناتها المنيعة وأزقتها الضيقة إلى مجال الذكريات ورحاب التاريخ، فأرجعنا إلى عهد الصراع المسيحي الإسلامي في الثغر الأوسط، وإلى عصر المنصور بن أبي عامر وما أعقبه من تراجع خط الثغور الإسلامية نحو الجنوب، مع سقوط آبلة في يد ألفونسو السادس، فتحولت بذلك إلى موقع استراتيجي عندما اعتنى بها ألفونسو السادس وجعلها قاعدة محصنة ذات أبواب منيعة وأبراج مستديرة وأسوار دائرة، وحتى يزيد من حصانتها فإنه عمد إلى جعل مؤخرة الكاتدرائية نصف الدائرية أحد الحصون المشرفة على السور الخارجي للمدينة.

لقد كانت آبلة القلب النابض لإسبانيا المسيحية في صراعها مع العرب المسلمين، فقد عاش فيها روي دياز المعروف بالسيد (Cide) في بلاط سيده الملك ألفونسو السادس بعد أن غادر بلد برغس، وفيها دفن الأمير خوان (Juan) الذي كان وحيد والديه موحدي إسبانيا فرديناندو وإيزابيلا، كما كانت مدفن أشهر رجال محاكم التفتيش توركيمادا، وفيها ولدت القديسة الشهيرة سانتا تيريزا (Santa Teresa) التي طبعت القرن السادس عشر بنشاطها وخلعاتها وتأسيسها للعديد من الأديرة في آبلة وكامل إسبانيا، تجاوز عددها الثلاثين، ومنها الدير الذي أسسته بآبلة في موقع منزل أسرتها وارتبطت به. حسب التراث الشعبي الإسباني - الكرامات التي نسبت لها وحالات الغيبوبة التي كانت تنتابها والتي كانت تشاهد أثناءها رؤى جميلة للقديسين والشياطين، فتحولت في الخيال الشعبي إلى قديسة تسيطر روحها على مدينة آبلة، وفي قصر آبلة أيضا قضى العديد من ملوك إسبانيا أوقاتا طويلة ينظرون في شؤون الدولة ويسترجعون ذكرياتهم، أمثال فرديناندو وإيزابيلا وشرلكان وفيليب الثاني.

إن زيارة شقوبية وآبلة لا تكتمل إلا بزيارة المدن التاريخية المرتبطة بها مثل بلد الوليد مقر الأرشيف الوطني الإسباني وقلعة إناريس (Alcala de Henarès) القريبة من مدريد، والتي تقع مباشرة خلف مدينة الأسكوريال على السفوح الشمالية لجبال وادي الرامة والتي عرفت بجامعتها القديمة التي انتقلت إلى العاصمة وأصبحت تعرف بجامعة مدريد (1836م)، ولم يبق من جامعة قلعة إناريس العتيدة سوى بناياتها الجميلة التي تثير انتباه الزائر عند حلوله بالمدينة من أجل زيارة المنزل الذي ولد فيه الكاتب الإسباني سيرفانتس.

ومن المدن التي تقع في نطاق مدريد مدينة برغس المشهورة بكنائسها والمعروفة بكونها مدينة السيد (Cide) (روي دياز) الذي يرقد مع زوجته اكسيمينا في أحد أروقة الكاتدرائية غير بعيد عن الصندوق الذي أعطاه كرهن لاثنين من المرابيس، عندما أمر الملك بنقله على أنه يحتوي ذهبا وهو في الحقيقة كان ممتلئا بالرمال، وكذلك مدينة سلمنقة (Salamanca) الجامعية على نهر تورميس (Tormes) والتي دمر جيش نابليون نصف معالمها، فلم يبق من أديرتها العشرين سوى تسعة أديرة وخمسة من مباني كلياتها الخمسة والعشرين، فتحولت بهذا الوضع إلى متحف حي يذكر بمجد المدينة التي كانت تحتضن أقدم جامعة في إسبانيا والتي قدر عدد طلبتها بعشرة آلاف طالب، قبل أن تتراجع بفعل تضييق محاكم التفتيش أثناء القرنين الخامس عشر والسادس عشر.

ما كان لنا أن نغادر مدريد دون زيارة عاصمة إسبانيا القوطية ومركزها الإسلامي طليطلة الواقعة على بعد 70 كلم من مدريد، فتوجهنا إليها صبيحة يوم 27 ديسمبر 1965م، وكلنا اشتياق لرؤيتها، فكان لسان حالنا ما عبر عنه شعرا شاعر ووزير طليطلة أبو عيسى لبون بن عبد العزيز المعروف بذي الوزارتين (لعمله وزيرا للمأمون بن ذي النون ثم لأخيه يحي ملوك طليطلة) بقوله:

ذروني أجب شرق البلاد وغربها

لأشفي نفسي أو أموت بدائي

فلست ككلب السود يرضيه مربض

وعظم، ولكني عقاب سماء

وما إن توقفت الحافلة حتى توجهنا للتعرف على المدينة، فسرنا في شوارعها الضيقة المرصوفة بالحجارة وبين منازلها الشاحبة، وتعرفنا على ما بقي من معالم مسجدها الجامع الذي حول إلى كنيسة، والذي فرغ من بنائه المعماري العربي موسى بن علي في شهر محرم 390 هـ حسب الكتابة العربية التي تؤرخ له. ثم زرنا منزل الفنان الملهم الجريكو (El Greco) الذي غادر مسقط رأسه كريت إلى روما ليتعلم الرسم على أيدي فناني عصر النهضة، ثم غادرها إلى إسبانيا (1575 م)، ليستقر بطليطلة حيث أمضى أربعين سنة واظب خلالها على الرسم، فجاءت لوحاته تعبر عن واقع طليطلة بوجوها المسنونة وأجسامها الطويلة الملتوية وبألوانها القاتمة ومناظرها الحزينة التي تشعرك بالكآبة وبقرب حلول العاصفة. ويعكس بيت الجريكو هذا شخصية هذا الفنان بحجارته البسيطة العارية وحديقة اليافعة وشرفاته المتواضعة التي أوحت لصاحبها بلوحاته المعبرة ذات المسحة الغريبة، والتي كانت مكان لقاء لمشاهير عصره أمثال لوي دي فيجا وسيرفانتس صاحب رواية الدون كيشوت، والتوقف هنيهة بفندق الدم (Posada de la Sangue) الذي أعيد ترميمه بفعل ما أصابه من تدمير في الحرب الأهلية الإسبانية، تخليداً لمآثر طليطة والذي كان سرفانتس ينزل في إحدى غرفه عندما يحل بطليطلة.

بعدها أخذنا الحافلة من جديد فاجتزنا قنطرة طليطلة الشهيرة على نهر التاج (Tajo) التي لا تزال قائمة منذ أن بناها العرب المسلمون، وتوجهنا لقصر طليطلة المنيع الواقع خارج المدينة، فتذكرنا مآسي الحرب الأهلية الإسبانية، وأعجبنا بالدور البطولي لحامية القصر عند تعرضها للحصار، كما ذكرتنا طليطلة ونحن نشرف عليها من القصر بمدينة قسنطينة الجزائرية من حيث موقعها وجسورها وخانق نهر التاج العميق الذي ينحني عليها ويخترق صخورها فيكسبها منعة وجلالاً وهيبة.

إن الزائر لطليطلة لا يمكن له أن يتخلص من الإحساس بثقل التاريخ وتراث الماضي لمكانة طليطلة في التاريخ العربي والإسباني، فعند أسوارها استقبل البطلان طارق بن زياد وموسى بن نصير مبعوثي الحاكم القوطي لتسلم المدينة (حوالي سنة 94 هـ/713 م)، فكان ذلك استكمالا لفتح الأندلس، كما أن استيلاء الأذفونش (ألفونسو السادس) على طليطلة (478 هـ/1085 م) كان مؤشرا مبكرا بما سيلحق بالأندلس؛ فاستيلاء النصارى على طليطلة كان بمثابة

الضربة القاضية التي حطمت العمود الفقري الذي يقوم عليه الوجود الإسلامي في شبه الجزيرة الإيبيرية. فسقوط طليطلة انفرط العقد وبدأ سقوط حباته، وهذا ما تغافل عنه حكام المسلمين بالأندلس وإن لم يفت أحد الشعراء الإشارة إليه والتحذير من مخاطره بهاذين البيتين :

حثـــوا رواحلكـــم يـــا أهـــل الأنـــدلس

فمـــا البقـــاء بهـــا إلا مـــن الغلـــط

الثـــوب ينـــسل مـــن حافاتـــه وأرى

ثـــوب الجزيـــرة منـــسولا مـــن الوســـط

فحق لأحد شعراء الأندلس أن يرثيها بقصيدة مؤثرة أثبتها أمير البيان العربي شكيب أرسلان في كتابه "خلاصة تاريخ الأندلس"، نقتبس منها هذه الأبيات :

طليطلـــــة أبـــــاح الضـــــد منهـــــا

حماهـــــا أن ذا نبـــــأ كـــــبير

فلـــيس مثالهـــا إيـــوان كـــسرى

ولا منهـــا الخورنـــق والـــسدير

ألم تـــك معقـــلا للـــدين صـــعبا

فـــذ لله كمـــا شـــاء القـــدير

وأخـــرج أهلـــها منهـــا جميعـــا

فصـــاروا ســـاء مـــنهم مصـــير

وكانـــت دار إيمـــان وعلـــم

معالمهـــا الـــتي طمســـت تـــنير

مـــساجدها كنـــائس ! أي قلـــب

علـــى هـــذا يقـــر ولا يطـــير

لقد كانت طليطلة ملتقى الشعوب والأديان ومجمع الثقافات والحضارات والتفاعل والعطاء في عهدها العربي الزاهر (ق. 9 ـ 10م) أو فترة تحولها إلى قاعدة للنصارى (11 ـ 15م)، تمازجت فيها ثقافات المسلمين والنصارى، وعبرت من خلالها عطاءات

المعرفة العلمية للحضارة المتوسطية، فكانت بذلك محور التفاعل الثقافي في القرون الوسطى بين عالمي الإسلام والمسيحية ومركز إشعاع علوم المسلمين على مدارس وأديرة وجامعات أوربا، مما جعل المستشرق ريسلو في كتابه "الحضارة العربية" يشير أن التيار العظيم المؤثر في الفكر الغربي انطلق من طليطلة نحو جنوب فرنسا ورحل إلى دير كلوني، ومنه وصل إلى إقليم اللورين وألمانيا وإنكلترا وكل أوربا الغربية.

بلغت طليطلة أوج نشاطها العلمي في القرن السادس للهجرة (الثاني عشر الميلادي) عندما أصبحت عاصمة عالمية للترجمة من العربية إلى العبرية واللاتينية والقشتالية (الإسبانية)، فقصدها الطلبة وأمها العلماء، واستقر بها التراجمة وتجمع بها ذوو الثقافة الإسلامية والعبرية، ولعل هذا ما دفع الإنكليزي دانيال مورلي (Daniel Morley) في منتصف القرن 6 هـ/12م إلى التوجه إليها وتفضيلها على غيرها من مراكز الثقافة بالغرب، وهذا ما أثبته في مذكراته بقوله : "لقد دفعني حب الدراسة إلى مغادرة إنكلترا، فنزلت باريس فلم أر بها سوى متوحشين يمارسون سلطة قاسية في مقارهم الدراسية (أي الجامعات)، وكما هو الحال على أيامنا حيث دراسة العرب تقوم أساسا على تقديم الفنون والعلوم لجمهور المتعلمين، وقد اجتذبتني طليطلة، فسارعت للالتحاق بها للانتفاع بهذه العلوم والفنون".

وتبنت الكنيسة الكاثوليكية نقل العلوم العربية والمعارف الإسلامية التي لا تتعارض مع التعاليم المسيحية المعتمدة، فكان لطليطلة دور رائد فيها، بعد أن أسس بها الأسقف رايموندو كبير مستشاري ملوك قشتالة (Archevêque Raymond) (ت. 1152م) مدرسة المترجمين (Collegio de Traducttores Toledanus) التي جمعت كبار المترجمين وكان أغلبهم من اليهود، فاجتهدوا في نقل كتب التراث والمعرفة الإسلامية وإن لم يكونوا نزهاء فيما نقلوه بعد أن تصرفوا في النصوص ونسبوا العديد منها إلى أنفسهم، ومن هؤلاء الرواد في عالم الترجمة والنقل الذين عرفوا أوربا بعلم وثقافة المسلمين، نذكر :

- جيرار الكريموني (Gérard de Cremona) (ت. 1187 م)، الذي قدم من موطنه

لومبارديا شمال إيطاليا ليستقر بطليطلة وينكب على ترجمة ما يزيد عن سبعين كتابا من العربية إلى اللاتينية .

- بدرو ألفونسو الهويسكي (Pedro Alfonso de Huesca) (ق . 13 م) ك المعروف بدرو الجليل بعد أن تخلى عن اسمه اليهودي المعروف به وهو موسى السفردي .
- ميخائيل سكوتو (M. Scottus) (ت . 1217 م) : غادر بلاط الملك فريدريك بإيطاليا ليستقر بطليطلة ويشتغل بالترجمة .
- ماركوس (Marcos) أسقف طليطلة المطلع على الثقافة الإسلامية والمسيحية .
- يوحنا دوكايو الطليطلي (منتصف ق . 13 م) : مال إلى ترجمة القصص الأدبي من العربية .
- جيرار دي سابيونتا (Gérard Sabbionetta) (منتصف ق . 13 م) : ترك ترجمات كثيرة ، وقد يكون ابن الكريموني الشهير .
- هرمان الجرماني أو الدلمسي (Hermanus Alumanus) (ت . 1272 م) ، اهتم بترجمة الكتب العلمية الموجودة بمكتبة طليطلة .
- هيجو دي سنكتلونيس (Hugo de Sanctallenis) (النصف الأول من ق . 12 م) : اهتم بترجمة كتب الفلك والارصاد والهيئة .
- إبراهيم بن عزرا الطليطلي (Abraham Ibn Ezra) (ت . 1160 م) ، ترجم كتب الخوارزمي وابن الهيثم .

لقد كانت طليطلة معبرا لإشعاع الحضارة العربية التي خبا وهجها في موطنها بقرطبة وفاس وتلمسان وتونس وحواضر الشرق ، وإن ظلت محافظة على قيمتها بين المجامع العلمية والأوساط الجامعية في أوربا ، حيث ظلت التقاليد العلمية الأندلسية حية قائمة على البحث والاستقصاء للمزيد من المعرفة والتي لا يصل فيها الإنسان إلى يقين ولا يستقر فيها على رأي ، إنما يتطلب المزيد والمزيد من التقصي والبحث ، وهذا ما أرق العلماء المسلمين ، فلسان حالهم في بحثهم عن الحقيقة كما قال العالم الأندلسي أبو

الوليد هشام أحمد المعروف بابن الوقش (408 ـ 489هـ) :

برح بي أن علوم الورى ... اثنان ما أن فيهما من مزيد

حقيقة يعجز عن تحصيلها ... و باطل تحصيله لا يفيد

لقد بدأ نبع الحضارة الإسلامية يجف مع انتصار أهل السنة على جماعة المعتزلة في المشرق على عهد الخليفة العباسي المتوكل العباس (ت . 247 هـ/861 م) ، ومع سيطرة المالكية على المناخ الثقافي في المغرب انطلاقا من مراكزها في القيروان . فلم ينته القرن السادس إلا والعالم الإسلامي يتخلى عن مكانته الرائدة في الإبداع والتجديد والابتكار ، وقد كانت محنة ابن رشد (ت . 595 هـ/1198 م) مؤشرا عن تخلي العالم الإسلامي نهائيا عن موقع الصدارة العلمية والريادة العقلية ، فانغلقت السبل أمام الفكر الإسلامي بعد أن نجح صانعو الرأي العام في العالم الإسلامي من فقهاء السلطان في فرض نظرتهم المتشبثة بالنصوص في دفع التفاعل الثقافي إلى عملية اجترار وحفظ في الوقت الذي مال فيه الناس إلى التصوف وأصبح العالم من يأخذ بالشروح الطويلة ويرجع إلى المصنفات الموسوعية .

وفي هذا الوقت كان لطليطلة (طيلة القرنين 6 و7 هـ/12-13 م) دور الريادة في تمكين الغرب من اقتباس ما يراه نافعا من علوم ومعارف المسلمين ، فاستكملت أوربا بفعل الدور الذي لعبته طليطلة عملية الاقتباس مع القرن الثالث عشر ، وهذا ما سمح للغرب المسيحي أن يجدد نفسه ، فخطا خطوات حاسمة في التحرر من سيادة الاقطاع وسار نحو حياة الاستقرار واكتساب مصادر الثروة والنقود ، فتكاثر السكان ونمت المدن وأصبحت الجامعات الغربية قوة علمية ومرجعية أخلاقية ، وهذا ما اضطر الكنيسة إلى مسايرة الأمور فغدت أكثر التصاقا بالقضايا الاجتماعية والمسائل العلمية ولو ظاهريا ، هذا في الوقت الذي كان فيه العالم الإسلامي الذي انهكته الحروب الصليبية (1096-1291م) يتراجع ديمغرافيا ويغرق في البداوة ويستسلم للإقطاع الحربي بعد أن بدأ

يتراجع عسكريا أمام قوة الغرب المتصاعدة .

لقد فقدت طليطلة مكانتها الرائدة في التواصل الحضاري بين العالمين الإسلامي والمسيحي بفعل ازدياد روح التعصب ضد المسلمين التي كانت تنمو بفعل تشجيع رجال الدين المسيحيين كلما أوغل النصارى في الجنوب وحققوا مكاسب على حساب المسلمين ، فتحولت الكنيسة بعدما عرفت كيف تنقل ما تم ترجمته من معارف المسلمين إلى جهاز قمعي يعمل على تذويب إسبانيا في بوتقة الكاثوليكية ومحو كل أثر للمسلمين واليهود ، فحولت مساجد المسلمين وبيع اليهود بطليطلة إلى كنائس ، ومنها المسجد الجامع للمدينة والمعبد اليهودي اللذين أصبحا كنيستين ، إحداهما تعرف بسانتا ماريا لابلانكا (Santa Maria La Blanca) ، والأخرى بكنيسة الترانسيتو (El Transito) التي لا يزال شكلها محافظا على هيئة المعبد اليهودي منذ أن شيدها صموئيل ليفي بلوحاتها العبرية وجدرانها الخالية من الأعمدة ، وتحولت كاتدرائيتها الفخمة إلى مركز للتوجيه الروحي لإسبانيا ، ففيها أقرت قرارات الديوان المقدس ومنها انطلقت حركة التطهير الديني بواسطة محاكم التفتيش (Inquisition) .

وقد أنشأ محاكم التفتيش هذه البابا غريغوريوس التاسع وأقرها مجمع فيرونا بإيطاليا (1183 م) واستكملت قوانينها بمراسيم بابوية أصدرها كل من البابا سيكستوس الرابع (1477 م) ويوليوس الثالث (1542 م) وبولس الرابع (155-1559 م) ، تنص على تطبيق تعاليم الكنيسة في مجال تطهير العقيدة المسيحية وتخليص الإنسان المسيحي من شروره ، وقد كانت تعاليم الكنيسة في ذلك تستند إلى فكرة أنه : "يجب القضاء على الهرطقة بكل شدة وبكل عنف كما يقضي الإنسان على الطاعون ، لأن الهرطقة هي مرض يصيب الروح ، وإذا كانت الخرق والملابس الملوثة بالطاعون ترفع من أماكنها وتحرق ، فلماذا لا يجب علينا أن نستأصل وأن نحرق وأن نزيل الهرطقة بنفس الشدة ، فإن الهرطقة مرض يصيب العقل ، وهو أغلى وأثمن جزء في جسم الإنسان ، ولا يمكن مقارنته بأي جزء آخر في الإنسان" .

وبهذا المفهوم فإن محاكم التفتيش تعتبر لوثة من الجنون لم تمح آثاره من تاريخ

إسبانيا إلا في منتصف القرن التاسع عشر بعد أن ألغيت رسميا عام 1834 م ، مع كونها في الواقع استجابة لظروف تاريخية عاشتها الكنيسة المسيحية ، فكانت ردا عنيفا على تحدي الإصلاحيين وتهديد المسلمين واليهود ، فكانت بحق وسيلة للإبقاء على إخلاص الكاثوليكيين للكنيسة وسلاحا عسكريا قويا للقضاء على خصوم الدولة الإسبانية وإبقاء إسبانيا قوية ومتوحدة ومتشبثة بمبادئ الكنيسة ، فضلا عن كونها أداة تطهير اجتماعي يرمي حسب مفهوم ذلك العصر إلى إنقاذ الأرواح والإبقاء على تجانس المجتمع ، فكان بذلك الصليب الأخضر رمز محاكم التفتيش شعار سيادة الكنيسة والقضاء على خصومها الهراقطة المسلمين واليهود عن طريق العقيدة المسيحية القائمة على العقاب والتعذيب والسجن والإعدام التي اتخذت مظهرا احتفاليا وتحولت إلى دراما إنسانية مثيرة .

لقد كان رئيس القضاة وهو أول رئيس لمحاكم التفتيش توماس دي توركيمادا (Tomas de Torquemada) رمزا للتعصب والقسوة لمدة ثمانية عشر عاما ، سلط خلالها أقسى العقاب بمن مثل أمامه من المتهمين ، فقد حوكم أمامه أكثر من مائة ألف متهم وحكم بالإعدام على حوالي سبعة آلاف .

وكان أول ضحايا محاكم التفتيش هذه جماعات المسلمين واليهود التي أرغمت على التمسح وأصبحت تعيش تحت طائلة التعذيب والحرق طيلة القرن الخامس عشر ، الذي كان عصر رعب وخوف بإسبانيا كلها ، فقد تعرض للتعذيب والسجن والموت حرقا ، حسب دفاتر محاكم التفتيش ، 105200 شخص ما بين 1480 و1508م ، وكان نصيب طليطلة من هذه الحصيلة المفجعة معتبرا ، فقد هلك من سكانها المسلمين واليهود ومن اتهم بالزندقة من النصارى 7000 شخص ما بين 1485 و1610م . وبهذه الأعمال البربرية المنافية للروح الإنسانية فقدت طليطلة روحها المبدعة وتحولت إلى مجتمع محنط ومدينة ميتة وبيئة منطوية على نفسها ، فلم تعد مركز إشعاع معرفي ومجال تفاعل ثقافي وإنما غدت مكانا منعزلا كئيبا لا يقصده الزائر إلا للتعرف على معالمه وتذكر تاريخه .

إن زيارة مدريد والمدن التاريخية القريبة منها (شقوبية وآبلة وطليطلة) لا تكتمل إلا

إذا ذكرت مدن الشمال الأخرى التي لم تتمكن من التعرف عليها في هذه الجولة التاريخية، وهذا ما يتطلب مني التعرض لها بعدما سمحت لي الظروف أن أتعرف عليها في زيارات سياحية وعلمية أخرى. فقد اعتدت لعدة مرات العودة من فرنسا إلى الجزائر عن طريق إسبانيا، فكنت أنطلق بالقطار من مرسيليا إلى الجزيرة الخضراء ومنها نحو طنجة ففاس والجزائر، وهذا ما سمح لي بالتعرف على عدة مدن في شمال شرقي إسبانيا ابتداء من محطة بوربو (Port Bou) الجبلية الساحلية عند التقاء جبال البرانس بالبحر المتوسط، وحتى سرقسطة مرورا بخيرونة وبرشلونة. وكانت آخر جولة لي في تلك الربوع بمناسبة انعقاد المؤتمر الدولي للدراسات الموريسكية لإحياء الذكرى الثلاثمائة والثمانين لطرد الموريسكيين من الثغر الأعلى (أراغونا ـ قاطالونيا) (4–9 ديسمبر 1990م)، فقضينا أسبوعا في إقامة مريحة بسان كارلوس دولا رابيطا (San Carlos de la Râpita) الواقعة عند سفوح الجبال عند مصب نهر الإبرو (Rio Ebro) في البحر المتوسط والتابعة لمقاطعة طراغونة، واستمتعنا بمحاضرات قيمة وصحبة ممتعة مع رواد الدراسات الموريسكية من عرب وإسبان، نذكر منهم: محمد رزوق من المغرب، وعبد الجليل التميمي وفرحات الدشراوي وجمعة ستمة وعبد الحكيم القفصي والشيخ الباحث سليمان مصطفى زبير الأندلسي من تونس، وعبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم من مصر، وبرنار فانسان ولويس كاردياك من فرنسا، بالإضافة إلى جمع من أساتذة جامعات قادس وبلنسية وسرقسطة وأليقانت وغرناطة وبرشلونة ومدريد وطاراغونه وأوفييدو ومرسيه، وكان في مقدمتهم عميدا الدراسات العربية في إسبانيا وهما ميكال دي إيبالزا (M. de Epalza) وألفارو غوميس دو فوينتيس (A. G. De Fuentes).

لقد كانت مبادرة بلدية سان كارلوس دولا رابيطا عملا حضاريا وإنجازا علميا حاولت من خلاله ردّ الاعتبار إلى الوجود الإسلامي بالأندلس وإنصاف الموريسكيين المهجرين من وطنهم إسبانيا ظلما وعدوانا بفعل التعصب الديني والتحجر الثقافي، فأقيم نصب تذكاري لأفواج المطرودين من ميناء بورت دالفاكس (Port dels Alfacs) كتب بالعربية والقاطلانية، ووجهت دعوة لوضع مدونة للموريسكيين تحرر أساسا بالعربية والإسبانية والقاطلانية، كما تم اعتماد اللغة العربية كإحدى لغات المؤتمر، مما

أصبغ على الملتقى روحا علمية بناءة وترك أثرا حسنا لدى المشاركين.

حرص المشرفون على هذا المؤتمر الدولي على راحة المشاركين وتمكينهم من التعرف على مقاطعة طرطوزة (طرطوشة)، فخصص يوم للتجول في دلتا نهر الإبرو (Isla de Garcia)، وهي محمية طبيعية تزخر بأنواع الحيوانات وأصناف الأشجار التي تحف بمياه نهر الإبرو المائلة إلى الحمرة والتي تكسب المكان جاذبية وجمالا. وخصص يوم آخر (8 ديسمبر 1990 م) لزيارة مدينة طرطوزة (Tortosa) التابعة لمقاطعة طاراغونه (Tarragona)، فعبرنا للوصول إليها الجسر الحديدي المقام على نهر الإبرو، وتوجهنا إلى قلعتها القديمة المعروفة بقصر الزادة (La Zada)، فتوقفنا في رحاب القصر الذي حول جزء منه إلى فندق سياحي تعلوه الأعلام، فصعدنا رأس برج الماس وتجولنا في الأسوار العالية التي تحيط به والتي توجد بالقرب منها قبور تعود إلى الفترة الإسلامية، ثم نزلنا إلى مركز المدينة القديمة لنتعرف على كنيستها نوتردام دي لا سينتا (Notre Dame de la Cinta) وعلى البناء المخصص لحجز المسلمين المتهمين بالهرطقة وسجن من توجه له محاكم التفتيش تهمة الزندقة ومعاداة الكنيسة من الإسبان، فبعثت دهاليز ذلك البناء في نفوسنا شعورا بالانقباض والحزن.

وبعد حضور حفل استقبال رسمي في بناء محافظة طرطوزة غادرنا المدينة معتبرين لتغيرات الزمان وتقلبات الدهر فلم نجد ما نخفف به واقعنا سوى تذكر عالمها أبو بكر الطرطوشي صاحب سراج الملوك الذي تركها ليستقر في الإسكندرية وكأنه كان يعرف ما سوف يحل ببلده ويلحق بأهله في تلك الديار.

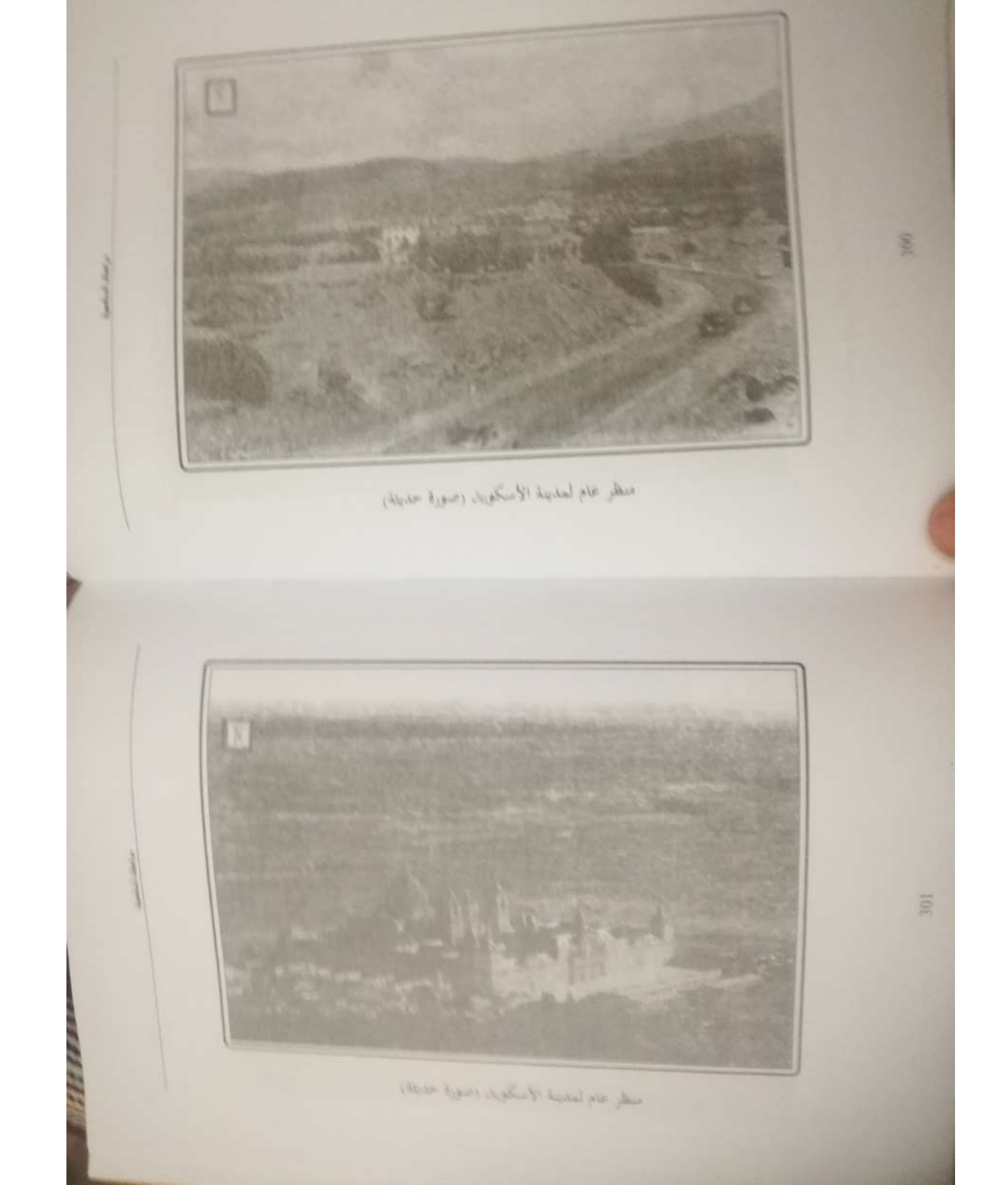
أما برشلونة التي اعتدت على التردد عليها والتجول بشوارعها عدة مرات، فإنها هذه المرة لم تثر في نفسي أي إحساس أو شعور رغم ماضيها الحافل بالتقلبات والتغيرات منذ أن اتخذها البحارة الفينيقيون محطة تجارية، أصبحت مستقر القائد القرطاجي إميلكار باركة (ق. 3 ق.م.)، ثم مستعمرة رومانية، ثم مدينة قوطية. وبعد أن تحولت إلى حصن إسلامي عادت من جديد قاعدة لمملكة قاطالونيا، فتوسع حيها القوطي وبنيت كاتدرائيتها، فتحولت إلى مدينة مهمة في القرن الثالث عشر. فقدت بعد

ذلك مركز الدولة القاطالونية والقلب النابض بإسبانيا المعاصرة بفضل نشاط أبنائها ونبوغ فنانيها أمثال المعماري أونطونيو غاودي (A. Gaudi)، وبابلو بيكاسو (P. Picasso)، وسالفادور دالي (S. Dali)، وخوان ميرو (J. Miro) الذين أحدثوا ثورة في مجال الفن ونقلة في تصور القيم الجمالية، بتخليهم عن القواعد الجامدة وإبداعهم في التعبير التجريدي. وقد كادت برشلونة أن تصبح مركز إسبانيا السياسي عندما دعمت الحكم الجمهوري، مما عرضها لمحن الحرب الأهلية.

رغم كل ذلك لم أر في برشلونة سوى مدينة متفتحة على عالم المتوسط فاقدة لروح التاريخ لا تختزن في ذاكرتها ما يعكر عنها حركة الحياة وضجيجها وضوضائها، فالقادم إليها لا يتعرف عليها إلا من خلال مغازاتها وساحاتها، والنازل فيها لا تستقبله إلا بقدر ما يجود به جيبه. قد يكون ذلك حكما قاسيا على برشلونة ولكنه إحساس صادق، وعلى كل حال فإن برشلونة لا يعنيها الماضي بقدر ما يهمها المستقبل لأنها حريصة على المحافظة على مكانتها المتميزة، فهي أهم المدن التجارية والمراكز الصناعية الإسبانية وأغناها وحاضرة إقليم قاطالونيا المتميز بشخصيته الوطنية ولغته القومية وميوله الخاصة.

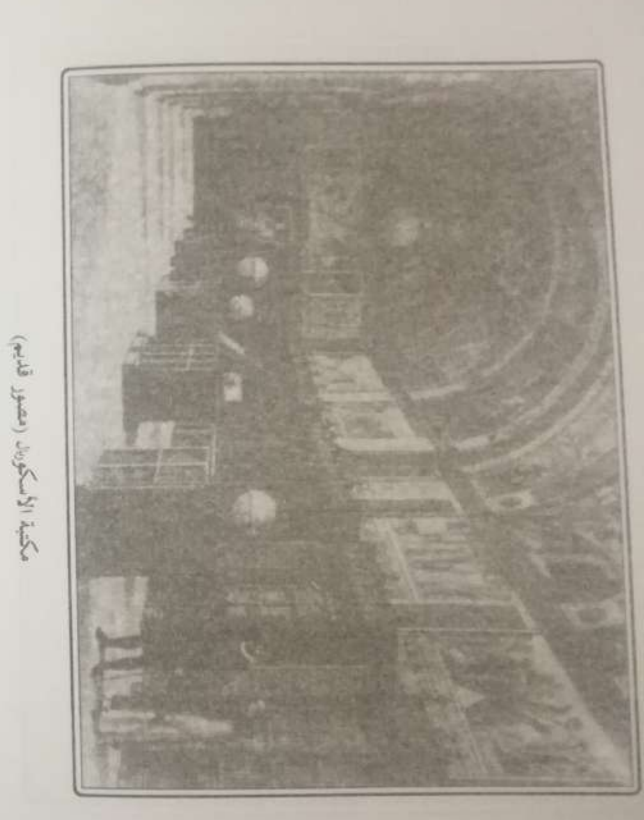


لوحة زيتية لملك فيليب الثاني (1556 ـ 1598م) على صهوة جواده

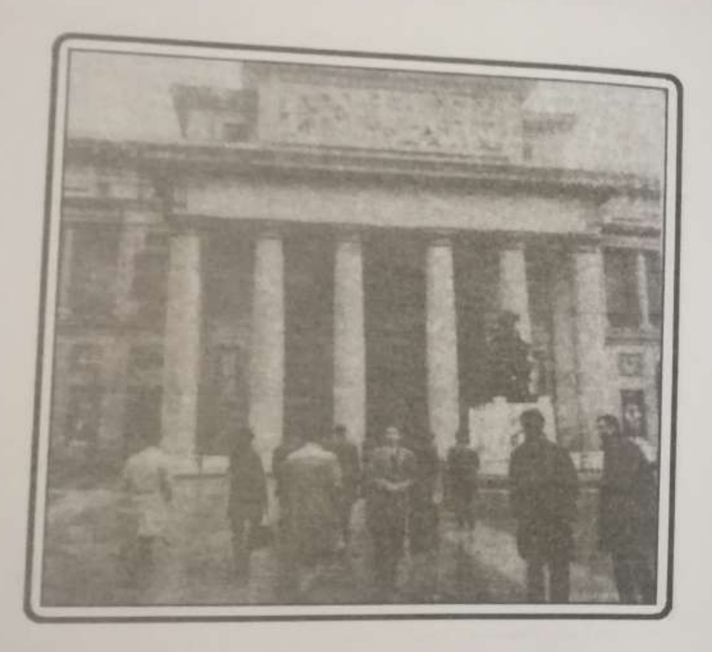


منظر عام لمدينة الأسكوريال (صورة حديثة)

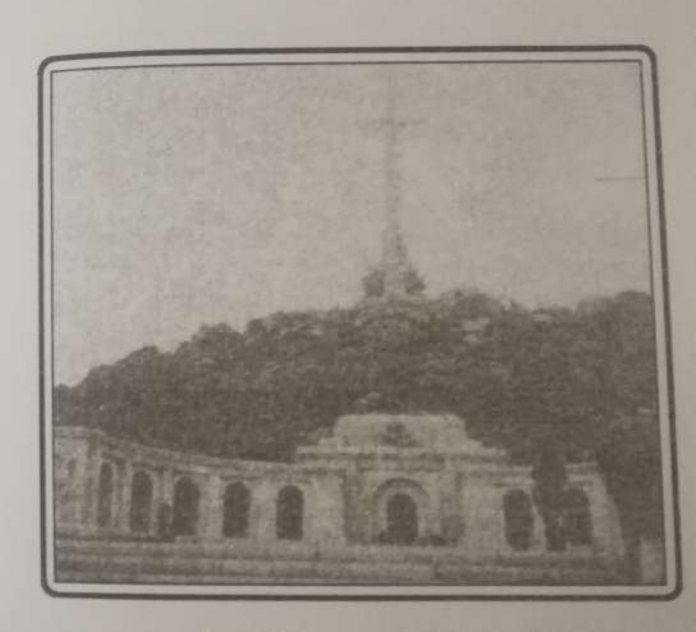
منظر عام لمدينة الأسكوريال (صورة حديثة)



مكتبة الأسكوريال (مصور قديم)



المؤلف أمام متحف ألبرادو بمدريد (صورة أخذت: 27 . 12 . 1965)



نصب ضحايا الحرب الأهلية الإسبانية بوادي الأموات القريب من مدريد

ج. من قرطبة إلى إشبيلية إلى الجزائر:

انقضت فترة إقامتنا بمدريد، فغادرناها مع مستهل عام 1966 م، غير آسفين عليها لضوضائها وجلبتها وعجلة الحياة بها، لنتوجه جنوبا نحو عاصمة الأندلس الإسلامية قرطبة، فكان الطريق شاقا والرحلة متعبة، زادها الصيام عناء ومناظر سهوب قشتالة رتابة وثقلا على النفس، فلم نر لعدة ساعات بعدما قطعنا جبال طليطلة إلا بطاحا مترامية وسهولًا مكسوة بالأعشاب، تتناثر بها بعض المزارع الفقيرة. وما كدنا نألفها حتى توقفنا في محطة مانزاناريس (Manzanares)، التي جعلتنا نتشوق لحط الرحال بقرطبة، فقطعنا منعرجات جبال سييرا مورينا (Sierra Morena) وتجاوزنا محطة بيلان (Bailèn) التي مررنا عليها في طريق ذهابنا إلى مدريد، ثم انحرفنا نحو الغرب لنمر على مدينة أندوجار (Andûjàr)، وعندها بدأت غابات زياتين الأندلس تغطي المنحدرات المشرفة على حوض الوادي الكبير، ولم يمض وقت طويل حتى دخلنا قرطبة لنستقر في أحد فنادقها، فهالنا مدى الفرق بين قرطبة في خيال الأديب وذاكرة المؤرخ وقرطبة واقع الحياة اليومية، فلم نجد ما نتأسى به سوى قول شوقي:

قريبة لا تعد في الأرض، كانت ... تمسك الأرض أن تميد وترسي

ركب الدهر خاطري في ثراها ... فأتى ذلك الحمى بعد حدسي

تجلت لي العصور ومن فيـ ... ـها من العز في منازل تعس

حقا، لقد كانت قرطبة شرقية في أصولها، عربية في روحها، مغربية في حضارتها، أوربية في واقعها، فقد أسسها الفينيقيون وأطلقوا عليها اسم كرطوبة وهي تلخيص وإدغام للفظ كارتاطوبا أي المدينة الصالحة، ثم أصبحت قاعدة لجهات جنوب الجزيرة الإيبيرية عندما اختارها القائد الروماني سيبوي الإفريقي قاعدة لإسبانيا

الرومانية عام 152 ق.م.، هذا القائد الذي نعرفه في الجزائر بأنه صديق ماسينيسا ووصي على أبنائه وحامي ليوغرطة، ليكون شريكا في ملك أبناء عمه، قبل أن تنقلب الصداقة إلى عداوة والتعاون إلى حرب. ومع اجتياح القوط لإسبانيا أصبحت إحدى قواعدهم الرئيسية، وقد نالت إعجاب المسلمين عندما فتحوها إثر انتصارهم على القوط في معركة وادي لكة (شريش) (91 هـ/711 م)، وارتبط مصيرها بالحكم العربي لإسبانيا منذ أن اختارها عبد الرحمن الداخل الأموي لتكون مقرا لإمارته الأموية (138-173 هـ/755-789 م)، ووقف في وجه طموحات الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور الذي لم يجد بدا من التسليم بالأمر الواقع، بعد فشل الحملة العسكرية (7000 جندي) التي جردها بقيادة واليه على إفريقية العلاء بن مغيث، كما لم يستطع العاهل الجرماني شارلمان، الذي وجد المساعدة من والي برشلونة سليمان بن يقظان، التقدم نحو الجنوب واضطر إلى التراجع ووضع حد لطموحاته في شبه الجزيرة الإيبيرية.

وبذلك استقرت الأوضاع لعبد الرحمن الداخل واستطاع أن يؤسس ملكا عظيما وحد الأندلس وحمى الإسلام بها، فحق لشوقي أن يخلده في شعره بهذه الأبيات:

أثـــر مـــن محمـــد، وتـــراث
صـــاح (للـــروح) ذوي الـــولاء الأمـــس

بلـــغ الـــنجم ذروة، وتنـــاهى
بـــين (ثهـــلان) في الأســـاس و(قـــدس)

صـــنعة (الـــداخل) المبـــارك في الغـــر
ب، وآل لـــــه ميـــــامين شمـــــس

وأصبغ عبد الرحمن الداخل على قرطبة مسحة شرقية وبث فيها روحا عربية وأكسبها مظهراً إسلامياً، بعد أن وسع جامعها وشيد بها قصره وبنى بها العديد من الأسواق والحمامات والحدائق والبرك، فتحولت قرطبة إلى حاضرة علم وموطن حضارة ومغاني طرب وأنس، وإن لم تستطع أن تعوض الداخل موطن قومه في الشرق ومرابع صباه في الشام، وهذا ما عبر عنه شعرا:

أيهـــا الراكـــب الميمـــم أرضـــي
اقـــرأ مـــن بعضـــي الســـلام لبعضـــي

إن جســـمي كمـــا علمـــت بـــأرض
و فـــــؤادي ومالكيـــــه بـــــأرض

قـــدر الـــبين بيننـــا فافترقنـــا
و طـــوى الـــبين عـــن جفـــوني غمضـــي

أصبحت قرطبة حاضرة الإسلام ومقر دار الخلافة على عهد عبد الرحمن الثالث الملقب بالناصر، الذي حكم الأندلس خمسين سنة (300-350 هـ/912-961 م)، قضاها في رعاية شؤون رعيته وتقوية دولته، فلم يهنأ أثناءها - حسب قوله -: "بصفو الحياة وبتذوق نعيمها بدون تكدير سوى أربعة عشر يوماً". فعكست قرطبة عظمة ملك عبد الرحمن الناصر وأصبحت تنافس بغداد في المشرق وتتفوق على غيرها من حواضر المغرب، فناهز سكانها المليون نسمة في وقت كان هذا العدد من نصيب الدول وليس من تقديرات المدن. وانتشرت حولها الأرباض وأحاطت بها الأسوار المنيعة الممتدة من الشرق إلى الغرب، بني جزء منها على أنقاض السور الروماني، وقد زال جزء كبير من هذه الأسوار ولم يبق منها الآن سوى السور الذي جدده الموحدون وأحكموا بنيانه باستعمال الملاط الصلب ولا زالت بعض أبراجه المربعة وشرفاته المستديرة تبعث على الاعجاب، مثل برج كلهرة عند نهاية قنطرة الوادي الكبير. أما أبواب هذه الأسوار، فلم تعد نعرفها إلا من خلال كتب التاريخ ومصنفات الأدب، مثل باب القنطرة وباب المدور وباب إشبيلية أو العطارين وباب بطليموس المعروف بباب الجوز الذي ظل عالقا بالذاكرة لكونه مقصد المتفرجين على حسناوات قرطبة اللاتي كن يخرجن منه للاستسقاء ولا يمانعن في الالتفات إلى المعجبين بهن عندما يعبرنه. وفي جو التسامح والانفتاح أقبل الناس على الحياة بقرطبة، فقصدها كل راغب في مجد أو طالب لثروة أو منتهز لفرصة، وهذا ما ساعد على تطور المجتمع القرطبي، فتعايشت الأديان والمذاهب والطوائف، وهذا ما دفع الراهبة الألمانية هروشيفيتا تصف قرطبة بأنها "زينة العالم لما أعطته للبشرية من إسهام علمي وفكري راقي من أبرز عناوينه ابن حزم وابن رشد وابن ميمون ...".

لقد تراجع أمر المسلمين في الأندلس مع سقوط الخلافة الأموية بها وظهور ملوك الطوائف، فلم يحل دون اجتياح النصارى لكل الأندلس سوى تدخل المرابطين وانتصارهم في معركة الزلاقة (479 هـ/1086 م)، ونجدة الموحدين وتصديهم لزحف النصارى في معركة الأرك (591 هـ/1194 م)؛ فواجهت قرطبة ضغط ملك قشتالة وليون، ولم يطل بها الأمر حتى استولى عليها الملك القشتالي الليوني فرديناندو الثالث المعروف بالقديس سنة 1236 م، ومع سقوطها غربت شمس العرب من الأندلس، ولم تعد نهاية المسلمين بها سوى مسألة وقت.

تحولت قرطبة إلى مقر إقامة ملوك قشتالة، وشاءت الأقدار أن يشهد قصرها الملكي بداية قصة اكتشاف العالم الجديد، عندما استقبلت الملكة إيزابيلا الكاثوليكية الملاح الإيطالي كريستوف كولومبس مرتين، ولم تجد مانعا في مقابلتها الثانية له بأن تشجعه لتنفيذ مشروعه، وهذا ما ساعده على الحصول على العون الذي سمح له بتحضير رحلته التي توجت باكتشاف العالم الجديد (1492 م).

كل هذه الأحداث التاريخية تواردت إلى ذهني وأنا أتجول في قرطبة وأتعرف على معالمها العمرانية ومآثرها التاريخية: المسجد الجامع وقنطرة الوادي الكبير وقصر الخلافة وبقايا الأسوار والأبراج، وإن كان الشاعر القرطبي أضاف لها المجالس العلمية، عندما أشاد بما في قرطبة في هذين البيتين:

بأربع فاقت الأمصار قرطبة

منهن قنطرة الوادي وجامعها

هاتان اثنتان والزهرا ثالثة

و العلم أعظم شيء وهو رابعها

يعتبر جامع قرطبة من أهم معالم العالم الإسلامي من حيث الفن المعماري وذكريات التاريخ والآثار التي تركها في تطور الفكر وازدهار المعرفة الإسلامية، فقد شرع عبد الرحمن الداخل في بنائه سنة 179 هـ/795 م، بعد أن ظل منذ الفتح الإسلامي مكان عبادة متواضع، وصرف عليه أموالا طائلة قدرها الشاعر دحية بن محمد البلوي

بثمانين ألف دينار، في هذه الأبيات:

وأنفق في دين الإله ووجهه

ثمانين ألفا من لجين وعسجد

توزعها في مسجد أسه التقى

و منهجه دين النبي محمد

ترى الذهب الناري فوق سموكه

يلوح كبرق العارض المتوقد

ومع تزايد عظمة ملك الأمويين في الأندلس وازدهار مدينة قرطبة وتكاثر سكانها، لم يجد هشام بن عبد الرحمن الداخل بدا من توسيع المسجد الجامع، فأدخل إصلاحات على بنايته، فبلغ ارتفاع صومعته أربعين ذراعا، وألحق به سقائف مخصصة للنساء وزوده بميضأة في الناحية الشرقية؛ واستمرت عملية توسيع جامع قرطبة على عهد عبد الرحمن (الأوسط) بن الحكم، فأضيفت له خمسون ذراعا؛ وفي عهد محمد بن عبد الرحمن الأوسط زين الجامع بالنقوش وجعلت له مقصورة لها ثلاثة أبواب، ثم ألحقت به بناية بيت المال من قبل المنذر بن محمد، واستحدث به سباطاً معقوداً على حنايا يصله بقصر الإمارة الواقع إلى الغرب منه على عهد الأمير عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الأوسط.

أخذ جامع قرطبة شكله الأخير على عهد عبد الرحمن الثالث (الناصر) الذي بلغت على عهده الخلافة الأموية بالأندلس أوجها، فارتفعت منارته ثلاثة وسبعين ذراعا، وبلغ عدد أعمدته الرخامية 293 عمودا، واكتست محاربه بالفسيفساء المطلية بالذهب، وكسيت أبوابه بالنحاس الأصفر المعالج، وانتشرت به 460 مبخرة للعود والعنبر، و280 ثريا منها ثريا المقصورة المصنوعة من الفضة الخالصة.

هذا ويتصل بجامع قرطبة السوق المركزي المعروف بـ"القيسارية" (Al Caicare) الواقعة إلى الشمال الغربي من الجامع يحتل وسط المدينة حيث يتمركز النشاط التجاري، وقد عرف بسوق قرطبة العظمى، بعد أن أعاد بناءه عبد الرحمن الناصر إثر حريق أتلف عمارته سنة 324 هـ، وحسن من عمارته وطور مرافقه ابنه الحكم المستنصر.

وتأتي بعد المسجد في الأهمية من حيث الأثر التاريخي قنطرة الوادي الكبير التي تصل ناحية الجامع الكبير من مدينة قرطبة بضاحيتها المعروفة بشقندة، ويعود تأسيسها إلى عهد الإمبراطور الروماني أغسطس، وعند فتح العرب لقرطبة وجدوها شبه مهدمة، فأعاد بناءها على الدعائم الرومانية الوالي العربي السمح بن مالك الخولاني واستعان في ذلك بحجارة السور الروماني، ثم جددها ووسع فيها هشام بن عبد الرحمن الداخل، فاستقدم لها خمسين من البنائين المهرة من مدينة أربونة، وآلى على نفسه أن لا يسير عليها حيث أنه عندما سأل أعوانه عن رأي الناس بها، فأجابوه بأنهم يقولون بأن الأمير بنى القنطرة ليعبر عليها في نزهته وقنصه . . .

بعد ذلك أدخلت على قنطرة قرطبة تحسينات في عمارتها على عهد عبد الرحمن الأوسط، فظلت محافظة على هندستها حتى بعد أن قام بترميم جزء منها الدون بدرو عند استيلاء النصارى على قرطبة، وأخذت شكلها الأخير سنة 1602 م عندما أضيف لها قوسان جديدان .

أما المعلم الثالث بقرطبة فهو دار الإمارة الذي تحول إلى قصر الخلافة الأموية الواقع بقلب المدينة غير بعيد عن المسجد الجامع والقنطرة، وكان في الأصل مقر الحاكم القوطي قبل الفتح الإسلامي لقرطبة، ثم مكان إقامة الولاة المسلمين، ثم أضيفت له بناءات جديدة مع الحكم الأموي للمدينة وخضع إلى عدة تحسينات وترميمات عندما تحول إلى قصر للخلفاء الأمويين قبل أن يمتلكه فرديناندو الثالث عند استيلائه على قرطبة (1236 م) ويتخلى عنه، تبجيلا للكنيسة، لأسقف قرطبة ليتخذه مقرا رسميا، فعرف منذ ذلك الوقت بالقصر الأسقفي (Palacio Episcopal) .

ويلحق بقصر الخلافة عدد من قصور الأمراء والخلفاء الأمويين، منها قصر الرصافة الذي أقامه عبد الرحمن الداخل في أول عهده بالإمارة (138 هـ/756 م) على بعد كيلومترين شمال غرب قرطبة، وأطلق عليه اسم قصر جده هشام بالشام "الرصافة"، وجعله مكان نزهته وإقامته المفضلة، يسترجع فيه ذكرياته ويحن إلى صباه ويتذكر أيام مجد أسلافه بدمشق، ولا يجد ما يخفف عنه عزلته ووحشته سوى مناجاة نفسه بمثل هذه الأبيات :

فبدت لنا وسط الرصافة نخلة

تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل

فقلت شبيهي في التغرد والنوى

وطول اكتئابي عن بنيّ وعن أهلي

نشأت بأرض أنت فيها غريبة

فمثلك في الإقصاء والمنتأى مثلي

سقتك غوادي المزن من صوبها الذي

يسح ويستمرى السماكين بالويل

إن المتجول بقرطبة اليوم تستوقفه نظافة شوارعها الضيقة وجدران منازلها المطلية بالجير الأبيض والتي لا يخلو أغلبها من فناء لطيف به عين ماء وزهريات تكسب الغرف المنفتحة عليها جوا منعشا ومريحا . كما لا تفوت زائر قرطبة ملاحظة الملامح العربية والوجوه الشرقية التي تميز أغلب سكانها، كما تهزه النصب والتماثيل التي تخلد ذكرى من نبغ من أبناء قرطبة، مثل تمثال ابن الحزم الظاهري (456 هـ/1064 م) المقام خارج السور بهيئته العربية وبرنوسه المغربي، والنصب المقامة لابن رشد (ت . 595 هـ/1198 م) ولابن ميمون (601 هـ/1204 م) وابن زيدون (463 هـ/1070 م) وولادة، كلها معالم تخلد عطاء الحضارة العربية الإسلامية وإشعاعها العلمي في مجالات الفكر ورحاب العقل وعمق الإحساس الأدبي.

لقد هزني إحساس عميق عندما وقفت على تمثال نابغة الأندلس وعالمها أبي محمد علي بن حزم الظاهري (ت . 456 هـ/1064م) الذي أقيم في اليوم الثالث من شهر جانفي 1966 م بمناسبة الألفية الأولى لوفاته، اعترافا بفضل هذا العالم والمفكر والفقيه على الحضارتين الإسبانية والعربية التي أغناها بما يقدر بحوالي خمسمائة مصنف، أهمها : "نقط العروس" و"جمهرة أنساب العرب" و"الفصل في الملل والنحل" و"رسالة فضائل أهل الأندلس وذكر رجاله" و"رسالة التلخيص لوجوه التخليص" و"رسالة حجة الوداع" و"رسالة مراتب العلوم" و"طوق الحمامة" وغيرها . لقد تذكرت عند وقوفي على تمثاله مواقفه كمثقف وتحديه كعالم واعتزازه بنفسه كمفكر، فلم يغره المنصب

وبريق السلطة عندما تحدى قاضي جماعة قرطبة عبد الرحمن بن بشر بقوله :

أنـــا الشـــمس في جـــو العلـــوم مـــنيرة
و لكـــن عـــيبي أن مطلعـــي الغـــرب
و لـــو أنـــني مـــن جانـــب الشـــرق طـــالع
لجـد علـى مـا ضـاع مـن ذكـري النهـب

وعندما قارع خصومه بالحجة والدليل بقوله :

فقلـــت لـــه أســـرفت في اللـــوم فاتئـــد
فعنـــدي رد لـــو أشـــاء طويـــل
ألم تـــر أنـــي ظـــاهري ، وأنـــني
علـــى مـــا أرى حتـــى يقـــوم دليـــل

لقد عبر ابن حزم الظاهري بسلوكه وعلمه وعمله عن المثقف المؤمن برسالة الفكر والمخلص لأفكاره ، فقد كان يؤمن بأن سلامة العقيدة وصون الشرف فوق الحياة نفسها بعد أن أجحف في حقه فقهاء البلاط بقرطبة ومنعوه من التدريس في جامعها بسبب دعوته إلى المذهب الظاهري ، وتعرض للأذى من الحكام ، فلم يتبدل موقفه ولم تتغير قناعاته عندما شاهد المعتمد بن عباد بقرطبة يصادر كتبه ويأمر بحرقها ، وإن حز هذا في نفسه وعبر عنه في كتابه "الأخلاق والسير في مداواة النفوس" بقوله : "العرض أعز على الكريم من المال. ينبغي على الكريم أن يصون جسمه بماله ، ويصون نفسه بجسمه ، ويصون عرضه بنفسه ، ويصون دينه بعرضه ، ولا يصون بدينه شيئا أصلا ...". كما عبر عن ما لحق بأسرته وما تعرض له بلده (قرطبة) من محن ، عند مغادرته لقصر أسرته ببلاط مغيث بظاهر قرطبة عندما تعرض مع أبيه إلى محنة عصبية على عهد هشام الثاني (400 هـ/1009 م) ، فوصفها بهذه العبارات : "لقد آلت رسومها وطمست معالمها وخفيت معاهدها وغيرها البلى ... وتذكرت أيامي بها ، وليداتي فيها ، فأبكى ذلك عيني ، وأوجع قلبي ، وزاد في بلاء لبي ...".

كان وقوفي على النصب التذكاري لابن زيدون وولادة مدعاة لإثارة إشكالية المرأة في المجتمع العربي الإسلامي ، انطلاقا من علاقتها بالرجل ومكانتها في عالم الأدب والشعر ، مما يثير التساؤل عن تحرر المرأة الأندلسية وتأثيرها في المجتمع وعوامل تعاسة المرأة في مجتمعاتنا اليوم . فالمرأة المسلمة اليوم ، مهما قيل لنا وكيفما كان تفسيرنا للنصوص التي تحدد وضع المرأة ، تعيش التعاسة بعينها ، فهي ترزح في العبودية والانغلاق والجهل وترفل في قيود الاستبداد والتعسف ، فتحولت في وظيفتها الاجتماعية من ربة منزل وشريكة للرجل إلى خادمة بيت وآلة إنجاب وبضاعة للمتعة .

إن ولادة تقدم نموذجا للمرأة المسلمة الأندلسية التي تشيع الحياة في بيتها والحيوية في مجتمعها ، فهي رفيقة الرجل ومربية النشء ، وهذا ما أقر به ابن حزم في "طوق الحمامة" عندما تعرض إلى طفولته بقوله : "إنني تربيت في حجورهن ، وبين نحورهن ، ونشأت بين أيديهن ، ولم أعرف غيرهن ، ولا جالست الرجال ، وأنا في حد الشباب ، وهن علمنني القرآن ، وروينني كثيرا من الشعر ، ودربنني على الخط ...".

إن قراءة سريعة في أدب النساء بالأندلس ترسم لنا صورة مشرقة للمرأة المسلمة في عطائها الأدبي ومساهمتها الاجتماعية ومستواها العلمي ، سواء كانت امرأة عربية محافظة أو جارية صقلية أو بشكنسية أو جليقية وافدة ، فلم تكن ولادة امرأة متفردة في سلوكها ، بل كانت إحدى أديبات عصرها ، فقد تأثر المجتمع الأندلسي بالعديد من النساء الأديبات مثل عائشة القرطبية التي ذكرها ابن حيان في مقتبسه بأنها لم تكن في زمانها من حرائر الأندلس من تعادلها علما وفهما وأدبا وفصاحة ، ومهجة القرطبية صاحبة ولادة وأجمل نساء زمانها ، ومريم بنت أبي يعقوب الأنصاري التي اشتهرت بإشبيلية ، ونزهون الغرناطية (ق. 5 هـ) التي واظب أبو بكر بن سعيد على مذاكرتها ومراسلتها ، واعتماد الرميكية جارية المعتمد بن عباد وأم أولاده ، وحفصة بنت حمدون بوادي الحجارة ، وحمدة بنت زياد من وادي آش التي يذكرها قراء الأدب العربي بشعرها الرقيق :

وقانـــا لفحـــة الرمضـــاء واد
ســـقاه مضـــاعف الغيـــث العمـــيم

حللنـــا دوحـــه فحنـــا علينـــا

حنـــو المرضـــعات علـــى الرضـــيع

و أرشـــفنا علـــى ظمـــإ زلالا

ألـــذ مـــن المدامـــة للنـــديم

يصـــد الشـــمس أنـــى واجهتهـــا

فيحجبهـــا ويـــأذن للنـــسيم

هذا دون أن ننسى حفصة بنت الحاج الركونية التي تعلق بها أبو الوليد بن عبد المؤمن ملك غرناطة وقتل بسببها على يد أبي جعفر بن سعيد، وعرفت بشعرها الصريح في الحب مثل قولها :

أزورك أم تـــزور فـــإن قلـــبي

إلى مـــا تشـــتهي أبـــدا يميـــل

فثغـــري مـــورد عـــذب زلال

وفـــرع ذؤابـــتي ظـــل ظليـــل

فعجـــل بـــالجواب فمـــا جميـــل

إبـــاؤك عـــن بثينـــة يـــا جميـــل

لقد كرم الإسبان من خلال إقامة نصب تذكاري لابن زيدون وولادة العاطفة الإنسانية التي تصبح الحياة بدونها عبثا، ويغدو العالم بانعدامها فاقدا للحركة والأمل والسرور والخيال، لقد طرحت قضية الحب في التراث من خلال علاقة ابن زيدون بولادة إشكالية توازن السلوك الجماعي في المجتمعات الإسلامية، فظلت بعيدة عن الفهم وتسببت في إقصاء الجانب الآخر من المجتمع وإلغاء تأثيره ووزنه في المجتمع... وهذا ما يطرح مجددا على الذهنية العربية الإسلامية مسألة المرأة في المجتمع ومكانتها في الحياة، حتى لا تظل قضيتها تعالج ضمن الفهم الحرفي للنصوص وفي إطار الالتزام بالتقاليد العريقة وميول الغريزة البدائية... إن ولادة بنت المستكفي بالله محمد بن عبد الرحمن كانت مثالا للمرأة المسلمة في فرض مكانتها

وتعاملها بدون عقدة ذنب، فقد فرضت مكانتها وعبرت عن موقفها دون اعتبار لآراء الآخرين ومواقفهم، فهي كانت تظهر بمجلسها وقد لبست لباسا طرز على شقه الأيمن :

أنـــا والله، أصـــلح للمعـــالي

وأمشـــي مشـــيتي وأتيـــه تيهـــا

وعلى جانبه الأيسر :

وأمكـــن عاشـــقي مـــن صـــحن خـــدي

وأعطـــي قـــبلتي مـــن يشـــتهيها

إن ولادة بنت المستكفي يكفيها من خلال حب ابن زيدون لها وتعلق ابن عمار بها، أنها علمت الحب للعاشقين، ولقنت الشوق للمحبين، ورفعت عاطفة الحب السامية من مستوى غريزة الجسم الفاني إلى سمو الروح الخالدة، فكانت موضوع شعر عاطفي وإحساس إنساني، فأشعار ولادة وقصائد ابن زيدون تعبر عن الإسهام الإنساني في مجال الأدب لأنها تعكس بصدق مشاعر الحب النبيل وترسم صورا رائعة في الخيال لعلاقات المحبين ومناجاة العاشقين بعد طول تشوق وانتظار، لا نجد أفصح لوحة عنها من هذه الأبيات :

ترقـــب إذا جـــن الظـــلام زيـــارتي

فـــإني رأيـــت الليـــل أكـــتم للســـر

و بـي منـك مـا لـو كـان بالشـمس لم تلـح

وبالبـــدر لم يطلـــع، وبـــالنجم لم يســـر

بل لا نجد أفصح من هاذين البيتين في التخفيف من لوعة الفراق :

ودع الصـــبر محـــب ودعـــك

ذائـــع مـــن يـــره مـــا اســـتودعك

إن يطـــل بعـــدك ليلـــي فلكـــم

بـــت أشـــكو قصـــر الليـــل معـــك

لقد كان ابن زيدون (394-463 هـ/1003-1070 م) جديرا بهذا الحب لأنه جمع الإحساس المرهف والعاطفة الجياشة والموقف المعبر ، فلم ير في المرأة من خلال ولادة أمة للمتعة أو زوجة للمعاشرة أو خليلة للتسلية ، بل اعتبرها كائنا بشريا جديرا بالحب والتبجيل والإكرام والحيز الذي تشغله العاطفة ، لقد عرف كيف يعبر بعمق عن أحاسيسه ، فخلد نفسه وأبقى ذكره بالعديد من أشعاره ، ومن من قراء العربية لا تهزه نونية ابن زيدون التي وجدت نفسي أردد أبياتا منها وأنا أمام النصب الذي أقامه الإسبان له اعترافا بأدبه وتقديرا لعاطفته :

أضحى التنائي بديلا عن تدانينا
وناب عن طيب لقيانا تجافينا

بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا
شوقا إليكم ، ولا جفت مآقينا

حالت لفقدكم أيامنا ، فغدت
سودا وكانت -بكم- بيضا ليالينا

إن الزمان الذي لا زال يضحكنا
أنسا بقربكم قد عاد يبكينا

لا تحسبوا نأيكم عنا يغيرنا
إن طالما غير النأي المحبينا

لسنا نسميك اجلالا وتكرمة
فقدرك المعتلي عن ذاك يغنينا

كأننا لم نبت والوصل ثالثنا
والسعد قد غض من أجفان ، واشينا

سران في خاطر الظلماء يكتمنا
حتى يكاد لسان الصبح يفشينا

يا جنة الخلد أبدلنا بسدرتها
والكوثر العذب زقوما وغسلينا

إنا قرأنا الأسى يوم النوى سورا
مكتوبة وأخذنا الصبر تلقينا

و من لم يقرأ قصيدته النونية الأخرى التي عارض فيها قصيدة أبي الطيب المتنبي :

بم التعلل لا أهل ولا وطن
ولا نديم ولا كأس ولا سكن

فقد عبر فيها عن تشوقه لولادة ووصف حالته النفسية التي جعلته يستسلم للخيال وتستبد به الذكريات ، فجاءت من عيون الأدب العربي لعباراتها المؤثرة ونظمها الجزل ولغتها البليغة :

هل تذكرون غريبا عاده شجن
من ذكركم وجفا أجفانه الوسن

يخفي لواعجه والشوق يفضحه
فقد تساوى لديه السر والعلن

***

يا هل أجالس أقواما أحبهم
كنا وكانوا على عهد فقد ضعنوا

أو تحفظون عهودا لا أضيعها
إن الكرام بحفظ العهد تمتحن

لقد غاص ابن زيدون في أعماق النفس الإنسانية فعبر عن ما يعانيه المحب من ألم الهجر ومعاناة الوحدة والشعور بالإحباط ، بشعر كله حكمة وتأسي ، مثل قوله :

إن قسا الدهر فللما

من الصخر انبجاس

ولئن أمسيت محبو

سا فللغيث احتباس

فتأمل كيف يغشى

مقلة المحب النعاس

واغتنم صفو الليالي

إنما العيش اختلاس

وكذلك قوله :

رأيت الشمس تطلع من نقاب

و غصن البان يرفل مني وشاح

فلو أستطيع طرت إليك شوقا

و كيف يطير مقصوص الجناح

إن شعر العاطفة وما يعبر عنه من إحساس ومواقف وسلوك يتطلب من الإنسان العربي المسلم اليوم، ونحن نعيش الأزمات العقلية ونعاني العقد النفسية ونتجاهل حقوق المرأة وهي تشكل نصف المجتمع ، بحجج ظاهرها أوامر ونواهي وباطنها عقلية تاجر الرقيق ومتعاطي النخاسة . . . أن نراجع تراثنا ونعيد قراءة معطيات حضارتنا بفطنة وذكاء وتفهم لواقع الحياة ، حتى يمكن لنصف المجتمع وهو المرأة أن يصبح قوة فاعلة في حياتنا لأن تجاهل ذلك وحرمان المرأة من حقها كإنسان كرمه الله بإحساس القلب وذكاء العقل وسمو السلوك ، يجعلنا عاجزين عن مواجهة التحديات وقاصرين عن تحقيق ما نصبو إليه من تقدم ورفاهية . . .

كان علينا أن نزور في ختام زيارتنا لقرطبة مدينة الزهراء الواقعة إلى الشمال الغربي لقرطبة على بعد 18 كلم بسفح جبل العروس ، والتي بدأ الخليفة عبد الرحمن

الناصر في بنائها عام 325 هـ تكريما لمحظيته المفضلة "الزهراء" ، فكانت رمزا لعاطفة الحب والإخلاص لدى الحاكم العربي ، وقد استمر العمل جاريا بها نحو أربعين سنة ، وبلغ طولها من الشرق إلى الغرب 2700 ذراعا وعرضها من الشمال إلى الجنوب 1500 ذراعا وعدد سواريها 4300 وأبوابها 1500 بابا ، وكلها قصور وعمائر ومنتزهات ، وهذا ما جعل ابن خلوان يصفها بأنها : "من عجائب أبنية الدنيا . . . وهي من أهول ما بناه الإنس ، وأجله خطرا وأعظمه شأنا" .

لقد تفاجأنا عند وصولنا الزهراء من جوها الموحش ، فهي مقفرة من كل مظاهر الحياة ، فأغلب معالمها تحولت إلى كوم من الأحجار المتناثرة وبقايا أسوار وأقواس مهدمة لم تبق منها سوى قواعدها ، ولم يخفف من شعورنا بالإحباط سوى أعمال الترميم الجارية ، فقد أولى الإسبان اهتماما لإعادة تشييدها حسب هندستها ومواد بنائها الأصلية ، وهذا ما يسمح في المستقبل بأن تسترجع الزهراء هيئتها الأولى وتعاد الحياة إليها بعد أن ندب حظها الأدباء ورثوها شعرا معبرا :

وقفت بالزهراء مستعبرا

معتبرا أندب أشتاتا

فقلت يا زهرا ألا فارجعي

قالت : وهل يرجع من مات

فلم أزل أبكي وأبكي بها

هيهات يغني الدمع هيهاتا

كأنما آثار من قد مضى

نوادب يندبن أمواتا

لم أملك نفسي وأنا أتجول في ظلال الزهراء إلا أن أعود بذاكرتي إلى عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر ، فتراءت لي الزهراء مرابع أنس وطرب ومغاني بهيجة ، وحبور يجد فيها العلماء خلوتهم المفضلة ، ويقضي فيها الأدباء أوقات راحتهم ، وينزوي

إليها المحبون يتذكرون أيام سعادتهم ويأملون لقاء محبيهم ، فهذا ابن زيدون يتذكر ولادة في هذين البيتين :

إنــي ذكرتــك بــالزهراء مشــتاقا
والأفــق طلــق ووجــه الأرض قــد راقــا

يــوم كيــوم لــذات لنــا انصــرمت
بــتن لهــا حــين نــام الــدهر ســراقا

ويتأسف على أيامه الخوالي في ربوع الزهراء :

معاهــد لــذات أوطــان صــبوة
أجلــت المعلــى في الأمــاني بهــا قــدحا

ألا هــل إلى الزهــراء أوبــة نــازح
تقضــي تنائيهــا مدامعــه نزحــا

عدنا إلى قرطبة وخيال الزهراء لا يزال يستبد بعقلي ويملك علي جوارحي ، فقد تجلى لي ضعف الإنسان أمام تغيُّر الدهر وتقلبات الزمان ، فلم أجد ما أسلي به نفسي سوى ترديد أبيات إلياس فرحات في موشحة "تحية الأندلس" :

يــا ابنــة الزهــراء يــا أندلســية
إن مــن أجــدادك العــرب بقيــه

لم تــزل شــامخة الــرأس أبيــه
لم تفرقهــا مــاع أجنبيــه

لم تفرقهــا دواع ملعيــة
كلمــا مــرت بهــا ريــح الخزامــى

أرسلت معها لأهليك السلاما

أو ذكر ابن خفاجة الأندلسي :

أرض تقاذفــت الخطــوب بأهلــها
وتمخضــت بخرابهــا الأقــدار

كتبــت يــد الحــدثان في عرصــاتها
لا أنــت أنــت ولا الــديار ديــار

و نصيحة أبي الحسن حازم القرطاجني (ت . 684 هـ/1285 م) :

أيــا أيهــا النــاس إنــي ناصــح
فاســتمع النصــح وكــن محســن وعــى

لا تغــترر بــالعمر ، واعلــم أن مــا
لم يمــض مــن أيامــه كمــا مضــى

أو تأسي نزار قباني :

لم يبق من قرطبه
سوى دموع المئذنات الباكيه
سوى عبير الورد ، والنارنج والأضاليه . . .
لم يبق من ولادة ومن حكايا حبها . . .
قافية ، ولا بقايا قافيه .

***

كان علينا بعد التعرف على قرطبة وزيارة معالمها ، التوجه لزيارة عروس الأندلس مدينة إشبيلية ، فتوجهت بنا الحافلة في اليوم الثالث من شهر جانفي 1966 م ، وسايرت الوادي الكبير (Guadalquivir) في اتجاه الجنوب الغربي ، فتتابعت الحقول اليانعة والحدائق الغناء ، وحفت بالطريق بساتين الزياتين الكثيفة التي تكاد تحجب عن عيوننا مجرى الوادي الكبير وحظائر قطعان الثيران المخصصة للمصارعة . فما كدنا أن نقطع مسافة 138 كلم

حتى وجدنا أنفسنا ندخل مدينة إشبيلية ونضع الرحال في أحد فنادقها الجميلة ، وكلنا شوق ورغبة في التنزه في أزقة إشبيلية والتعرف على معالمها ومآثرها . . . بدا لنا كل شيء جميل ومنشرح في إشبيلية ، فخلت أن المناخ أصناف وأن الأرض مواطن وأن المدن بيئات منها ما يريح النفس ويدخل السرور إلى القلب ومنها ما تنفر منه العين ولا يطمئن إليه القلب . . . فكانت إشبيلية من الصنف المميز الذي يغمر الأحاسيس حبورا ودواخل النفس انشراحا . وقد تأكد لنا هذا الإحساس عندما صادفت زيارتنا احتفال إشبيلية بأحد أعيادها ، فانبهرنا بمرور عربات العرائس ومواكب الكرنفال التي تطغى عليها أنغام الموسيقى ، فيتعالى صياح المعجبين ويندفع الكثير للرقص تعبيرا عن إعجابهم بروعة منظر المواكب التي تحمل تمثال عذراء الأمل (La Macarena) المحمول على منصة تجرها الخيل وتحف بها الحسناوات الإشبيليات التي تغار الورود الحمراء التي تزين شعورهن من فتنة جمالهن وسحر إبتساماتهن للجموع التي تحف بمواكبهن ، فحق لنزار قباني أن يسجل مثل هذا المنظر في أحد مقاطع قصيدته "أوراق إسبانية" بهذه الكلمات :

بإشبيلية

تعلق كل جميلة

على شعرها وردة قانية

تحط عليها ماء

جميع عصافير إسبانية

لقد خلد الحياة بإشبيلية أديبها تيرسو دي مولينو (Tirso de Molino) في مسرحية مخادع إشبيلية (El Bulador de Sevilea) التي قدمت للعالم رائعة دون خوان العاشق المتيم والشجاع المغوار والمندفع الذي لا يقيم وزناً للمبادئ ، فنسخ على منواله الأدباء رواياتهم ووضع المفكرون أعمالهم على هذه الشخصية التي تحولت إلى رمز للحب والمغامرة .

كما رسم الحياة بإشبيلية فنانوها الملهمون : بيلاثكث (Velasquez) مصور بلاط الملك فيليب الرابع وموريللو (Murillo) ، فأحيت لوحات هذين الرسامين مظاهر الحياة

بإشبيلية وعبرت عنها بدقة عن طريق الألوان وتوزيع الظلال وإبراز رونق الملابس ، ولعل أجمل تلك اللوحات التي تخلد مشاهد الحياة الإشبيلية لوحات موريللو التي رسم فيها حياة الأطفال وتطلعات الفتيات اللاتي تطلعن من النوافذ ووجوههن تتدفق نضارة وحيوية .

إن إشبيلية الحديثة لا زالت تحتفظ بظلال يانعة من عهدها العربي الزاهر سواء في نوعية مساكنها أو طبيعة عمرانها ، فالأزقة الضيقة في وسط المدينة تطفح بالحياة ، فهي مقصد المتجولين ، فلم يكن أمرنا شاذا عن الآخرين ، فلم نجد أنفسنا إلا ونحن نعبر شارع الثعابين (Calle Sierpes) حيث يطيب للمتجولين التسكع واحتساء القهوة وارتشاف ما يلذ لهم من مشروبات ، فلاحظنا على جنبات هذا الشارع العتيق طراز المنزل العربي الأندلسي ، ببواباته المشبكة حيث تظهر خلفها نافورة الماء التي تتوسط المنزل ، وتحف بها جرار تزرع فيها الورود والياسمين ، وتنفتح عليها الغرف المكسوة واجهاتها بالقيشاني الجميل .

ومن شارع الثعابين يمكن الوصول إلى قيسارية إشبيلية ومركزها التجاري الذي بناه المنصور الموحدي (592 هـ/1195 م) بجوار المسجد الجامع الذي تحول إلى كاتدرائية إشبيلية التي تتميز بصومعتها التي لا تماثلها سوى صومعة الكتبية بمراكش وجامع حسان بالرباط ، ويعود بناء هذه الصومعة إلى الخليفة الموحدي أبو يعقوب يوسف الذي أمر المهندس أحمد بن باسة ببنائها في 13 صفر 580 هـ (26 ماي 1184 م) ، وتوقف العمل بها ، ليتمها المعماري علي الغماري في آخر ربيع الثاني من عام 593 هـ (19 مارس 1197م) في خلافة أبي يوسف المنصور ، وبعد استيلاء النصارى على إشبيلية جندها المهندس الإسباني فرنان رويث (1568 م) وجعل في أعلاها قبة أجراس كانت بمثابة طاحونة هواء فعرفت ببرج لاتوري أو الخيرالدا ، وتحولت مع الزمن إلى رمز لإشبيلية .

وفي اليوم الثاني لزيارتنا لإشبيلية توجهنا إلى قصرها العربي للتعرف عليه والتجول في حدائقه التي تتخللها النافورات ومجاري المياه وتنتشر فيها أشجار السرو وتتناثر عبر ممراتها الملتوية باقات الزهور .

يقع القصر العربي بإشبيلية (Alcazar) شرق المدينة الإسلامية ويتكون من مجموعة قصور حرص ملوك بني عباد على الاعتناء بها وإشاعة جو المرح والبهجة بردهاتها ، عرف منها في كتب الأدب قصر المبارك وقصر الثريا وقصر الوحيد وقصر

الزاهي وقصر المؤيد. وبعد اجتياح الموحدين لإشبيلية تحول هذا القصر إلى مركز لحكم الأندلس الإسلامية، فتغيرت عمارته وزال العديد من أجنحته، ثم عندما سقطت إشبيلية في يد النصارى (645هـ/1247م) واتخذها ملوك إسبانيا عاصمة لإمبراطوريتهم، خضع مجمع القصر الإشبيلي إلى الترميم والتجديد، فلم يبق من معالمه الإسلامية سوى عقدين على شكل حدية فرس، بينهما عمودان يطلان على بهو الجص أحد الأبهاء الرئيسية للقصر. ومع استقرار العاصمة بمدريد ظل قصر إشبيلية يحافظ على مكانته بعد أن أصبح المقام المفضل للأسرة المالكة الإسبانية ومكان قضاء الإمبراطور أوقات راحته عند زيارته لإشبيلية حيث كان يطيب له تناول الشاي تحت خمائل حدائقه الوارفة.

لا تكتمل زيارة إشبيلية إلا بالوقوف على برجها الذهبي (Torre de Oro) والسير على أرصفة الوادي الكبير، فأعجبنا منظر القصر الذهبي الذي أقامه العرب على ضفة الوادي الكبير لحماية المدينة من هجمات المجوس (النورمان) على عهد الخليفة الأموي عبد الرحمن الأوسط (230 هـ/844 م). وقد ظل البرج محافظا على تصميمه الأول بعد أن تحول إلى متحف يضم مجموعة من نماذج السفن أمام أرصفة الوادي الكبير حيث كانت ترسو في القرن السادس عشر السفن الآتية من العالم الجديد والمحملة بنفائس كنوز الأزتك والإنكا من المكسيك وبيرو أو القادمة من أقطار أوربا والمحملة بمصنوعات بلاد الشمال، فقد كانت تعبر المحيط الأطلسي وتسلك مجرى الوادي الكبير لتنتهي عند إشبيلية حيث يحط الملاحون الرحالة ليشاركوا في أعياد إشبيلية ومهرجاناتها الموسمية مثل عيد عذراء الأمل (Macarena) المحببة إلى فقراء الناس ومصارعي الثيران الذي يصادف يوم الثلاثاء السابق ليوم الجمعة الحزينة، وعيد انتقال العذراء إلى السماء في الخامس عشر من شهر أوت والذي تدق فيه أجراس الخيرالدا ويحمل فيه تمثال عذراء الملوك، وعيد الفريا (Feria) في شهر أفريل والذي يستمر مدة ثلاثة أيام تعرض فيه الماشية في الصباح وتنظم حفلات المصارعة في منتصف النهار بينما يخصص المساء وأغلب الليل للرقص والمرح واللهو ... وموسم روميريا (Romeria) الذي يحج فيه الإشبيليون للأضرحة المشهورة خارج المدينة في جو من المرح والانشراح، وموسم الروكيو (Romeria del Rocio) الذي يعقد في مستهل كل صيف في ضاحية كزيانا على الوادي الكبير، حيث يقيم الغجر والملاحون وحيث يطيب للمشاركين في

هذا الموسم الرقص والغناء حتى ساعة متأخرة من الليل...

هذا ولا نغادر إشبيلية قبل الإشارة إلى أهمية معرضها الدولي (Expo de Séville) الذي نظم أخيرا (1992 م) بمناسبة اكتشاف العالم الجديد من طرف كريستوف كولومبس (1450–1506 م) الذي أبحر من ميناء بالوس (Palos) القريب من إشبيلية في اليوم الثالث من شهر أوت من عام 1492 م في ثلاثة سفن (القديسة ماريا، نينا وبنتا)، ووصل كريستوف كولومبس بعد 33 يوما من الإبحار في المحيط إلى إحدى جزر باهاماس التي أطلق عليها اسم جزيرة المخلص تيمنا بوصوله اليابسة في يوم 12 أكتوبر 1492 م، ثم عاد إلى إسبانيا (1493 م). وهذه التظاهرة الثقافية العالمية عرف الإسبان كيف يعبرون عن أمجاد ماضيهم وتراث تاريخهم، كما عرف اليهود كيف يبرزون مساهمتهم في التاريخ الإسباني أثناء فترة الحكم العربي، بينما العرب الذين كانوا سادة إسبانيا لمدة تجاوزت سبعة قرون، وكان لهم اشعاع حضاري مميز بالأندلس ظلت مساهمتهم محتشمة في هذا المعرض الدولي، ولعل أكثرها تواضعا مساهمة الجزائر التي اكتفى المشاركون فيها بنصب خيمة وعرض أطباق تمر وقنينات خمر ... مكرسين بذلك جهلهم للتاريخ وإهمالهم لتراث الأجداد وتأكيدهم على الانفصال عن ذكريات الماضي وتبعاته في الحاضر وربما انعكاساته في المستقبل.

إن نسيان الماضي والتنكر لإسهاماته هو إعدام للحقيقة ومحو للتاريخ إن لم يكن دوسا للكرامة وإلغاء للوجود في حد ذاته. كيف لا وطيف ملك إشبيلية الشاعر المعتمد بن عباد (432–488 هـ/1040–1095 م) يكاد يمثل أمامنا ويؤكد ارتباطنا العاطفي بإشبيلية عروس الأندلس، حيث كانت الحياة بها في عهد ملكها ابن عباد كلها بهجة ومرح وحبور، لا نجد أحسن وصف لها من شعر هذا الملك الأديب:

علل فؤادك قد أبل عليل

واغنم حياتك فالبقاء قليل

لو أن عمرك ألف عام كامل

ما كان حقا أن يقال طويل

أكذا يقود بك الأسى نحو الردى

و العود عود والشمول شمول

لا يستبيح الهم نفسك عنوة

والكأس سيف في يديك صقيل

بالعقل تزدحم الهموم على الحشا

فالعقل عندي أن تزول عقول !

وما يكاد الزائر لهذا القصر أن يتجول في ردهاته حتى تتوارد إلى مخيلته مجالس المعتمد بن عباد، وما كان يعزف فيها من ألحان، وما كان يلقى فيها من أشعار، وفي مقدمتها ما كان ينظمه هذا الملك الشاعر، الذي لم يكن يتردد في الاستسلام لعواطفه وإظهار أحاسيسه وتذوقه لمباهج وللذائذ الحياة، مثل قوله :

أباح لطيفي طيفها الخد والنهدا

فعض به تفاحة، واجتنى وردا

وألثمني ثغرا شممت نسيمه

فخيل لي أني شممت ندا

ولو قدرت زارت على حال يقظة

ولكن حجاب البين ما بيننا مدا

ووصفه لحلم ألم به وأرقه، فلم يجد بدا من التعبير عنه شعرا :

إني رأيتك في المنام ضجيعتي

وكأن ساعدك الوثير وسادي

وكأنما عانقتني وشكوت ما

أشكو من وجدي وطول سهادي

وكأنني قبلت ثغرك والطلى

والوجنتين ونلت منك مرادي

وهواك لولا أن طيفك زائر

في القلب لي ما ذقت طعم رقادي

لقد كانت نهاية الملك الشاعر المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية بعيدا عن سماء الأندلس إرهاصا صادقا بما سوف تعرفه الأندلس الإسلامية من ذل بعد عز وأسر بعد سؤدد وغربة بعد أنس، فلم تشفع له حميته الإسلامية ولا استجاده بيوسف بن تاشفين لإنقاذ الأندلس من مخالب النصارى (483هـ/1090م)، فانتهى به الأمر إلى تنحيته عن ملكه وإرساله منفيا مضيقا عليه إلى أغمات بدواخل الأطلس الكبير جنوب مراكش، حيث لا أنيس ولا قريب، يعاني قسوة الحياة وتجرع الألم والحسرة على ما أصابه وما حل بأسرته، فلم يجد ما يواسي به نفسه سوى نظم الشعر، عله يخلد في ذاكرة التراث العربي، فترك شعرا معبرا تتناقله الأجيال، ومن منا لا يهزه شعره وهو يخاطب جموع القرويين بأغمات عندما خرجوا للاستسقاء :

خرجوا ليستسقوا فقلت لهم

دمعي ينوب لكم عن الأنواء

قالوا حقيقا في دموعك مقنع

لكنها ممزوجة بدماء

ومن منا لا يتأسى عليه ويتأثر بمصابه وهو يندب حظه يوم العيد وما آل إليه وضعه في هذه الأبيات :

فيما مضى كنت بالأعياد مسرورا

فجاءك العيد في أغمات مأسورا

ترى بناتك في الأطمار جائعة

يغزلن للناس ما يملكن قطميرا

يبرزن نحوك للتسليم خاشعة
أبصار من حسيرات مكاسيرا

يطأن في الطين والأقدام حافية
كأنها لم تطأ مسكا وكافورا

من بات بعدك في ملك يسر به
فإنما بات بالأحلام مغرورا

كان نفي المعتمد بن عباد عن موطنه ودار ملكه إشبيلية وموته فقيرا معدما في قفار المغرب الموحشة بمثابة انطفاء شمعة مضيئة من صرح الأدب العربي، فكان عبرة لتقلبات الزمان ومحجاً لمن طبع على الإخلاص والوفاء، فهذا أبو بكر الداني المعروف بابن اللبانة، يتخذ من نهاية المعتمد عبرة لكل معتبر في قوله:

لكل شيء من الأشياء ميقات
وللمنى من مناياهن غايات

فانفض يديك من الدنيا وساكنها
فالأرض قد أقفرت والناس قد ماتوا

وهذا أبو بكر بن عبد الصمد يزور ضريح مليكه المعتمد في أول عيد له وهو تحت الثرى، فطوف بقبره وهاله الأمر فخر على ترابه بلثمة، حسب ما أورده ابن خاقان في "القلائد"، ولم يجد ما يعزي به نفسه سوى نظمه لشعر من عيون ما نظم في الوفاء والإخلاص:

ملك الملوك أسامع فأنادي
أم قد عدتك عن السماع عوادي

لما خلت منك القصور ولم تكن
فيها كما كنت في الأعياد

أقبلت في هذا الثرى لك خاضعا
واتخذت قبرك موضع الانشاد

قد كنت أحسب أن تبدد أدمعي
نيران حزن أضرمت بفؤادي

لقد أصبح قبر المعتمد بن عباد مقصدا للشعراء والأدباء، يجلون من خلاله عرش الشعر وعطاء الأديب، ويتذكرون فيه ما لحق أدباء الأندلس وحكامها على أيد إخوة لهم في العقيدة لم تكن نهايتهم أشرف ولا أجل مما عرفه المعتمد بن عباد.

فتوجه إليه لسان الدين بن الخطيب آخر شهاب مضيء في سماء الأندلس عندما كان لاجئا بالمغرب، وأحيا ذكراه بعد مرور قرنين على وفاته، بشعر معبر منه هذه الأبيات:

قد زرت قبرك عن طلوع بأغمات
رأيت ذلك من أولى المهمات

لم لا أزورك يا أندى الملوك يدا
ويا سراج الليالي المدلهمات

كرمت حيا وميتا واشتهرت علاً
فأنت سلطان أحياء وأموات

كما قصده أبو العباس أحمد المقري (ت. 1041 هـ/1632 م) صاحب "نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب" عندما كان مقيما بالمغرب، اعترافا بمكانته وتقديرا لأدبه.

لقد غادرنا إشبيلية صباح اليوم الرابع من شهر جانفي 1966 م متجهين نحو مالقة عبر الطريق الجبلي الذي يمر بمدينة رندة، فلم نلبث أن ودعنا جو إشبيلية المثقل بذكريات التاريخ والأدب، فقطعنا سهول الوادي الكبير في اتجاه الجنوب الشرقي، ولم نلبث أن توغلنا في ثنايا جبال رندة (Sierra de Ronda)، فأنستنا المنعرجات الجبلية الخلابة ومناظر الغابات الجميلة جو إشبيلية المنعش، ولم يطل الأمر حتى واجهتنا مدينة رندة، فكانت أشبه شيء بإحدى المدن الجبلية ببلاد القبائل، تنتشر منازلها البيضاء على ضفتي الخانق العميق لوادي جواد اليين (Guadalevin)، وتتصل ببعضها بثلاثة جسور، أحدهما يعود إلى الفترة الرومانية والآخر يرجع إلى العهد العربي والثالث حديث البناء أقامه الإسبان، تتصل شوارعها المتعرجة التي

تنتهي عند سفح التل حيث تنتشر الحدائق خلف المنازل التي تطل على حلبة مصارعة الثيران والتي كثيرا ما اهتزت لهتاف مشاهدي فارس رندة بدرو روميرو (Pedro Romero) الذي ذاع صيته في حلبات صراع الثيران بإسبانيا منذ القرن التاسع عشر والذي ينسب إليه وضع قواعد هذه الرياضة واختيار اللباس البراق الذي يتميز به مصارعو الثيران الإسبان.

لقد استرعى انتباهنا حسن منظر رندة وحصانة موضعها، ولعل هذا ما جعلها لفترة طويلة في مأمن من غارات النصارى الإسبان، فلم تطلها أيديهم حتى سقطت المراكز الأندلسية الواقعة بسهول الوادي الكبير، ولم يتمكنوا من احتلالها إلا بعد أن سيطروا على المراكز الجبلية المحيطة بها، فكان سقوطها في يد الإسبان سنة 890 هـ/1485 م إيذانا بقرب إنهاء أمر المسلمين بالأندلس، وهذا ما عبر عنه العديد من شعراء الأندلس، مثل ذلك الشاعر المجهول الذي لا نعرف اسمه وإن كنا نردد شعره، فقد رثاها بشعر يبعث على الحسرة والأسى في النفس، منه هذه الأبيات:

أحقا خبا من جو رندة نورها
و قد كسفت بعد الشموس بدورها
و قد أظلمت أرجاؤها وتزلزلت
منازلها ذات العلا وقصورها
فيا ساكني تلك الديار كريمة
سقى عهدكم مزن يصوب نميرها
أحقا أخلائي القضاء أبادكم؟
و دارت عليكم بالصروف دهورها
فقتل وأسر لا يفادى وفرقة
لدى عرصات الحشر يأبى مغيرها

وكذلك شاعر رندة أبو البقاء الرندي الذي أرجع ما أصاب المسلمين بالأندلس إلى قصر النظر وحاول مأساتهم بقبول غدر الزمان في قصيدته المشهورة والتي نقتطف منها هذه الأبيات:

لكل شيء إذا ما تم نقصان
فلا يغر بطيب العيش إنسان
هي الأمور كما شاهدتها دول
من سره زمن ساءته أزمان
و هذه الدار لا تبقي على أحد
و لا يدوم على حال لها شان
أتى على الكل أمر لا مرد له
حتى قضوا فكأن القوم ما كانوا

غادرنا رندة مساء نحو مالقة، فانحدرت بنا الحافلة في المنحدرات الجنوبية لجبال رندة، وبعد قطع 32 كلم بلغنا ساحل البحر عند سان بيدرو القنطرة (San Pedro de Alcantara)، ثم سايرنا شاطئ البحر نحو الشرق حتى انتهينا إلى مالقة (61 كلم)، فتوجهنا توا نحو الميناء وركبنا الباخرة التي كانت تتهيأ للإبحار مساء نحو المليلة على ساحل المغرب، فاستبد بنا التعب وغلبنا النعاس ولم نستفق من النوم إلا ونحن على قرب مرمى حجر من ميناء المليلة، فتوارت صورة الأندلس عن أنظارنا لتستقر في خيالنا، ولتغدو إسبانيا كما وصفها نزار قباني:

إسبانيا... جسر من البكاء
يمتد بين الأرض والسماء...
على صدر قيثارة باكيه
تموت... وتولد إسبانيا
إسبانيا...
زنبقة ترمى أمام شرفة الحبيبة...
و وردة رطبه...

تطير من مقصورة النساء

تحمل في أوراقها الصلاة والدعاء

لفارس من الجنوب ... أحمر الرداء ...

***

كانت تلك الأيام التي عشناها في مراتع الأندلس وربوع إسبانيا بمثابة ومضة حلم وطيف خيال لم يلبث أن انتهى من حياتنا ، فلم نجد ما نتأسى به سوى أبيات لسان الدين بن الخطيب في إحدى تجلياته الصوفية العميقة :

ولــولا الحــب مــا قطعــوا الفيــافي
و لــولا الحــب مــا قطعــوا البحــارا

فــدعهم والــذي ركبــوا إليــه
و بحثــا عــن خلاصــك واختبــارا

و لا تشــغل بحــب ديــار ليلــى
و لكــن حــب مــن ســكن الــديارا

أو تذكر الأبيات التي عبر فيها الشاعر شكر الله الجر عن صورة الأندلس في مخيلته في قصيدته "الأندلسية" :

أســرح في محاســنها العيونــا
و أذري في معالمهــا الشــئونا

بــلاد كيــف جــال الطــرف فيهــا
يــرى أثــر الجــدود الغــابرين

تكــاد قبــورهم ممــا حوتــه
يقدســها الــورى حجــرا وطينــا

كســوا جنباتهــا جنــدا وخيــلا
كمــا مــلأوا شــواطئها ســفينا

فحســبك أرض أنــدلس فخــارا
بأنــك كنــت مهــد الخالــدينا

***

وفي ختام هذه الجولة في الأندلس التي سجلتها من خلال وصف الواقع وتذكر الماضي والتعبير عن مآسي التاريخ وأحداثه حتى تأخذ مكانها في الذاكرة وتنال حيزها في الإحساس ، وبذلك تبقى الأندلس في ضمير كل عربي مسلم شعلة مضيئة في فضاء العرب المظلم ومنارة إشعاع في واقع المسلمين المتأزم، تذكرهم بأمجاد الماضي وتشعرهم بمذلة الحاضر .

إن زيارة إسبانيا والوقوف على مآثر المسلمين بها تطرح على الذهنية العربية الإسلامية اليوم إشكالية التعامل مع الماضي والتفاعل مع الحاضر وتصور المستقبل . إن واقعنا اليوم يفرض علينا استقراء مضمون التراث العربي الإسلامي ، وخاصة منه ما ساهمت به الأندلس الجسر الذي يربط العرب بأوربا وحلقة الوصل بين الحضارتين الغربية والإسلامية ، حتى يمكن لنا أن نتجاوز عجزنا ونسترجع ذاتنا ونحدد موقفنا بل موقعنا من عالم البحر المتوسط ببعده الأوربي الغربي ومجاله العربي الإسلامي . ولعل أول خطوة في ذلك هي طرح إشكالية عطاء الماضي وجدب الحاضر ، فلماذا أبدع الفكر العربي الإسلامي بالأندلس وكان جسر عطاء وتواصل وتعارف مع عالم الغرب في العصور الوسطى ؟ ولماذا عجزنا اليوم على بعث ذلك في أقطارنا العربية الإسلامية ، فظلت مجتمعاتها قاسية في سلوكها ، عدوانية في تعاملها ، حسودة في نفسيتها ، مقلة في عطائها ، إذا ما قورنت بالمجتمع الأندلسي وما أسهم به من عطاء هو في حقيقته حصيلة تفاعل العجينة القوطية مع الخميرة العربية ؟ هل أن هذا يعود إلى طبيعة التركيبة الاجتماعية والظروف التي أحاطت بها والتفاعل الذي ميزها في أغلب الأقطار العربية الإسلامية ، التي ظلت تكرس التأخر ، فلا الماضي عرفته ولا التراث تمثلته ولا الحاضر عاشته ولا الواقع تعاملت معه ولا المستقبل فكرت فيه ، فكانت حياتها حسب وصف نزار قباني :

مضت قرون خمسة

مذ رحل (الخليفة الصغير) عن إسبانيا

ولم تزل أحقادنا الصغيرة . . .

كما هيه

ولم تزل عقلية العشيرة

في دمنا كما هيه

حوارنا اليومي بالخناجر . . .

أفكارنا أشبه بالأظافر

مضت قرون خمسة

ولا تزال لفظة العروبه

كزهرة حزينة . . .

كطفلة جائعة . . . وعاريه

نصلبها . . . على جدار الحقد والكراهية . . .

ولعل ذلك يعود إلى قصورنا في تعاملنا مع معطيات الحياة التي تتلخص في أربع إشكاليات، أولها مسألة السلطة أو قضية الحكم لدى المسلمين التي ظلت مطروحة على المسلمين منذ أن رفع المؤتمر الأول بسقيفة بني ساعدة بدون حسم لشروط ومقتضيات السلطة، وثانيا مسألة الوقت الذي انحصر اهتمامنا به تحديد أوقات الصلاة والصيام، فغاب التخطيط عن حياتنا وانمحت معالم التطور الزمني من وجودنا بعد أن أهملنا مقتضيات حياتنا اليومية بحكمة إلى التفكير في الآخرة والاهتمام بالآخرين، وثالثا مسألة المرأة التي تعاملنا معها انطلاقا من التقاليد المتوارثة وليس ما تقتضيه الضرورات الملحة للحياة الإنسانية، فتم احتجازها وتطويعها لمتعة الرجل وخدمته وضمان نسله، فتحول حجاب الأخلاق وفضيلة الشرف إلى حجاب لباس وحجر وعزل، ورابعا إهمالنا للبيئة ابتداء من تعاملنا مع الطبيعة وانتهاء بأسلوب عيشنا في المنزل، فلم نر في الطبيعة مجال وجود وإنما حيز لقضاء الحاجات الضرورية . . . وإذا كنا اليوم بحكم التأخر والانغلاق والعجز نرزح تحت وطأة انعكاسات هذه القضايا التي تشكل أساسا لكل حضارة، فإنه لا خلاص للفرد المسلم من واقعه المتأزم ولا فكاك للمجتمعات الإسلامية من انحطاطها إلا بفهم هذه

القضايا فهما سليما ومعالجتها معالجة منطقية، وبذلك فقط يمكن للفرد العربي المسلم أن ينتقل من مرتبة الرعية المسيرة والمستغلة والمضطهدة إلى منزلة المواطنة الواعية والقادرة على توجيه الأمور لصالحها دون اعتبار لنزوات الحكام ولا لمصالح الفئات . . . وما دام واقعنا اليوم يجعل هذه الأمنية من قبيل المستحيلات، فإنه لم يبق لنا سوى التأسف على أوضاعنا والبكاء على حالتنا، ولعلنا نجد في مأساة الأندلس وضياعها موضوعا خصبا لتعذيب أنفسنا، فهي بحق حائط المبكى المفضل لنا منذ قرون قبل أن نستبدلها أخيرا بفلسطين . . . فلا نجد ما نعزي به أنفسنا سوى الرجوع إلى أدب المراثي وفقدان الأهل والوطن الذي ارتبط بضياع الأندلس قديما والذي يشكل اليوم بفعل ضياع فلسطين تراثا عربيا غنيا وإسهاما أدبيا معتبرا، مما يتوجب علينا في ختام جلستنا الأندلسية هذه أن نعود إليه ليخفف أحزاننا وينسينا شقاءنا، فنردد مع الشاعر الأندلسي هذه الأبيات من مرثيته :

منازلها مصدوعة وبطاحها
مداتها موتورة وثغورها

تهائمها مفجوعة ونجودها
وأحجارها مصدوعة وصخورها

وقد لبست ثوب الحداد ومزقت
ملابس حسن كان يزهو حبورها

ونهتز مع الشاعر البلنسي ابن الأبار في استغاثته بالسلطان الحفصي :

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا
إن السبيل إلى منجاتها درسا

وهب لها من عزيز النصر ما التمست
فلم يزل منك عز النصر ملتمسا

وحاش مما تعانيه حشاشتها
فطالما ذاقت البلوى صباح مسا

يا للجزيرة أضحى أهلها جزرا

للحادثات وأمسى حدها تعسا

صل حبلها أيها المولى الرحيم فما

أبقى المراس لها حبلا ولا مرسا

ونستعبر مع الشاعر الأندلسي في ندائه للملك المريني بفاس لنجدة الملك النصري المخلوع أبو عبد الله بن الأحمر :

مولى الملوك ملوك العرب والعجم

رعيا لما مثله يرعى من الذمم

بك استجرنا ونعم الجار أنت لمن

جار الزمان عليه جور منتقم

***

هي الليالي وقاك الله صولتها

تصول حتى على الأساد في الأجم

كنا ملوكا لنا في أرضنا دول

فنمنا بها تحت أفنان من النعم

فأيقظتنا سهام للردى صيب

يرمى بأفجع حتف من بهر رمي

فلم تنم تحت ظل الملك نومتنا

و أي ملك بظل الملك لم ينم

ونصرخ مع شاعر رندة أبو البقاء في رثائه لغروب شمس الإسلام بالأندلس :

فجائع الدهر أنواع منوعة

وللزمان مسرات وأحزان

وللحوادث سلوان يسهلها

وما لها حل بالإسلام سلوان

دهى الجزيرة أمر لا عزاء له

هوى له أحد وانهد نهلان

أصابها العين في الإسلام فارتزأت

حتى خلت منه أقطار وبلدان

يا راكبين عتاق الخيل ضامرة

كأنها في مجال السبق عقبان

وحاملين سيوف الهند مرهفة

كأنها في ظلام النقع نيران

وراتعين وراء البحر في دعة

لهم بأوطانهم عز وسلطان

أعندكم نبأ من أهل أندلس

فقد سرى بحديث القوم ركبان

كم يستغيث بنا المستضعفون وهم

قتلى وأسرى فما يهتز إنسان

لماذا التقاطع في الإسلام بينكم

وأنتم يا عباد الله إخوان

ألا نفوس أبيات لها همم

أما على الخير أنصار وأعوان

يا لذلة قوم بعد عزهم

أحال حالهم جور وبهتان

بــالأمس كــانوا ملوكــا في منــازلهم
والــيــوم هــم في بــلاد الضــد عــبــدان

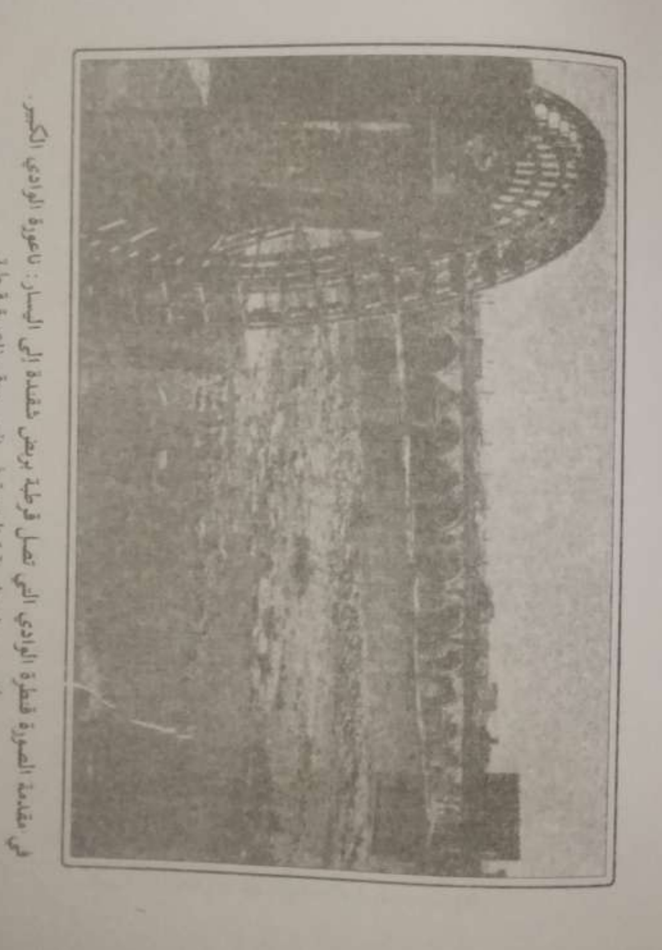
فلــو تــراهم حيــارى لا دليــل لهــم
علــيهم مــن ثيــاب الــذل ألــوان

ولــو رأيــت بكــاهم عنــد بــيعهم
لهالــك الأمــر واســتهوتك أحــزان

لمثــل هــذا يــذوب القلــب مــن كمــد
إن كــان في القلــب إســلام وإيمــان

فالبقاء لله وحده ولا غالب إلا هو ولا معقب لحكمه ولا راد لقضائه .

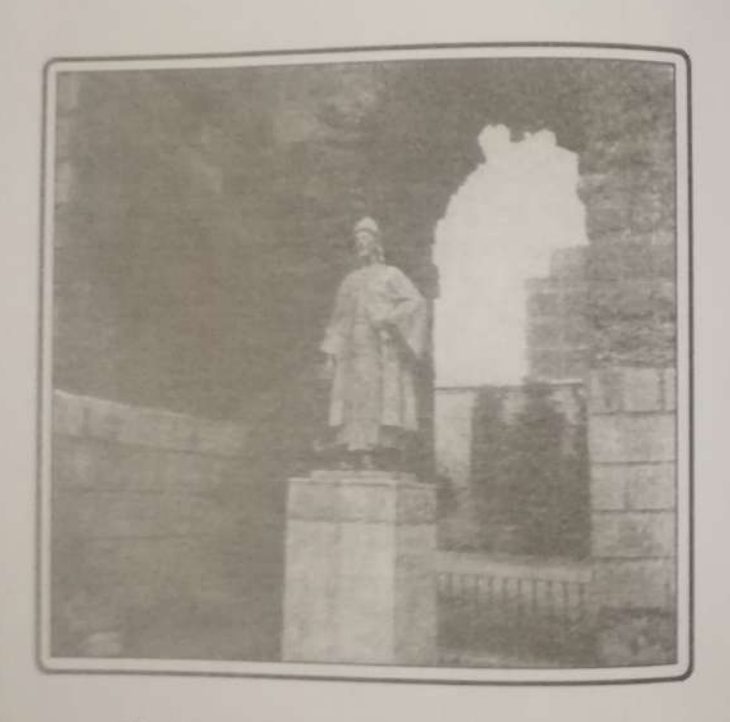
بوزريعة (الجزائر) في 2 جانفي 1992 م ، وهو اليوم الذي يصادف ذكرى سقوط غرناطة وانتهاء حكم المسلمين بالأندلس قبل خمسمائة سنة (2 جانفي 1492 م) .



في مقدمة الصورة قنطرة الوادي التي تصل قرطبة بربض شقندة إلى اليسار : ناعورة الوادي الكبير
أقيمت هذه الساقية البديعة في نفس موقع ناعورة قرطبة



ابن رشد (595هـ/ 1198م) في مجلسه عند أحد أبواب سور قرطبة
أقيم هذا التمثال تخليدًا لفيلسوف قرطبة، سنة 1963



تمثال ابن حزم بجوار السور الملاصق لقصر الخلافة بقرطبة

تمثال الفيلسوف الأندلسي اليهودي ابن ميمون بزنقة اليهود بقرطبة

بيبليوغرافيا أولية بالدراسات الأندلسية ـ الموريسكية ـ الإيبيرية التي نشرت بالجزائر أو التي ساهم بها جزائريون (1962 ـ 2000م)[*]

- أبو شعيب، عبد العزيز، أبو إسحاق الإلبيري، حياته وشعره (رسالة دكتوراه الدور الثالث ،جامعة الجزائر ، نوقشت في 10-7-1976).
- أكيلا ، كاردال ، الإسبان في شمال إفريقيا ، العلاقات السياسية والتجارية مع إيالة الجزائر (1786-1830) ، رسالة دكتوراه الدور الثالث ، جامعة بوردو الثالثة ، 1974 (عمل غير مطبوع).
- أمقران ، الحفناوي ، التراث الغنائي الجزائري ، الموشحات والأزجال ، الجزء الثالث ، تقديم جلول يلس ، الجزائر ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، 1982 ، 291 ص.
- ابن أشنهو ، عبد الحميد ، أبو عبد الله آخر ملوك غرناطة ، دفين تلمسان أم فاس ؟، مجلة الأصالة ، الجزائر ، عدد 26/1975 (عدد خاص بتاريخ تلمسان وحضارتها) ، ص ص. 270-283.
- ابن الذيب ، عيسى ، المغرب والأندلس في عصر المرابطين ، دراسة اقتصادية -اجتماعية ، رسالة دكتوراه قيد التحضير ، مسجلة بقسم التاريخ ، جامعة الجزائر ، 1998-1999.
- ابن السنوسي ، غانية ، بعض المصادر حول الجزائر أو بلاد البربر عند رومانييرو الإسباني (Romaniero) ، رسالة ماجستير ، مدريد ، 1984 ، 66 ص. (بالإسبانية).
- ابن رشد ، أعمال الندوة الوطنية حول ابن رشد ، بمناسبة الذكرى المئوية لوفاته (1198-

(*) تتضمن هذه البيبليوغرافيا الأولية المتعلقة بالدراسات الأندلسية ـ الموريسكية (1962-2000) كل ما أمكننا الاطلاع عليه وتسجيله من مقالات ودراسات ورسائل جامعية ، تم إعدادها ونشرها بالجزائر من طرف جزائريين وأجانب ، بالإضافة إلى ما ساهم به باحثون جزائريون في الخارج. ونظرا لكون هذه البيبليوغرافيا إحصاء أوليا ينطلق من جهد فردي واهتمام شخصي ، فإننا نلفت انتباه القارئ الكريم بأنه من الراجح أن هناك العديد من الأبحاث والدراسات الأندلسية ـ الموريسكية التي لم نتمكن من رصدها وتسجيلها في هذه البيبليوغرافيا.

1998م) ، نشرت ضمن عدد خاص من مجلة "دراسات فلسفية" ، معهد الفلسفة ، جامعة الجزائر ، السنة الثالثة ، العدد 5 ، 1998 (عدة مقالات) .

- ابن رشد ، أعمال مؤتمر ابن رشد ، بمناسبة الذكرى المئوية الثامنة لوفاته (4-9 نوفمبر 1978م) ، 2 ج . ، الجزائر ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع (ج . 1 ، 1983 ، ج . 2 ، 1985) ، شارك فيه من الأساتذة الجزائريين كل من : عبد المجيد مزيان ، عمار طالبي ، عبد الرزاق قسوم ، بوعمران الشيخ .
- ابن سلامة الربعي ، أدب المحنة الإسلامية في الأندلس (رسالة دكتوراه ، أدب عربي ، جامعة الجزائر ، نوقشت في 18-12-1993) .
- ابن سلامة الربعي ، القصيدة الموريسكية الضائعة ، مجلة "علوم إنسانية" ، جامعة قسنطينة ، العدد 1/جوان 1999 ، ص ص . 110-123 .
- ابن عبد الكريم ، محمد ، المقري وكتاب نفح الطيب(رسالة دكتوراه الدور الثالث ،جامعة الجزائر ، نوقشت في 1-7-1972) ، طبعت .
- ابن علي ، الطاهر ، ابن حزم وظاهرة التجديد ، رسالة ماجستير ، قسم التاريخ ، جامعة الجزائر ، نوقشت في 23-10-2001 .
- ابن محمد ، علي ، ابن بسام الأندلسي وكتاب الذخيرة ، دراسة في حياة الرجل ، وأهم جوانب الكتاب (رسالة دكتوراه الدور الثالث ،جامعة الجزائر ، نوقشت في 30-6-1976) ، طبع بالجزائر ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، 1989 ، 441 ص .
- ابن محمد ، علي ، النثر الأندلسي في القرن الخامس ، مضامينه ، أشكاله (رسالة دكتوراه ، أدب عربي ، جامعة الجزائر ، نوقشت في 20-1-1987) .
- باركة ، محمد المولود ، الأندلس في عصر الإمارة ، رسالة ماجستير قيد التحضير ، قسم التاريخ ، جامعة الجزائر ، سجلت في 1990-1991 .
- باسي ، روني ، حصار شرلكان للجزائر ، صفحات من تاريخ الجزائر ، ترجمة عبد الحميد بن هدوقة ، مجلة الثقافة ، الجزائر ، عدد 12 ، جانفي 1973 ، ص ص . 75-89 ، وعدد 14 ، أفريل 1973 ، ص ص . 71-76 .
- براز ، علية ، الموريسكيون في فالنسيا على عهد فيليب الثاني ، دبلوم الدراسات المعمقة ، جامعة الجزائر ، نوقش بتاريخ 4-1-1979 (بالفرنسية) .

- بوغلة ، أحمد ، مقارنة سياسية وملحمية بين ميقال دو أنامونو (Miguel de Unamuno) وعباس محمود العقاد ، مدريد ، إسبانيا ، جانفي 1981 (رسالة تسينا Tesina) .
- بسيس ، إبراهيم ، ابن زمرك ، حياته وشعره (رسالة دكتوراه الدور الثالث ،جامعة الجزائر ، نوقشت في 25-6-1978) .
- بكري ، عبد الكريم ، أصول النحو العربي بين ظاهرية ابن حزم وثورة ابن مضاء ، مجلة الحضارة الإسلامية ، المعهد الوطني للتعليم العالي للحضارة الإسلامية ، وهران ، عدد 2/أفريل 1996 ، ص ص . 32-43 .
- بلبوري ، سيد أحمد ، أهمية ميناء المرسى الكبير والنشاط التجاري الفرنسي الإنكليزي إبان الاحتلال الإسباني (1732-1754) ، مجلة دفاتر التاريخ المغربية (يصدرها مخبر التاريخ ، جامعة وهران) ، العدد الأول ، ديسمبر 1987 ، ص ص 54-61 .
- بلبوري ، سيد أحمد ، اقتصاد وهران إبان الاحتلال الإسباني (مشروع بحث جامعة وهران) .
- بلبوري ، سيد أحمد ، الصراع الإسلامي الإسباني بالأندلس (مشروع بحث جامعة وهران) .
- بلحميسي ، مولاي ، تحرير مدينة وهران 1708 ، مجلة تاريخ وحضارة المغرب ، الجزائر ، عدد 1970/9 ، ص ص . 55-75 .
- بلحميسي ، مولاي ، رسالة غير منشورة حول الجزائر في القرن الثامن عشر ، مجلة الوثائق الوطنية ، الجزائر ، عدد 1977/6 ، ص ص . 65-66 .
- بلحميسي ، مولاي ، صفحات من تاريخ العلاقات الجزائرية-الإسبانية : معاهدة 1786 بين الجزائر وإسبانيا ، أسباب إبرامها ، مضمونها ، نتائجها ، مجلة تاريخ وحضارة المغرب ، الجزائر ، عدد 1994/19 ، ص ص . 5-22 .
- بلحميسي ، مولاي ، غارة شرلكان على مدينة الجزائر 1541 م/948 هـ ، من المصادر العربية والمصادر الغربية ، مجلة تاريخ وحضارة المغرب ، الجزائر ، عدد 6-7/جويلية 1969 ، ص ص . 34-56 . نشرت أيضا بمجلة الأصالة ، عدد 1772/8 ، ص ص . 91-111 (عدد خاص بألفية الجزائر والمدية ومليانة) .
- بلغيث ، محمد الأمين ، الحركة الفكرية في الأندلس (عهد المرابطين) ، مذكرة سنة أولى ماجستير ، جامعة الجزائر ، 1980-1981 ، 84 ص .
- بلقاسم ، أمير ، الحالة الاجتماعية والاقتصادية لدولة بني نصر بالأندلس (دبلوم 1979-1980) .

- بن حفري ، شكيب ، العلاقات الإسبانية-الجزائرية في القرن الثامن عشر الميلادي من خلال مخطوط عثماني (كتاب المضحكات العجائبات على رؤوس الإصبنيول المقهورات المهلكات) ، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية ، جامعة الأمير عبد القادر ، قسنطينة ، عدد 1/أفريل 2002 ، ص ص . 119-139 .
- بن حفري ، شكيب ، موقف الدولة العثمانية من الجالية الأندلسية بالجزائر ما بين 1571 و1573 ، أعمال المؤتمر العالمي الخامس للدراسات الموريسكية الأندلسية ، بمناسبة الذكرى الخمسمائة سنة لسقوط غرناطة (1492-1992) ، زغوان ، فيفري 1993 ، ص ص . 31-52 .
- بن حمودة ، بوعلام ، الأصل العربي الصحيح لعديد من الكلمات الإسبانية (دراسة مصحوبة بما ينبغي تصحيحه في معجم المجمع الملكي الإسباني) ، الجزائر ، دار الأمة ، 1991 ، 220 ص .
- بن سلامة ، الربعي ، أدب المحنة الإسلامية في الأندلس (رسالة دكتوراه ، معهد اللغة العربية وآدابها ، جامعة الجزائر ، نوقشت في 15-6-1971) .
- بن سلامة ، الربعي ، القصيدة الموريسكية الضائعة ، مجلة "علوم إنسانية" ، جامعة قسنطينة ، عدد 1/جوان 1990 ، ص ص . 110-123 .
- بن عبة ، الطاهر ، المدرسة الفقهية في قرطبة ، موسى لقبال ، 1985 .
- بن محمد ، علي ، الشعر الأدبي الأندلسي في القرن الخامس (رسالة دكتوراه ، معهد اللغة العربية وآدابها ، جامعة الجزائر ، نوقشت في 20-1-1987) .
- بورويبة ، رشيد ، وهران فن وثقافة ، وزارة الإعلام الجزائرية ، الجزائر ، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ، 1983 ، ص ص . 59-102 .
- بوعزيز ، يحي ، إسبانيا توسط الجزائر لإبرام الصلح مع تونس ، المجلة التاريخية المغربية ، تونس ، عدد 49-1988/50 ، ص ص . 23-29 ، نشر كذلك في مجلة دفاتر التاريخ المغربية (يصدرها مخبر التاريخ ، جامعة وهران) ، العدد الأول ، ديسمبر 1987 ، ص ص 62-70 ، وأيضا في مجلة التاريخ ، الجزائر ، عدد 1986/25 ، ص ص . 25-32 .
- بوعزيز ، يحي ، الجديد في علاقات الأمير عبد القادر مع إسبانيا وحكامها العسكريين بمليلية ، أعمال الملتقى الدولي حول المصادر الإسبانية لتاريخ الجزائر ، وهران ، 20-22 أفريل 1981 ، نشرت بمجلة الوثائق الوطنية ، الجزائر ، عدد 11-1984/12 ، ص ص . 352-378 .
- بوعزيز ، يحي ، علاقات الجزائر الخارجية مع دول وممالك أوروبا (1500-1830) ، الجزائر ، ديوان المطبوعات الجامعية ، 1985 ، ص .

- بوعزيز ، يحي ، علاقات الجزائر الخارجية مع دول وممالك أوروبا فيما بين القرن السادس عشر ومطلع القرن التاسع عشر ، مجلة الثقافة ، الجزائر ، عدد 48/ديسمبر 1978 ، ص ص . 18-34 .
- بوعزيز ، يحي ، مفاوضات الصلح بين الجزائر وإسبانيا ، والسادسة الإسبان ، المجلة التاريخية المغربية ، تونس ، عدد 45-1987/46 ، ص ص . 15-36 ، نشر كذلك في مجلة أوراق جديدة ، مدريد ، عدد 7-1984/8 ، ص ص . 75-79 ، بعنوان مفاوضات الصلح بين الجزائر وإسبانيا من خلال الداي محمد عثمان باشا ، وأيضا في مجلة التاريخ ، الجزائر ، عدد 1985/18 ، ص ص .
- بوعزيز ، يحي ، وهران ، سلسلة مدن تاريخية ، منشورات وزارة الثقافة والسياحة ، الجزائر ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، 1985 ، ص ص . 61-110 (188 ص) .
- بونار ، رابح والبدوي ، جلول أحمد ، الجزائر والغزو الإسباني الفاشل ، مجلة الثقافة ، الجزائر ، عدد 1972/10 ، ص ص . 24-35 .
- بونار ، رابح ، عبد الحق الإشبيلي البجائي ، محدث القرن السادس الهجري ، مجلة الأصالة ، الجزائر ، عدد 1974/19 ، ص ص . 259-271 (عدد خاص ببجاية عبر العصور) .
- بونار ، رابح ، مخطوط عن بجاية ينشر لأول مرة للسان الدين بن الخطيب ، مجلة الأصالة ، الجزائر ، عدد 1974/19 ، ص ص . 89-95 (عدد خاص ببجاية عبر العصور) .
- الجون ، محمد الصالح ، أثر الأندلسيين في الأدب المغربي على عهد الموحدين (رسالة دكتوراه ، أدب عربي ، جامعة الجزائر ، نوقشت في 23-12-1987) .
- الجون ، محمد الصالح ، الوحدة المغربية الأندلسية وأثرها في الثقافة المغربية في عهد المرابطين (رسالة دكتوراه الدور الثالث ، جامعة الجزائر ، نوقشت في 18-5-1974) .
- الجيلالي ، عبد الرحمن ، لمحة عن زحف بن غانية الميورقي على بجاية ، مجلة الأصالة ، الجزائر ، عدد 1974/19 ، ص ص . 31-37 (عدد خاص ببجاية عبر العصور) .
- حجاجي ، حمدان ، ابن زمرك شاعر الحمراء ، حوليات جامعة الجزائر ، عدد 2/ .
- حجاجي ، حمدان ، حياة وآثار ابن خفاجة الأندلسي ، الجزائر ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، ط 1 ، 1970 ، ط . 2 ، 1982 .
- حجاجي ، حمدان ، حياة وآثار ابن زمرك شاعر الحمراء (رسالة دكتوراه ، معهد اللغة العربية وآدابها ، جامعة الجزائر ، نوقشت في 12-1-1985) ، نشرت بالجزائر ، المؤسسة الوطنية للكتاب وديوان المطبوعات الجامعية ، 1989 .

- حجاجي ، حمدان ، شعر وموشحات ابن زمرك الأندلسي ، الجزائر ، ديوان المطبوعات الجامعية والمؤسسة الوطنية للكتاب ، 1989 .
- حجاجي ، حمدان ، محاضرات في الشعر الأندلسي في عصر الطوائف ، الجزائر ، منشورات زرياب ، 2001 ، 103 ص .
- حداد ، مصطفى ، الأوضاع الداخلية في المغرب الأوسط وبداية الجهاد البحري وأسبابه في القرنين 15 و16 ضد الأيبيريين ، أعمال ندوة سلا حول الجهاد البحري في التاريخ العربي الإسلامي ، 30-31 ماي 1997 ، نشر جمعية أبي رقراق ، الرباط ، مطابع ميثاق المغرب ، 1999 ، ص ص . 191-195 .
- حسلاوي ، نسيم ، الحياة الفكرية في الأندلس في عهد الدولة الأموية (138-422 هـ/756-1031 م) ، رسالة ماجستير ، قسم التاريخ ، جامعة الجزائر ، نوقشت في 16-6-2002 .
- حسن ، سامي ، العمارة المدنية الأندلسية (الدار الأندلسية) ، مجلة الدراسات التاريخية ، معهد التاريخ ، جامعة الجزائر ، العدد 1/1986 ، ص ص . 84-90 .
- حمادي ، عبد الله ، اقترابات من شاعر إشبيلي : بابلو نيرودا ، تونس ، الدار التونسية للنشر ، الجزائر ، ديوان المطبوعات الجامعية ، 1985 ، 214 ص .
- حمادي ، عبد الله ، الشعر في مملكة غرناطة ، أطروحة دكتوراه بالإسبانية ، مدريد ، 1980 .
- حمادي ، عبد الله ، الموريسكيون ومحاكم التفتيش بالأندلس (1492-1616) ، الجزائر ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، تونس ، الدار التونسية للنشر ، 1989 ، 150 ص .
- حمادي ، عبد الله ، حادث اختطاف للروائي غابرييل غارسيا ماركيز ، ترجمة نشرت بجريدة الصحافة اليومية ، الجزائر .
- حمادي ، عبد الله ، رمز الأندلس في الشعر الإسباني المعاصر والشعر العربي المعاصر ، دراسة مقارنة (في طريق النشر) .
- حمادي ، عبد الله ، غابرييل غارسيا ماركيز ، رائد الواقعية الشعرية ، الجزائر ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، 1983 ، 331 ص .
- حمادي ، عبد الله ، فكاهات الأسمار ومذهبات الأخبار والأشعار لابن هذيل الغرناطي الأندلسي ، دراسة وتحقيق (في طريق النشر) .
- حمادي ، عبد الله ، مدخل إلى الشعر الإسباني المعاصر (دراسة نقدية) ، الجزائر ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، 1985 ، 331 ص .

- حميدي ، خميسي ، الحركة الأدبية في إشبيلية أيام بني حجاج (القرن الخامس) (رسالة ماجستير ، جامعة دمشق ، نوقشت في جويلية 1984) .
- خان ، محمد ، الدراسات اللغوية وقيمتها في تفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي ، مجال الأصوات (رسالةدكتوراه ، معهد اللغة العربية وآدابها ، جامعة الجزائر ، نوقشت في 19-7-1997)
- خلفات ، مفتاح ، صقالبة الأندلس بين القرنين الثالث والخامس الهجري/التاسع والحادي عشر الميلادي (رسالة ماجستير ، قسم التاريخ ، جامعة قسنطينة ، نوقشت في 9-5-2001) .
- خلفاوي ، فضيلة ، الزهور والزهريات في الأدب الأندلسي (رسالة ماجستير ، جامعة الإسكندرية ، نوقشت في مارس 1984) .
- خميسي ، حميدي ، إشكالية الحب في رسالة ابن حزم "طوق الحمامة" ، مجلة اللغة العربية ، معهد اللغة العربية وآدابها ، جامعة الجزائر ، عدد 2/1993 ، ص ص . 38-55 .
- خميسي ، ساعد ، تأثير أبي مدين في فكر وتصوف محيي الدين بن عربي ، مجلة "علوم إنسانية" ، جامعة قسنطينة ، عدد 13/جوان 2000 ، ص ص . 141-158 .
- خميسي ، ساعد ، لقاء ابن عربي بابن رشد وموجز علاقة الكشف بالعقل ، مجلة سيرتا ، قسنطينة ، عدد 12/جوان 1999 ، ص ص . 67-73 .
- دراجة ، بلقاسم ، أشعار الأروغواي (حولة إيباربورو) ، نشرته السفارة الإسبانية بالجزائر ، 1996 .
- دراجة ، بلقاسم ، الأندلسيون المسلمون ومحاكم التفتيش ، أعمال المؤتمر العالمي الخامس للدراسات الموريسكية الأندلسية ، بمناسبة الذكرى الخمسمائة سنة لسقوط غرناطة (1492-1992) ، مؤسسة التميمي ، زغوان ، فيفري 1993 ، ص ص . 67-81 .
- دراجة ، بلقاسم ، التفاعل الثقافي ودور الجالية المغرب أوسطية في الحضارة الأندلسية من ق . 8 إلى 14 الميلادي ، 2 ج . ، رسالة دكتوراه بالإسبانية ، جامعة غرناطة ، 1989 .
- دراجة ، بلقاسم ، الذاكرة الحية تروي لنا تاريخ إسبانيا ، حوليات جامعة الجزائر ، عدد 13/2000 ، ص ص . 37-46 .
- دراجة ، بلقاسم ، الرحالة الأندلسيون إلى المشرق الإسلامي عبر المغرب الأوسط (القرون 5-6 هـ) ، رسالة دكتوراه الدور الثالث ، نوقشت في نوفمبر 1976 ، بالإسبانية .
- دراجة ، بلقاسم ، الكتاب الإسبان المعاصرون والثقافة العربية ، حوليات جامعة الجزائر ، عدد 11 ، الجزء الثاني ، جوان 1998 ، ص ص . 35-55 .

- درارجة ، بلقاسم ، ليالي السمر بالأندلس ، مجلة معهد اللغة العربية وآدابها ، جامعة الجزائر ، عدد 1992/1 ، ص ص . 11-42 .
- دهينة ، عطا الله ، الأندلس في القرن الخامس الهجري ، مجلة التاريخ ، الجزائر ، عدد 1980/8 ، ص ص . 51-58 .
- دهينة ، عطا الله ، مساعدة الزيانيين لمسلمي الأندلس ، مجلة تاريخ وحضارة المغرب ، الجزائر ، عدد 1976/13 ، ص ص . 7-17 .
- دي إيبالزا ، ميكال ، بعض الوثائق الإسبانية المتعلقة بتاريخ المغرب العربي في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، مجلة الأصالة ، الجزائر ، عدد 52/ديسمبر 1977 ، ص ص . 25-30 .
- دي إيبالزا ، ميكال ، تقرير حول العلاقات الإسبانية-المغربية سنة 1812 ، المجلة التاريخية المغربية ، عدد 1975/4 ، ص ص . 91-96 .
- دي إيبالزا ، ميكال ، دراسات لوثائق وزارة الحربية ، الكتاب التكريمي لكوسيتا فيند ، مدريد ، 1974 .
- دي إيبالزا ، ميكال ، ملخص لمضمون رسائل رسمية جزائرية (نهاية القرن 18 م - بداية القرن 13 هـ) ، مجلة الوثائق الوطنية ، الجزائر ، عدد 1977/6 ، ص ص . 67-70 .
- ديب ، صفية ، التربية والتعليم في المغرب والأندلس في عصر الموحدين ، رسالة ماجستير ، قسم التاريخ ، جامعة الجزائر ، نوقشت في 7-8-2001
- ديلمي ، زهيرة ، شخصية عبد الملك بن حبيب السلمي ، رسالة ماجستير قيد التحضير ، قسم التاريخ ، جامعة الجزائر ، سجلت سنة 1995-1996 .
- رائف ، أحمد ، وتذكروا الأندلس الإبادة ، الجزائر ، ديوان المطبوعات الجامعية ، 1991 .
- رافع ، سمير ، أثر فنون إسبانيا وشمال إفريقيا في تطور مدرسة البوريزم (Ecole puriste) ، مجلة تاريخ وحضارة المغرب ، الجزائر ، جانفي 1968 ، ص ص . 40-49 .
- راڤيلار ، مارتينيه ، بيبليوغرافيا عن الموريسكيين (رسالة ديلوم دراسات معمقة ، جامعة الجزائر ، نوقشت في 15-1-1979) (بالفرنسية) .
- رفاعي ، فائزة ، سقوط غرناطة (898 هـ/1492 م) (مذكرة سنة أولى ماجستير ، جامعة الجزائر ، 1989-1990 ، 70 ص .) .
- زروخي ، إسماعيل ، الفكر السياسي عند ابن خلدون وابن الأزرق ، رسالة ماجستير ، الجامعة

التونسية ، نوقشت في 3-4-1989) .

- زوزو ، عبد الحميد ، هدنة 1810 ومعاهدة 1813 بين الجزائر والبرتغال ، مجلة التاريخ ، عدد 1981/11 ، ص ص . 21-52 .
- سامعي ، إسماعيل ، دور المذهب الحنفي في الحياة الاجتماعية والثقافية ببلاد المغرب الإسلامي (ق . 2-5 هـ) ، رسالة ماجستير ، قسم التاريخ ، جامعة الجزائر ، نوقشت في 3-7-1995 .
- سرفاتي ، دراقيت (هـ) ، لمحة عن العلاقات بين مملكة أراغون وأبي الحسن المريني ، رسالة دبلوم دراسات معمقة ، جامعة الجزائر ، نوقشت في 24-10-1966 (بالفرنسية) .
- سعيدوني ، ناصر الدين ، أوقاف الأندلسيين بالجزائر من خلال وثائق الأرشيف الجزائري ، الندوة الثانية للجنة العالمية للدراسات الموريسكية ، تونس ، 19-24 ديسمبر 1983 .
- سعيدوني ، ناصر الدين ، الأرشيفات الجزائرية المتعلقة بالوقف واستعمالها في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للجزائر العثمانية ، ضمن مجموعة تورسيكا بالمجلد 8 ، باريس ، 1995 ، ص ص . 59-65 .
- سعيدوني ، ناصر الدين ، الأندلسيون (الموريسكيون) بمقاطعة الجزائر (دار السلطان) أثناء القرنين السادس عشر والسابع عشر ، بحث قدم في المؤتمر الدولي حول الذكرى الثلاثمائة والثمانين لطرد المسلمين من الثغر الأعلى (الأندلس) ، برشلونة ، 1994 ، أعمال المؤتمر ، ص ص . 140-146 ، نشر كذلك في حوليات جامعة الجزائر ، عدد 1993/7 ، ص ص . 107-129 .
- سعيدوني ، ناصر الدين ، التجربة الأندلسية بالجزائر ، مدرسة بجاية الأندلسية ومكانتها في الحياة الثقافية بالمغرب الأوسط ، بحث قدم في ندوة "الأندلس : قرون من التقلبات والعطاءات" ، مكتبة الملك عبد العزيز العامة ، الرياض ، 30 أكتوبر-3 نوفمبر 1993 .
- سعيدوني ، ناصر الدين ، الجالية الأندلسية بالجزائر ، مساهمتها العمرانية ونشاطها الاقتصادي ووضعها الاجتماعي ، أوراق ، مجلة المعهد الإسباني العربي للثقافة ، مدريد ، عدد 1981/4 ، ص ص . 111-124 .
- سعيدوني ، ناصر الدين ، الدراسات الأندلسية الموريسكية بالجزائر ، بيبليوغرافيا أولية بالدراسات الأندلسية-الموريسكية-الإيبيرية التي نشرت بالجزائر أو التي ساهم بها جزائريون (1962-2000م) .
- سعيدوني ، ناصر الدين ، المجلة العربية للثقافة ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، تونس ، السنة 14 ، عدد 27/سبتمبر 1994 ، ص ص . 222-243 .

- سعيدوني، ناصر الدين، المعاهدة الإسبانية الجزائرية (1206هـ/1791 م)، مجلة الدراسات التاريخية لمعهد التاريخ، عدد 1993/7، ص ص. 71-93، نشرت كذلك ضمن كتاب "أندلسيات جزائرية".
- سعيدوني، ناصر الدين، المعاهدة البرتغالية الجزائرية (1228 هـ/1813 م)، مجلة الندوة، عمان، عدد 2/ماي 1997، ص ص. 40-50، نشرت كذلك ضمن كتاب "أندلسيات جزائرية".
- سعيدوني، ناصر الدين، الهجوم الإسباني على الجزائر (1189 هـ/1775 م) "معركة الحراش".
- سعيدوني، ناصر الدين، الوجود الإسباني بالسواحل الجزائرية (عنابة-بجاية-وهران-المرسى الكبير).
- سعيدوني، ناصر الدين، تراجم: ابن حزم، البكري، ابن جبير، ابن سعيد الغرناطي، لسان الدين بن الخطيب، الحسن الوزان، ابن القاسم الحجري "أفوقاي"، ضمن كتاب "من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي (تراجم مؤرخين ورحالة وجغرافيين)"، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1999، 699 ص.
- سعيدوني، ناصر الدين، حصن المرسى الكبير: من رباط إسلامي إلى حصن إسباني إلى محطة عثمانية، ضمن "تحية تقدير للأستاذ خليل الساحلي أوغلو"، الجزء الأول، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، زغوان، تونس، 10-1996/11، ص ص. 267-286.
- سعيدوني، ناصر الدين، سيرفانتس والجزائر.
- سعيدوني، ناصر الدين، صور من الهجرة الأندلسية إلى الجزائر، ندوة تاريخ المغرب في إسبانيا، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، المجلة العربية (للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم)، عدد سبتمبر 1994، ص ص. 222-243.
- سعيدوني، ناصر الدين، مدرسة تلمسان الأندلسية.
- سعيدوني، ناصر الدين، معركة ليبانت.
- سعيدوني، ناصر الدين، من وحي الأندلس (رحلتي إلى الأندلس).
- سعيدوني، ناصر الدين، وهران.
- سفطي، أحمد، دراسات في الموسيقى الجزائرية، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1988.
- سي يوسف، محمد، قليج علي باشا ودوره في البحرية العثمانية، رسالة ماجستير، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، 1988.

- شخوم، السعدي، الحياة العلمية في قرطبة من خلال كتاب المقتبس لابن حيان (377-469 هـ/989-1076م)، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، 2001، نوقشت في 11-4-2002.
- شرقي، محمد، طليطلة في الذكرى الألفية لسقوط أعظم حضارة أندلسية، مجلة التاريخ، عدد 1986/21/ ص ص. 27-44.
- شريد، حورية، مصير الأمير أبي عبد الله المشهور ببوعبديل، مجلة حوليات المتحف الوطني للآثار، الجزائر، عدد 1417/5 هـ-1996 م، ص ص. 8-17.
- شوفاليه، كورين، الثلاثون سنة لقيام دولة مدينة الجزائر، ترجمة جمال حمادنة، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، د.ت.
- صالح، فريد، نشر ودراسة لشعر حماسي ملحمي للقرن الثامن عشر حول الدفاع عن وهران، رسالة تسينا (Tesina)، مدريد، جوان 1985، ص. 21.
- صالح، محمد منير، الدكتور ساسا وطوبوغرافيا التاريخ العام للجزائر العاصمة، رسالة دكتوراه بالإسبانية، جامعة أوتونوما، برشلونة، نوقشت في 8-5-1991، مصلحة المطبوعات الخاصة لجامعة أوتونوما، برشلونة، بلتاتيرا، 1992.
- طالبي، زهور، تحقيق رسائل ابن باجة، رسالة ماجستير فلسفة، جامعة الجزائر، نوقشت في 12-3-1987.
- طالبي، عمار، آراء ابن العربي الكلامية ونقد الفلسفة اليونانية، تحقيق كتاب العواصم من القواصم (رسالة دكتوراه، معهد الفلسفة، جامعة الجزائر، نوقشت في 15-6-1971).
- الطمار، محمد، الروابط الثقافية بين الجزائر والخارج، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1983، 318 ص. (الفصل الحادي عشر: هجرة الأندلسيين إلى الجزائر في العهد الحفصي).
- الطمار، محمد، تلمسان عبر العصور، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1984، ص ص. 227-242.
- عباسة، محمد، الشعر الشعبي المقطعي الأندلسي وأثره في الشعر الأوكسيتاني (رسالة دكتوراه، معهد اللغة العربية وآداب، جامعة الجزائر، نوقشت في 8-7-1997).
- العربي، إسماعيل، بنو سراج، حظوظهم ومصيرهم في قصر الحمراء، لوشنطن إيرفنج (تعريب وتحقيق)، المجلة التاريخية المغربية، تونس، عدد 21-1981/22، ص ص. 63-75.

- العربي ، إسماعيل ، ترجمة لكتاب سقوط مدينة غرناطة للمؤلف واشنطن ايرفينج ، الجزائر ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، 1988 .
- العربي ، إسماعيل ، دولة بني زيري ملوك غرناطة ، الجزائر ، ديوان المطبوعات الجامعية ، 1982 ، 232 ص .
- العربي ، إسماعيل ، سقوط مدينة غرناطة في يد الملكين فرديناندو وإيزابيلا ، لواشنطن يرفينج (تعريب وتحقيق) ، المجلة التاريخية المغربية ، تونس ، عدد 33-34/1984 ، ص ص . 125-138 .
- العربي ، إسماعيل ، نتيجة الاجتهاد والمهادنة والجهاد المعروفة برحلة الغزال وسفارته إلى الأندلس ، تحقيق وتقديم ، الجزائر ، ديوان المطبوعات الجامعية ، 1984 ، 247 ص .
- عروج ، يوسف ، النثر الفني في عهد الموحدين بالمغرب والأندلس (رسالة ماجستير ، جامعة دمشق ، نوقشت في 17-11-1983) .
- عروج ، يوسف ، وقفة مع الرحالة ابن جبير الأندلسي (539- 614 هـ) في رحلته ، مجلة معهد اللغة العربية وآدابها ، عدد 1/1992 ، ص ص . 137-157 .
- علامين ، يوسف ، سيف الإسلام ، المرأة والرومانتيكية لميقال دو أونامونو (Miguel de Unamuno) ، دكتوراه الدور الثالث ، باريس ، جوان 1989 .
- العلمي ، لهراوي ، ابن الأبار بين التأليف والإبداع ، مجلة "علوم إنسانية" ، جامعة قسنطينة ، عدد 13/جوان 2000 ، ص ص . 223-239 .
- عليش ، ناصر ، الحياة الاجتماعية في الأندلس من خلال كتاب التوازن لابن سهل ، رسالة ماجستير قيد التحضير ، قسم التاريخ ، جامعة الجزائر ، سجلت سنة 1995-1996 .
- غافة ، إبراهيم ، الشيخ محيي الدين بن عربي وتأثيره في العالم الإسلامي والعالم المسيحي (رسالة دكتوراه ، معهد الفلسفة ، جامعة الجزائر ، نوقشت في 25-6-1988) .
- فاطمي ، فتيحة ، نظرية المعرفة عند ابن حزم ، مجلة سيرتا ، قسنطينة ، عدد 12/جوان 1999 ، ص ص . 61-66 .
- فراد ، محمد أرزقي ، القوى المغربية خلال فترة حكم ملوك الطوائف ، مذكرة ديلوم دراسات معمقة ، جامعة الجزائر ، نوقشت في 2-5-1983 .
- فرغلي ، علي معبد ، ابن حزم الأندلسي وأثره في الفكر الإسلامي ، مجلة الحضارة الإسلامية ، المعهد الوطني للتعليم العالي للحضارة الإسلامية ، وهران ، عدد 2/أفريل 1996 ، ص ص . 234-240 .

- فروخي ، إسماعيل ، ابن الأزرق الأندلسي (حياته وآثاره) ، مجلة سيرتا ، قسنطينة ، عدد 11/1998 ، ص ص . 49-54 .
- فكاير ، عبد القادر ، الصراع الجزائري-الإسباني في الحوض الغربي للمتوسط في القرن السادس عشر ، رسالة ماجستير ، قسم التاريخ ، جامعة الجزائر ، نوقشت في 13-6-2001 .
- فيلار ، جـ . ب . ، الهجرة الإسبانية إلى الجزائر في القرن التاسع عشر ، أطروحة غير مطبوعة .
- فيلار ، جـ . ب . ، حياة الإسبانيين في الجزائر العثمانية ، مجلة المينارا ، مدريد ، 1976 ، بالإسبانية .
- فيلار ، جـ . ب . ، دور جزر البليار في احتلال الجزائر ، مجلة مايوركا ، بالما دي مايوركا ، 1957 ، بالإسبانية .
- فيلالي ، عبد العزيز ، العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس ودول المغرب ، الجزائر ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، 1982 (318 ص) .
- فيلالي ، عبد العزيز ، المظاهر الكبرى في عصر الولاة ببلاد المغرب والأندلس ، سوسة ، دار المعارف للطباعة والنشر ، 1991 ، 225 ص .
- فيلالي ، عبد العزيز ، جوانب من العلاقة التجارية بين الرستميين والأمويين في الأندلس ، مجلة سيرتا ، قسنطينة ، السنة الثانية ، عدد 3/1980 ، ص ص . 32-41 .
- قابس ، ناجم الدين ، سكان مملكة ميورقة المسلمون في القرن الرابع عشر (رسالة دبلوم دراسات معمقة ، جامعة الجزائر ، نوقشت في 16-6-1970) (بالفرنسية) .
- قاهر ، محمد الشريف ، ديوان لسان الدين بن الخطيب ، تقديم وتحقيق (أطروحة دكتوراه الدور الثالث ، جامعة الجزائر ، نوقشت في 4-1-1972) ، طبعت .
- قاهر ، محمد الشريف ، شاعرات من الأندلس ، حوليات جامعة الجزائر ، عدد 17/2000 ، ص ص . 273-309 .
- قاهر ، محمد الشريف ، لسان الدين بن الخطيب وتراثه الفكري في تلمسان ، مجلة الأصالة ، الجزائر ، عدد 26/1975 ، ص ص . 231-259 (عدد خاص عن تاريخ تلمسان وحضارتها) .
- قبائلي ، عبد العزيز ، العلوم الدينية الإسلامية بالأندلس في عهد الموحدين (مذكرة سنة أولى ماجستير) .
- قدام قرش ، سعيدة ، الأندية والمجالس الأدبية في المشرق وآثارها في الأندلس ، مجلة بحوث (نشرية فرق البحث بجامعة الجزائر) ، عدد 5/1998 ، ص ص . 125-142 .

- قرش ، عبد القادر ، الصورة الفنية في الشعر الأندلسي ، رسالة دكتوراه في الأدب العربي ، جامعة الجزائر ، نوقشت في 21-11-1993 .
- القلي ، ج . مونييه ، العلاقات الاقتصادية والسياسية بين قرطبة ومختلف الأنظمة الإسلامية في القرن العاشر الميلادي (رسالة دبلوم دراسات معمقة ، جامعة الجزائر ، نوقشت في 13-1-1979) (بالفرنسية) .
- القلي ، جان ، الجدال الإسلامي المستمر (La polémique islamique continue) ، (أطروحة دكتوراه الدور الثالث ، مونبولييه ، فرنسا ، نوفمبر 1982) .
- قوبلاس ، ق . ، مملكة قاطلونية والمغرب الأقصى في سنوات 1333-1339 م (رسالة دبلوم دراسات معمقة ، جامعة الجزائر ، نوقشت في 12-7-1968) (بالفرنسية) .
- كواتي ، مسعود ، اليهود في المغرب الإسلامي من الفتح وحتى سقوط دولة الموحدين (رسالة ماجستير ، جامعة الجزائر ، نوقشت في 10-10-1992) .
- كوران ، س . ، الأوضاع الاقتصادية لمملكة مايورقة في العصر الوسيط (رسالة دبلوم دراسات معمقة ، جامعة الجزائر ، نوقشت في 12-12-1963) (بالفرنسية) .
- لسان الدين بن الخطيب ، مثلى الطريقة في ذم الوثيقة ، نشر عبد المجيد تركي ، الجزائر ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، 1983 ، 159 ص .
- المدني ، أحمد توفيق ، انهيار بلاد الأندلس وموقف دول الإسلام واسطنبول من ذلك ، مجلة الأصالة ، الجزائر ، عدد 1975/27 ، ص ص . 176-188 .
- المدني ، أحمد توفيق ، تقرير رسمي عن انتصار الجزائر ضد إسبانيا ، مجلة التاريخ ، الجزائر ، عدد 1980/8 ، ص ص . 77-89 .
- المدني ، أحمد توفيق ، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا (1492-1792 م) ، الجزائر ، الشركة الوطنية للنشر ، قسنطينة ، مطبعة البعث ، 1968 ، 541 ص .
- مزيان ، عبد المجيد ، من توجيهات ابن عباد الرندي في التربية الروحية ، محاضرات الموسم الثقافي للمجلس الإسلامي الأعلى بالجزائر ، 1999-2000 ، الرغاية ، الجزائر ، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ، 2001 ، ص ص . 157-167 .
- ميدان ، كلثوم ، الهجرة الأندلسية إلى المغرب الأوسط حتى القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي (مذكرة سنة أولى ماجستير ، جامعة الجزائر ، 1986 (88 ص) .

- ميزو ، الكوكر-فرائد ، يهود آراغون في عهد الملك بيير سيريمونيو ، رسالة دبلوم دراسات معمقة ، جامعة الجزائر ، نوقشت في 11-6-1966 (بالفرنسية) .
- ميسوم ، عبد الإله ، تأثير الموشحات في التروبادور (أطروحة دكتوراه الدور الثالث ، جامعة الجزائر ، نوقشت في 28-2-1977) ، طبعت بالجزائر ، 1981 ، 320 ص .
- نباري ، لطيفة ، النظام القضائي بالأندلس من الفتح إلى نهاية القرن الخامس .
- الهاشمي ، الحاج علي ، التنظيمات العسكرية للموحدين بالمغرب والأندلس ، رسالة ماجستير قيد التحضير ، قسم التاريخ ، جامعة الجزائر ، سجلت سنة 1993-1994 .
- هلايلي ، حنيفي ، الموريسكيون الأندلسيون في المغرب الأوسط خلال القرنين 16 و17 م ، رسالة ماجستير ، قسم التاريخ ، جامعة وهران ، نوقشت في 18-11-2000 .
- همال ، عبد السلام ، قضاء الجماعة بقرطبة الإسلامية من قيام الإمارة إلى نهاية الخلافة الأموية (138-422 هـ/756-1031 م ، رسالة ماجستير ، جامعة الجزائر ، نوقشت في 15-4-1996 ، 235 ص .
- هني ، عبد القادر ، اتجاهات الأدب الأندلسي حتى نهاية القرن الرابع الهجري ، رسالة ماجستير في الأدب العربي ، جامعة بغداد ، نوقشت في شهر ماي 1985 .
- هني ، عبد القادر ، الموشحات الأندلسية (آراء وتعقيبات) ، حوليات جامعة الجزائر ، الجزائر ، عدد 9 ، المجلد الثاني .
- يحياوي ، جمال ، الموريسكيون الأندلسيون ودور التقية في الحفاظ على شخصيتهم (1492-1610 م) ، رسالة ماجستير ، جامعة الجزائر ، نوقشت في 8-1-2001 .
- يحياوي ، جمال ، دور التقية في الحفاظ على الشخصية الموريسكية بالأندلس (1492-1610 م) ، الكتاب التكريمي للأستاذ أبو القاسم سعد الله ، جمع وإخراج ناصر الدين سعيدوني ، بيروت ، دار الغرب الإسلامي ، 2000 ، ص ص . 335-355 .
- ABI-AYAD (A.), Documents espagnols inédits sur la conquête française d'Alger de 1830 à partir de Mahon, (Travail accompli dans le cadre d'une unité de recherche, Université d'Oran, 2000).
- ABI-AYAD (A.), La Langue espagnole et les aspects de l'interculturalité hispano-maghrébins, in Insaniyat (Revue algérienne d'anthropologie et des sciences sociales), n° 9, sptembre-décembre 1999, pp. 45-53.
- ABI-AYAD (A.), Quelques aspects imagoloriques de la littérature espagnole relative aux affrontements hispano-algériens, Travail

accompli dans le cadre d'une unité de recherche, Université d'Oran.

- Actes du séminairc international sur les sources espagnoles de l'histoire algérienne, Oran, 20-22 avril 1981, pub. in Archives Nationales, n° spécial 10-11/1984 (Les articles sont indiqués selon les auteurs).
- ARNALDEZ (R.), Controverse d'Ibn Hazm contre Ibn Nagrila le juif, in R.O.M.M., n°13-14/1973, pp. 41-48.
- BEN HAMOUCHE (M.), De Grenade à Alger ou la politique urbaine ottomane face au problème andalou, in Arab Historical Review for Ottoman Studies, Zaghouan, Tunisie, n° 11-12, octobre 1995, pp. 31-47.
- BENCHENEB (S.), Ibn al-Khatib a-t-il emprunté au Naqt al-Arûs d'Ibn Hazm la relation de la mort de Ghâlib al-Nâssiri ? in R.H.C.M., janvier 1968, n°4, pp. 17-29.
- BENCHENEB (S.), Mémoires, tableaux historiques et portraits dans l'œuvre de Lissan addin Ibn al-Khatib, in R.H.C.M., janvier 1967, n°12, pp. 54-85.
- BENHAFRI (C.), Endülüste son Musülüman morisko'larin, Cezayir'göçü osmanli yardimi (1492-1614), Ankara, 1989.
- BENSAOU (H.) et Autres, Le Voyage, in Actes du 1er Colloque d'Espagnol de l'Institut des langues étrangères, 29-31 mai 1988, Université d'Alger, 148 p.
- BERBAR (A.), La expulsion de los Moriscos de España sequen 3 poemas epicos del siglo de oro, Magister en Espagnol soutenu le 13-9-1987.
- BERRAGHDA (A.), Katib Yacine en Espagnol, in Actes du Colloque international Katib Yacine, Université d'Alger, Alger, O.P.U., 1990, pp. 235-241.
- BERRAGHDA (A.), Pour une histoire libératrice. Documents espagnols à la Bibliothèque nationale d'Alger, in Algérie-actualité, n° 782, 9-15 octobre 1980, pp. 26-27.
- BESSAUD (G.), Le Maghreb central et la vie économique de l'Occident chrétien au milieu du XIVè siècle, D.E.S. d'histoire, Faculté des Lettres, Université d'Alger, 1966.
- BONO (S.), Sources hispano-italiennes pour l'histoire algérienne: l'attaque manquée à Alger de 1601, in Actes du Séminaire sur les sources espagnoles de l'histoire algérienne, Oran, 20-22 avril 1981, pub. in Archives Nationales, n° spécial 10-11/1984, pp. 295-307.
- BRAHIMI (D.), Quelques jugements sur les Maures andalous dans les régences turques au XVIIIè siècle, in R.H.C.M., 1970, n° 9, pp. 39-51.
- BTA VILAR (J.), Fuentes espagonlas sobre la Argelia colonial (1830-

1914), in Actes du Séminaire sur les sources espagnoles de l'histoire algérienne, Oran, 20-22 avril 1981, pub. in Archives Nationales, n° spécial 10-11/1984, pp. 115-127.

- CHENTOUF (T.), Les sources locales, étrangères et espagnoles de l'histoire de l'Algérie du XVIè au XIXè siècles, in Actes du Séminaire sur les sources espagnoles de l'histoire algérienne, Oran, 20-22 avril 1981, pub. in Archives Nationales, n° spécial 10-11/1984, pp. 9-32.
- CHERZADE (M.), La litteratura al yamada expression de la comunidad morila, Magister en Espagnol soutenu le 17-4-1986.
- CONTAT (P.), Rapports rédigés en 1479 par les facteurs à Valence et à Saragosse de la Compagnie de Ravensburg, D.E.S. d'histoire, Faculté des Lettres, Université d'Alger, 1963.
- DE EPALZA (M.), EL-KORSO (M.), Oran et l'Ouest algérien au 18è siècle d'après le rapport Aramburu, Présentation et traduction, Pub. de la Bibliothèque nationale d'Alger (Notes et documents), 1978.
- DE EPALZA (M.), Plans et cartes hispaniques de l'Algérie, in Actes du Séminaire sur les sources espagnoles de l'histoire algérienne, Oran, 20-22 avril 1981, pub. in Archives Nationales, n° spécial 10-11/1984, pp. 55-69.
- DHINA (A.), Etude comparative de deux traités de Tlemcen avec la couronne d'Aragon (1286) et le royaume de Majorque (1339), in R.H.C.M., 1974, n° 11, pp. 29-37.
- DHINA (A.), Les états de l'Occident musulman aux XIIIè, XIVè et XVè siècles (Les institutions gouvernementales et administratives), Alger, Office des publications universitaires, Entreprise nationale du livre, 1984, 595 p.
- DHINA (A.), Un document inédit: le texte arabe du traité Aragono-marocain de Fès (26 muharram 709/ 6 juillet 1309), in Majallat El-Tarikh, C.N.E.H., n° 13/1982, pp. 37-45.
- DRARDJA (B.), Interacción cultural: Emigración de Andalusies a Al-Magrib Al-Awsat y Magribies a Al-Andalus, 2 Tomos, Granada, Doctorat Tesina soutenue le 27/11/1989.
- Drardja (B.), Viajeros Andalusies Al-Magrib Al-Aust, Doctorat de 3è cycle, Univ. de Granada, 1976.
- DRAVET (H.), Quelques aspects des rapports entre la couronne d'Aragon et le Sultanat mérinide au temps d'Abou-l-Hasan, d'après des documents inédits des archives de la couronne d'Aragon (1334-1345), D.E.S. d'histoire, Faculté des Lettres, Université d'Alger, 1966.
- DUFOURCQ (Ch.-E.), Le Sultanat de Tlemcen vers 1382-1385 d'après

un document inédit, in Revue d'Histoire et de Civilisation du Maghreb, Alger, n°6-7/juillet 1969, pp. 27-31.

- DUFOUREQ (Ch.E.), A p de l'Espagne catalone et le Maghreb aux XIIIè et XIVè siècles, in R.H.C.M., juin 1967, n° 2, pp. 32-53.
- DUFOUREQ (Ch.E.), Les relations du Maroc et de la Castille pendant la première moitié du XIIIè siècle, in R.H.C.M., 1968, n° 5, pp. 37-62.
- DUFOUREQ (Ch.E.), Notes de lecture sur la revue « Anuario de Estudios », Méditerranée et Maghreb du XIIIè au XVIè sicèles, in R.H.C.M., juillet 1967, n° 3, pp. 75-87. Médiévales T. II/1965 ? ? ?
- DUFOUREQ (Ch.E.), Traduction d'un texte catalan (publié par Cl.Et. Maurin), Taxes acquittées par les musulmans qui quittèrent l'île de Majorque en 1339 pour la région algéroise, in Bulletin d'information historique, Faculté des Lettres, Université d'Alger, n° 1, 1965, p. 29.
- DUFOUREQ (Ch.E.), Un projet castillan au XIIIè siècle, la croisade d'Afrique, in R.H.C.M., janvier 1966, n° 2, pp. 26-51.
- EL-GAFSI (A.), Note sur quelques sources (Archives et presse) relatives à l'histoire de l'Algérie en 1804-1807 et aux Espagnols installés en Algérie, in Actes du Séminaire sur les sources espagnoles de l'histoire algérienne, Oran, 20-22 avril 1981, pub. in Archives Nationales, n° spécial 10-11/1984, pp. 323-340.
- GIMENEZ (E.), Fuentes para el estudio de las relaciones entre Alicante y la costa Norte africana en el siglo XVII, in Actes du Séminaire sur les sources espagnoles de l'histoire algérienne, Oran, 20-22 avril 1981, pub. in Archives Nationales, n° spécial 10-11/1984, pp. 71-79.
- GORIS (N.E.), Aperçu sur la population musulmane de Majorque au XIVè siècle (Résumé de D.E.A., Faculté des Lettres, Université d'Alger, 1970), pp. 19-30.
- HADJADJI (H.), Vie et œuvre du poète andalou, Alger, E.N.A.L., 1ère éd., 1969, 2è éd., 1982.
- HAMMADI (A.), Converso son et Olivido, Madrid, La Buardia, 1979.
- HAMMANA (B.), Le premier siège, Diego Suarez et les historiens européens, in Revue d'Histoire algérienne, n° 21/1986, pp. 7-26.
- HELLAL (F.), Manuscrits relatifs à l'histoire de l'Algérie avant 1830, conservés dans les archives britanniques, in Revue d'Histoire algérienne, n° 23/1987, 2è partie, pp. 7-26.
- LE COUR-GRANDMAISON (X.), Le Majorque au Maghreb, l'immigration des musulmans de Majorque entre 1344 et 1381, D.E.S.

d'histoire, Faculté des Lettres, Université d'Alger.

- LOPEZ GARCIA (P.), Argelia en la historia del Arabismo y del Africanismo espanoles (1880-1910), in Actes du Séminaire sur les sources espagnoles de l'histoire algérienne, Oran, 20-22 avril 1981, pub. in Archives Nationales, n° spécial 10-11/1984, pp. 31-42.
- MALKI (N.), Le tremblement de terre d'Oran d'octobre 1790 et les tentatives du Bey de Mascara pour la libération de cette ville, d'après trois documents des archives historiques nationales de Madrid, in Actes du Séminaire sur les sources espagnoles de l'histoire algérienne, Oran, 20-22 avril 1981, pub. in Archives Nationales, n° spécial 10-11/1984, pp. 295-307.
- MAURIN (Cl.-E.), Les finances du royaume de Majorque à la fin de l'indépendance. Le livre du compte de 1339 de la trésorerie royale, D.E.S. d'histoire, Faculté des Lettres, Université d'Alger.
- MISSOUM (S.), Présence andalouse dans la médina d'Alger au XVIIIè siècle à travers les documents arabes des archives nationales d'Alger, in Actes du Vè Symposium international, Zaghouan (Tunisie), février 1993, T. I, pp. 505-515.
- NIETO COMPLIDO (M.), Fuentes documentales españolas para historia de Argelia, in Actes du Séminaire sur les sources espagnoles de l'histoire algérienne, Oran, 20-22 avril 1981, pub. in Archives Nationales, n° spécial 10-11/1984, pp. 129-138.
- SALAH (M.M.), El Doctor Sosa y la Topografia et Historia General de Argel, Thèse de Doctorat, Université Autonoma, Barcelona, 8 mai 1991, Pub. par l'Université U.A.B., Beltaterra, 1992.
- SANCHEZ DONCEL (G.), Fuentes españolas para la historia de Oran, in Actes du Séminaire sur les sources espagnoles de l'histoire algérienne, Oran, 20-22 avril 1981, pub. in Archives Nationales, n° spécial 10-11/1984, pp. 139-143.
- SEKFATI (H.), Les Juifs de la couronne d'Aragon à l'époque de Pierre le cérémonieux, D.E.S. d'histoire, Faculté des Lettres, Université d'Alger, 1966.
- SOLA (L.), Datos cuantificables en la documentacion española soble Argelia, in Actes du Séminaire sur les sources espagnoles de l'histoire algérienne, Oran, 20-22 avril 1981, pub. in Archives Nationales, n° spécial 10-11/1984, pp. 99-114.
- SOUFI (F.), La presse espagnole durant la période coloniale, in Actes du Séminaire sur les sources espagnoles de l'histoire algérienne, Oran, 20-22 avril 1981, pub. in Archives Nationales, n° spécial 10-11/1984, pp.341-349.
- TERKI HASSAÏNE (I.(, Historiographie et nécessité de la recherche

historique sur l'Algérie du XVIè au XVIIIè siècles, in Actes du Séminaire sur les sources espagnoles de l'histoire algérienne, Oran, 20-22 avril 1981, pub. in Archives Nationales, n° spécial 10-11/1984, pp. 43-52.

- TERKI HASSAÏNE (I.), Discrepancias en la traduccion del tratado de paz Hispano-Argelino de 1786 (travail dans le cadre d'une unité de recherche).
- TERKI HASSAÏNE (I.), Politique commerciale de l'Espagne en Algérie (1786-1792), Travail accompli dans le cadre d'une unité de recherche, Université d'Oran, 12 p.
- VIDAL (J.J.), Fuentes mallorquinas para la historia argelina, in Actes du Séminaire sur les sources espagnoles de l'histoire algérienne, Oran, 20-22 avril 1981, pub. in Archives Nationales, n° spécial 10-11/1984, pp. 81-97.
- YACINE (T.), Présentation de l'œuvre de F. Zavala, in Actes du Séminaire sur les sources espagnoles de l'histoire algérienne, Oran, 20-22 avril 1981, pub. in Archives Nationales, n° spécial 10-11/1984, pp. 281-293.



الدون خوان النمساوي أخ الملك فليب الثاني غير الشرعي، أخمد ثورة جبال البشرات بالأندلس



هيغو مونكادة: قائد الحملة الإسبانية الفاشلة على الجزائر 925هـ/ 1519م
(عن: غ. إسكير: إكونوغرافية، الجزائر، لوحة . أ)



مخطط لحملة الإمبراطور شارلكان على مدينة الجزائر سنة 1541

جدول تاريخي بأهم الأحداث المتعلقة بالوجود العربي الإسلامي في شبه الجزيرة الإيبيرية وبالعلاقات الإسبانية ـ الجزائرية

92 هـ/ 711 م	بداية الفتح الإسلامي للأندلس إثر حدوث اضطرابات في مملكة القوط بإسبانيا ، تمكن أثناءها روذريك من اغتصاب الملك وتتبع أفراد أسرة الملك القوطي المطاح به "غيطشة" ومحاولة حاكم سبتة يوليان الوقوف في وجهه لاسترجاع ملك غيطشة وتحالفه مع العرب في طنجة واستنجاده بهم ، فابتدأ الفتح الإسلامي في شهر رجب بنزول طارق بن زياد على الصخرة التي تحمل اسمه "جبل طارق" بجيش من العرب والبربر قوامه 7000 رجل ، ثم التحق بهم 5000 آخرين . وبعد انتصاره على لوزريق "روذريك" بوادي لكه "شريش" ، يتقدم نحو جيان وطليطلة وغيرها . . . لكن الأمير القوطي بلاي (Pelayo) يتمكن من النجاة من معركة وادي البرباط (92 هـ/711م) ويعتصم بكهف حصين باشتورية يعرف بكهف كوفادونجا (Covadonga) يقع بين خانق ضيق بين جبلين .
93 هـ/ 712 م	قدوم موسى بن نصير والي إفريقية إلى الأندلس والتحاقه بطارق بن زياد على رأس جيش قوامه 12000 رجل ، وتمكنه من فتح العديد من المدن الأندلسية : قرمونة ، إشبيلية ، ماردة (94 هـ/713 م) ، ثم يلتقي بطارق بن زياد قرب طليطلة ويتم فتح الأندلس ( )
95 هـ/ 714 م	الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك يستدعي موسى بن نصير إلى المشرق ، فيغادر هذا الأخير الأندلس عن طريق ميناء إشبيلية .
95-138 هـ/ 714-755 م	فترة حكم الولاة بالأندلس .

98-143 هـ/ 716-760 م	تكرر غارات المسلمين البحرية على جزيرة سردانية .
100 هـ/ 718 م	الخليفة محمد بن عبد العزيز يجعل الأندلس مستقلة عن ولاية إفريقية .
100 هـ/ 718 م	الأمير القوطي بلاي يتمكن من القضاء على سرية إسلامية كانت تتعقبه ، وكانت تلك بداية حرب الاسترداد من النصارى التي استمرت 774 سنة (718-1492 م) وانطلقت من مناطق أقصى الشمال الغربي (اشتورية والباسك ونبرة وأراغون وقاطالونيا) ، وأصبحت بذلك أنهر إبرة (Ebro) ودويرة (Duero) والتاج (Tagus) تشكل خط الثغور الشمالية بالنسبة للمسلمين .
100-102 هـ/ 718-720 م	السمح بن مالك الخولاني يعبر جبال البرانس (البيرينيه) ويستولي على بشتمانية والبروفانس وطولوشة (تولوز) ، ويستشهد في إحدى المعارك ضد الفرنجة بالأرض الكبيرة (فرنسا) .
107 هـ/ 725 م	عنبسة بن سحيم الكلبي يستولي على وادي الرون ومدينة ليون ، وبعد استشهاده ينسحب المسلمون إلى نربونة .
114 هـ/ 732 م	عبد الرحمن الغافقي يستشهد في معركة بلاط الشهداء (معركة تور-بواتييه) وشارل مارتل يتمكن من صد تقدم المسلمين نحو الشمال ويضطرهم إلى التراجع نحو الجنوب .
130 هـ/ 747 م	سقوط سمورة (Zamora) بيد الأمير النصراني بلاي .
131 هـ/ 748 م	سقوط بنبلونة (Pampalona) بيد بيدرو دوق كنتبرية .
136 هـ/ 753 م	سقوط استرقة (Astorga) بيد ألفونسو الأول .
137 هـ/ 754 م	سقوط لك (Lugo) بيد ألفونسو الأول .
138 هـ/ 755 م	نزول عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان المنكب (طرش) بالأندلس وانتصاره في معركة المصارة وفوزه بالإمارة ، وتأسيسه الإمارة الأموية بالأندلس باسم عبد الرحمن الداخل أو عبد الرحمن الأول (756-788 م) .

173-138 هـ /789-756م	عهد الإمارة الأموية بالأندلس التي أصبحت قرطبة عاصمة لها.
139 هـ/756م	العرب ينشئون مدينة غرناطة.
145 هـ/762م	سقوط أبلة (Avilla) بيد الفونسو الأول.
180-173 هـ/ 789-796م	قوات المسلمين بالأندلس تهاجم الثغور الشمالية "قطالونيا وجليقية"، وتعبر جبال البرانس وتصل في تقدمها مدينة كركاسون.
283-172 هـ/ 788-896م	هشام (الأول) الربضي بن عبد الرحمن يتولى الإمارة بالأندلس.
206-180 هـ/ 796-822م	الحكم (الأول) بن هشام يتولى الإمارة الأموية بالأندلس.
202-185 هـ/ 801-817م	لويس التقي يستولي على برشلونة (Barcelona)، ويدشن بداية توسع النصارى نحو الجنوب على حساب المسلمين بإقليمي استوريا وجليقية.
199 هـ/814م	واقعة الربض "قرب قرطبة" التي تزعمها الفقهاء، وتمكن فيها هشام من قمع التمرد، فعرف بهشام الربضي، وخروج أعداد من الناس في جزيرة كريت ومدينة الإسكندرية بمصر.
238-206 هـ/ 821-852م	عبد الرحمن (الأوسط) يتولى الإمارة الأموية بالأندلس.
843، 848م	توسيع جامع قرطبة
230 هـ/844م	غارات النورمان أو الفيكينغ الذين عرفوا بالماجوس على سواحل الأندلس الجنوبية الغربية (قادس) وتقدمهم نحو إشبيلية عبر الوادي الكبير، وتمكنهم من سبي كثير من المسلمين (12-14 محرم).
231 هـ/845م	وصول السفن الإسلامية إلى سواحل إيطاليا الوسطى وتقدمهم عبر وادي التيبر نحو روما وتمكنهم من دخولها وإحراقها، في الوقت الذي اضطر البابا إلى تحصينهم والابتعاد عنهم.

273-238 هـ/ 852-886م	تولي محمد (الأول) بن عبد الرحمن الإمارة الأموية بالأندلس
245 هـ/859م	تجدد غارات النورمان على عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط، فهاجموا السواحل الجنوبية وأغاروا على قادس القريبة من مصب الوادي الكبير.
256 هـ/869م	فتح المسلمين جزيرة مالطة.
264 هـ/877م	فتح المسلمين جزيرة صقلية (أول غارة بحرية على صقلية كانت في عهد موسى بن نصير (85 هـ/704 م).
305-270 هـ/ 883-917م	ثورة عمر بن حفصون
275-273 هـ/ 886-888م	المنذر بن محمد يتولى الإمارة الأموية بالأندلس.
300-275 هـ/ 888-912م	عبد الله بن محمد يتولى الإمارة الأموية بالأندلس، وفي هذه السنة توفي العالم بن فرناس.
350-300 هـ/ 912-961م	عبد الرحمن الثالث الملقب بالناصر يتولى الإمارة الأموية بالأندلس
316-305 هـ/ 917-928م	ثورة حفص بن عمر بن حفصون هجمات ضد ملك أشتوريا أوردونيو.
316 هـ/929م	عبد الرحمن الناصر يتلقب بأمير المؤمنين ويعلن الخلافة الأموية بالأندلس.
319 هـ/931م	تأسيس مدينة مرسية.
325 هـ/936م	عبد الرحمن الناصر ينشئ مدينة الزهراء بسفح جبل العروس ظاهر قرطبة
328 هـ/939م	ميرو الثاني ملك ليون يلحق الهزيمة بعبد الرحمن الناصر بسالمنقة.

340 هـ/951م	سقوط أربونة في يد النصارى، وتجريد هجمات على ملك ليون (951-960م).
343 هـ/954م	حكام صقلية من الأسرة الكلبية يغيرون على السواحل الإيطالية ويستولون على مدينة جنوة.
349 هـ/960م	سقوط طركونة في يد النصارى.
350-366 هـ/ 961-976م	الحكم الثاني يتولى الخلافة بقرطبة.
355-365 هـ	غارة النورمان الثالثة على سواحل الأندلس (شواطئ جليقية) وإغارتهم على مدينة شنت والتصدي لهم وإرجاعهم على أعقابهم.
366 هـ/976م	هشام الثاني (المؤيد) يتولى الخلافة (366-400 هـ/976-1009 م) ويولي محمد بن عبد الله بن أبي عامر الحجابة، فيستبد بالأمر ويؤسس الدولة العامرية، ويلقب بالمنصور، ويدشن أسلوب حرب الحملات الفصلية (المشاتي والصوائف) لحماية الثغور الشمالية للأندلس لصد زحف النصارى الذي تزايد منذ سنة 981 م، فشن خمسين غزوة شتاء وصيفا في فترة خمسة وعشرين سنة، ووصل في توغله إلى محج النصارى بسانتياغو دو كومبوستيلا، ويتمكن من هدم كنيستها، قبل أن يستردها النصارى (997 م).
375 هـ/985م	سقوط برشلونة.
375 هـ/985م	الإفرنج يستولون على جيرونة (Gerona).
393 هـ/1002م	عبد الملك بن محمد بن أبي عامر يتولى الحجابة خلفا لأبيه الذي توفي وهو عائد من إحدى غزواته.
399 هـ/1008م	وفاة عبد الملك بن أبي عامر.
	انتهاء الدولة العامرية وعجز الخلافة الأموية وشيوع الاضطرابات في ربوع الأندلس.
400 هـ/1009م	محمد الثاني.

400-404 هـ/ 1009-1013م	سليمان بن الحكم.
422 هـ/1031م	سقوط الخلافة الأموية بقرطبة، وظهور حكم ملوك أقاليم الأندلس (402-484 هـ/1012-1091م): بنو عباد بإشبيلية (1023-1091م)، بنو محمود الأدارسة بمالقة والجزيرة (1016-1057م)، بنو زيري بغرناطة (1012م)، بنو هود بسرقسطة (1039-1110م)، بنو الأفطس في بطليوس (1027-1094 م)، بنو ذي النون بطليطلة وبلنسية ومرسية.
442 هـ/1050م	وفاة ابن إسحاق القرطبي.
444 هـ/1052م	وفاة ابن جبيرول المالقي الفيلسوف اليهودي الأندلسي (1021-1051م).
1054-1065م	ملك قشتالة فرديناندو الأول ينفذ مخطط حرب الاسترداد ودفع المسلمين نحو الجنوب.
456 هـ/1064م	وفاة أبي محمد بن حزم الظاهري فقيه الأندلس ومفكرها، ربت مؤلفاته عن خمسمائة، منها: طوق الحمامة (409 هـ/1018م)، وجمهرة أنساب العرب (450 هـ/1058 م).
456 هـ/1063م	سقوط قلمرية (Coimbra) بيد ألفونسو الأول.
458 هـ/1065م	حملات فرديناندو الأول حاكم قشتالة على بلنسية ونجاحه في توسيع مملكته على حساب المسلمين.
470 هـ/1077م	المرابطون يتقدمون من الصحراء ويعبرون جبال الأطلس وينشئون مدينة مراكش.
474 هـ/1081م	ألفونسو السادس يستولي على وادي الحجارة (Guadalajara).
784 هـ/8510م	ألفونسو السادس ملك قشتالة يستولي على طليطلة (Toledo) العاصمة التاريخية لشبه الجزيرة الإيبيرية (6 مارس).
	السيد كومبيادور (رودريغو دياز) يستولي على بلنسية، والأندلسيون يستنجدون بيوسف بن تاشفين (1085 م).

479 هـ/1086 م — (ربيع الثاني/أوت) يوسف بن تاشفين المراكشي يعبر إلى الأندلس ويلحق الهزيمة بألفونسو السادس في موقعة الزلاقة (Zellaca) قرب بطليوس (23 أكتوبر/ديسمبر 1086 م) .

482 هـ/1089 م — البابا أوربان يدعو المسيحيين لمساندة إخوانهم الإسبان في حربهم المقدسة ضد المسلمين .

482 هـ/1090 م — عبور يوسف بن تاشفين مجددا إلى الأندلس لمواجهة الخطر النصراني وانتصاره في معركة عديلو .

484 هـ/1091 م — خضوع ملوك الطوائف لحكم يوسف بن تاشفين المرابطي .

معز الدولة بن المعتصم بن صمادح حاجب المرية ينجو من بطش المرابطين يلتجئ لدى الحماديين فيقطعونه مدينة دلس للإقامة بها مع حاشيته .

484 هـ/1091 م — النورمان يستولون على صقلية وينهون حكم المسلمين لها .

486 هـ/1093 م — سقوط الأشبونة بيد الأول هنريك الفرنسي الذي أصبح أمير البرتغال .

487 هـ/1094 م — وفاة الجغرافي الأندلسي أبو عبد الله البكري (صاحب كتاب المسالك والممالك) (460 هـ/1067 م)

487 هـ/1094 م — موت المعتمد بن المعتضد بن عباد منفيا بأغمات (جبال الأطلس في حالة بؤس وشقاء) .

491 هـ/1097 م — سقوط وشقة (Huelva) بيد بيدرو الثاني .

492 هـ/1098 م — يوسف بن تاشفين يلحق الهزيمة بالسيد (Cide) المعروف (بالقمبيطور) ببلنسية ، وعندما يتوفى في نفس السنة يتحول قبره ببلده بركوس إلى مزار .

495 هـ/1101 م — استيلاء المرابطين نهائيا على الأندلس وينهون حكم ملوك الطوائف .

500 هـ/1106 م — وفاة يوسف بن تاشفين وتولي علي بن يوسف بن تاشفين أمر المرابطين ومواصلته الجهاد بالأندلس ضد النصارى .

504 هـ/1110 م — ألفونسو المحارب يستولي على تطيلة (Tudela) .

512 هـ/1118 م — ألفونسو المحارب (الأذفونش) ملك الأرغون يستولي على سرقسطة (Zaragoza) قاعدة الثغر الأولى وعلى مدينة بربشتر (Barbaster) .

512 هـ/1118 م — ظهور أمر الموحدين بالمغرب على يد عبد المؤمن بن علي الكومي اعتمادا على دعوة محمد بن تومرت .

512 هـ/1118 م — روجر الثاني النورماني صاحب صقلية المعروف بتسامحه وتشجيعه للعلوم يهاجم سواحل بلاد المغرب ويتصدى للبيزنطيين بشرق المتوسط .

514 هـ/1120 م — سقوط قلعة أيوب بيد ألفونسو المحارب .

521 هـ/1127 م — سقوط مدينة قامرش في يد ألفونسو التاسع ملك ليون .

524 هـ/1129 م — قيام دولة الموحدين بالمغرب بقيادة عبد المؤمن بن علي الكومي .

529 هـ/1134 م — سقوط حصن ورطة (Rueda) بيد ألفونسو منديس .

533 هـ/1138 م — نهاية حكم علي بن يوسف بن تاشفين .

534 هـ/1139 م — الأذفونش يستقب بمملكة البرتغال ويتخلص من التبعية لمملكة قشتالة .

539 هـ/1144 م — الموحدون يستولون على الأندلس .

540 هـ/1145 م — وفاة ابن العوام .

540 هـ/1145 م — وفاة جابر بن أفلح الإشبيلي .

541 هـ/1146 م — الموحدون يستولون على مدينة مراكش .

542 هـ/1147 م — سقوط شنترين (Santarem) بيد ألفونسو هنريكز .

542 هـ/1147 م — سقوط لشبونة (Lisbona) بيد ألفونسو هنريكز .

543 هـ/1148 م — سقوط لاردة (Lerida) بيد ريمنديس برنجار الرابع .

543 هـ/1148 م	سقوط طركونة (Tarragona) بيد ريمنديس برناجار الرابع .
543 هـ/1148 م	سقوط طرطوشة (Tartoza) بيد ريمنديس برناجار الرابع .
547 هـ/1152 م	وفاة أسقف طليطلة كبير مستشاري ملك قشتالة رايموند مؤسس مدرسة المترجمين .
549 هـ/1154 م	وفاة الملك النورماني روجر الثاني (1130-1154م) مشجع العلوم الإسلامية بصقلية والذي شجع علماء المسلمين على الإقامة ببلاطه ببالرمو .
555 هـ/1160 م	عبور عبد المؤمن بن علي الموحدي إلى الأندلس واتخاذ إشبيلية قاعدة للموحدين .
558 هـ/1162 م	تولي يوسف بن عبد المؤمن حكم الموحدين بعد وفاة أبيه عبد المؤمن .
558 هـ/1162 م	اتحاد قاطالونيا والأراغون .
563 هـ/1167 م	وفاة إبراهيم بن عزرا التطيلي (1093-1167 م) الفيلسوف اليهودي .
574 هـ/1178 م	وفاة الطبيب والعالم الأندلسي عبد الملك بن أبي العلاء المعروف بابن زهر (Avenzoar) أستاذ ابن رشد بإشبيلية .
581 هـ/1185 م	وفاة الفيلسوف الأندلسي أبو بكر بن طفيل صاحب يحي بن يقظان .
581 هـ/1185 م	سقوط سانتاروم ولشبونة في يد أوريك ملك البرتغال (وتصبح ؟) .
591 هـ/1194 م	الموحدون يحققون انتصارا ساحقا على القوة المسيحية بقيادة ألفونسو الثامن في معركة الأرك (Alarcos) بالقرب من بطليموس .
594 هـ/1197 م	وفاة الولي المتصوف شعيب بن الحسين المعروف بأبي مدين بوادي يسر وهو في طريقه من بجاية إلى مراكش ، ويدفن بالعباد ظاهر تلمسان .
595 هـ/1198 م	وفاة الفيلسوف الأندلسي ابن الوليد محمد بن رشد بمراكش .
597 هـ/1200 م	سقوط طرطوشة بيد النصارى .
601 هـ/1204 م	وفاة موسى بن ميمون (1135-1240 م) الفيلسوف اليهودي .

601 هـ/1204 م	وفاة العالم الطبيب ابن الياسمين .
609 هـ/1212 م	(صفر/جويلية) الموحدون تلحق بهم الهزيمة في معركة العقاب (Las Navas de Tolosa)
614 هـ/1217 م	وفاة الرحالة الأندلسي ابن الحسن محمد بن جبير صاحب "تذكرة الأبصار" .
617 هـ/1220 م	سقوط مايورقة (بجزر الباليار) بيد النصارى .
626 هـ/1228 م	سقوط مدينة بطليموس في يد ألفونسو التاسع ملك ليون .
627 هـ/1229 م	استيلاء ألفونسو التاسع على ماردة .
628 هـ/1230 م	سقوط مايورقة .
633 هـ/1235 م	سقوط دانية وجزيرة يابسة (إحدى جزر الباليار) بيد النصارى .
636 هـ/1238 م	انتهاء حكم الموحدين بالأندلس وبداية نهاية الأندلس بسقوط الحواضر الكبرى .
636 هـ/1238 م	الغالب بالله أبو عبد الله محمد بن يوسف النصري (635-671 هـ/1238-1272 م) يؤسس الدولة النصرية بغرناطة (635-898 هـ/1238-1492 م) .
636 هـ/1238 م	سقوط قرطبة قاعدة الأندلس التاريخية التي حول مسجدها الجامع إلى كاتدرائية .
636 هـ/1238 م	سقوط بلنسية قاعدة شرق الأندلس في يد ملك الأراغون خيمي .
636 هـ/1238 م	استقلال بني نصر بحكم مملكة غرناطة وتأسيسهم مملكة بني الأحمر (630-897 هـ/1238-1492 م) .
641 هـ/1243 م	استيلاء النصارى على مرسية صلحا .
642 هـ/1244 م	البابا غريغوار التاسع يصدر براءة عفو تسقط ذنوب النصارى الذين يحاربون المسلمين مع ملك البرتغال سانشو الثاني ، على اعتبار ذلك بمثابة حرب صليبية بالأراضي المقدسة .

645 هـ/1247 م سقوط شاطبة بيد النصارى.

645 هـ/1247 م الملك خوان الأول الأراغوني يصدر أمرا بإجلاء المسلمين من الأراضي التي استولى عليها.

646 هـ/1248 م جيوش قشتالة تستولي على إشبيلية قاعدة جنوب الأندلس وعاصمة الموحدين على عهد أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن.

646 هـ/1248 م وفاة الطبيب العالم ابن البيطار.

648 هـ/1250 م سقوط ميناء قادش بيد النصارى.

661 هـ/1262 م استيلاء ملك قشتالة على جبل طارق.

662 هـ/1263 م لشبونة تصبح عاصمة للبرتغال.

668 هـ/1269 م سقوط دولة الموحدين وانقسامها إلى دول إقليمية: بنو حفص بتونس، بنو عبد الواد بتلمسان، بنو مرين بفاس، بنو الأحمر بغرناطة.

حوالي 670 هـ/1271 م وفاة الأديب والجغرافي أبو الحسن علي بن سعيد الغرناطي.

681 هـ/1282 م بيدرو الثالث ملك الأراغون (1276-1285 م) يشن حملة على صقلية ويطيح بالحكم الأنجوي.

683 هـ/1284 م وفاة الملك ألفونسو العاشر الملقب بالحكم (1252-1284 م) مؤسس معهد الدراسات العربية بمرسية ومنشئ مدرسة البحوث والترجمة بإشبيلية وتعليم العربية، وواضع الدستور الكاستيلي المعتمد على قوانين القوط ومدونة جوستينيان.

684 هـ/1285 م وفاة الملك شارل دانجو (1266-1285 م) مشجع ترجمة العلوم العربية بنابولي.

686 هـ/1287 م سقوط مينورقة إحدى الجزائر الشرقية (جزر الباليار).

722 هـ/1322 م وفاة فيتيلو بن البقار البرغاشي مترجم الكتب العربية.

729 هـ/1328 م وفاة قالونيموس بن قالونيوس اليهودي، مترجم كتاب 'الكون' لأرسطو ولأرخميدس الذي وصف فسكا بزلوقا.

730 هـ/1329 م وفاة ابن الرومية.

731 هـ/1330 م اتحاد مملكتي قشتالة وليون.

740 هـ/1339 م أبو الحسن المريني يعزز الحاميات المغربية بجنوب الأندلس بإرسال النجدات العسكرية.

741 هـ/1340 م (16 أفريل) معركة استريتشو (Batalla de Estreach)، قتل فيها القائد النصراني الدون جوفري تينوريو والقائد المسلم أبو مالك، وانتهت بانتصار النصارى.

741 هـ/1340 م معركة طريف (الكبرى) (Batalla de Salado) (7 جمادى الأولى/30 أكتوبر)، تمزق فيها الأسطول المريني وانتصر فيها ألفونسو الحادي عشر واستولى إثرها على مواقع منها الجزيرة الخضراء (741 هـ/1340 م).

745 هـ/1344 م استيلاء ألفونسو الحادي عشر على مدينة الجزيرة الخضراء بعد أن استردها المسلمون.

749 هـ/1348 م (8 محرم/10 أفريل) هزيمة أبي الحسن المريني في القيروان بتونس أمام الأعراب واضطراره إلى صرف جهوده عن الأندلس للتصدي للأوضاع في إفريقية والمغرب بعد أن أعلن التمرد عليه أبو عنان فارس (صيف عام 749 هـ/1348 م).

750-751 هـ/1349-1350 م حصار جبل طارق من قبل ألفونسو الحادي عشر.

752 هـ/1351 م (جوان) سقوط مشروع إنقاذ الأندلس بعد وفاة أبي الحسن المريني الذي سلم قبل أيام من وفاته لأبيه أبي عنان.

765 هـ/1363 م أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون ينزل الأندلس ويقوم بسفارة للملك الغرناطي محمد بن الأحمر لدى ملك قشتالة بطرس بإشبيلية.

772 هـ/1370 م — حملة لويس التاسع (ألفونسو لويس) على مدينة تونس وهلاكه حول أسوارها بالطاعون .

776 هـ/1374 م — قتل الأديب والمفكر الأندلسي أبو عبد الله محمد السلمي المعروف بلسان الدين ابن الخطيب بفاس ، صاحب مؤلفات كثيرة ، منها : الإحاطة وأعمال الأعلام ونفاضة الجراب وكناسة الدكان . . .

782 هـ/1380 م — القشتاليون ينهزمون أمام البرتغاليين في معركة الخبروتة (Aljubarrota)

803 هـ/1400 م — الإسبان يغيرون على مدينة تطوان الواقعة على الساحل الشمالي للمغرب .

818 هـ/1415 م — احتلال البرتغال لسبتة على شاطئ المغرب الأقصى والمقابلة لجبل طارق .

819 هـ/1416 م — ألفونسو الخامس ملك الأراغون يطلق على نفسه لقب ملك الصقليتين (نابولي وصقلية) ويجعل نابولي مقرا لبلاطه .

857 هـ/1453 م — استيلاء محمد الفاتح (الثاني) على القسطنطينية .

863 هـ/1458 م — البرتغاليون يستولون على القصر الصغير بشمال المغرب الأقصى .

874 هـ/1469 م — اتحاد مملكتي الأراغون وقشتالة بعقد قران إيزابيلا وريثة عرش قشتالة بفرديناندو ولي عهد الأراغون ، وتتحد إسبانيا تحت عرش الملكين الكاثوليكيين

874 هـ/1469 م — البرتغاليون يخربون أنفي على ساحل المحيط ويهاجمون العرائش والقصر الكبير .

876 هـ/1471 م — البرتغاليون يستولون على طنجة وأصيلا .

881 هـ/1476 م — الإسبان يستولون على موقع سانتاكروز دي ماريكينا (Santa Cruz de Marbequenas)

908 هـ/1485 م — طلب ملك النصارى من محمد بن علي التنازل له عن غرناطة .

908 هـ/1485 م — سقوط رونده في يد القشتاليين .

891 هـ/1486 م — كمال رايس على رأس قطع من الأسطول العثماني يبادر بتقديم العون

لمسلمي الأندلس بأمر من السلطان بايزيد الثاني ، واستمرار محاولة تقديم العون والإغاثة إلى سنة 901 هـ/1495 م .

891 هـ/1486 م — سقوط لوشة .

892 هـ/1486 م — وفاة العالم الرياضي الأندلسي القلصادي بباجة .

893 هـ/1487 م — سقوط بلش في 891 هـ (25 ربيع الثاني) ، وسقوط مالقة (892 هـ) .

896 هـ/1490 م — استسلام ثغر المرية للنصارى .

898 هـ/1492 م — حصار غرناطة والاستيلاء عليها (2 جانفي) وخروج ملكها أبي عبد الله محمد (البوعبديل) إلى تلمسان .

898 هـ/1492 م — كريستوف كولومبس يقوم برحلة استكشافية لفائدة العرش الإسباني ، فيعبر المحيط الأطلسي ويصل إلى سواحل العالم الجديد (14 أكتوبر) واعتقد أنه بلغ الهند عن طريق الغرب حسبما كان يأمل ، فأطلق على السكان المحليين اسم الهنود الحمر الذي ظلوا يعرفون به إلى اليوم

898 هـ/1492 م — مدينة الجزائر تستقبل أعدادا كبيرة من مهاجري الأندلس

899 هـ/1493 م — صدور براءة البابا الإسكندر (Les Bulles Alexandrines) التي تحدد اقتسام مناطق النفوذ الإسباني والبرتغالي في بلاد المغرب الإسلامي وفي العالم

903 هـ/1497 م — سقوط مركز المليلية بيد الإسبان .

906 هـ/1500 م — احتلال الإسبان لمدينة تطوان بالمغرب .

908 هـ/1502 م — البرتغاليون يستولون على مازغان .

910 هـ/1504 م — الإسبان يصلون إلى غاية سواحل المغرب .

911 هـ/1505 م — الإسبان يستولون على حصن المرسى الكبير بقيادة الدون فرنانديز دو كوردوبا (Don Diego Fernandez de Cordoba) بعد يومين من الحصار (13 سبتمبر)

911 هـ/1505 م	البرتغاليون يستولون على أغادير .
913 هـ/1507 م	انكسار القوة الإسبانية بقيادة الدون فرنانديز دو كوردوبا في معركة مسرغين (7 جوان) ونجاته بنفسه .
914 هـ/1508 م	احتلال الإسبان لحجر بادس (P... Valez) والبرتغاليون يستولون على أسفي .
915 هـ/1509 م	كاردينال طليطلة فرانسيسكو كزيميناس دو ميسنيروس (Cardinal F. Ximenez de Cisneros) يعبئ حملة يستولي فيها على وهران ويتولى قيادة الحملة بيدرو نافارو (Comte d'Oliveto Don Pedro Navarro) الذي يصبح الحاكم العام لوهران ويشن هجمات على سواحل المغرب .
916 هـ/1510 م	بيدرو نافارو حاكم وهران يستولي على مدن بجاية وعنابة وشرشال ويفرض الحماية على مدينة الجزائر بعد استقرار الحامية الإسبانية ببرج فنار البنيون المقام على إحدى الجزر أمام مدينة الجزائر .
917 هـ/1511 م	فشل الإسبان في احتلال جزيرة جربة .
917 هـ/1511 م	احتلال الإسبان لمدينة مستغانم .
918 هـ/1512 م	الإسبان يفرضون حمايتهم على الأمير الزياني بتلمسان .
918 هـ/1512 م	محاولة المجاهد عروج بربروسة وجماعته استرجاع بجاية من يد الإسبان بطلب من الحفصيين ودعوة من سكان بجاية لكنه يفشل في اقتحامها .
919 هـ/1513 م	الإسبان يستولون على دلس وعنابة وهنين .
919 هـ/1513 م	عروج بربروسة يتحول إلى جيجل فيحررها من الجنويز ويتخذها مركزا له .
919 هـ/1513 م	البرتغال يستولون على آزمور .
920 هـ/1514 م	عروج بربروسة ينطلق من جيجل ويعاود الهجوم على بجاية ولكنه يضطر إلى التراجع عنها .
922 هـ/1516 م	عروج بربروسة يتحول إلى مدينة الجزائر بطلب من أهلها وينجح في رد غارة إسبانية بقيادة دييغو دو فارا (Diego de vera) (10 سبتمبر) ويقضي على المتعاونين مع الإسبان وفي مقدمتهم شيخ البلد سالم التومي .
922 هـ/1516 م	الإسبان يضطرون إلى التخلي عن تنس .
922 هـ/1516 م	الملك فرديناندو يرث المملكة الإسبانية بعد موت جده .
922 هـ/1516 م	شارل الأول (ملك إسبانيا وحاكم الأراضي المنخفضة (هولندة) (1500-1519م) يصبح امبراطورا على إسبانيا ومستعمراتها وامبراطورية هابسبورغ الجرمانية ويحمل اسم شارل الخامس المعروف بشرلكان (1519-1556 م) .
924 هـ/1518 م	قوات إسبانية تتوغل بالغرب الجزائري وتتمكن من قتل إسحاق الأخ الأصغر لبابا عروج بقلعة بني راشد ، ثم تستولي على تلمسان وتلاحق عروج الذي يضطر إلى الانسحاب من حصن تلمسان (المشور) ، ثم تتمكن من قتله في معركة ريو دو سالادو (ناحية عين تيموشنت)
925 هـ/1519 م	الإسبان يتكبدون خسائر فادحة في هجومهم على مدينة الجزائر بقيادة دو مونكادة (Hugo de Moncada) ، بعد أن أصبح خير الدين باشا أخ عروج حاكما للجزائر من قبل السلطان ياووز العثماني .
925 هـ/1519 م	ماجلان يقوم برحلة حول الأرض ويصل به قطعه للمحيطين الأطلسي والهادئ إلى الجزر الواقعة ببحر الصين الجنوبي والتي أصبحت تعرف نسبة إلى الملك فيليب بالفليبين (Philippines) .
926-928 هـ/ 1519-1521 م	إسبانيا تواجه ثورة الكومونيروس (Comuneros) (البلديات) ، شارك فيها أعضاء الكومون والنبلاء ورجال الكنيسة بينما وقف ضدها النواب المؤيدون للملك شارل الأول (1516-1519 م) ، وقد ألف الثائرون بقيادة خوان دي باديلا الطليطلي الحلف المقدس (1520 م) ، وطالبوا بصلاحيات للمجالس التشريعية إزاء قرارات المجالس الملكية ، وقد تمكن الملك من إخمادها بعد أن تخلى النبلاء عن الثورة .
928 هـ/1521 م	بداية النزاع الدولي بين الإمبراطور شارلكان وملك فرنسا فرانسوا الأول على زعامة أوربا والفوز بالولايات الإيطالية الغنية .

932 هـ/1525 م — وقوع فرانسوا الأول ملك فرنسا أسيرا في يد شارلكان .

933 هـ/1526 م — صدور المرسوم الملكي تكملة للمراسيم الصادرة في شأن الموريسكيين ، وقد وضع هذا المرسوم حدا نهائيا لممارسة الشعائر الإسلامية واستعمال اللغة العربية ، وأصبح القانون يعاقب كل من يحاول التمسك بالإسلام والتكلم بالعربية .

935 هـ/1528 م — رياس البحر الجزائريون إيدن رايس وصالح رايس ينقلون حوالي 600 من مسلمي بلنسية المضطهدين فينقلونهم من مصب نهر أوليبا ويلتحقون بالجزائر مع لاجئي الأندلس بعد معركة في مياه الجزائر الشرقية (الباليار) .

935 هـ/1528 م — أندري دوريا البحار الجنوي الشهير يلتحق بحكومة شارلكان .

936 هـ/1529 م — خير الدين بربروسة يتمكن من الاستيلاء على الحصن الإسباني قبالة الجزائر (صخر الحصن أو حصن البنون) المعروف ببرج فنار ، بعد أن جند له 1500 لكشاريا و54 سفينة وبعد أسبوع من القصف استسلمت الحامية الإسبانية بقيادة مارتان فارغاز (27 ماي) وقد هدم الحصن وربطه بمدينة الجزائر (ممر خير الدين) .

938 هـ/1531 م — حملة الأسطول الإسباني بقيادة أندري دوريا على مدينة شرشال وانهزامه بفعل مقاومة سكانها من مهاجري غرناطة .

941 هـ/1534 م — خير الدين يتمكن من طرد الإسبان من تونس ويعلن تبعيتها للسلطان العثماني (18 أوت) .

942 هـ/1535 م — صلح كامبري بين فرنسا وإسبانيا مما يؤدي إلى إحداث توازن دولي في أوربا .

942 هـ/1535 م — حملة مارتيناز دو أنجلو (A. Martinez de Angelo) الإسباني على تلمسان والكسارة وتراجعه عنها (جوان- جويلية) .

942 هـ/1535 م — حملة إسبانية لطرد الأتراك من مدينة تونس على رأسها الإمبراطور شارلكان مؤلفة من 400 سفينة تقل 30000 جندي تتمكن من الاستيلاء على حلق الواد (14 جويلية) وتدخل مدينة تونس وتستبيحها (21 جويلية) .

944 هـ/1537 م — وفاة الحسن بن محمد الوزان المعروف بالأسد الإفريقي صاحب كتاب "وصف إفريقيا" (ألفه سنة 1528 م) .

948 هـ/1541 م — حملة إسبانية ضد الجزائر يشنها الإمبراطور شارلكان قوامها 451 سفينة على متنها 12330 بحارا وجنديا شارك فيها قادة جيش إمبراطورية شارلكان : أندري دوريا ، هرنان كورتاز (Hernan Cortes) فاتح المكسيك ، الدوق ألبا (Duc d'Alba) . وأمام مقاومة السكان بقيادة وكيل خير الدين ونائبه في حكم الجزائر ، اضطرت الحملة إلى التراجع بعد أن حطمت العواصف البحرية كثيرا من سفن الأسطول .

950 هـ/1543 م — انهزام القوات الإسبانية بشعبة اللحم قرب عين تيموشنت عند محاولتها التقدم نحو تلمسان لناصرة الملك الزياني أبي عبد الله محمد بأمر من الإمبراطور شارلكان .

951 هـ/1544 م — توجه خير الدين بربروسة لسواحل الريفييرا الفرنسية (نيس وطولون) ودفاعه عن السواحل الفرنسية ضد الإسبان في إطار التعاون الفرنسي العثماني (فرانسوا الأول وسليمان القانوني) ، وذلك قبل توقيع الاتفاق في نفس السنة بين الملك فرانسوا الأول والإمبراطور شارلكان .

958 هـ/1551 م — طرد فرسان القديس يوحنا الذين سلم لهم الإسبان حكم طرابلس الغرب ، فتحولت بذلك طرابلس الغرب إلى قاعدة جهاد بحري .

958 هـ/1551 م — الإسبان يستولون على مدينة المهدية .

960 هـ/1552 م — صالح رايس حاكم الجزائر يهاجم سواحل مايورقة (الباليار) بهدف تخفيف الضغط الإسباني على الملك الفرنسي هنري الثاني الذي طلب العون من الدولة العثمانية .

961 هـ/1553 م — صالح رايس يخرج من الجزائر ويستولي على قلعة بادس (Port de Valez) على سواحل الريف بالمغرب الأقصى ويطرد الإسبان منها .

962 هـ/1554 م — انتهاء النفوذ الإسباني بتلمسان بالقضاء على دولة بني زيان وضمها إلى الحكم المركزي العثماني بمدينة الجزائر .

التاريخ	الحدث
963 هـ/1555 م	صالح رايس باي لأرباي الجزائر يحرر بجاية من الإسبان .
964 هـ/1556 م	اعتزال شرلكان الحكم وتقسيم امبراطوريه بين ابنه فيليب الثاني الذي أصبح ملكا على إسبانيا ومستعمراتها وأخيه فرديناندو الأول الذي أصبح امبراطورا على جرمانيا وتوابعها امبراطورية هابسبورغ 1556 إلى 1564 م .
964 هـ/1556 م	حسن قورصو يحاصر وهران .
964-1007 هـ /1556-1598 م	إسبانيا ومستعمراتها تعيش عصرها الذهبي : عصر فيليب الثاني (ابن شرلكان من إيزابيلا البرتغالية بنت عمانوئيل ملك البرتغال) .
965 هـ/1557 م	السفن الحربية الجزائرية بقيادة حسن بن خير الدين تواجه قطع الأسطول الإسباني بخليج أرزيو (23 أوت) وتتمكن من تدميرها في الوقت الذي تكبدت فيه القوات الإسبانية هزيمة ساحقة بمازاغران قرب مستغانم أسفرت عن قتل الحاكم الإسباني لوهران الكونت دالكودات وأسر ابنه الدوق مارتان (26 أوت) .
997-998 هـ/ 1559-1560 م	نائب ملك صقلية الدوق دو ميدينا (Duc de Medina) يشن حملة صليبية بمساعدة ومباركة البابا بيوس الرابع ومشاركة قوات من الإمارات الإيطالية ومن إسبانيا ، ويهاجم طرابلس وجربة ومدينة الجزائر .
973 هـ/1565 م	حصار العثمانيين لجزيرة مالطة .
973 هـ/1565 م	ثورة الموريسكيين (المتنصرين) بإسبانيا .
975 هـ/1567 م	حملة خوان الغاسكوني الإسباني (Jean de Gascon) على الجزائر بمساعدة وتأييد ملك إسبانيا .
976 هـ/1568 م	علج علي حاكم الجزائر ينظم حرب العصابات بجبال البشارات فيبادر بإرسال الرجال والعتاد إلى سواحل المرية ثم يرسل في العام التالي المزيد من العتاد والذخائر مع متطوعين من الإنكشارية لمساعدة مجاهدي الأندلس ، لكن جهوده لم يكتب لها النجاح .
977 هـ/1569 م	الإسبان يتمكنون من الاستيلاء مجددا على تونس بعد أن دخلها علج علي في نفس العام وأخذ بها البيعة للسلطان العثماني سليم الثاني .
979 هـ/1571 م	معركة الليبانت بسواحل اليونان (7 أكتوبر) شاركت فيها أساطيل البندقية والبابا وتوسكانيا وإسبانيا التي تولت قيادة المعركة ، وقد أسفرت عن تحطم الأسطول العثماني بقيادة علي باشا ، وتمكن علج علي حاكم الجزائر من الإفلات من الحصار والاستيلاء على 40 سفينة مسيحية منها السفينة التي تحمل علم البابا .

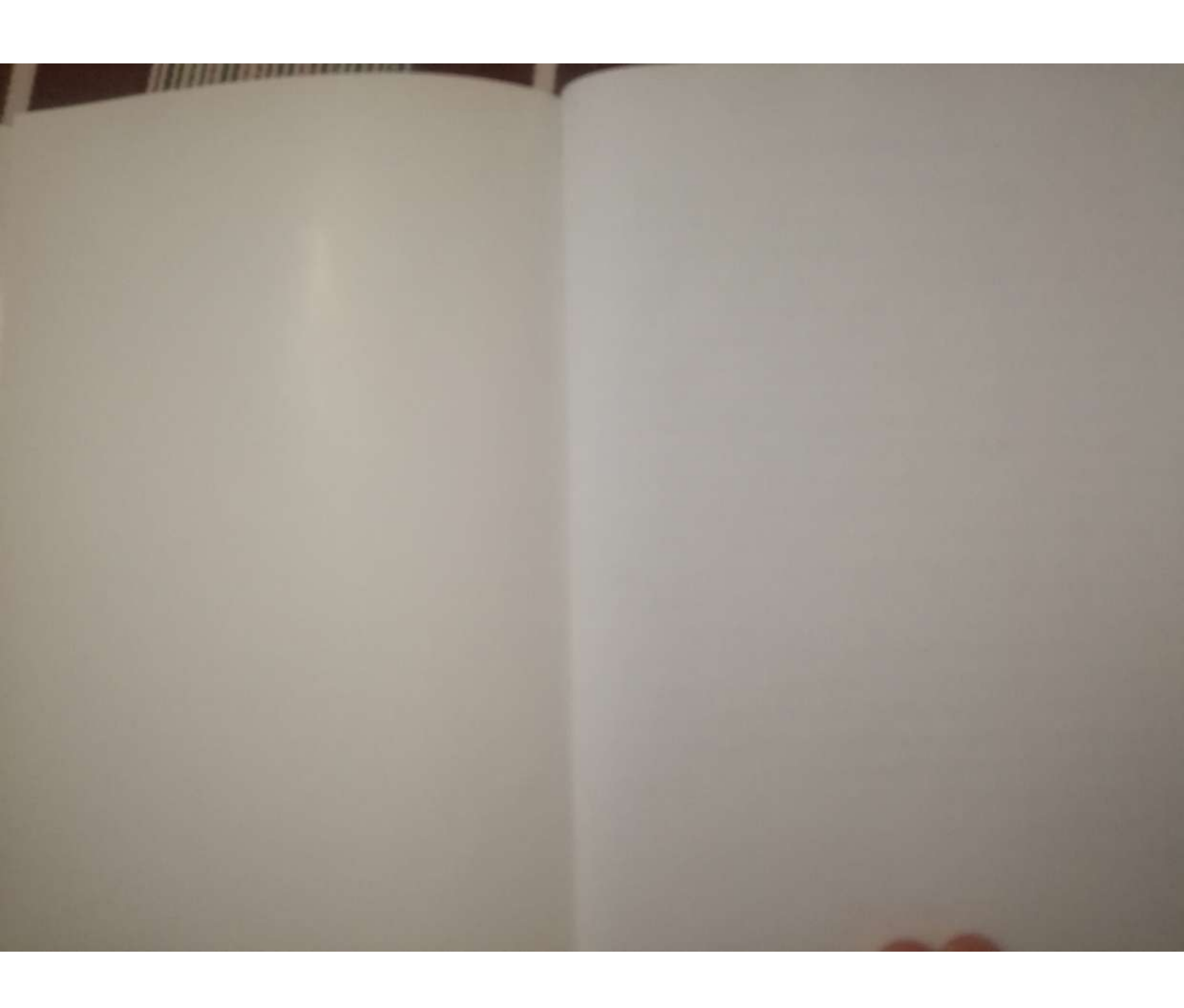
التاريخ	الحدث
976- 979 هـ/ 1568-1571 م	علج علي على رأس السفن الجزائرية يغير على سواحل إسبانيا ومالطة .
976 ـ 979 هـ/ 1568 ـ 1571 م	ثورة مسلمي الأندلس بجبال البشارات بزعامة فرج بن فرج بن أبي سراج الغرناطي .
981 هـ/1573 م	حملة الدون خوان النمساوي والملك الإسباني فيليب الثاني على تونس .
982 هـ/1574 م	مهاجمة السفن الجزائرية للسواحل الأوربية ومنها شواطئ إسبانيا في الوقت الذي نجحت فيه القوات العثمانية من طرد الإسبان من تونس وإلحاقها بالدولة العثمانية .
986 هـ/1578 م	معركة وادي المخازن بسهول المغرب والمعروفة بمعركة الملوك الثلاثة
986 هـ/1578 م	حسن فينيزيانو حاكم الجزائر يهاجم سواحل الباليار .
989 هـ/1581 م	تعرض السواحل الأوربية لهجمات البحارة الجزائريين وخاصة شواطئ برشلونة ، ولم تتوقف إلا بعد أن أبرمت المعاهدة الإسبانية العثمانية في نفس السنة .
989 هـ/1581 م	سيرفانتس يحل بوهران (جوان) مكلفا من قبل ملك إسبانيا بمهمة لدى حاكمها الإسباني المركيز دو كورتيس الدوق مارتان دو قرطبة .
992 هـ/1584 م	الإنكليز على عهد الملكة إليزابيث يتمكنون من تحطيم قوة إسبانيا البحرية (الأرمادة) على عهد فيليب الثاني .
1007 هـ/1598 م	موت الملك الإسباني فيليب الثاني (1555-1598 م) الذي طبع عصره بما أنجزه من مآثر وما قام به من أعمال ، وبلغت إسبانيا في عهده أوج ازدهارها وقوتها ، وتولى ابنه فيليب الثالث (1556-1558 م) .
1010 هـ/1601 م	الملك فيليب الثالث يقرر شن حملة صليبية ضد الجزائر بقيادة أندري دوريا (الحفيد) قائد البحرية الإسبانية ، شاركت فيها قوات من الباليار ومتطوعون من المدن والإمارات الإيطالية .
1011 هـ/1602 م	غارة مراد رايس الجزائري على لورقة وإلحاقه خسائر جسيمة بالسواحل الإسبانية .

1012 هـ/1603 م	القوة الإسبانية تهاجم ميناء أزفون (مرسى الفحم) بسواحل بلاد القبائل .
1014 هـ/1605 م	سيرفانتس (Cervantès) ، بعد أن فقد ذراعه في معركة الليبانت وبعد أن قضى خمس سنوات أسيرا في الجزائر ، يعود إلى إسبانيا ويؤلف رائعته "دون كيشوت" من وحي تجاربه في الجزائر .
1018 هـ/1609 م	صدور مراسيم الطرد في حق مسلمي الأندلس ، ويضطر 75000 موريسكي إلى مغادرة إسبانيا ، وبذلك يصل عدد الأندلسيين المطرودين من بلادهم إلى حوالي 1900000 ولا يسمح إلا ببقاء 6 ٪ للقيام بأعمال الزراعة والري لفائدة الإسبان .
1026 هـ/1617 م	الرايس مراد الجزائري يهاجم جزيرة ماديرة البرتغالية في المحيط الأطلسي ويعود بأجراس كنيستها إلى الجزائر .
1031-1075 هـ/ 1621-1665 م	فيليب الرابع (ابن فيليب الثالث) حكم إسبانيا ومستعمراتها
1040-1041 هـ/ 1630-1631 م	أبو العباس أحمد المقري التلمساني (ت . 1041 هـ/1631 م) ينتهي من تحرير معلمته الأندلسية "نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب" .
1072 هـ/1661 م	هجوم إسباني على الجزائر بقيادة مونتاغا (Montaga) .
1112-1159 هـ/ 1700-1746 م	فيليب الخامس من أسرة البوربون يتولى حكم إسبانيا ومستعمراتها في أمريكا اللاتينية .
1117 هـ/1705 م	مصطفى بوشلاغم باي الغرب يضرب الحصار على وهران والمرسى الكبير ويستولي على بعض الحصون الاسبانية .
1119 هـ/1707 م	انسحاب الإسبان تحت الضغط من وهران إلى أليكانت (7 سبتمبر) ، ثم تستسلم حامية المرسى الكبير ، ويقع قائدها بلتازار ڤيلابل (Baltasar Villable) في الأسر ويموت بعد أشهر بمدينة الجزائر .
1120 هـ/1708 م	الجزائريون يسترجعون وهران والمرسى الكبير (21 جانفي) .

1145 هـ/1732	الأسطول الإسباني بقيادة الكونت دومونتيمار (Comte de Montémar) يسترجع وهران والمرسى الكبير (1 جويلية) ويقرون بها حامية عسكرية تمكنت من صد هجمات الجزائريين .
1160-1173 هـ/ 1747-1759 م	فرديناندو السادس (من أسرة البوربون) يعتلي عرش إسبانيا ومستعمراتها .
1173-1203 هـ/ 1759-1788 م	شارل الثالث (أحد أفراد أسرة البوربون) يحكم إسبانيا ومستعمراتها .
1189 هـ/1775 م	حملة إسبانية ضد مدينة الجزائر بقيادة أوريلي (O'Reilly) تكبد بها الهزيمة بالقرب من مدينة الجزائر (سواحل الحامة والحراش) .
1198-1199 هـ/ 1783-1784 م	حملتان إسبانيتان على مدينة الجزائر بقيادة أنطونيو دو بارثيلو (A. de Barcelo) بأمر من الملك الإسباني شارل الثالث .
1201 هـ/1786 م	إبرام هدنة بين ديوان الجزائر ومملكة إسبانيا (شعبان/14 جوان) .
1203-1223 هـ/ 1788-1808 م	شارل الرابع (أحد أفراد أسرة البوربون) يحكم إسبانيا ومستعمراتها .
1206 هـ/1791 م	استرجاع الجزائريين لوهران والمرسى الكبير من الإسبان بعد فرض الحصار عليهما وتكرار الهجوم على حصونهما ، وساعد على ذلك حدوث زلزال مدمر (محرم/سبتمبر) في عهد الداي محمد عثمان باشا ، الذي بدأت المفاوضات في عهده واستمرت بعد تولي الداي بابا حسن خزناجي ، فعقدت معاهدة بين إسبانيا والجزائر أكدت رجوع وهران والمرسى الكبير وقعها داي بابا حسن في 12 سبتمبر وصادق عليها الملك الإسباني كارلوس الثالث 9 ديسمبر .
1207 هـ/1792 م	دخول الباي محمد الكبير وهران واتخاذها قاعدة لبايليك الغرب الجزائري (24 فيفري) ومغادرة آخر جندي إسباني لوهران والمرسى الكبير (29 فيفري) .
1223 هـ/1808 م	ثورة سكان مدريد ضد نابليون لإقدامه على نفي الأسرة الإسبانية المالكة وتحولها إلى حرب استقلال (1808-1811 م) بعد أن اتخذت طابع حرب العصابات ، وإلحاق الهزيمة بالفرنسيين في موقعة بيلان (Bailen) (1808 م) .

1226 هـ/1811 م	عودة فرديناندو إلى إسبانيا .
1249 هـ/1833 م	موت الملك فرديناندو السابع وتولي إيزبيلا الثالثة عرش إسبانيا .
1307 هـ/1889 م	اتفاقية باريس التي أنهت الحرب الأمريكية الإسبانية ، فحصلت كوبا على استقلالها ووضعت الولايات المتحدة سلطتها على بورتوريكو .
1350 هـ/1931 م	تنازل ألفونسو عن عرش إسبانيا وإعلان الجمهورية الإسبانية .
1353 هـ/1934 م	حدوث الفوضى والاضطرابات مما تسبب في إحراق الكنائس وانتشار أعمال التخريب في الوقت الذي تعددت فيه الاغتيالات السياسية .
1355 هـ/1936 م	القوات الإسبانية في الريف تعلن التمرد بقيادة فرانكو ودخول إسبانيا في حرب أهلية طاحنة (1936-1939 م) .
1382 هـ/1962 م	إقامة علاقات ديلوماسية بين الجزائر وإسبانيا .
1385 هـ/ 1965-1966 م	قيام المؤلف (ناصر الدين سعيدوني) برحلته الأولى إلى إسبانيا (موضوع مقال "من وحي الأندلس") .
1395 هـ/1975 م	موت فرانكو وتنصيب ملكية دستورية بإسبانيا (20 نوفمبر) .
1406 هـ/1985 م	دخول إسبانيا إلى المجموعة الاقتصادية الأوربية (12 جوان) .
1411 هـ/1990 م	ذكرى طرد المسلمين الثلاثمائة والثمانين (1610-1990 م) ، وعقد مؤتمر بهذه المناسبة (5-9 ديسمبر) بسان كارل دولارابطة (طاراغونة ، إسبانيا) ، ومشاركة المؤلف (ناصر الدين سعيدوني) في المؤتمر ببحث : "الأندلسيون (الموريسكيون) بمقاطعة الجزائر أثناء القرنين السادس عشر والسابع عشر" (منشور في هذا الكتاب) .
1413 هـ/1992 م	تظاهرات ثقافية ولقاءات وندوات تاريخية في إسبانيا والعالم العربي إحياء لأمجاد الأندلس بمناسبة سقوط آخر معاقل المسلمين بشبه الجزيرة الإيبيرية (2 ربيع الأول 897 هـ/2 جانفي 1492 م) .

الفهرس العام



هذا الكتاب هدية من وزارة المجاهدين
بمناسبة الذكرى الخمسين لعيد الاستقلال

